وزارة الثقافة
الهيئة العامة السورية للكتاب

القطار
الباب
الآخرون

أعمال مختارة
(4)

جورج سيمنون
ترجمة: د. أنطون حمصي

الهيئة العامة السورية للكتاب

القطار - الباب - الآخرون

تصميم الغلاف

فراس نعوف

أعمال مختارة

(٤)

جورج سيمنون

القطـار

البـاب

الآخـرون

ترجمة: د. أنطون حمصي

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة - دمشق ٢٠١١م

العنوان الأصلي للكتاب :

GEORGES SIMENON

Œuvres complètes

Le Train

La Porte

Les Autres

القطار ؛ الباب ؛ الآخرون/ جورج سيمنون؛ ترجمة أنطون حمصي .- دمشق: الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠١١م .- ٤٠٨ ص؛ ٢٤ سم.

(أعمال مختارة؛ ٤)

١- ٨٤٣ ف س ي م ق ٢- العنوان (١) ٣- العنوان (٢)
٤- العنوان (٣) ٥- سيمنون ٦- حمصي ٧- السلسلة

مكتبة الأسد

- ٥ -

القطار

الهيئة العامة السورية للكتاب

(١)

عندما استيقظتُ، كانت ستائر الخام تسرب إلى الغرفة ضوءاً مصفراً. أعرفه جيداً. لم تكن لنوافذنا، في الطابق الأول، مصاريع. لم تكن أية نافذة في الشارع مزودة بها. كنت أسمع، من على الطاولة، تكتكة المنبه، وإلى جانبي تنفس زوجتي المتقطع الذي يعادل، في ارتفاعه، تقريباً، صوت تنفس المرضى، في السينما، أثناء عملية. كانت، آنذاك، حاملاً في منتصف شهر حملها الثامن. كان بطنها الكبير يرغمها، كما كانت الحال قبل صوفي، على النوم على ظهرها.

ودون أن أنظر إلى المنبه، سحبت ساقاً من السرير. تحركت جان وقالت، متلعثمة، بصوت آتٍ من بعيد:

- كم الساعة؟

- الخامسة والنصف.

استيقظت مبكراً طيلة حياتي، خاصة بعد سنواتي في المصحة حيث كانوا، في الصيف، يأتوننا بميزان الحرارة منذ الساعة السادسة صباحاً.

لم تعد زوجتي تعي ما يجري حولها، وامتد أحذ ذراعيها عبر المكان الذي أتيت على مغادرته.

ارتديت ملابسي دون صوت منفذاً، بالترتيب، الحركات الطقوسية لكل صباح، ملقياً، أحياناً، نظرة على ابنتي التي كان سريرها، في تلك الحقبة، لا يزال في غرفتنا. ومع ذلك، كنا قد أعددنا لها أجمل غرفة في البيت، في واجهة البناء، مفتوحة على غرفتنا. كانت ترفض أن تنام فيها.

غادرت الغرفة حاملاً خفيَّ اللذين لم انتعلهما إلا في أسفل الدرج. عند ذلك، سمعت أولى صفارات المراكب من جهة السد الموجود على مسافة كيلومترين تقريباً. كانت الأنظمة تنص على فتح السدود أمام القوارب منذ شروق الشمس، وكانت الموسيقى نفسها تتردد كل صباح.

في المطبخ، أشعلت الغاز ووضعت عليه ماء التسخين. كان النهار يعلن عن نفسه مرة أخرى مشمساً وحاراً. لم نشهد، خلال كل تلك الفترة، سوى أيام مشمسة وكنت، أيضاً، قادراً على أن أشير، ساعة بعد ساعة، إلى مكان بقع الشمس في مختلف حجرات المنزل. فتحت باب الباحة التي كنا قد غطيناها بالزجاج لتستطيع زوجتي أن تقوم بالغسيل وأن تلعب ابنتي، فيها، في كل الأوقات. أرى، من جديد، عربة الدمية، والدمية في مكان أبعد قليلاً فوق ألواح الزجاج الأصفر.

تجنبت الدخول حالاً إلى ورشتي لأني كنت متمسكاً بإتباع القواعد، وهو الاسم الذي أطلقته، آنذاك، على برنامجي الزمني، وهو برنامج قام من تلقاء ذاته، شيئاً فشيئاً، مصنوعاً من عادات أكثر منها ضرورات.

في انتظار أن يغلي الماء، ملأت بالذرة وعاءً صغيراً من الخزف الأزرق يغطي الصدأ قعره لم يعد يصلح لاستخدام آخر، وعبرت الحديقة لأقدم الطعام للدجاجات. كان لدينا عشر دجاجات بيض وديك.

كان الندى يتلألأ على الخضار، على ليلكتنا الوحيدة التي كانت زهورها البنفسجية، المبكرة هذه السنة، قد بدأت في الذبول، وكنت لا أزال أسمع لهاث محركات الديزل وليس، فقط، نداءات المراكب على نهر الموز.

أصر على أن أصرح، حالاً، بأني لم أكن رجلاً شقياً ولا رجلاً حزيناً. كنت، وأنا في الثانية والثلاثين من العمر، متقدماً، في كل المخططات التي استطعت صنعها، على كل آمالي.

كانت لي زوجة وبيت وابنة في الرابعة، من عمرها مغالية، قليلاً، في عصبيتها، لكن الدكتور ولهمز يؤكد أنها ستتجاوز ذلك.

كنت أعمل لحسابي الخاص، وكان زبائني يزيدون يوماً بعد يوم، خاصة في الأشهر الأخيرة بالطبع. كان كل واحد يريد، بسبب الأحداث الأخيرة، أن يمتلك مذياعاً. لم أكن أتوقف عن بيع أجهزة جديدة وتجديد أجهزة قديمة، فبما أننا كنا نسكن على مسافة خطوتين من الرصيف الذي تتوقف، عنده، المراكب ليلاً، فقد كان لي زبائن من البحارة.

أتذكر أني سمعت الباب يفتح لدى جيراننا على اليسار، أسرة ماتراي المؤلفة من عجوزين هادئين جداً. السيد ماتراي الذي عمل، خلال خمسة وثلاثين أو أربعين عاماً أميناً للصندوق في مصرف فرنسا، كان ممن يستيقظون مبكرين، بدوره، ويبدأ يومه بالخروج ليتنشق الهواء في حديقته.

كل حدائق الشارع متشابهة، كل واحدة منها من عرض البيت، تفصل بينها جدران صغيرة مرتفعة إلى حد كافٍ كي لا يرى سوى رؤوس الجيران.

منذ بعض الوقت، اعتاد السيد ماتراي العجوز على ترقبي بسبب أجهزتي التي تستطيع التقاط الموجات القصيرة:

«أما من أخبار هذا الصباح، يا سيد فيرون؟».

في هذا اليوم، دخلت قبل أن يطرح عليَّ هذا السؤال وصببت الماء المغلي على القهوة. كانت الأشياء المألوفة في أماكنها التي حددناها لها جان وأنا، أو التي انتهت مع الوقت إلى اتخاذها، كما لو كان ذلك من تلقاء ذاتها.

لو لم تكن زوجتي حاملاً لبدأت بسماع وقع خطاها في الطابق الأول لأنها في الأحوال الطبيعية، تنهض بعدي مباشرة. مع ذلك، كنت أتمسك، بحكم العادة، بإعداد أول كوب قهوة لي قبل أن أمضي إلى ورشتي. وهكذا كنا نتبع عدداً من الطقوس وأفترض أن الأمر هو نفسه في كل الأسر.

أول حمل كان شاقاً، والولادة كانت صعبة. كانت جان تعزو عصبية صوفي إلى الملاقط التي استعملت والتي لا بد من كونها قد آذت رأس المولودة. ومنذ أن حملت من جديد. كانت تخشى خلاصاً دراماتيكياً، وكان هوسها هو أن تضع طفلاً غير سوي.

لم يكن الدكتور ولهمز الذي كانت تثق به ثقة كاملة يتوصل إلى طمأنتها إلا لبضع ساعات، وفي المساء، لا تجد النوم. وبعد أن نستلقي في السرير بزمن طويل، كنت أسمعها تبحث عن وضع مريح، وكانت تنتهي، دائماً تقريباً، إلى سؤالي هامسة:

- هل أنت نائم يا مارسيل؟

- كلا.

- أتساءل عما إذا كان جسمي يفتقر إلى الحديد. لقد قرأت في مقالة........

كانت تحاول أن تغفو، لكن الساعة غالباً ما كانت تبلغ الثانية قبل أن تتوصل إلى هذا، ولم يكن نادراً، بعد ذلك، أن تنتصب فجأة، مطلقة صرخة.

- رأيت، أيضاً، كابوساً. يا مارسيل.

- ارويه لي.

- كلا، أفضل أن لا أعود أفكر فيه. إنه مخيف جداً. أسألك العفو لمنعي إياك من النوم، أنت الذي تعمل كثيراً..........

في الأوقات الأخيرة، كانت تنهض حوالي الساعة السابعة وتنزل، إذ ذاك، لإعداد الفطور.

دخلت، وكوب القهوة في يدي إلى ورشتي وفتحت الباب المزجج الذي يطل على الباحة والحديقة. كان لي الحق، آنذاك، في أول شعاع شمس في اليوم، على مسافة قصيرة إلى يسار الباب، وكنت أعرف، بالضبط، متى يبلغ منصة عملي.

لم تكن منصة حقيقية، بل طاولة كبيرة، ثقيلة جداً واردة من دير واشتريتها في مزاد عام. كان عليها، دائماً، جهازان أو ثلاثة قيد التصليح. وكانت أدواتي المصفوفة في مسند على الجدار في متناول يدي. حوالي كل الغرفة، تملأ أجهزة أدراج الخشب الأبيض التي أنشأتها، ويحمل كل منها اسم الزبون مكتوباً على بطاقة.

انتهيت طبعاً إلى إدارة الأزرار. كان ما يشبه لعبة من جانبي أن أؤخِّر هذه اللحظة. كنت أقول لنفسي ضد كل منطق: «إذا انتظرت قليلاً، فربما وقع الحدث اليوم».

في ذلك اليوم، فهمت، حالاً أن شيئاً ما يحدث أخيراً. لم يكن الأثير قط، في هذا الازدحام. فمهما كانت الموجات التي رحتُ اختارها، كانت تتزاحم النشرات، الأصوات، الصفرات، الجمل، بالألمانية، بالهولندية، بالانكليزية، بالفرنسية، وكان المرء يشعر، في الفضاء، بما يشبه اهتزازاً دراماتيكياً.

- في هذه الليلة، شنت قوات الرايخ هجوماً كثيفاً على ....

لم يكن الأمر يدور، بعد، حول فرنسا - لم يكونوا يتحدثون عنها على كل حال - بل حول هولندا التي جرى اجتياحها للتو. ما كنت استمع إليه كان محطة بلجيكية. كنت أبحث عن باريس، لكن باريس ظلت صامتة.

كانت بقعة الشمس ترتعش على الأرضية الرمادية، وفي آخر الحديقة، كانت دجاجاتنا البيضاء الست تضج حول الديك الذي كانت صوفي تسميه نستور. لماذا تساءلت، فجأة، عما ستؤول إليه حظيرتنا الصغيرة؟ شعرت، تقريباً، بالحزن لمصيرها.

أدرت أزراراً أخرى باحثاً في موجات قصيرة كان يمكن أن يقال أن الجميع كانوا يتكلمون، فيها، في وقت واحد. وهكذا التقطت، لبرهة قصيرة، موسيقى عسكرية فقدتها حالاً بحيث لم أعرف، أبداً، إلى أي جيش تنتمي.

كان انكليزي يقرأ، مكرراً كل جملة، رسالة لم أفهمها، كما لو أنه يُمليها على مراسل، ووقعت، بعد ذلك، على محطة لم أسمعها أبداً من قبل، محطة عسكرية.

كان يجب أن تكون قريبة جداً وأن تكون لواحد من هذه الألوية التي كانت تعسكر، منذ بداية هذه الحرب الغريبة، في المنطقة.

كان صوتا المتحاورين واضحاً كما لو كانا يتحدثان على الهاتف، وافترضت أنهما كانا موجودين في منطقة جيفيه. لم يكن لهذا، فضلاً عن ذلك، أية أهمية.

- أين عقيدك؟

كانت لهذا المتحدث لهجة جنوبية قوية.

- كل ما أعرفه هو أنه ليس هنا.

- كان يجب أن يكون موجوداً.

- ماذا تريدني أن أفعل؟

- يجب أن تجده. إنه نائم في مكان ما، أليس كذلك؟

- ليس في سريره على كل حال.

- في أي سرير إذن؟

ضحكة قوية.

- هنا، أحياناً، وهناك أحياناً أخرى.

منعتني خشخشة من سماع البقية، ولمحت شعر السيد ماتراي الأبيض ووجهه الوردي من فوق الجدار، في المكان الذي وضع، فيه، صندوقاً قديماً بمثابة درجة.

- هل من جديد يا سيد فيرون؟

- الألمان غزوا هولندا.

- هل هذا رسمي؟

- البلجيكيون أعلنوه.

- وباريس؟

- باريس لا تزال تذيع موسيقى.

سمعته يسرع إلى البيت صارخاً:

- جيرمين! جيرمين! وقع الحدث! لقد هاجموا!

أنا، أيضاً، كنت أحس بأن الحدث قد وقع، إلا أنه لم يكن للكلمات عندي المعنى نفسه الذي كان لها لدى السيد ماتراي. أخجل قليلاً من أن أقول أني قد ارتحت. بل إني أتساءل عما إذا لم أكن انتظر، بفارغ الصبر، هذه الدقيقة منذ

تشرين الأول، بل منذ ميونيخ، وعما إذا لم أكن أشعر بالخيبة، كل صباح، وأنا أدير أزرار الراديو، لسماعي أن الجيوش لا تزال تتواجه دون قتال.

كنا في العاشر من أيار. أنا متأكد، تقريباً، من أنه كان يوم جمعة. قبل شهر، في بداية نيسان، في الثامن أو التاسع منه، ساورني أمل عندما غزا الألمان الدانمارك والنروج.

لا أدري كيف أفسر نفسي وأتساءل عما إذا سيوجد، ذات يوم، من يفهم. سوف أواجه بأني لم أكن أجازف بشيء لأني كنت معفى من الخدمة العسكرية، نهائياً بسبب انحسار بصري. كانت لدي ست عشرة وحدة من الانكسار العيني، وهو ما يعني أني، دون نظارتي، ضائع ضياع رجل في الليل، في ضباب كثيف على كل حال.

كان موضوع رعبي، دائماً، أن أوجد دون نظارتي، أن أقع في الطريق، مثلاً، وأن أحطمهما، وكان لدي، دائماً، زوج احتياطي من النظارات في جيبي. لا أتحدث عن صحتي، عن السنوات الأربع التي أمضيتها في المصحة بين الرابعة عشرة والثامنة عشرة من عمري، عن الفحوص التي خضعت لها حتى هذه السنوات الأخيرة. لا علاقة لكل هذا بفراغ الصبر الذي أحاول أن أعرّفه.

منذ البداية، كانت حظوظي ضئيلة عند الانطلاق، في أن أعيش حياة طبيعية، واقل من ذلك في أن أخلق لنفسي وضعاً لائقاً أو في أن أؤسس أسرة.

إلا أني، وليفهم ذلك جيداً، أصبحت رجلاً سعيداً. كنت أحب زوجتي وأحب ابنتي. كنت أحب بيتي، عاداتي وحتى زقاقي الهادئ، المشمس الذي يؤدي إلى الموز.

لكن هذا لا يمنع كوني قد شعرت بارتياح يوم إعلان الحرب. فاجأت نفسي أقول بصوت مرتفع:

- كان يجب أن يحدث ذلك.

نظرت إلي زوجتي بدهشة:

- لماذا؟

- لا لشيء. كنت واثقاً من ذلك.

لم يكن في ذهني أن فرنسا وألمانيا، بولونيا وانكلترا، النازية أو الشيوعية هي التي كانت موضع الرهان. لم أهتم، قط، بالسياسة ولا أفهم منها شيئاً. وبالكاد كنت أستطيع ذكر أسماء ثلاثة وزراء فرنسيين أو أربعة لكوني سمعتها في الراديو.

كلا! هذه الحرب التي اندلعت فجأة، بعد سنة من التهدئة الزائفة شأن شخصي بين القدر وبيني.

سبق أن عشت حرباً في هذه المدينة نفسها، في فوماي، عندما كنت طفلاً، لأني كنت في الرابعة من عمري عام ١٩١٤. رأيت أبي، في زي رسمي، يرحل ذات صباح كان المطر ينهمر، فيه، غزيراً، واحمرت عينا أمي طوال اليوم. سمعت المدفع خلال ما يقرب من أربع سنوات، خاصة عندما كنا نذهب إلى المرتفعات. أتذكر الألمان وخوذاتهم، معاطف الضباط، الإعلانات على الجدران، التقنين، الخبز الرديء، نقص السكر والزبدة والبطاطا.

رأيت، في ذات مساء من تشرين الثاني، أمي تعود إلى البيت عارية تماماً، حليقة الرأس تزعق بشتائم وكلمات قذرة موجهة إلى فتيان كانوا يشكلون موكباً وراءها.

كنت في العاشرة من عمري. كنا نسكن في وسط المدينة، في الطابق الأول. كنا نسمع، في كل مكان، صيحات، موسيقى، مفرقعات. ارتدت ملابسها دون أن تنظر إلي، بهيئة امرأة مجنونة، وهي لا تزال تردد كلمات لم أسمعها تنطق بها قط. وفجأة بدا عليها، بعد أن اكتمل استعدادها وأحاطت رأسها بوشاح، أنها تذكرت وجودي.

- ستعنى بك السيدة جاميه حتى عودة أبيك.

كانت السيدة جاميه مالكة بيتنا، وكانت تسكن الدور الأرضي. كنت أكثر ذعراً من أن أبكي. لم تقبلني. عند الباب، ترددت، ثم مضت دون أن تضيف شيئاً، واصطفق الباب الخارجي.

لست أحاول التفسير. أريد أن أقول أنه ليس لهذا أدنى علاقة بمشاعري المرتبطة بعام ١٩٣٩ أو ١٩٤٠: أنا أروي الوقائع كما ترد، بصدق.

أصبت بالسل بعد أربع سنوات، وأصبت بمرضين أو ثلاثة أخرى، الواحد منها بعد الآخر.

على وجه الإجمال، كان انطباعي، عندما اندلعت الحرب، هو أن القدر يلعب معي لعبة جديدة، ولم أفاجأ لأني كنت شبه واثق من أن ذلك سيحدث يوماً.

لم يعد الأمر، هذه المرة، جرثومة، فيروساً، تشوهاً ولادياً في ما لا أدري من أقسام العين - لم يتفق الأطباء، أبداً، بصدد عيني - كانت حرباً تقذف بالرجال، بعشرات الملايين، بعضهم ضد الآخر.

الفكرة كانت مضحكة، أنا أعي ذلك. لكني كنت أعلم أني مستعد، وأني لم أعد، منذ تشرين الأول، أتحمل الانتظار. لم أعد أفهم. كنت أتساءل لماذا لا يحدث ما يجب أن يحدث.

هل سيعلنون لنا، كما جرى في ميونيخ، ذات صباح، أن الأمور قد تدبرت، أن الحياة تستأنف مجراها الطبيعي وأن هذا الهلع الكبير لم يكن سوى غلطة؟

ألم يكن من شأن مثل هذا المجرى للأحداث أن يعني أن شيئاً ما لايجري كما يجب في مصيري؟

أصبحت الشمس فاترة، تغزو الباحة وتتوضع على الدمية. فتحت نافذة غرفتنا ونادت زوجتي:

- مارسيل!

نهضت، خرجت من ورشتي، ملت برأسي إلى الخلف. كان على وجه زوجتي، كما في حملها الأول، قناع. كان وجهها ذو البشرة المشدودة يبدو لي مؤثراً، لكنه غريب تقريباً.

- ماذا يجري؟

- هل سمعت؟

- نعم. أهذا صحيح؟ هل يهاجمون؟

- اجتاحوا هولندا.

وسألت ابنتي من ورائها:

- ماذا هناك يا ماما؟

- نامي. لم يحن الوقت بعد.

- ماذا قال بابا؟

- لا شيء. نامي.

نزلت حالاً، تقريباً، ورائحة السرير تصدر عنها، تسير متباعدة الساقين، قليلاً، بسبب بطنها.

- أتظن أنه سيدعونهم يمرون؟

- لا أدري.

- ماذا تقول الحكومة؟

- لا تقول شيئاً بعد.

- ماذا تنوي أن تفعل يا مارسيل؟

- لم أفكر في ذلك. سأحاول الحصول على أخبار أخرى.

كانت الأحبار لا تزال ترد من بلجيكا عبر صوت متقطع، دراماتيكي. كان هذا الصوت يعلن أن طائرات من طراز شميدت وشتوكا حلقت، في الواحدة صباحاً، فوق بلجيكا وألقت قنابل على نقاط عديدة.

دخلت دبابات بانزر إلى الأردين، ووجهت الحكومة البلجيكية نداءً رسمياً إلى فرنسا لمساعدتها في الدفاع عنها.

الهولنديون فتحوا، من جهتهم، السدود وأغرقوا قسماً كبيراً من الأراضي وكانوا يتحدثون عن إيقاف المعتدي أمام قناة ألبير في أسوأ الأحوال.

كانت زوجتي، في هذه الأثناء، تعد طعام الإفطار، تجهز المائدة، وكنت أسمع صوت احتكاك الآنية.

- هل لديك جديد؟

- دبابات تعبر الحدود البلجيكية في كل مكان تقريباً.

- ماذا إذن؟

ذكرياتي عن بعض برهات اليوم دقيقة إلى حد أستطيع، معه، أن أحرر عنها تقريراً محدد الدقائق، في حين أتذكر خاصة، بالنسبة لبرهات أخرى، الشمس، روائح الربيع، زرقة السماء المشابهة لشمس مناولتي الأولى.

استيقظ كل الزقاق. بدأت الحياة في البيوت المماثلة، تقريباً، لبيتنا. فتحت زوجتي الباب الخارجي لتأخذ الحليب والخبز، وسمعتها تتحدث إلى جارة على يميننا، السيدة بيدبوف، زوجة المعلم. كانت لهما ابنة صغيرة نموذجية مجعدة الشعر، متوردة الوجه، بعينين زرقاوين ورموش دمية طويلة، ترتدي، دائماً، ملابس كأنها تستعد، بها، لاحتفال. وكانا يمتلكان، منذ سنة، سيارة صغيرة كانوا يتنزهون، فيها، أيام الآحاد.

أجهل ما قالته كل من المرأتين للأخرى. فهمت من الأصوات التي كانت تصلني أنهما لم تكونا وحدهما في الخارج، أن الناس كانوا يتنادون من عتبة إلى الأخرى. عندما عادت جان، كانت شاحبة وبدت، أيضاً، أكثر هزالاً من المعتاد. قالت:

- إنهم راحلون.

- إلى أين؟

- نحو الجنوب، إلى أي مكان. رأيت في آخر الشارع سيارات تمر وعلى سطوحها فرش، تحمل بلجيكيين خاصة.

سبق لنا أن شاهدناهم يمرون قبل ميونيخ، وفي تشرين الأول، عبر عدد من البلجيكيين، من جديد، إلى جنوب فرنسا، وكانوا من الأغنياء الذين يستطيعون الانتظار.

- هل تنوي البقاء هنا؟

- لا أدري.

كنت صادقاً. أنا الذي شهدت الحدث يأتي من بعيد، الذي طالما انتظرته، لم أتخذ أي قرار مسبق. كان الأمر يبدو كما لو أني كنت أنتظر إشارة، كما لو كنت أريد أن تقرر المصادفة عني.

لم أعد مسؤولاً. ربما كانت هذه هي الكلمة التي كنت أحاول تفسيرها منذ قليل. في الأمس فقط، كان عليّ، أنا، أن أدير حياتي وحياة أفراد أسرتي، أن اكسب المال، أن أتصرف بحيث يجري كل شيء كما يجب أن تجري الأمور.

ليس بعد الآن. أتيت على فقدان جذوري. لم أعد مارسيل فيرون بائع أجهزة الراديو في حي جديد، تقريباً، في فوماي، غير بعيد عن الموز، بل رجلاً بين ملايين سوف تتقاذفها قوى عليا على هواها. لم أعد متعلقاً ببيتي، بعاداتي. أتيت على الإقدام، بين لحظة وأخرى، على ما يشبه قفزة في الفراغ.

منذ ذلك الحين، لم تعد القرارات تتوقف عليّ. بدأت أشعر بخفقان عام بدلاً من نبضي الخاص. لم أعد أعيش على إيقاعي، بل على إيقاع الراديو والشارع والمدينة التي استفاقت بأسرع من المعتاد.

أكلنا بصمت في المطبخ، كالعادة، مصيخين السمع دائماً، دون أن نظهر ذلك بسبب صوفي، إلى أصوات الخارج. كان يمكن أن يقال أن ابنتنا نفسها كانت تتردد في طرح أسئلة، وكانت تراقبنا، الواحد بعد الآخر، بصمت.

- اشربي حليبك.
- هل سيكون حليب هناك؟
- أين هناك؟
- حسناً! حيث سنذهب.

كانت دموع تسيل على خد زوجتي التي كانت تدير وجهها، وكنت، أنا، انظر، دون انفعال، إلى الجدران المألوفة، إلى قطع الأثاث التي اخترناها، واحدة واحدة، قبل زواجنا بخمس سنوات.

- اذهبي الآن، العبي يا صوفي.

قالت زوجتي عندما أصبحت وحدها معي.

- ربما يجدر بي أن أذهب لرؤية أبي.

- لماذا؟

- لأعرف ماذا يفعلون.

كان ما يزال لها أب وأم وثلاث شقيقات كلهن متزوجات، اثنتان منهن في فوماي، إحداهما متزوجة من خباز في شارع القصر.

بسبب أبيها أنشأت عملي الخاص لأنه كان طموحاً فيما يتصل ببناته، ولم يكن ليرضى بتزويج إحداهن لعامل.

كان هو، أيضاً، الذي جعلني أشتري البيت مقسطاً على عشرين سنة. بقيت عليّ أقساط خمس عشرة سنة، لكني كنت، في نظره، ملاكاً، وكان هذا يطمئنه على المستقبل.

- لا أحد يعلم ما قد يحصل لك يا مارسيل.

لقد شفيت، لكننا رأينا آخرين ينتكسون.

كان قد بدأ حياته عامل منجم في مقالع الأردواز، لدى دلموت، وأصبح رئيس ورشة. وكان يملك بيته وحديقته أيضاً.

- يمكن شراء منزل بصورة لا يعود، فيها، على الزوجة أن تدفع شيئاً إذا توفي الزوج.

ألم يكن غريباً أن يفكر في ذلك هذا الصباح، حين لم يعد أحد في العالم واثقاً، بعد الآن، من غده؟

ارتدت جان ثيابها واعتمرت قبعتها.

- هل تراقب الصغيرة؟

ذهبت إلى والدها. كانت السيارات متزايدة العدد متجهة كلها إلى الجنوب، وخيل إليَّ، مرتين أو ثلاثاً، أني أسمع طائرات. لم تكن تلقي قنابل. ربما كانت فرنسية أو انكليزية، لم يكن لأحد أن يعلم لأنها كانت تطير مرتفعة جداً، وكانت الشمس تبهر الأبصار.

فتحت المخزن حين كانت صوفي تلعب في الباحة. لم يكن مخزناً حقيقياً لأن المنزل لم يكن مبنياً كمحل تجاري. كان على الزبائن أن يمروا بالرواق، وكانت نافذة عادية تستخدم كواجهة والأمر هو نفسه في محل الألبان الأبعد قليلاً. كان ذلك شائعاً في الضواحي، وعلى كل حال في الشمال. وهذا ما يرغمنا على ترك باب الدخول مفتوحاً، وقد وضعت جرساً على باب المخزن.

جاء بحاران لأخذ جهازيهما. لم يكونا قد أصلحا بعد، لكنهما أصرا، مع ذلك، على أخذهما. كان أحدهما نازلاً نحو ريتيل، في حين كان الآخر، الفلمنكي، يريد العودة إلى بلده مهما كلف الأمر.

حلقت ذقني، عكفت على نظافتي مراقباً ابنتي من النافذة التي كنت أرى عبرها كل حدائق الزقاق المليئة بخضرة ما زالت نضرة وأزهار. كان هناك أناس يتبادلون الحديث من فوق الجدران وسمعت محادثة لدى الزوجين ماتراي المقيمين في طابق مثل طابقي لأن النوافذ كانت مفتوحة.

- كيف تريد أن تأخذ كل هذا؟

- سنحتاج إليه.

- ربما كنا سنحتاج إليه، لكني لا أرى كيف نحمل هذه الحقائب حتى المحطة.

- سنأخذ سيارة أجرة.

- إذا وجدنا سيارة! أتساءل عما إذا كنا سنجد، بعد، قطارات.

خفت فجأة. تخيلت الحشد المتوارد نحو المحطة الصغيرة من كل الطرقات كما كانت السيارات تمضي حالياً نحو الجنوب. بدا لي أنه يجب أن نرحل، أن المسألة لم تعد مسألة ساعات، بل مسألة دقائق ولمت نفسي على ترك زوجتي تذهب إلى أبيها.

أية نصيحة كان يستطيع أن يعطيها؟ ماذا كان يعرف زيادة عما أعرفه؟ في الحقيقة، لم تكف عن الانتماء إلى أسرتها. تزوجتني، عاشت معي، أعطتني ابنة، وسوف تعطيني طفلاً آخر. كانت تحمل اسمي لكن ذلك لم يمنع

من أنها بقيت من أسرة فان ستاتن، وكانت من أجل نعم أو لا، تهرع إلى أبويها، أو إلى إحدى شقيقاتها.

«يجب أن أطلب النصح من بيرت......» كانت تلك زوجة الخباز، أصغر الشقيقات، تلك التي حصلت على أفضل زواج، ولا شك في أن هذا ما كان يجعل جان تعدها عرافة.

إذا كان يجب أن نرحل، فقد حان الوقت. كنت واثقاً من ذلك ثقتي، فجأة، دون أن أسأل لماذا، من أننا يجب أن نغادر فوماي. لم تكن لدي سيارة، وكنت استخدم، من أجل التوريدات، عجلة بذراع.

ودون أن انتظر زوجتي، ذهبت إلى المستودع لآخذ منه الحقائب وصندوقاً أسود كنا نحتفظ، فيه، بملابسنا القديمة.

- هل نأخذ القطار يا بابا؟

جاءت ابنتي دون صوت ونظرت إليَّ وأنا أعمل.

- أظن ذلك.

- لست متأكداً؟

أصبحت عصبياً، نقمت على جان لتغيبها، وكنت أخشى، في كل لحظة، أن يقع حدث ما، أي حدث، ربما لم يكن، بعد، وصول الدبابات الألمانية إلى المدينة، بل يمكن أن يكون، مثلاً، غارة جوية تقطع الناس عن بعضهم. بين وقت وآخر كنت أذهب إلى غرفة صوفي التي لم تستخدم، إن صح هذا القول، فقط لأنظر إلى الشارع.

أمام ثلاثة منازل، أحدها المنزل المجاور لنا، كانت سيارات تشحن. كانت ابنة المعلم المجعدة الشعر، النضرة في ثوبها الأبيض، كما لو كان ذلك للذهاب إلى القداس، تمسك بقفص كناري في انتظار أن ينتهي أبواها من حزم فراش على سقف السيارة.

ذكرني هذا بدجاجاتنا وبنستور، الديك الذي تعلقت به صوفي كثيراً. كنا نقول، فضلاً عن ذلك، «ديك صوفي». وكنت أنا الذي أقمت، قبل ثلاث سنوات،

سياجاً في آخر الحديقة وبنيت حظيرة على شكل بيت صغير. كانت جان تريد بيضاً طازجاً للصغيرة، وذلك، بالتأكيد، بسبب أبيها الذي ربى، دائماً، دجاجات وأرانب وحماماً. كان لديه، أيضاً، حمام زاجل، وكان، في آحاد المسابقات، يمضي ساعات دون حراك في حديقته ينتظر عودة طيوره إلى عشها.

كان الديك، لدينا، يطير، مرتين أو ثلاثاً، في الأسبوع من فوق الجدران، وكان على الذهاب للعودة به من بيت إلى بيت. كان أناس يشكون من الأضرار التي كان يوقعها في حدائقهم، وكان آخرون يستيقظون على صياحه.

- هل أستطيع أن آخذ دميتي؟

- نعم...

- والعربة؟

- ليس العربة! لن يكون هناك مكان كافٍ في القطار.

- وأين ستنام دميتي؟

كدت أرد عليها، مغتاظاً، بأن الدمية قد أمضت الليل، في الليلة السابقة، على بلاط الباحة. عادت زوجتي أخيراً.....

- ماذا تفعل؟

- بدأت في حزم الحقائب.

- هل قررت الرحيل؟

- أعتقد أن هذا أدعى إلى الطمأنينة. ماذا يفعل أبواك؟

- إنهما باقيان. لقد أقسم أبي على عدم ترك بيته مهما حصل. مررت، أيضاً، لدى بيرت. سيكونون على الطريق خلال بضع ثوان. يجب أن يستعجلوا لأنه لا بد أن هناك اختناقات في كل مكان، خاصة في منطقة ميزيير. في بلجيكا، تحلق طائرات شتوكا على ارتفاعات منخفضة لترش القطارات والسيارات.

لم تحتج على قراري، ولم تبدو، بسبب أبيها مستعجلة على الرحيل. ربما كانت، هي أيضاً، تفضل التشبث ببيتها.

- يقال أن هناك فلاحين يرحلون في عربات حاملين كل ما يستطيعون حمله، دافعين ببهائمهم أمامهم. رأيت المحطة من بعيد. الساحة سوداء من كثرة الناس.

- ماذا تأخذين معك؟

- لا أدري. حوائج صوفي على كل حال. ويجب أن يكون معنا ما يؤكل، خاصة من أجلها. لو كنت تستطيع الحصول على حليب مكثف.

ذهبت إلى البقالية في الشارع المجاور، وعلى عكس كل توقع، لم يكن هناك أحد في الدكان. الحق هو أن معظم السكان قد تمونوا منذ تشرين الأول. البقال، بمريوله الأبيض كان، هادئاً هدوءه في الأيام الأخرى، خجلت قليلاً من لهفتي.

- أما زال لديك حليب مكثف؟

أشار إلى رف مليء

- كم تريد؟

- اثنتا عشرة علبة.

كنت أتوقع أن يرفض بيعي هذه الكمية. اشتريت، أيضاً، عدة ألواح من الشوكولاته وجانبون وسجقاً كاملاً. لم تعد هناك معايير، نقاط استناد. لم يكن أحد قادراً على أن يقول ما الذي سيصبح ثميناً وما لن يصبح كذلك.

في الساعة الحادية عشرة، لم نكن، بعد، جاهزين، وأخرتنا جان، أيضاً، بتقيؤاتها. ترددت. كنت أشفق عليها. تساءلت عما إذا كان يحق لي، وهي في هذه الحالة، أن أقودها نحو المجهول. لم تكن تحتج، كانت تروح وتجيء وبطنها الكبير يصطدم بقطع الأثاث وأطر الأبواب. هتفت فجأة:

- الدجاجات!

ربما كانت تأمل، بشكل مبهم، في أننا سنبقى بسبب الدجاجات، لكني كنت قد فكرت في الأمر قبلها.

- سيأخذها السيد ريزرفيه مع دجاجاته.

- ألن يرحلوا؟

- سأسرع لطرح السؤال عليه.

كان بيتهم على الرصيف. كان لأسرة ريزرفيه ولدان في الحرب وابنة راهبة في دير جيفيه. قال لي الرجل العجوز:

- نحن تحت رحمة العناية الإلهية. إذا كان عليها أن تحمينا فسوف تفعل هنا كما في أي مكان آخر.

كانت زوجته تسبح، في الظل، بسبحتها... أعلنت لهما عن انتوائي إعطائهما دجاجاتي وديكي.

- كيف سآتي بها؟

- سأترك لك المفتاح.

- هذه مسؤولية كبيرة.

كدت آتيهما بالبهائم حالاً، لكني فكرت في القطارات، في الحشد الذي يحاصر المحطة، بالطائرات في السماء. هل كان هذا وقت الركض وراء الطيور؟ كان علي أن ألح.

- من المحتمل على كل حال، أن لا نجد شيئاً مما نتركه.

لم أكن آسفاً على ذلك. كان ذلك، يمنحني، على العكس من هذا، نوعاً من الفرح القاتم، فرح تدمير المرء شيئاً بناه، بصبر، بيديه.

المهم كان الرحيل، مغادرة فوماي. لا يهم ما إذا كانت أخطار أخرى تنتظرنا في مكان آخر. كان ذلك بالتأكيد، هرباً، لكنه لم يكن، فيما يتعلق بي، هرباً أمام الألمان، أمام الرصاص أو القنابل، أمام الموت.

أقسم، بعد أن فكرت في ذلك ملياً، على أن هذا ما كنت أشعر به. كان لدي الانطباع بأنه لم يكن لهذا الرحيل، بالنسبة للآخرين، كثير من الأهمية. أما بالنسبة لي، وقد سبق أن قلت ذلك، فقد كانت ساعة اللقاء مع القدر، ساعة موعد كان لي منذ زمن طويل مع القدر.

بكت جان ونحن نغادر المنزل. لم تبدر عني، وأنا بين ذراعي العربة، حتى التفاتة. وكما كنت قد أعلنت، في نهاية المطاف، للسيد ريزرفيه لأقنعه

بتولي شأن دجاجاتي، تركت البيت مفتوحاً ليستطيع زبائني استرجاع أجهزتهم إذا أرادوا ذلك. كان هذا مجرد أمانة من جانبي. فإذا كانت ستقع سرقة، أفلا يمكن أن يخلع الباب؟

كل ذلك تم تجاوزه. كنت أدفع عربتي، وكان جان تمشي على الرصيف مع صوفي التي تضم دميتها على صدرها.

وجدت مشقة في التسلل عبر الازدحام، وفي برهة ما، خيل إلي أني أضعت زوجتي وابنتي اللتين أجدهما بعد قليل.

مرت سيارة إسعاف عسكرية بسرعة كبيرة، بصوت زمور عالٍ جداً، وبعد قليل. لمحت سيارة بلجيكية كانت تحمل آثار رصاصات. كان آخرون يمشون، مثلنا، نحو المحطة محملين بحقائب ورزم. استأذنتني عجوز في وضع رزمتها على عربتي التي أخذت في دفعها معي.

- هل تظن أنه سيكون هناك قطار لنا بعد؟ أحدهم قال لي إن الخط مقطوع.

- أين؟

- حوالي دينان. صهري الذي يعمل في الخط رأى قطار جرحى يمر.

كان هناك شيء من الضياع في معظم النظرات، لكن ذلك كان يأتي، خاصة، من فراغ الصبر. كانوا يريدون الرحيل. كان الأمر يدور حول الوصول في الوقت المناسب. كان كل واحد مقتنعاً بأن قسماً من هذا الحشد سيبقى في المؤخرة ويضحى به.

هل كان الذين لا يرحلون معرضين لخطر أكبر؟ وراء زجاج النوافذ، كانت وجوه تراقب الهاربين. وكان يبدو لي وأنا أنظر إليها، أنها مطبوعة بهدوء جليدي.

كنت أعرف أبنية السرعة الصغرى التي غالباً ما كنت أذهب إليها لاستلام طرودي. من هذه الجهة اتجهت مشيراً إلى أسرتي كي تتبعني، وأتاح ذلك لنا الحصول على قطار.

كان هناك قطاران على الخط. أحدهما قطار عسكري فيه جنود وقحون يرقبون الحشد بعيون ساخرة.

لم يبدأ الناس، بعد، بالصعود إلى الثاني. ليس الجميع، كان هناك دركيون يصدون الحشد. تركت عربتي. كانت نساء يحملن شرائط على سواعدهن يرحن ويجئن ويعنين بالمسنين والنساء.

إحداهن لاحظت بطن زوجتي وابنتنا التي كانت تمسك بيدها.

- من هنا.

- لكن زوجي.........

- سيكون للرجال، فيما بعد، أمكنة في عربات البضائع.

لم تكن هناك مناقشة. كان المرء يتبع الحركة طوعاً أو قسراً. التفتت جان وهي غير عارفة، بعد، بما كان يجري، باذلة جهدها لرؤيتي بين الرؤوس. صحت قائلاً:

- يا آنسة! يا آنسة!

عادت الفتاة ذات الساعدة.

- أعطيها هذا. إنه طعام الصغيرة.

بل كان ذلك كل الطعام الذي حملناه.......

رأيتهما تصعدان إلى عربة في الدرجة الأولى. ومن على درجة الصعود، وجهت صوفي إشارة بيدها إليَّ أي في اتجاهي لأنها لم تعد تستطيع أن تتعرف عليَّ بين مئات الرؤوس.

كانوا يدفعونني. جسست جيبي لأتأكد من وجود النظارتين البديلتين اللتين كانتا توجدان، فيها، دائماً، هاتان النظارتان اللتان كانتا همي الدائم.

صاح سيد بشاربين:

- لا تتدافعوا.

وكرر دركي:

- لا تتدافعوا! لن يسير القطار قبل ساعة.

(٢)

لم تكن السيدات والآنسات ذوات الساعدات ينتهين من المساعدة على صعود المسنين والنساء الحوامل وصغار الأطفال والمعوقين إلى عربات المسافرين، ولم أكن الوحيد الذي كان يتساءل عما إذا كان سيبقى، في نهاية المطاف، مكان للرجال في القطار. لم أكن أتصور، دون سخرية، أن أرى زوجتي وابنتي ترحلان في حين أكون مرغماً على البقاء.

كان رجال الدرك هم الذي ملوا من مقاومة الدفع. حلوا سدهم فجأة واندفع الجميع نحو عربات البضائع الخمس أو الست المربوطة على شكل قافلة.

كنت قد أعطيت جان، في الدقيقة الأخيرة، مع المؤونة، الحقيبة التي كانت تحتوي على حوائج الصغيرة وجزءاً من حوائجها. بقيت معي حقيبة كانت الأثقل، وكنت أجر، باليد الأخرى، بقدر من المشقة، الصندوق الأسود الذي كان يصدم ساقيَّ لدى كل خطوة. لم أكن أحس بالألم. ولم أكن أفكر، كذلك بشيء.

رفعت نفسي، مدفوعاً من الذين كانوا يتبعونني، باذلاً جهدي للبقاء أقرب ما يمكن من الحاجز ذي المزالق، واستطعت أن أضع صندوقي ملتصقاً بالحاجز وأجلس فوقه مبهور الأنفاس والحقيبة على ركبتيّ.

في البداية، لم أكن أرى سوى النصف الأسفل من رفاقي، رجالاً ونساءً، ولم ألمح الوجوه إلا فيما بعد. في البداية، خيل إليَّ أني لم أكن أعرف أحداً، وفاجأني ذلك لأن فوماي مدينة صغيرة يبلغ عدد سكانها حوالي خمسة آلاف نسمة. والحق هو أن مزارعين قد أتوا من الضواحي. وثمة حي كثيف بالسكان، ولم أكن أعرفه جيداً، فَرِغَ من سكانه.

شغل كل واحد مكانه على عجل مستعداً للدفاع عن نصيبه من المكان، وصاح صوت من أقصى العربة:

- اكتمل العدد! أنتم هناك، لا تدعوا أحداً يصعد بعد!

سمعت ضحكات عصبية، الأولى التي حملت شيئاً من الانفراج. أصبح الاتصال الأول أقل قسوة. بدأ الركاب يأخذون مواقعهم في الهرب ورتبوا الحقائب والرزم حولهم.

بقيت الحواجز مفتوحة من جانبي العربة، وكان ينظر، على الرصيف، دون مبالاة، إلى الجمهور الذي عسكر هناك في انتظار قطار قادم، إلى البوفيه والمشرب اللذين اكتسحا وزجاجات الجعة والخمر التي راحت تنتقل من يد إلى أخرى.

- أنت، هناك، نعم، أنت أيها الأصهب... قل لي... ألا تستطيع أن تأتيني بليتر؟

خلال لحظة، فكرت في أن أذهب لأرى وضع زوجتي وابنتي وأن أطمئنهما، في الوقت نفسه، بإعلامهما بأني وجدت مكاناً. لم أفعل خوفاً من أن لا أجد هذا المكان حين أعود.

لم ننتظر ساعة كما سبق للدركي أن أعلن، بل ساعتين ونصف الساعة. على عدة مرات، حدثت اهتزازات في القطار، تلاحمت المصادم، وفي كل مرة، كنا نحبس أنفاسنا آملين في أن نتحرك على الطريق أخيراً. في إحدى المرات، كان الأمر يدور حول إضافة عربات إلى القافلة.

كان الرجال الذين ظلوا قرب الحواجز ينقلون الأخبار إلى الذين لا يستطيعون أن يروا شيئاً.

- إنهم يضعون ثماني عربات على الأقل. هناك، الآن، عربات حتى منتصف المنحنى.

راح يتكون نوع من التضامن بين الذين تدبروا أمرهم وكانوا واثقين، إلى حد ما، من الرحيل.

قام رجل نزل إلى الرصيف، بِعَدِّ العربات وأعلن قائلاً:

- ثمان وعشرون.

لم نكن نبالي كثيراً بالذين ظلوا على الرصيف وساحة المحطة. لم تعد الهجمة الجديدة تعنينا وكنا، في الحقيقة، نفضل أن يرحل القطار قبل أن تحدث.

رأينا سيدة عجوزاً كانت ممرضة تدفعها في عربة مرضى نحو الدرجة الأولى. كانت تعتمر قبعة خبازية اللون ونقاباً أبيض صغيراً. وكانت يداها ترتديان قفازين أبيضين.

فيما بعد، اتخذت محفات الاتجاه نفسه، وتساءلت عما إذا كانوا سينزلون أشخاصاً سبق أن أخذوا مواقعهم لأن إشاعة راجت حول إخلاء المستشفى.

كنت ظمآناً. قفز اثنان من جيراني عكس اتجاه القطار، ركضا نحو الرصيف وعادا بزجاجات جعة. لم أجرؤ على تقليدهما.

شيئاً فشيئاً، كنت أتعود على الوجوه المحيطة بي، وجوه معظمها لرجال مسنين لأن الآخرين جُنِّدوا، لنساء من عامة الشعب وريفيات، لغُلام في حوالي الخامسة عشرة من عمره له عنق طويل نحيل وتفاحة آدم بارزة، وبنت في التاسعة أو العاشرة ربطت جديلتها برباط حذاء.

مع ذلك تعرفت على شخص، بل شخصين. كان هناك، أولاً، فرنان لوروا الذي ارتدت المدرسة معه ثم أصبح مستخدماً في مكتبة هاشيت إلى جانب محل حلويات شقيقة زوجتي.

من طرف العربة الآخر الذي كان عالقاً فيه، وجه إلي إشارة صغيرة رددت عليها على الرغم من أن فرصة التحدث إليه لم تسنح لي منذ سنوات.

أما الثاني، فكان شخصاً غريباً من فوماي، سكيراً عجوزاً كان الجميع يدعونه جول وكان يوزع نشرات تجارية لدى خروج المشاهدين من صالات السينما. أخذت وقتاً لتبين وجه ثالث مع أنه كان أقرب إليَّ منهما لأنه كان، في معظم الوقت، مخفياً عني برجل له ضعف عرض كتفيه. إنها فتاة بدينة

في حوالي الثلاثين من عمرها كانت تأكل شطيرة، فتاة تدعى جولي كانت تدير مقهى صغيراً قرب المرفأ.

كانت ترتدي تنورة من نسيج الصرج الأزرق ضيقة جداً تتغضَّن على طول فخذيها وقميصاً أبيض يحاصره العرق وترى، من خلاله حمالة صدرها.

كانت تفوح منها رائحة مسحوق التجميل والعطر، ويَعودُني منظرُ أحمر شفتيها ينطبع على الخبز.

مضى القطار العسكري نحو الشمال. وبعد بضع دقائق، سمع وصول قافلة جديدة على السكة نفسها، وهتف أحدهم:

- ها هو يعود الآن.

لم يكن هو نفسه، بل كان قطاراً بلجيكياً أكثر امتلاءً من قطارنا ولا يحمل سوى مدنيين. كان هناك ركاب حتى على المواطئ.

اندفع بعضهم نحو عرباتنا. تراكض رجال الدرك وصرخوا موجهين أوامر. اشترك المكبر في العملية معلناً أنه لا يحق لأحد مغادرة مكانه.

ومع ذلك، استطاع بعض المتخفين أن يتسللوا من اتجاه معاكس لاتجاه القطار، وكانت بينهم امرأة شابة، قاتمة الشعر، ترتدي فستاناً أسود مغطى بالغبار لم تكن تحمل أية حوائج، ولم يكن معها حتى حقيبة يد. اندست، بوجل، في عربتنا، حزينة الهيئة، شاحبة الوجه ولم يقل أحد لها شيئاً. اكتفى رجال بتبادل غمزات في حين كانت تسند ظهرها إلى أحد الأركان متكومة على نفسها. لم نعد نستطيع أن نرى السيارات، وكنت واثقاً من أن أحداً منا لم يكن مَعنيّاً بذلك. الذين كانوا قريبين من الأبواب لم يكونوا ينظرون إلا إلى القسم المرئي من السماء، سماء ما زالت في الزرقة نفسها، ويتساءلون عما إذا كان لن يظهر سرب ألماني، بين لحظة وأخرى ويقصف المحطة.

سرت شائعة، منذ وصول القطار البلجيكي، تقول أن محطات قد قصفت من الجانب الآخر من الحدود، وقال بعضهم إنها محطة نامور.

أود أن أكون قادراً على وصف جو عربتنا وخاصة حالة المفاجأة فيها. بدأنا، في قطارنا الذي كان لا يزال جامداً، في تشكيل عالم صغير على حدة، لكنه عالم يبقى معلقاً. وحدث ذلك، أخيراً، في حين كنا قد بدأنا لا نصدق حصوله.

ماذا كان يمكن أن يفعل رفاقي لو أعلن أن الخط قد قطع وأن القطارات لم تعد تسير؟ هل كانوا سيعودون إلى بيوتهم مع رزمهم؟

اعتقد، من جهتي، أني لم أكن لأستسلم. أني كنت بالأحرى، سأمشي على طول خطا القطار. فات الوقت على العودة إلى الوراء. الانكسار قد وقع. كانت فكرة العودة إلى زقاقي، إلى بيتي وورشتي وحديقتي وعاداتي. والأجهزة ذات البطاقات التي تنتظر أن أصلحها، هذه الفكرة كانت تبدو لي لا تحتمل.

بدأ الحشد على الأرصفة ينزلق وراءنا ببطء، وكان، بالنسبة إلي، كأنه لم يوجد قط، كما لو أن المدينة التي أمضيت، فيها، كل حياتي، باستثناء سنوات المصحة الأربع، قد فقدت واقعيتها.

لم أكن أفكر في جان وابنتي الجالستين في مقصورتيهما في الدرجة الأولى، بعيدتين عني، كما لو كانتا على مسافة مئات الكيلومترات مني.

لم أكن أتساءل عما تفعلان، كيف تحملتا الانتظار، ما إذا كانت جان قد عانت من تقيؤات جديدة.

كنت أشد قلقاً على نظارتيَّ الاحتياطيتين. وكنت، لدى كل حركة من رفاقي، أحمي جيبي بيدي.

بعد الخروج من المدينة مباشرة، كانت على يسارنا، غابة مانيز العامة التي غالباً ما أمضينا على عشبها بعد ظهر يوم الأحد. لم تكن، في نظري، الغابة نفسها، وربما كان ذلك لأني كنت أراها من خط القطار. وكانت زهور الوزال تنمو نضرة، وكان القطار يسير بدرجة من البطء كنت أرى، معها، النحل يمضي، مدندناً، من زهرة إلى أخرى. فجأة توقفنا، وتبادل الجميع النظر بالخوف نفسه في العيون. كان عامل في الخطوط الحديدية يركض على طول الخط. انتهى إلى الصراخ بكلمات لم أفهمها، وتحرك القطار.

لم أكن جائعاً. نسيت عطشي. كنت أنظر إلى الخضرة التي تتقاطر على مسافة بضعة أمتار مني، وأحياناً على مسافة متر بالكاد، وإلى الزهور البرية البيضاء والزرقاء والصفراء التي كنت أجهل أسماءها ويبدو لي أني أراها للمرة الأولى. كان عطر جولي يصل إليَّ على هبات، خاصة عند الانعطافات، ممزوجاً برائحة لعرقها قوية لكنها ليست بغيضة.

كان الأمر في مقهاها ما هو عليه في مخزني. لم يكن مقهى حقيقياً تماماً. كانت، فيه، سجف عندما ترخى تحول دون تمييز أي شيء في الداخل.

كان المشرب صغيراً جداً. ولم يكن الرف بزجاجاته الخمس أو الست سوى رف مطبخ.

غالباً ما ألقيت نظرة وأنا مار، وأرى، من جديد، على الجدار، إلى جانب ساعة معطلة والقانون المتعلق بالسُكْر العلني، تقويماً إعلانياً يمثل فتاة شقراء في يدها كأس جعة برغوة. ما لفت انتباهي هو أنه كان على شكل كأس شمبانيا.

أعرف أن لا أهمية لهذا، وأنا أسجله لأني فكرت، فيه في هذه اللحظة. كانت تسود في مقطورتنا روائح أخرى دون الحديث عن رائحة العربة نفسها التي كانت قد نقلت ماشية في سفرة حديثة والتي كانت تفوح منها رائحة حظيرة مزرعة.

كان بعض رفاقي يأكلون النقانق أو عصيداً. كانت فلاحة قد حملت معها قرص جبن ضخماً راحت تقتطع منه بسكين مطبخ.

لم يكن يجري، بعد، تبادل أكثر من نظرات فضولية ظلت حذرة، والذين أتوا من القرية نفسها أو الحي نفسه كانوا، وحدهم، يتبادلون الحديث بأصوات مرتفعة، خاصة للتعرف على الأماكن التي كنا نمر بها.

- انظر! هذه مزرعة ديديه! أتساءل عما إذا كان ديديه قد بقي. على كال حال، بقراته في المرعى.

كنا نجتاز مواقف، محطات صغيرة كانت، فيها، سلال زهور تحت المصابيح وإعلانات سياحية على الجدران.

- كورسيكا! هل رأيت؟ لماذا لا نذهب إلى كورسيكا؟

زادت سرعتنا بعد ريفان، وقبل الوصول إلى مونتيرميه رأينا فرن كلس وصفوفاً من بيوت عمالية.

أطلقت القاطرة، قبل دخول المحطة. صفارة ثاقبة بقدر اكسبريس كبير. وتوقفت، متجاوزة الأبنية والأرصفة التي كانت تعج بالجنود، في ديكور سكك مقفرة وحجرات توجيه.

كانت مضخة ماء قريبة من عربتنا تُسَرِّب قطرات ضخمة، واحدة بعد الأخرى، وأحسست بظمئي من جديد. بال فلاح قفز من القطار على السكة المجاورة في وضح النهار وعيناه مثبتتان على القاطرة. استثار ذلك الضحك. كانت هناك حاجة إلى الضحك، وأطلق بعضهم، عمداً، مزحات. كان جول العجوز نائماً وفي يده ليتر كان قد شرب منه، وعلى بطنه مزودته التي كانت تحتوي على زجاجات أخرى.

أعلن الرجل الذي كان يبول:

- إنهم يفكون الآلة.

نزل اثنان أو ثلاثة آخرون. ما زلت لا أجرؤ. كان يبدو لي أنه يجب أن أتشبث بمكاني مهما كلف الأمر، أن ذلك كان ذا أهمية خاصة لي.

بعد ربع ساعة، سحبتنا قاطرة جديدة في الاتجاه المعاكس، إلا أنه بدلاً من أن نجتاز مونتيرميه، سرنا على سكة ثانوية موازية لمنطقة سيموا في اتجاه بلجيكا.

كنت قد قمت بهذه الرحلة مع جان قبل أن تصبح زوجتي. بل إني أتساءل عما إذا لم يكن ذلك اليوم، يوم أحد من شهر آب، هو الذي قرر مصيرنا.

لم يكن للزواج، في ذلك الحين، بالنسبة إلي، المعنى نفسه بالنسبة لشخص طبيعي. هل حدث، قط، شيء طبيعي، حقاً، في حياتي منذ المساء الذي رأيت فيه أمي تعود إلى البيت عارية ومقصوصة الشعر.

مع ذلك، لم يكن هذا الحدث هو الذي صدمني. لم أفهم، في حينه، ولم أسع إلى الفهم. منذ أربع سنوات، يلقى من الأمور على عاتق الحرب ما لم يكن لواحد إضافي، معه، أن يؤثر فيّ.

كانت السيدة جاميه، مالكة بيتنا، أرملة وكانت تكسب رزقها جيداً بالخياطة. رعتني حوالي عشرة أيام، حتى عودة أبي الذي لم أتعرف عليه حالاً. كان لا يزال يرتدي الملابس العسكرية، ملابس غير تلك التي ذهب بها. كانت تفوح من شاربيه رائحة الخمر المز، وكانت عيناه لامعتين كما لو كان مصاباً بنزلة دماغية.

كنت أكاد لا أعرفه جملة، والصورة الوحيدة التي كانت له لدينا، على البوفيه، كانت تلك التي أخذت له مع أمي في يوم زواجهما. كان وجهاهما متجهمين. ربما كانت صوفي ستجد أن قسماتنا كانت متجهمة على صورة زواجنا.

كنت أعلم أنه كان مستخدماً لدى السيد سوفور تاجر الحبوب والأسمدة الكيميائية الذي كانت تصل بين مكتبه ومخازنه، التي تشغل جزءاً كبيراً من الرصيف والمحطة، طريق خاصة.

دلتني أمي على السيد سوفور في الطرق. كان رجلاً أقرب إلى القصر، بديناً، شاحباً جداً. كان يجب أن يكون في الستين من عمره آنذاك، وكان يمشي ببطء، بحذر كما لو كان يخشى أدنى صدمة.

- إنه مصاب بمرض في القلب. يمكن أن يقع، في أية لحظة، ميتاً في الطريق. في أزمته الأخيرة، أنقذ على آخر رمق، واقتضى الأمر بعد ذلك، استدعاء اختصاصي كبير من باريس.

حدث لي، وأنا غلام، أن تابعته بعيني متسائلاً عما إذا كان الحادث سيقع أمامي. لم أكن أفهم أن يستطيع السيد سوفور، وهو تحت وطأة مثل هذا التهديد، أن يروح ويجيء ككل الناس دون أن يبدو حزيناً.

- أبوك ساعده الأيمن. لقد بدأ يعمل لديه ساعياً في عمر السادسة عشرة، وهو الآن، مخول بالتوقيع.

توقيع ماذا؟ علمت، فيما بعد، أن أبي كان، حقاً، وكيلاً معتمداً وأن منصبه كان في الأهمية التي زعمتها أمي.

استأنف عمله واعتدنا، شيئاً فشيئاً، على أن نعيش، اثنين، في شقتنا التي لم تكن أمي، فيها، موضع حديث أبداً على الرغم من أن صورة الزفاف ظلت على البوفيه.

اقتضى الأمر مني بعض الوقت لأفهم لماذا كان مزاج أبي يتغير من يوم إلى آخر، من ساعة إلى أخرى. كان يستطيع أن يبدو حنوناً، عاطفياً، أن يأخذني على ركبتيه، وهو ما لم يكن يضايقني، أن يقول لي، والدموع في عينيه، أنه لم يكن له سواي في هذا العالم وأن ذلك كان يكفيه، أن لا شيء آخر، غير وجود ابن، له أهمية في الحياة.

ثم كان يبدو، بعد ساعات، مدهوشاً لوجودي لديه ويوجه إليَّ أوامر كما لو كنت خادمه، يعنفني ويصرخ بأني لم أكن أفضل من أمي.

انتهيت إلى سماع أنه كان يشرب أو أنه، بعبارة أصح، بدأ يشرب، حزناً، عندما لم يجد زوجته لدى عودته إلى البيت، وعندما علم بما جرى.

صدقت ذلك زمناً طويلاً. ثم فكرت. تذكرت يوم عودته، عينيه اللامعتين، حركاته المتقطعة، رائحته، الزجاجات التي ذهب، حالاً لشرائها عند البقال.

فاجأت أطراف عبارات عندما كان يتحدث مع أصدقائه عن الحرب، وارتبت في أن الجبهة هي التي اعتاد، فيها، على الكحول.

لا أنقم عليه. لم أنقم عليه قط، حتى حين كان يأتي، مترنحاً، إلى بيتنا، بامرأة التقطها من الشارع ويقفل علي في غرفتي وهو يغمغم بشتائم.

لم أكن أحب أن تلاطفني السيدة جاميه وتعاملني كضحية. كنت أتحاشاها. اعتدت أن أتسوق بعد المدرسة، أن أعد الوجبات وأغسل الصحون.

ذات مساء، عاد اثنان من المارة بأبي الذي وجداه بلا حراك على الرصيف. أردت أن أذهب لإحضار طبيب حالاً، لكنهما زعما أن ذلك لم يكن

يستحق المشقة وأن أبي لم يكن يحتاج إلا إلى أن يحضن خمره. ساعدتهما في خلع ثيابه.

لم يكن السيد سوفور يحتفظ به إلا بداعي الشفقة، كنت أعرف ذلك أيضاً. تلقّى عدة مرات، شتائم وكيله الذي كان يطلب، في الغداة، صفحه باكياً.

ليس للأمر أهمية. ما أردت أن أشير إليه هو أني لم أعِش حياة الأطفال في عمري وأنني في عمر الرابعة عشرة، أُرسِلتُ إلى مصحة واقعة فوق سان جيرفيه، في السافوا.

كنت، وأنا راحل في قطار - كانت المرة الأولى التي أركب، فيها، قطاراً -، مقتنعاً بأني لن أعود حياً. لم تجعلني هذه الفكرة حزيناً، وبدأت أفهم صفاء السيد سوفور.

على كل حال، لن أكون، أبداً، رجلاً كبقية الرجال. من قبل، كان بصري الضعيف قد أبعدني عن كل الألعاب. وها أنا، فضلاً عن ذلك، مصاب بمرض يعد إعاقة، مرض معيب تقريباً. أية امرأة تقبل بأن تتزوجني؟

عشت أربع سنوات فوق، كما كنت إلى حد ما، هنا، في القطار. أعني أنه لم يكن للماضي والمستقبل أهمية، ولا، كذلك، لما كان يجري في الوادي، ومن باب أولى في المدن البعيدة.

عندما أعلن أني قد شفيت ورددت إلى فوماي، كنت في الثامنة عشرة من عمري. وجدت، من جديد، أبي كما تركته تقريباً، باستثناء أن قسماته كانت أشد رخاوة ونظرته حزينة وجلة.

عندما رآني، انتظر ردة فعلي، وفهمت أنه كان خجلاناً، وأنه كان، في أعماقه، ينقم عليَّ لعودتي.

كان يلزمني نشاط مديني. دخلت، بصفة متدرب، لدى السيد بونشو الذي كان يملك أكبر مخزن بيانوهات واسطوانات وأجهزة راديو في المدينة.

في الجبل، اعتدت أن أقرأ ما قد يصل إلى كتابين يومياً، وتابعت ذلك. وكنت أمر كل شهر، ثم كل ثلاثة أشهر، بعيادة اختصاصي في ميزيير مرتاباً بأقواله الطيّبة.

عدت إلى فوماي عام ١٩٢٦. مات أبي عام ١٩٣٤ من جراء انسداد صمام في القلب، في حين كان السيد سوفور لا يزال صامداً. كنت قد أتيت على التعرف إلى جان التي كانت بائعة في محل شوبليه للقفازات الذي كان يبعد بيتين عن مكان عملي.

كنت في السادسة والعشرين من عمري، وكانت في الثانية والعشرين. تنزهنا في الشارع عند الغسق. ذهبنا معاً إلى السينما حيث كنت أمسك بيدها، وحصلت على الإذن بأخذها، بعد ظهر يوم الأحد، إلى الريف.

كان ذلك يبدو لي غير قابل للتصديق. بالنسبة إلي، لم تكن امرأة فقط، بل كانت رمزاً للحياة الطبيعية، المنتظمة.

وعلى وجه الضبط، ويمكن أن أقسم على ذلك، كانت هذه النزهات في وادي السيموا التي كان علي أن أطلب إذن أبيها عليها هي التي اكتسبت، خلالها، الثقة بأن ذلك كان ممكناً، بأنها قبلت بالزواج مني، بأن تؤسس، معي، أسرة.

شغفت امتناناً. كان يمكن أن أجثو، طواعية، عند قدميها. وإذا كنت أفيض في الكلام عن هذا، فذلك لأركز على أهمية جان عندي.

إلا أني لم أكن، في عربة المواشي، أفكر فيها وهي الحامل في منتصف الشهر الثامن من حملها، والتي يجب أن تكون هذه السفرة شاقة، على نحو خاص، بالنسبة إليها.

كان ذهني في مكان آخر. كنت أتساءل لماذا دفعوا بنا في خط ثانوي لا يؤدي إلى مكان إنْ لم يؤدِّ إلى مكان أخطر من الذي أتينا على الهرب منه.

عندما توقفنا في وسط الريف، قرب مزلقان يقطع الطريق البلدية، سمعت أحدهم يقول:

- إنهم يخلون الخطوط لتمرير القوات، لا بدّ أنهم في حاجة إلى تعزيزات هناك.

لم يعد القطار يتحرك. لم نعد نسمع، إلا فجأة، تغريدات الطيور وسقسقة نبع. قفز رجل إلى التلة، ثم آخر.

- قل أيها الرئيس! هل سنبقى هنا طويلاً؟

- ساعة أو ساعتين، ما لم نمض الليل هنا.

- ألا يمكن أن يعاود القطار الرحيل دون إنذار؟

- القاطرة ستعود إلى مونتيرميه حيث سيرسلون لنا قاطرة أخرى.

تأكدت، أولاً، من أنهم يفكون القاطرة حقاً. وعندما رأيتها تبتعد وحيدة في مشهد من غابات ومراعٍ، قفزت إلى الأرض وذهبت، قبل كل شيء، لأشرب من النبع بجوف يدي كما كنت أفعل وأنا طفل. كان للماء طعمه السابق نفسه، طعم العشب وطعم جسدي البالغ الحرارة.

نزل أشخاص من كل العربات. أخذت، متردداً، أولاً، ثم بمزيد من الجرأة، أسير عكس اتجاه القافلة محاولاً أن أرى داخلها.

- بابا!

كانت ابنتي تناديني ملوحة بيدها.

- أين أمك؟

- هنا.

كانت سيدتان متقدمتان في العمر تسدان الرؤية، ولم تكونا لتتنزاحا مقابل كل ذهب العالم مدينتين بهيئتهما ضجيج ابنتي.

- افتح يا بابا، أنا لا أستطيع. تريد ماما أن تكلمك.

كانت العربة من طراز قديم. توصلت إلى فتح الباب واكتشفت ثمانية أشخاص، في صفَّين، جامدين ومقطّبين كما في صالة انتظار طبيب أسنان. كانت زوجتي وابنتي الوحيدتين دون الستين من العمر، وكان عجوز، في الزاوية المقابلة، تسعينياً بالتأكيد.

- هل أنت على ما يرام يا مارسيل؟

- وأنت؟

- لا بأس. كنت أتساءل كيف ستفعل لتأكل. لحسن الحظ توقفنا. المؤونة معنا.

لم تكن تكاد، وهي عالقة بين جارتيها بوركيهما الضخمين، تستطيع أن تتحرك، وعانت مشقة في مد يدها إلى برغيف مستطيل وبكل السجق.

- ولكن، ماذا عنكما؟

- لا نتحمل الثوم، أنت تعلم ذلك جيداً.

لم يشغلني ذلك، صباحاً، لدى البقال.

- كيف جلست؟

- لا بأس.

- ألا تستطيع الحصول على قليل من الماء من أجلي؟

أعطوني زجاجة قبل الرحيل، لكن الجو حار إلى حد شربنا، معه، كل شيء.

مدت إلي زجاجة ركضت لأملأها من النبع. وجدت هناك المرأة ذات الفستان الأسود التي صعدت بعد وصول القطار البلجيكي جاثية تغسل وجهها. سألتني قائلة:

- أين وجدت زجاجة؟.

لم تكن لكنتها الأجنبية بلجيكية ولا ألمانية

- أحدهم أعطاها لزوجتي.

لم تلح، جففت وجهها بمنديلها ومضيت، من جديد، نحو عربة الدرجة الأولى. في الطريق تعثرت بزجاجة جعة فارغة فعدت لالتقاطها كشيء ثمين. ضللت الزجاجة زوجتي.

- هل تشرب الجعة؟

- لا. إنها من أجل الماء.

هذا طريف. كنا نتحادث كغريبين. ليس كغريبين بالضبط: كقريبين متباعدين. لم ير أحدهما الآخر منذ زمن طويل ولا يعرفان ماذا يقولان. ألم يكن ذلك بسبب وجود العجائز؟

- هل أستطيع أن أنزل يا بابا؟

- إذا شئت.

أبدت زوجتي قلقها.

- ماذا لو تحرك القطار؟

- لم تعد لدينا قاطرة.

- هل سنبقى، إذن، هنا؟

سمعنا، في هذه اللحظة، أول دوي انفجار أصم، بعيد جعلنا، مع ذلك، نرتعد، ورسمت إحدى العجائز شارة الصليب مغمضة عينيها كما لدى قصف رعد.

- ما هذا؟

- لا أدري.

- ألا ترى طائرات؟

ونظرت إلى السماء الزرقاء زرقتها في الصباح مع سحابتين مذهبتين تسيران ببطء.

- لا تدعها تبتعد يا مارسيل.

- لن أرفع بصري عنها.

سرت على طول الخط، مع صوفي، باحثاً عن زجاجة أخرى وأسعفني الحظ بإيجاد واحدة أكبر من الأولى.

- ماذا ستفعل بها؟

كذبت نصف أكذوبة:

- سأتمون ماء.

ذلك لأني كنت ألتقط زجاجة ثالثة كانت قد احتوت على خمر. كنت أنوي أن أعطي منها واحدة، على الأقل، للمرأة الصبية التي كانت ترتدي السواد.

لمحتها عن بعد واقفة أمام عربتنا وفستانها الساتاني المغبر وقوامها وشعرها المجنون تبدو غريبة عن كل ما يحيط بها. كانت تحرك ساقيها دون الانشغال بما كان يجري ولاحظت كعبيها العاليين جداً والمدببين جداً.

- ألم تمرض أمك؟

- كلا. هناك امرأة تتكلم طوال الوقت وتدعي أن القطار سوف يقصف بالتأكيد. هل هذا صحيح؟

- إنها لا تعرف شيئاً.

- أتظن أنه لن يقصف؟

- أنا مقتنع بذلك.

- أين سننام؟

- في القطار.

- لا توجد أسّرة.

ذهبت لغسل الزجاجات الثلاث شاطفاً إياها عدة مرات لأزيل، بقدر المستطاع، طعم الجعة والخمر، وملأتها ماءً بارداً.

عدت إلى عربتي وصوفي لا تزال معي ومددت إحدى الزجاجات إلى المرأة. نظرت إلي بدهشة، نظرت إلى ابنتي، شكرت بإشارة وعادت إلى العربة لتضع الزجاجة في مكان أمين.

لم يكن هناك ما يرى سوى بيت واحد خارج بيت حارس الحاجز، مزرعة صغيرة جداً، بعيدة إلى حد كافٍ، تقع في جنب الهضبة، وكانت، في الباحة، امرأة بمريولة زرقاء تطعم الطيور كما لو لم تكن الحرب موجودة.

- أهنا مكانك؟ على الأرض؟

- اجلس على الحقيبة.

كانت جولي مشتبكة مع رجل أحمر اللون ذي شعر رمادي وغزير كان ينظر إليها نظرات مبهمة. وبين حين وآخر، كان الاثنان ينطلقان بهذا النوع من الضحك الذي يعثر عليه في الحانات الريفية. كان الرجل يمسك، بيده، زجاجة من النبيذ الأحمر يسقي منها رفيقته مباشرة. كانت هناك بقع بنفسجية على قميصها الذي كان ثدياها الضخمان يتقافزان، فيه، لدى كل ضحكة.

- لنذهب إلى أمك.

- منذ الآن؟

بدأت ترتسم توزيعات فرعية جديدة. فقد كان هناك، من جهة، عالم عربات الركاب، وفي الأخرى، جهتنا، عالم عربات المواشي وعربات البضائع. جان وابنتي كانتا تنتميان إلى واحد، وأنا إلى الثاني، وكنت أتعجل، لا شعورياً، إلى إبعاد صوفي.

- ألا تأكل؟

أكلت على الرصيف، أمام الباب المفتوح. لم نكن نستطيع أن يقول أحدنا للآخر شيئاً هاماً مع هذين الصفين من الوجوه الجامدة التي كانت عيونها تمضي من زوجتي إليَّ وإلى ابنتي.

- أتظن أننا سنرحل، من جديد، قريباً؟

- يجب تمرير القوافل العسكرية. وعندما يفرغ الخط، سيأتي دورنا. ها هي القاطرة تصل.

كانت تسمع، ترى وحيدة مع دخانها الأبيض الذي كان يتبع منحنيات الوادي.

- عد بسرعة إلى مكانك. أخاف كثيراً من أن يكونوا قد أخذوه!

قبلت صوفي، مرتاحاً للرحيل، ولم أجرؤ على تقبيل جان أمام الناس. صاح بي صوت فظ:

- تستطيع أن تعيد إغلاق الباب!

في كل يوم أحد من الصيف تقريباً، كنت مع جان، أولاً، ثم معها ومع ابنتي، نذهب إلى الريف لتناول طعام العصرونية، وغالباً طعام الغداء، على العشب. لم يكن ما لقيته، اليوم، رائحة هذا الريف ولا طعمه، بل رائحة ذكرياتي ومذاقها.

منذ سنوات، كنت أجلس، يوم الأحد، في أجمة، ألعب مع صوفي، أقطف زهوراً لأضفر لها تيجاناً، لكن ذلك كله كان يبدو حيادياً.

لماذا استعاد العالم، اليوم، من جديد مذاقه؟ إنه يستعيد حتى طنين الزنابير الذي كان يذكرني بطنين الماضي عندما كنت أراقب، وقد حبست نفسي، نحلة تحوم حول شطيرتي.

عندما عدت إلى العربة، أصبحت الوجوه أشد إلفةً بالنسبة لي. كان نوع من التواطؤ يولد بيننا، يجعلنا نغمز بعيوننا، مثلاً، بعد أن لاحظنا لعبة جولي وقوادها.

أقول «قواداً» دون أن أعلم. لم تكن للأسماء، ولا للمهنة الحقيقية، أهمية. كانت له هيئة قواد، وكنت أسميه هكذا بيني وبين نفسي.

كان الزوجان متعانقين، وكانت يد الذكر الضخمة تنسحق على ثدي جولي في البرهة التي بدأت، فيها، القافلة تسير بعد بضعة اهتزازات.

لم يكن لدى المرأة في السواد التي ما زالت ملتصقة بالحاجز الخلفي، على مسافة مترين مني، ما تجلس عليه. صحيح أنها كانت تستطيع، ككثيرين غيرها، أن تجلس على الأرض. بل إنه كان هناك، في زاوية، أربعة يلعبون الورق كأنما حول طاولة نزل.

وصلنا إلى مونتيرميه ورأيت، بعد قليل، سد ليفيرزي الذي كان حوالي عشرة زوارق تهتز، فيه، على الماء البراق. لم يكن البحارة في حاجة إلى قطار، بل إن السدود كانت هناك لإيقافها، وكنت أتخيل فراغ صبرهم.

تحولت السماء إلى اللون الوردي. مرت ثلاث طائرات على ارتفاع منخفض. طمأننا الشعار الفرنسي عليها. كانت قريبة إلى حد كان يرى، معه، وجه أحد الطيارين. يمكن أن أقسم على كونه قد حيانا بيده.

لدى وصولنا إلى ميزيير، كان الغسق قد حل، وذهب قطارنا، دون أن يدخل إلى المحطة. ليصطف في صحراء من سكك. مر عسكري لم أر رتبته على طول القطار صارخاً:

- انتباه! لا ينزلن أحد! ممنوع منعاً باتاً النزول من القطار.

فضلاً عن ذلك. لم يكن هناك رصيف، وبعد قليل، مرت مدافع محملة على منصات بأقصى سرعة قريباً منا. وما كادت تختفي حتى دوت صفارة الإنذار في حين أمر الصوت نفسه قائلاً:

- ليبق كل واحد في مكانه. النزول من القطار خطر على كل واحد.........

كانت تسمع، الآن، زمجرة عدد من الآليات. كانت المدينة مظلمة، وفي المحطة التي كانت كل أضوائها مطفأة، كان المسافرون، يسرعون، دون شك، في اتجاه الأقبية.

لا أظن أني خفت، بقيت جالساً دون حراك أحدق في الوجوه المواجهة لي، استمع إلى أصوات المحركات التي كانت تتزايد قوة، ثم يبدو أنها تبتعد.

ساد صمت كبير، وبقي قطارنا هناك، كأنه مهجور وسط شبكة معقدة من سكك عليها بضع عربات فارغة. أرى من جديد، بين أشياء أخرى، عربة مشروبات تحمل اسم تاجر خمور في مونبلييه بحروف صفراء كبيرة.

كان المرء يبقى رغماً عنه معلقاً، لا يقول شيئاً، ينتظر نهاية الإنذار التي لم تعلن إلا بعد نصف ساعة. خلال هذا الوقت، كانت يد القواد قد تركت صدر جولي. عادت إليه من جديد، أكثر إلحاحاً، وألصق فمه بفم جارته.

غمغمت فلاحة قائلة:

- أليس هذا معيباً أمام بنت صغيرة؟

رد عليها وفمه ملطخ بأحمر الشفاه:

- سوف ينبغي للبنت الصغيرة أن تتعلم! ألم تتعلمي في زمانك؟

كان هذا نوعاً من الفظاظة والسفالة لم أكن معتاداً عليه. ذكرني هذا بفيض الشتائم التي كانت أمي تصبها على الفتيان الذين كانوا يلاحقونها ضاحكين. بحثت في عيني البنت السمراء. كانت تنظر إلى مكان آخر كما لو أنها لم تسمع، ولم تلاحظ انتباهي.

لم أسكر، قط، لسبب وجيه هو أني لا أشرب خمراً ولا جعة. إلا أني أفترض أني كنت، عند هبوط الليل، تقريباً، في حالة رجل تجاوز المعيار.

كانت أجفاني تخزني، كانت ملتهبة بسبب شمس بعد الظهر في الوادي، عند النبع. كنت أحس بوجنتي حمراوين وبأطرافي خدرة، وبدماغي فارغاً.

ارتعدت عندما أعلن أحدهم، وقد أشعل عود ثقاب، قائلاً:

- بلغت الساعة العاشرة والنصف........

كان الوقت ينقضي بطيئاً وسريعاً معاً. الحق هو أنه لم يعد هناك وقت. كان بعضهم نائمين، وآخرون يتحادثون بصوت منخفض. أغفيت، من جهتي، على الحقيبة السوداء ورأسي ملتصق بالحاجز، وفيما بعد، وفي نصف إغفاءة، بينما كان القطار لا يزال متوقفاً، محاطاً بالليل والصمت، شعرت بحركات إيقاعية قريباً جداً مني. استغرقت بعض الوقت كي أفهم أن تلك كانت جولي ورفيقها اللذين كانا يتضاجعان.

لم يصدمني ذلك على الرغم من أني كنت، بسبب مرضي احتمالاً، عفيفاً جداً دائماً. كنت أتابع الإيقاع كموسيقى واعترف بأن صورة دقيقة تكونت، شيئاً فشيئاً، في ذهني، بأن حرارة منتشرة اكتسحت كل جسدي.

عندما عدت إلى النوم، كانت جولي تتمتم، متوجهة إلى جار آخر احتمالاً:

- كلا! ليس الآن.

بعد ذلك بكثير، حوالي منتصف الليل، هزتنا سلسلة من الصدمات كما لو كان قطارنا يناور. كان هناك أشخاص يتكلمون، يروحون ويجيئون على طول السكة. أحدهم قال:

- هذه هي الوسيلة الوحيدة.

وقال آخر:

- لا أقبل سوى أوامر القائد العسكري.

ابتعدا وهما يتناقشان وسار القطار ليتوقف من جديد بعد دقائق.

لم أعد أهتم بهذه الحركات التي لا أستطيع فهمها. غادرنا فوماي، وطالما أننا لا نعود إلى الوراء، كان الباقي لا يهمني.

سمعت أصوات صفارات، وحدثت احتكاكات أخرى بين العربات، توقفات أخرى متبوعة بنوافير من البخار.

أجهل كل ما جرى، في تلك الليلة، في ميزيير وغيرها من العالم ما عدا أن القتال ناشب في بلجيكا وهولندا، أن عشرات الألوف من الناس قد انطلقوا في الطرقات، أن طائرات كانت، في كل مكان، تجوب السماء وأن المدفعية المضادة كانت أحياناً، تطلق قذائفها بصورة عشوائية.

سمعنا رشات بعيدة إلى حد كاف وقافلة لا تنتهي من الشاحنات التي كان يجب أن تمر قريباً من السكة.

في عربتنا حيث سادت ظلمة تامة، كانت ضروب من الشخير تخلق حميمية. في بعض الأحيان، كان مسافر متيبس الظهر أو فريسة لحلم رديء يئن دون أن يتبين ذلك.

عندما فتحت عينيَّ نهائياً، كنا نتحرك، وكان نصف رفاقي مستيقظين. كان النهار يرتفع مضيئاً ريفاً لم أكن أعرفه، هضاباً على ما يكفي من الارتفاع مع غابات وأجمات واسعة زرعت، فيها، مزارع.

كانت جولي نائمة منفرجة الفم، مفكوكة الصدارة. كانت المرأة في السواد جالسة ملتصقة الظهر بالحاجز وخصلة شعر على خدها. تساءلت عما إذا كانت قد بقيت هكذا طوال الليل وعما إذا كانت قد استطاعت أن تنام. التقت نظرتها نظرتي. ابتسمت بسبب زجاجة الماء. سأل أحد جيراني وهو يستيقظ:

- أين نحن؟

رد عليه الذي كان يجلس قرب الباب متدلي الساقين:

- لا أدري. أتينا على المرور بمحطة تسمى لا فرانشفيل.

مررنا بمحطة أخرى، كانت، أيضاً، مقفرة ومزهرة. قرأت، على اللوح الأزرق والأبيض، كلمة «بولزيكور».

بدأ القطار انعطافاً في مشهد مسطح تقريباً. سحب الرجل ذو الساقين المتدليتين غليونه من فمه ليهتف بشكل هازل:

- سحقاً!

- ماذا؟

- الأوغاد اختصروا القطار!

- ماذا تقول؟

هرع الركاب. احتج الرجل وهو يثبت نفسه بيديه.

- لا تتدافعوا، أنت هناك! ستلقون بي على السكة. أنتم ترون جيداً أنه لم يعد أمامنا سوى خمس عربات، أليس كذلك؟ ماذا فعلوا، إذن، بالأخرى؟ وأين سأجد زوجتي والأولاد حالياً؟ سحقاً! سحقاً! اللعنة!

(٣)

كنت أعلم جيداً أن القاطرة لن تستطيع سحب هذا العدد من العربات. انتهوا إلى ملاحظة ذلك وأرغموا على شطر القطار إلى قسمين.

- أول شيء كان عليهم أن يفعلوه هو إخطارنا، أليس كذلك؟ ماذا ستكون عليه حال النساء؟

- ربما ينتظرننا في ريتيل أو في رامس.

- المهم أن يردّوهن إلينا، كما هو الأمر بالنسبة للجنود عندما تنتهي هذه الحرب العاهرة، هذا إذا انتهت.

كنت أحاول، آلياً، أن أتبين نصيب الكوميديا ونصيب الصدق في الانتحابات وفي هذا الغضب. ألم يكن ذلك، خاصة، نوعاً من لعبة يلعبها الرجال مع بعضهم بعضاً لأن هناك شهوداً؟

شخصياً، لم أكن منفعلاً ولا قلقاً على نحو خاص. كنت باقياً، دون حراك، مذهولاً قليلاً مع ذلك. في لحظة ما، أحسست بأن عينين كانتا تبحثان عن عينيّ بإصرار.

لم أكن واهماً. كان وجه المرأة في السواد ملتفتاً نحو وجهي، أكثر شحوباً في الفجر وأكثر اضطراباً منه في الأمس. كانت تبذل جهدها لتنقل إليَّ، بالنظرة، رسالة تعاطف، وفي الوقت نفسه، كنت أخمن سؤالاً.

ترجمته كما يلي: «كيف تتحمل الصدمة؟ هل يؤلمك هذا كثيراً؟»

كان هذا يربكني. لم أجرؤ على أن أظهر لها شبه لا مبالاتي الذي كان من شأنها أن تسيء تفسيره. اتخذت، إذن، هيئة حزينة، إنما من غير مغالاة.

كانت قد رأتني على السكة مع ابنتي ويجب أن تكون قد استنتجت أن زوجتي تصحبني أيضاً. بالنسبة إليها، أتيت على فقدان الاثنتين، معاً، مؤقتاً، ومع ذلك فقدتهما.

كانت عيناها البنيتان تقول لي من فوق الرؤوس «تشجع»

وهو ما رددت عليه بابتسامة مريض يحاولون تشجيعه بكلمات طيبة ويبقى، مع ذلك، متألماً. أنا شبه متأكد من أنها كانت، لو كنا أقرب إلى بعضنا، ستشد، خلسة، على يدي.

لم أكن أنوي، بهذا التصرف، أن أخدعها، كما يمكن أن يظن، إلا أنه، مع كل هذه الرؤوس بيننا، لم تكن تلك اللحظة المناسبة لشرح ما كنت أحس به لها.

فيما بعد، وإذا قربت مصادفات السفر بيننا، وإذا منحتني الفرصة، سأقول لها الحقيقة التي لا أخجل منها. لم يفاجئني ما كان يحدث لنا أكثر مما فاجأني، في الأمس، أن أعلم بغزو الأردين وهولندا. الأمر هو عكس ذلك. فلم يحدث لفكرتي القائلة أن ذاك كان مسألة بين القدر وبيني، سوى أنها قد دعمت. كان ذلك يتضح. لقد فصلت عن أسرتي، وهو ما كان يشكل، حقاً، اعتداء شخصياً.

كانت السماء تصحو بسرعة، صافية صفاءها في الأمس عندما كنت، في حديقتي، أطعم الدجاجات دون أن أعلم أن تلك هي المرة الأخيرة.

كانت ذكرى دجاجاتي تثير عاطفتي وتثيرها، كذلك، صورة نستور القرمزي العرف يتخبط بشراسة عندما سيحاول السيد ريفرسيه العجوز أن يمسك به.

كنت أتخيل المشهد بين الجدارين المنخفضين المطليين بالكلس، خفقات الأجنحة، الريش الأبيض الذي كان يتطاير، ضربات المنقار، وربما السيد ماتراي، لو منع من الرحيل، صاعداً فوق صندوقه لينظر من فوق الجدار ويعطي نصائح كعادته.

لم يكن ذلك يمنعني من أن أفكر، في الوقت نفسه، بهذه المرأة التي أتت على إبداء تعاطف معي في حين لم أفعل أكثر من إعطائها زجاجة فارغة التقطتها على السكة.

بينما كانت مشغولة بترتيب شعرها بأصابعها المبللة باللعاب، كنت أتساءل عن الفئة التي كانت تنتمي إليها. لم أجد إجابة. في الحقيقة، ذلك كان، بالنسبة إليّ، سيان، وخطرت لي فكرة أن أمد يدي إليها بمشط كان في جيبي، في حين كان الجار الذي كنت أضايقه يوجه إلي غمزة.

كان واهماً. فلم أكن أفعل ذلك من أجل هذا.

كنا نسير بما يكفي من البطء، وكنا بعيدين عن أي تجمع عندما بدأنا نسمع طنيناً منتظماً لم نحدد موقعه فوراً ولم يكن، في البداية، سوى اهتزاز للهواء. هتف الرجل ذو الغليون وساقاه ما زالتا في الهواء:

- إننا نراها.

بالنسبة لرجل لا يعاني الدوار، كان يحتل أفضل مكان.

علمت، فيما بعد، أنه كان مركب صقالات معدنية.

رأيتها، أنا أيضاً، عندما انحنيت لأني لم أكن بعيداً عن الحاجز المنزلق. كان الرجل يعد:

- تسع....عشر....إحدى عشرة....اثنتا عشرة....إنها اثنتا عشرة....لا شك في أن هذا يدعى سرباً....كان يمكن أن أقسم على أنها لقالق لو كان هذا موسمها ولو لم تكن تحدث صوتاً.

أنا أحصيت إحدى عشرة منها عالية في السماء. كانت، بسبب تأثير الضوء، تبدو بيضاء، مشعة، وكانت تشكل حرف «V» منتظماً.

- ماذا يفعل هذا؟

كنا ننظر إلى السماء ملتصقين ببعضنا عندما أحسست بيد المرأة على كتفي الذي كان من الممكن جداً أن تضعها عليه عن عدم انتباه.

أتت الطائرة الأخيرة من أحد ساقي الحرف V على الانفصال عن البقية وبدت تنقض في اتجاه الأرض إلى حد أن أول ما فكرنا فيه هو أنها تهوي. كانت تتضخم بسرعة غريبة، منحدرة بشكل لولبي، في حين أن الأخرى أخذت ترسم دائرة كبيرة بدلاً من أن تتابع طيرانها نحو الأفق.

أما الباقي، فقد جرى بسرعة لم يتيسر لنا، معها، وقت كي نخاف. اختفت الطائرة المنقضة عن أبصارنا، لكننا كنا نسمع زمجرتها المهددة.

في مرة أولى، مرت فوق القطار، في كل طوله، من الأمام إلى الوراء، منخفضة إلى حد كانت ردة فعلنا، معه، أن ننخفض.

لم تبتعد إلا كي تجدد مناورتها مع فرق، هذه المرة، هو أننا كنا نسمع ،فوق رؤوسنا، تكتكة الرشاش وأصوات أخرى كما لو أن خشباً يتكسر.

علت صرخات عندنا وفي أمكنة أخرى. سار القطار مسافة قصيرة ثم توقف، كحيوان جريح، بعد بضعة هزات.

ساد، خلال بعض الوقت، صمت كبير، صمت الخوف الذي كنت أواجهه للمرة الأولى ولم أكن، دون شك، أتنفس أكثر من رفاقي.

مع ذلك، واصلت النظر إلى المشهد في السماء، الطائرة التي كانت تعود إلى الصعود بشكل سهمي، وصليبيها المعقوفين المرئيين، رأس الطيار الذي ألقى علينا نظرة أخيرة والطائرات الأخرى التي كانت تدور، فوق، ملتفة إلى أن يستعيد مكانه.

- وغد!

لا أعرف من أي صدر انبثقت الكلمة. أراحتنا جميعاً وانتزعتنا من جمودنا. كانت البنت الصغيرة تبكي. كانت امرأة تكرر، وهي تدفع الأشخاص أمامها، بهيئة من لم تكن تعلم ماذا تقول:

- دعوني أمر....دعوني أمر...

- هل أنت جريحة؟

- زوجي....

- أين هو زوجك؟

كنا نبحث، آلياً، عن شكل ممدد على الأرض.

- في العربة الأخرى... ذاك الذي أصيب....سمعته.....

تركت نفسها، زائغة العينين تنزلق على حجر الصابورة الكبير، أخذت تركض صارخة.

- فرانسوا!........فرانسوا!.......

لم يكن أيٌّ منا جميلاً، ولا نشتهي أن ننظر إلى أنفسنا. بدا لي فيما يتعلق بي، أن كل شيء كان يجري بالسرعة البطيئة وأن ذلك ربما لم يكن إلا وهماً. أتذكر، أيضاً، ما يشبه مناطق صمت حول الأصوات المعزولة التي لم يزدها ذلك إلا بروزاً.

نزل رجل. ثم ثانٍ، ثم ثالث، وكانت أولى ردود أفعالهم أنهم تبوّلوا دون أن يُتعبوا أنفسهم بالابتعاد، بل كما بالنسبة لأحدهم دون أن يديروا ظهرهم لنا.

كان يرتفع، في مكان أبعد، نحيب متواصل، نوع من النعاب الحيواني.

أما جولي، فقد نهضت، أفلتت صدارتها من تنورتها المدعوكة وقالت بهيئة امرأة سكرى:

- إيه حسناً، يا خنزيري!

كررت ذلك مرتين أو ثلاثاً، وربما كانت لا تزال تكرره عندما نزلت بدوري وساعدت المرأة في السواد على الانزلاق إلى الأرض.

لماذا كانت تلك هي اللحظة التي سألتها، فيها، قائلاً:

- ما اسمك؟

لم تجد السؤال سخيفاً ولا في غير محله لأنها أجابت قائلة:

- آنا.

لم تستعلم عن اسمي. مع ذلك قلته لها:

- أنا اسمي مارسيل، مارسيل فيرون.

كان يمكن، حقاً، أن أبول كالآخرين. لم أجرؤ على ذلك بسببها، وكان هذا الامتناع يؤلمني.

كان هناك مرعى على الجانب المنخفض مع عشب مرتفع، أسلاك شائكة، وعلى مسافة مائة متر مزرعة بيضاء ولا يرى، فيها، أحد. كانت دجاجات قد بدأت، حول كومة من الزبل، تنقر في وقت واحد، كلها، مهتاجة كما لو كانت قد خافت بدورها.

كان شاغلوا العربات الأخرى قد نزلوا وهم في مثل حيرتنا وقلة حيلتنا.

كان الجمع أمام إحدى العربات، أشد كثافة، أشد وقاراً. أشاح بعضهم بوجوههم. جاء أحدهم ليعلن:

- جرحت امرأة. أفترض أن ليس بينكم طبيب.

لماذا بدا هذا الكلام مضحكاً؟

هل يسافر الأطباء في عربات الماشية؟ أيمكن لأحدنا أن يبدو طبيباً؟

في طرف القافلة، كان السائق الأسود الوجه واليدين يلوح بذراعيه، وعلمنا، بعد ذلك بقليل، أن الميكانيكي قد قتل برصاصة في وجهه.

- إنهم يعودون! إنهم يعودون!

اختنقت الصرخة. الجميع قلدوا الأوائل الذي خطرت لهم فكرة أن يرقدوا على بطونهم في المرج، على التراب. فعلت كالآخرين وكذلك آنا التي تتبعني، الآن، ككلب لا صاحب له.

كانت الطائرات، في الأعلى، ترسم دائرة جديدة، في مكان يبعد قليلاً في اتجاه الغرب، وفي هذه المرة، لم يفتنا شيء من المناورة. رأينا طائرة تهبط لولبياً وتعود إلى الانتصاب في اللحظة التي بدا فيها أنها ستسحق على الأرض، تطير منخفضة وتعود إلى الصعود لولبياً، مائلة على الجناح لتعيد سلوك الطريق نفسه مطلقة نيران رشاشها.

كانت تبعد عنا بما يتراوح كيلومترين أو ثلاثة. لم نكن نرى الهدف الذي كانت تخفيه غابة من الصنوبر، وربما كان قرية أو طريقاً. وعادت، فعلاً من جديد لتلحق بالقطيع الذي كان ينتظرها في الأعلى وتتبعه نحو الشمال.

ذهبت، كالآخرين، لرؤية الميكانيكي الميت. كان قسم من جسده على المصطبة، قرب الموقد الذي بقي مفتوحاً، وكان رأسه وكتفاه متدلية في الفراغ. لم يعد له وجه، لا شيء سوى كتلة سوداء وحمراء كان الدم يتسرب منها بقطرات كبيرة كانت تنسحق على حجارة الصابورة الرمادية.

كان أول ميت رأيته في الحرب. كان أول ميت رأيته، تقريباً، غير أبي الذي كانوا قد جهزوه عندما عدت إلى البيت. كنت أشعر بألم في قلبي وأبذل جهدي كي لا أظهر ذلك لأن آنا كانت إلى جانبي ولأنها أمسكت، في تلك اللحظة، بذراعي بالصورة الطبيعية التي تتنزه بها، فتاة في الشارع مع عاشقها.

اعتقد أنها كانت أقل تأثراً مني. ومع ذلك كنت، أنا نفسي، أقل تأثراً مما كان يخيل إليّ. غالباً ما كان هناك موتى في المصحة، وكانوا يجنبوننا رؤيتهم. كانت الممرضات يتصرفن في الوقت المناسب، يأتين لأخذ مريض على سرير، في منتصف الليل أحياناً. كنا نعرف ماذا كان يعني ذلك.

كانت هناك غرفة خاصة للموت، وأخرى في القبو كان يحتفظ، فيها، بالجثث إلى أن تطلبها الأسر، أو حتى تدفن في مقبرة البلدة الصغيرة.

هؤلاء الموتى كانوا مختلفين. لم تكن هناك الشمس، الزهور، الدجاجات التي تنقر، الذباب الذي يطير حول رؤوسنا.

- لا يمكن أن يترك هنا.

تبادل الرجال النظرات.

تقدم رجلان مسنان لمساعدة السائق. لا أدري أين وضعوا الميكانيكي. عندما عدت إلى عكس اتجاه القطار، لمحت ثقوباً في جدرانه وشقوقاً متطاولة

كانت تظهر الخشب فاتح اللون كما عندما تقطع شجرة. جرحت امرأة، يبدو أن كتفها قد انتزع تقريباً.

كانت هي التي كان يسمع أنينها كامرأة تلد، كانت تحيط بها نساء مسنات، خاصة لأن الرجال المرتبكين كانوا يبتعدون في صمت

- منظر بشع.

- ماذا سنفعل؟ هل نبقى هنا إلى أن يعودوا لاصطيادنا؟

رأيت عجوزاً جالساً على الأرض ومنديل دام على وجهه. كانت زجاجة أصيبت برصاصة قد انفجرت في يده وحرثت شظايا زجاج خديه. لم يكن يشتكي. لم يكن يرى غير عينيه اللتين لا تعبران إلا عن نوع من الذهول.

- وجدوا شخصاً ليعالجها.

- من؟

- قابلة في القطار.

رأيتها، كانت عجوزاً قصيرة، خشنة، مكتنزة الجسم، بجديلة زرعت في قمة رأسها. لم تكن من عربتنا.

كان الركاب يتجمعون، دون أن يعوا ذلك، على أساس العربات، وأمام عربتنا، كان الرجل ذو الغليون يتابع الاحتجاج عن غير اقتناع. كان أحد النادرين الذين لم يذهبوا لرؤية الميكانيكي الميت.

- ماذا ينتظرون بحق الشيطان؟ ألا يوجد، إذن، قواد قادر على تسيير هذه القاطرة اللعينة؟

أتذكر رجلاً يعاود الصعود على الصابورة حاملاً دجاجة نافقة من قائمتها، وجلس لكي ينتفها. لم أسع إلى الفهم. فبما أن لا شيء كان يجري كما في الحياة العادية، فكل شيء يغدو طبيعياً.

- السائق يبحث عن رجل قوي ليغذي المرجل في أثناء محاولته الحلول محل الميكانيكي. يظن أنه سيتمكن من ذلك. ليس الأمر كما لو كانت حركة القطارات طبيعية.

على عكس كل توقع، كان القواد هو الذي تطوع دون أن يتباهي بذلك. كان يبدو أن هذا يسليه كالمتفرجين الذي يصعدون إلى المسرح تلبية لطلب لاعبي الخفة.

خلع سترته وربطة عنقه وساعته التي عهد بها إلى جولي قبل أن يتوجه إلى القاطرة.

كان الفروج نصف العاري يتدلي من ثقب في السقف. عاد ثلاثة من رفاقنا، يتصببون عرقاً، بحزم من القش.

- أفسحوا مكاناً أيها الرفاق.

الفتى الذي يبلغ الخامسة عشرة أتى، من جهته، من المزرعة المهجورة بقدر من الألمنيوم ومقلاة.

ألم يكن آخرون يفعلون ذلك في بيتي؟ تعود إلى ذهني محاورات جنونية أضحكتنا على الرغم منا!

- عسى أن لا يرمي بالقطار إلى أسفل التلة!

- والسكة أيها الأبله؟

- ألا نرى قطارات تخرج عن الخط حتى في زمن السلم؟ ماذا إذن؟ من منا الأبله؟.

تحركت مجموعة، لبعض الوقت أيضاً، حول القاطرة، وكانت مفاجأة سماع هذه الأخيرة تصفر، أخيراً، كقطار عادي. مضينا ببطء، دون احتكاك، قبل أن نسرع قليلاً.

بعد عشر دقائق، مررنا أمام طريق كانت تتخطى السكة وكانت مزدحمة بالعربات والمواشي، مع سيارات كانت تحاول أن تشق دربها هنا

وهناك. رفع فلاحان أو ثلاثة أيديهم تحية لنا، وكانوا أكثر رزانة واكتئاباً منا، وبدا لي أنهم كانوا ينظرون إلينا بحسد.

فيما بعد، رأينا طريقاً ظلت بعض الوقت موازية للسكة وعليها شاحنات عسكرية تسير في الاتجاهين ودراجات نارية تتسلل مفرقعة.

أفترض، لكنني لم أتأكد من ذلك فيما بعد، أن تلك كانت الطريق الإقليمية من أوغمان إلى ريتيل. على كل حال، كنا نقترب من ريتيل، إذا صدقنا الإشارات والبيوت التي يتزايد عددها في المشهد، نوع البيوت الذي نجده حول المدن.

- هل أتيت من بلجيكا؟

لم أجد شيئاً آخر أقوله لآنا الجالسة إلى جانبي، على الصندوق.

- من نامور. قرروا تحريرنا في وسط الليل. كان يجب أن ننتظر إلى الصباح كي نسترد حوائجنا لأنه لم يكن مع أحد مفتاح المكان الذي وضعوها فيه. فضلت أن أركض إل المحطة وأقفز إلى أول قطار.

لم أحر جواباً. ربما فوجئت على الرغم مني على اعتبار أنها أضافت:

- كنت في سجن النساء.

لم اسألها لماذا. بدا لي ذلك شبه طبيعي. لم يكن ذلك، على كل حال، أغرب من وجودي هنا، في عربة مواشٍ وزوجتي وابنتي في قطار آخر لا يعلم إلا الله أين هو، من أن يكون معنا، في القاطرة، ميكانيكي ميت وعجوز جرحته زجاجة فجرتها رصاصة رشاش في يده.

كل شيء أصبح، بعد الآن، طبيعياً.

- هل أنت من فوماي؟

- نعم.

- أكانت ابنتك؟

- نعم. زوجتي في الشهر الثامن من حملها.

- سوف تلقاها في ريتيل.

- ربما.

الآخرون الذين كانوا جنوداً من قبل، والذين كانوا أكثر مني فهماً للموقف، رتبوا القش على الأرضية احتياطاً لليلة القادمة، كان ذلك يشكل نوعاً من سرير كبير مشترك. بعضهم تمددوا عليه بالفعل. كان لاعبو الورق يتبادلون زجاجة من الكحول لم تخرج من حلقتهم.

دخلنا إلى ريتيل، وهناك، فجأة، وللمرة الأولى شعرنا بأننا لم نعد بشراً كالآخرين، بل كنا لاجئين. أقول «نحن» على الرغم من أني لم أتلق مكاشفات من رفاقي. ومع ذلك، فإننا توصلنا، في هذا القدر القليل من الوقت، إلى الارتكاس بالصورة نفسها إلى حد ما. كان الإعياء نفسه، مثلاً، هو الذي يقرأ على الوجوه، إعياء مختلف جداً عن الذي يحس به المرء بعد ليلة عمل أو أرق.

ربما لم نكن قد وصلنا، بعد، إلى اللامبالاة، لكن كل واحد تخلى عن التفكير في نفسه.

وفضلاً عن ذلك، التفكير في ماذا؟ لم نكن نعرف شيئاً. ما كان يجري لم يكن على مستوانا، ولم يكن يجدي أن نفكر أو نناقش. على طول ما لا أدري من كيلومترات، مثلاً، كنت قلقاً بصدد المحطات. المحطات الصغيرة والمواقف كانت، كما سبق أن قلت مقفرة؛ بدون حتى موظف يظهر لدى مرور القطار بصفارته ورايته الحمراء.

وبالمقابل، كانت أهمها غاصة بالناس وكان يجب إقامة قوى أمن على الأرصفة. انتهيت إل إيجاد إجابة بدت لي الإجابة الصحيحة هي أن القطارات البطيئة قد ألغيت.

كان الأمر هو نفسه بالنسبة للطرقات، بعضها كان مقفراً لأن المرور ربما كان قد منع فيها لأسباب عسكرية.

واحد من فوماي لم أكن أعرفه أكد لي، هذا الصباح بالضبط، بينما كنت جالساً مع آنا، أنه كانت هناك خطة إجلاء للمدينة وأنه رأى إعلاناً في البلدية.

نصت الخطة على قطارات خاصة يجب أن تأخذ اللاجئين إلى قرى استقبال تدبرت أمر إيواءهم.

هذا ممكن. لم أشاهد الإعلان. نادراً ما كنت أذهب إلى البلدية وعندما وصلنا، زوجتي وصوفي وأنا، إلى المحطة، قفزنا إلى أول قطار جاء.

ما جعلني أفكر في أن جاري كان مصيباً هو أن ممرضات وكشافين ومجموعة استقبال كاملة كانوا في انتظارنا في ريتيل. كانت قد هيئت محفات كما لو كانوا يعرفون، مسبقاً، ما جرى لنا، لكني علمت، بعد قليل، أن قطارنا لم يكن أول قطار يتعرض لنيران الرشاشات في الطريق.

أخذ رجل الغليون يصرخ حتى قبل التوقف الكامل للقطار:

- ونساؤنا؟ وأولادنا؟

سألت سيدة مسنة بملابس بيضاء كانت تنتمي، دون شك، إلى المجتمع الراقي:

- من أين جئتم؟

- من فوماي.

أحصيت أربعة قطارات، على الأقل، في المحطة. كان هناك حشد يملأ قاعات الانتظار ووراء الحواجز لأن حواجز قد أقيمت كما يجري لدى المواكب الرسمية. كان المكان يعج بعسكريين، بضباط.

- أين الجرحى؟

- لكن ماذا بشأن زوجتي وحق السماء؟

- ربما كانت في القطار الذي وجه إلى رامس.

- متى؟

كان يزداد عدوانية وشراسة كلما زادت محدثته لطفاً، وكان يتعمد ذلك لأنه بدأ يحس بأن له حقوقاً.

- منذ حوالي الساعة.

- ألم يكن يستطيع انتظارنا؟

دمعت عيناه لأنه كان، مع ذلك، قلقاً وربما كان في حاجة إلى أن يحس بنفسه تعيساً. هذا لم يمنعه من أن ينقض، بعد لحظات، على السندويشات التي كانت فتيات يمررنها في سلال كبيرة، من عربة إلى أخرى.

- كم يحق لي أن آخذ منها؟

- ما يسد جوعك. لا فائدة من التمون. ستجدون سندويشات طازجة في المحطة المقبلة.

قدمت لنا أكواب من القهوة الساخنة. كانت ممرضة تمر سائلة:

- أما من جرحى؟ أما من مرضى؟

كانت هناك رضاعات جاهزة وسيارة إسعاف في آخر الرصيف. على السكة المجاورة، بدا قطار فلمنكيين على أهبة الرحيل. كان هؤلاء ينظرون إلينا بفضول ونحن نلتهم السندويشات.

أسرة فان ستراتن كانت من أصل فلمنكي، أقامت، منذ ثلاثة أجيال، في فوماي ولم تعد تتكلم بلهجتها الأصلية. ومع ذلك، فما زالوا، في مقالع الأردواز، يسمون حماي الفلمنكي.

- إلى العربات! انتباه........

حتى الآن، جرى الاحتفاظ بنا ساعات كاملة في المحطات أو في أي مكان على خطوط مرآب. والآن، كنا نرحل بأسرع ما يمكن كما لو كانوا مستعجلين على الخلاص منا.

لم أستطع أن أقرأ عناوين الصحف المعروضة في الكشك لأنه كان يوجد أكثر مما ينبغي من الناس على الرصيف. أعلم، فقط، أنه كان هناك عنوان ضخم جداً وردت، فيه، كلمة «قوات».

بدأنا المسيرة وكانت فتاة الساعدة، لا تزال تركض على طول القطار لتوزع آخر ألواح الشوكولاته معها.. ألقت بقبضة منها في اتجاهنا. توصلت إلى التقاط واحد لآنا.

كنا سنلقى مراكز الاستقبال نفسها في رامس وغيرها. كان القواد قد استعاد مكانه بيننا بعد أن حصل على حق الاغتسال في دورات مياه المحطة، وكان يتخذ سمات بطل. سمعت جولي تدعوه جيف. كان يمسك، في يده، بزجاجة كوانترو اشتراها من البوفيه، وكذلك برتقالات كان عطرها ينتشر في العربة.

بين ريتيل ورامس، حوالي نهاية بعد الظهر، لأننا لم نكن نسير بسرعة كافية، جرى أن نهضت فلاحة وهي تغمغم:

- سحقاً! لن أدع نفسي أمرض.

اقتربت من الباب المفتوح ووصلت إلى علبة من الكرتون على الأرضية، وأقعت وقضت حاجتها وهي لا تزال تتكلم من بين أسنانها.

كانت تلك، أيضاً، علامة. كانت الأعراف تتهاوى، خاصة منها ما كانت صامدة أمس. اليوم، لم يكن أحد يحتج لدى رؤيته للقواد يضع رأسه على بطن جولي الربلة. سألتني آنا:

- أليس لديك سيجارة؟

- لا أدخن.

منعت من ذلك في المصحة ولم تعاودني الرغبة في التدخين فيما بعد. مرر لها جاري سيجارة. لم يكن معي كبريت أيضاً، وكنت قلقاً، بسبب القش من رؤيتي إياها تدخن، في حين كان آخرون يدخنون منذ الأمس، ربما كانت تلك غيرة من جانبي، انزعاجاً لا أجد له تفسيراً.

بقينا زمناً طويلاً في ضاحية من ضواحي رامس، ننظر إلى مؤخرة البيوت، وفي المحطة، أعلن علينا أن قطارنا سينطلق بعد نصف ساعة.

عند ذلك جرى الانقضاض على البوفيه ودورات المياه ومكتب الاستعلامات الذي لم يسمع أحد، فيه، عن نساء وأطفال ومرضى في قطار قادم من فوماي.

كانت قطارات تمر دون انقطاع في كل الاتجاهات، قوافل قوات، ذخائر، لاجئين وما زلت أتساءل لماذا لم تقع حوادث.

عرضت آنا فكرة.

- ربما تركت لك زوجتك رسالة؟

- أين؟

- لماذا لا تسأل هؤلاء السيدات؟

كانت تشير إلى الممرضات وفتيات هيئة الاستقبال.

- أي اسم قلت؟

أخرجت أكبرهن مفكرة من جيبها كانت ترى، فيها، أسماء مكتوبة بأياد مختلفة غالباً خرقاء

- فيرون؟ كلا. أهي بلجيكية؟

- إنها من فوماي، مصحوبة ببنت صغيرة في الرابعة من عمرها معها دمية بثياب زرقاء.

كنت متأكداً من أن صوفي لم تترك دميتها. تابعتُ بجهد:

- إنها حامل في شهرها الثامن.

- راجع العيادة لترى إذا لم تشعر بأنها في خير

كان مكتباً جرى تحويله وكانت تفوح منه رائحة المعقم. كلا! استقبلوا عدداً م النساء الحوامل. اقتضى الأمر نقل إحداهن إلى دار التوليد لوضع مولودها، لكنها لم تكن تدعى فيرون، وكانت معها أمها.

- هل أنت قلق؟

- ليس كثيراً.

كنت متأكداً، مسبقاً، من أن جان لن تترك لي رسالة. لم يكن هذا من طبعها. لن تخطر لها فكرة إزعاج واحدة من هؤلاء السيدات، كتابة اسمها في مفكرة ولفت الانتباه إليها.

- لماذا تضع يدك، بهذا القدر، على جيبك الأيسر؟

- بسبب نظارتيّ الاحتياطيتين. أخشى أن أضيعهما أو أكسرهما.

وزعوا علينا، أيضاً، سندويشات وبرتقالة لكل شخص وقدمت لنا قهوة وسكر دون تقنين. وضع بعضهم قطع السكر في جيوبهم.

لمحت كومة وسائد في إحدى الزوايا، فسألت عما إذا كان يمكن استئجار اثنتين منها فقيل لي إنهم لم يكونوا يعلمون، أن القيّمة كانت غائبة ولن تعود قبل ساعة.

عند ذلك أخذت، وجلاً قليلاً، وسادتين وعدت إلى العربة، وأسرع رفاقي ليأتوا بالوسائد الأخرى.

عندما أفكر في ذلك، يدهشني أن لا نكون، آنا وأنا، قد قال أحدنا للآخر شيئاً تقريباً. لم يكن أحدنا يترك الآخر كما لو كان ذلك باتفاق مشترك. وحتى عندما وصلنا في رامس لنذهب إلى دورات المياه، كل منا في جانب وجدتها تنتظرني أمام باب الرجال. أعلنت لي بفرح طفولي قائلة:

- اشتريت قطعة صابون.

كانت تنبعث منها رائحة صابون وظل شعرها الذي بللته لتمشطه رطباً.

استطيع أن أحصي عدد المرات التي ركبت فيها قبل هذه الرحلة قطاراً. المرة الأولى فيها كانت في عمر الرابعة عشرة للذهاب إلى سان جيرفيه، فقد أعطيت بطاقة تحتوي على اسمي وجهتي وملاحظة تقول: «في حال وقوع حادث أو صعوبات، يرجى التوجه إلى السيدة جاك دلموت في فوماي، الأردين».

بعد أربع سنوات، عندما عدت إلى بيتي وقد بلغت الثامنة عشرة، لم أعد في حاجة إلى بطاقة من هذا النوع.

بعد ذلك، لم أذهب إلى أبعد من ميزيير، دورياً، لأرى الاختصاصي والمرور تحت جهاز التصوير الشعاعي.

كانت السيدة دلموت المحسنة إليّ كما كان يقال، وانتهيت إلى تبني الكلمة أنا أيضاً. لا أتذكر الظروف التي أدت بها إلى الاهتمام بي. كان ذلك بعد حرب ١٩١٤ بقليل، ولم أكن قد بلغت، بعد، الحادية عشرة.

يجب أن تكون قد أعلمت بهرب أمي وسلوك أبي ووضعي كطفل شبه مهجور. في تلك الفترة، كنت أرتاد المركز الكنسي، وفي يوم أحد، أعلمني كاهننا، الأب دوبوا، أن سيدة تدعوني إلى العصرونية معها في يوم الخميس التالي.

كنت أعرف ككل فوماي، اسم دلموت، على اعتبار أن الأسرة كانت تملك مقالع الأردواز الرئيسية وأن كل واحد في المدينة كان، بالتالي، مرتبطاً بهذه الأسرة بدرجات متفاوتة من المباشرة. هؤلاء الدلموت كانوا، في ذهني، الدلموت «المعلمين».

السيدة جاك دلموت التي كانت آنذاك، في حوالي الخمسين من عمرها، كانت دلموت «أعمال الخير».

كانوا، كلهم، إخوة وأخوات وأبناء عم وكان لثروتهم أصل مشترك، لكنهم كانوا يشكلون، مع ذلك، عشيرتين متمايزتين.

أ كانت السيدة دلموت، كما زعم بعضهم، خجلة من قسوة أسرتها؟ كانت. وقد ترملت في سن مبكرة، قد جعلت من ابنها طبيباً، وقد قتل في الجبهة.

منذ ذلك الحين، كانت تعيش بصحبة خادمتين في بيت حجري كانت تمضي ساعات بعد الظهر في رواقه الخارجي. وكانت ترى، من الخارج، تحيك من أجل مسني المأوى مرتدية ثوباً أسود مزيناً بياقة من الدانتيل الأبيض. كانت رقيقة ومتوردة وتنشر رائحة سكرية.

في هذا الرواق، قدمت لي شراب الشوكولاتة وقطع الحلوى طارحة عليَّ أسئلة عن المدرسة ورفاقي وما أود أن أكون في المستقبل ....الخ وسألتني، متجنبة الكلام عن أمي، عما إذا كانت خدمة القداس تسرني بحيث كنت طفلاً في الجوقة لمدة سنتين.

كانت تدعوني كل خميس تقريباً. وكان صبي صغير أو بنت صغيرة يشاركان، أحياناً، في عصرونيتنا. كانت تقدم، دائماً، قطعاً من الحلوى الجافة المصنوعة في المنزل من نوعين: بعضها ذات لون أصفر فاتح، مع الليمون، والأخرى كانت بنية مع البهارات واللوز.

ما زلت أتذكر رائحة الرواق، الحرارة التي لم تكن فيه، خلال الشتاء، نفسها في أي مكان آخر والتي كانت تبدو لي أكثر نعومة وفتنة.

جاءت السيدة دلموت لتراني عندما أصبت بما ظنوه، أولاً، نزلة صدرية جافة، وكانت هي التي أخذتني في سيارتها التي كان يقودها ديزيريه إلى اختصاصي في ميزيير.

بعد ثلاثة أسابيع، قبلت، بفضلها في مصحة لم أكن أجد، فيها، مكاناً لولا تدخلها. كانت هي، أيضاً، التي قدمت لنا، عندما تزوجت، الكأس الفضية الموجودة على خزانة المطبخ. كان وضعها أفضل في غرفة طعام، لكننا لا نملك هذه الغرفة.

أظن أن السيدة دلموت لعبت، بصورة غير مباشرة، أهم دور في حياتي، وبصورة أكثر مباشرة في رحيلي عن فوماي.

أما هي، فلم تكن في حاجة إلى الرحيل، لأنها، وقد أصبحت مسنة، موجودة في شقتها في نيس ككل سنة في هذا الفصل.

لماذا أخذت أفكر فيها؟ ذلك لأني كنت أفكر، فيها، في عربة المواشي التي كانت تسود، فيها الظلمة، وأنا أتساءل عما إذا كنت سأجرؤ على الإمساك بيد آنا التي كان كتفها يلاصق كتفي.

كانت السيدة دلموت قد جعلت مني طفل جوقة، وكانت آنا خارجة من السجن. لم أهتم بمعرفة السبب الذي حكمت من أجله ومقدار عقوبتها.

تذكرت، فجأة، أنه لم تكن معها حوائج ولا حقيبة يد وأنه عندما فُتِحت الأبواب أمام السجينات لم يمكن أن تردّ إليهن حوائجهن. فمن المحتمل، إذن، أن لا يكون معها مال. إلا أنها قالت لي، منذ قليل أنها «اشترت لوح صابون».

كان جيف وجولي الممددان جنباً إلى جنب يتبادلان القبلات على الشفتين، وكنت أشم رائحة لعابهما.

- ألا ترغب في النوم؟

- وأنت؟

- ربما استطعنا أن نتمدد.

كان كل واحد مرغماً على الاحتكاك بجيرانه، وكان يمكن القسم على أنه كانت هناك سيقان وأرجل في كل مكان.

- هل أنت مرتاحة؟

- نعم.

- ألا تشعرين بالبرد؟

- كلا.

وراء ظهري، كان من خلته تاجر مواش يتسلق بصمت على جارته التي لامست كليتي وهي تباعد بين ركبتيها. كنا قريبين من بعضنا وكان انتباهي متيقظاً إلى حد عرفت، معه، لحظة الولوج بالضبط.

كان الأمر كذلك بالنسبة لآنا، وأستطيع أن أقسم على أنه قد لامس وجهها وشعرها وفمها المنفرج خدي، لكنها لم تقبلني ولم أحاول أن أقبلها.

آخرون غيرنا كانوا مستيقظين ولا بد من أنهم كانوا يعلمون. كانت حركة القطار تهزنا جميعاً، وأصبح صوت العجلات على السكة، بعد بعض الوقت، موسيقانا.

ربما سأعبر عن نفسي بفجاجة، بشكل أخرق لأني كنت دائماً، رجلاً عفيفاً حتى في الفكر.

لم أكن متمرداً على أسلوب عيشي. أنا الذي اخترته. حققت، بصبر، مثلاً أعلى منحني، حتى الأمس، وأنا أكرر ذلك بصدق، الرضى.

الآن كنت هناك، في الظلام، مع أغنية القطار وأضواء حمراء وخضراء كانت تمر وأسلاك برقية وأجساد أخرى ممددة على القش، وقريباً جداً مني، في متناول يدي، كان ينجز ما كان الأب دوبوا يسميه فعل الجسد. فوق جسدي أنا، راح ينضغط جسدُ امرأة، متوتر، مهتزّ، ويدٌ تنزلق لترفع الثوب الأسود، تُنزل السروال حتى القدمين، ثم تتخلص منه بحركة طريفة.

لم نتبادل القبل بعد. كانت آنا هي التي تشدّني وتجعلني أنقلب على نفسي، صامتَيْن صمتَ الثعابين. أصبح تنفس جولي أكثر تقطعاً في اللحظة التي كانت آنا تساعدني على الولوج فيها الذي جرى فجأة.

لم أصرخ. كدت أفعل ذلك. كدت أن أتلفظ بكلمات لا طائل تحتها، أن أقول شكراً، أن أعبر عن سعادتي وأن أشكو أيضاً لأن هذه السعادة كانت تؤلمني ألم السعي إلى بلوغ المستحيل.

كنت أود أن أعبر، دفعة واحدة، عن حناني إزاء هذه المرأة التي لم أكن أعرفها في الأمس، لكنها كانت كائناً بشرياً يصبح، في نظري، الكائن البشري.

كنت أؤلمها دون علمي من حيث أن يديّ كانتا تستميتان في محاولة الاستيلاء عليها كاملة:

- آنا.

- صه!

- أحبك.

- صه!

للمرة الأولى. كنت أقول «أحبك» هكذا، من أعماقي...ربما لم تكن هي التي أحبها، بل الحياة، لا أدري ماذا أقول: كنت في حياتها. كنت أود أن أبقى فيها ساعات، أن لا أعود أفكر في شيء آخر، أن أصبح كنبتة في الشمس.

تلاقى فمانا اللذان كانا على القدر نفسه من الرطوبة. لم أفكر في أن أسألها، كما كنت أفعل لدى تجارب صباي الأول، «هل أستطيع؟».

كنت أستطيع لأنها لم تكن متضايقة، لم تكن تصدني، بل كانت، على العكس من ذلك، تمسك بي فيها.

انتهت شفاهنا إلى التباعد في الوقت نفسه الذي استرخت، فيه، أطرافنا. قالت هامسة:

- لا تتحرك.

داعبت، ونحن غير مرئيين، جبيني على مهل، تابعت يدها كنحات، خطوط وجهي. سألتني وهي ما تزال تهمس:

- هل طاب لك ذلك؟

هل كنت واهماً عندما فكرت في أني كنت على موعد مع القدر؟

(٤)

كالعادة، استيقظت عند الفجر، حوالي الساعة الخامسة والنصف صباحاً. كان هناك، من قبل، بضعة أشخاص، فلاحين خاصة، جالسين على أرضية العربة. مفتوحي العيون. من أجل عدم إيقاظ الآخرين، اكتفوا بتحيتي بالنظرات.

على الرغم من أن أحد الأبواب المنزلقة قد أغلق ليلاً، فقد كنا نحس بالبرودة الحادة التي تسبق شروق الشمس وخوفاً من أن تصاب آنا بالبرد، وضعت سترتي على كتفيها وصدرها.

لم أكن، بعد، قد نظرت إليها حقاً. أفدت من نومها كي أتفحصها جدياً، مضطرباً مما كنت أكتشفه. كانت الخبرة تعوزني حتى ذلك الحين. لم أر من ينام غير زوجتي وابنتي، وكنت أعرف، جيداً، تعبير كل منهما حوالي الصباح.

كانت جان تبدو، عندما لا تكون حاملاً يضغط عليها وزن جسدها، أفتى، عند الفجر منها أثناء النهار. كانت سماتها كأنها ممحوة، تستعيد برطمة بنت صغيرة، بريئة وراضية كبرطمة صوفي تقريباً.

كانت آنا أصغر سناً من زوجتي: كنت أخمن لها اثنتين وعشرين سنة، ثلاث وعشرين كحد أعلى، لكن وجهها كان وجه امرأة أكثر نضجاً، وقد تحققت من ذلك هذا الصباح. تراءى لي، أيضاً، وأنا أنظر إليها عن كثب، أنها كانت تنتمي إلى عرق أجنبي.

لم يكن ذلك فقط لأنها آتية من بلد آخر لا أعرفه، بل لأنه كانت لها حياة أخرى، أفكار أخرى، صور أخرى في الشعور مختلفة عن أهالي فوماي وعن كل من كنت أعرفهم.

بدلاً من أن تسترخي وتفرغ تعبها، كانت تنطوي على نفسها، في وضعية دفاعية وفي وسط جبينها تجويف، وكانت زاويتا فمها ترتعشان، أحياناً، كما لدى مرور ألم أو صورة كريهة.

لم يكن لحمها، أيضاُ، يشبه لحم جان. كانت أشد تماسكاً وكثافة، مع عضلات تستطيع أن تنشد فوراً، على صورة القطط.

كنت أجهل أين نحن. كانت أشجار صفصاف تحد مراعٍ وحقول قمح لا تزال خضراء. وكانت لوحات إعلانية تمر، كما في كل مكان، ومررنا إلى جوار طريق مقعرة تقريباً لايذكر شيء فيها بالحرب. كان لدي ماء في زجاجاتي، منشفة وفرشاة وكل ما يلزم في حقيبتي. أفدت من ذلك لأحلق لأني كنت خجلاً، منذ الأمس، من الشعرات الصهباء التي يبلغ طولها نصف سنتمتر على خدي وذقني. عندما انتهيت، كانت آنا تنظر إليَّ دون حراك، ولم أستطع أن أعرف منذ كم كانت مستيقظة.

يجب أن تكون أفادت، مثلي منذ قليل، من الفرصة كي تراقبني بلطف، ابتسمت لها وأنا أجفف وجهي وردت لي ابتسامتي بصورة بدت لي قسرية، أو كما لو كان ذهنها في مكان آخر.

كنت لا أزال أرى الثنية على جبينها. عندما نهضتْ على مرفق واحد، اكتشفتْ سترتي التي تغطيها:

- لماذا فعلت ذلك؟

لو لم تكن قد بدأت الكلام لما عرفت ما إذا كان يجب أن أتوجه إليها بصيغة رفع الكلفة، أم لا. طرحت السؤال على نفسي. بفضلها، أصبح ذلك سهلاً.

- قبل شروق الشمس كان الجو بارداً إلى حد كافٍ.

لم تكن تستجيب كجان أيضاً. كان من شأن جان أن تغالي في الشكر، أن تظن أنها مرغمة على الاحتجاج، على أن تبدو متأثرة.

هذه الأخيرة سألتني ببساطة:

- هل نمت؟

- نعم.

كانت تتكلم بصوت منخفض بسبب الذين كانوا لا يزالون نياماً، لكنها لم تر من الضروري أن تحيي، كما فعلت أنا، بنظرة، رفاقنا الذين استيقظوا وراحوا ينظرون إلينا.

أتساءل عما إذا لم يكن هذا هو الذي لفت نظري، لديها، منذ أن تسللت أمس، إلى عربتنا. لم تكن تعيش مع الآخرين، لم تكن تشارك. كانت تبقى وحيدة بين الآخرين.

يبدو مضحكاً أن أقول هذا بعد الذي جرى مساء الأمس. مع ذلك، أفهم نفسي. تبعتني على طول القطار في حين أني لم أنادها. أعطيتها زجاجة فارغة دون أن أطلب شيئاً مقابلها. لم أتحدث إليها، لم أطرح عليها أي سؤال.

قبلت مكاناً على حقيبتي دون أن تحس بالحاجة إلى أن تقول شكراً، كما هي الحال، الآن، مع سترتي. وعندما تقارب جسدانا، عَرَّتْ بطنها وقادت حركاتي.

- ألست عطشى؟

كان لا يزال هناك ماء في الزجاجة الثانية وسكبت لها منه في كوب نزهة وضعته زوجتي في الحقيبة.

- كم الساعة؟

- السادسة وعشر دقائق.

- أين نحن؟

- لا أدري.

مررت أصابعها بين شعرها وهي لا تزال تتفحصني بهيئة متأمِّلة. انتهت إلى أن تستنتج لذاتها.

- أنت هادئ. تَبقى دائماً هادئاً، الحياة لا تخيفك. ليس لديك مشاكل، أليس كذلك؟

زمجرت جولي الضخمة:

- ألا تستطيعيان، أنتما الاثنان، أن تصمتا؟

ابتسمنا وجلسنا على الحقيبة ننظر إلى المشهد الذي كان يمر. أخذت يدها وتركتني أفعل وقد فاجأها ذلك قليلاً، على ما أظن، خاصة عندما حملتها إلى شفتيّ لأطبع قبلة على طرف أصابعها.

بعد ذلك بكثير، ذكرني خروج من الصلاة في إحدى القرى بأننا في يوم أحد واضطربت لدى تفكيري بأني كنت في هذه الساعة، منذ يومين، في بيتي أتساءل عما إذا كنا سنرحل.

رأيت نفسي، من جديد، ألقي بحبوب الذرة للدجاجات بينما كان الماء يسخن من أجل قهوتي، ثم تذكرت رأس السيد ماتراي يطل من فوق الجدار وزوجتي على النافذة ووجهها متورم ومشدود معاً، وفيما بعد استعدتُ صوت ابنتي القلق.

ظننت، أيضاً، أني أسمع الحوار المضحك على الراديو بصدد العقيد الذي لم يمكن العثور عليه وفهمته، الآن، بصورة أفضل وقد غصت أنا نفسي في هذا الخضم.

كنا نسير ببطء مرة أخرى. جعلنا منعطف في السكة نلتف بصورة كاملة تقريباً، حول القرية المزروعة على تلة.

لم يكن للكنيسة، ولا الشكل نفسه، ولا اللون نفسه اللذان كانا لكنيستنا وبيوتنا، لكن المؤمنين كانوا يتصرفون في فناء الكنيسة وفق طقوس متماثلة.

كان الرجال الذين يرتدون الملابس السوداء والمسنون، جميعهم، لأن الآخرين كانوا في الجبهة، يقفون جماعات في الباحة، وكان جلياً أنهم لن يلبثوا أن يدخلوا إلى النزل.

المسنات كن يذهبن فرادى، مستعجلات، ملتصقات بالجدران، في حين كانت البنات والمراهقون ينتظرون بعضهم بعضاً وكتب الصلاة في أيديهم، وفي حين كان الأطفال يأخذون، حالاً، في الركض.

كانت آنا لا تزال ترقبني، وكنت أتساءل عما إذا كانت تعرف قداديس الأحد. قبل ولادة صوفي، كنا، جان وأنا، نحضر قداس الساعة العاشرة الكبير. كنا نقوم، بعد ذلك بجولة في المدينة محيين معارفنا قبل أن نتوقف لدى شقيقتها لنأخذ قالب الحلوى.

كنت أدفع ثمنه. كنت قد أصريت على الدفع ولا أقبل سوى حسم بمقدار عشرين في المئة. وغالباً ما كانت الحلوى ما تزال فاترة، وكنت أشم، في الطريق، رائحة السكر.

بعد صوفي، اعتادت جان على الذهاب إلى قداس الساعة السابعة بينما أتولى حراسة الطفلة، وأخيراً، عندما مشت هذه الأخيرة، أخذتُها إلى قداس الساعة العاشرة، في حين كانت زوجتي تعد طعام الغداء.

هل كان هناك قداس كبير في فوماي هذا الصباح؟ أما زال هناك ما يكفي من المؤمنين؟ ألم يقصف الألمان المدينة أو يغزوها؟

- بماذا تفكر؟ بزوجتك؟

- كلا.

كان هذا صحيحاً. لم تكن جان تخطر في أفكاري إلا بصورة عارضة. كنت أتذكر، أيضاً، السيد ماتراي العجوز وبنت المعلم الصغيرة ذات الجدائل. هل توصلت سيارتهم إلى شق طريق لها في زحمة الطرقات؟ هل ذهب السيد ريفرسيه لأخذ دجاجاتنا وديكنا المسكين نستور؟

لم أكن منفعلاً. كنت أطرح على نفسي هذه الأسئلة موضوعياً بمثابة لعبة تقريباً لأن كل شيء صار ممكناً، بل كان يمكن، مثلاً، أن تكون فوماي قد دمرت كلياً وأن يكون سكانها قد أعدموا بالرصاص.

كان ذلك ممكناً إمكان موت ميكانيكينا في حجرة قاطرته أو أن أكون، من جهتي، قد ضاجعت، وسط أربعين شخصاً، امرأة لم أكن أعرفها في الأمس، وكانت خارجة من السجن.

آخرون جلسوا مثلنا، متزايدي العدد، تائهي النظرات، وكان بعضهم يخرج من حوائجه أطعمة. كنا نقترب من مدينة. قرأت على اللوحات أسماء لم تكن مألوفة عندي، وعندما رأيت أننا كنا في أوكسير، كان على أن أتذكر خريطة فرنسا.

لا أدري لماذا وضعت في ذهني أننا سنمر بباريس. لقد تجنبناها مارين، احتمالاً، بتروي خلال الليل.

الآن، اكتشفنا، محطة، تحت سقفها الزجاجي كان جوها مختلفاً عن تلك التي توقفنا فيها.

هنا، كان صباح أحد حقيقي، أحد آحاد ما قبل الحرب، دون لجنة استقبال، دون ممرضات، دون فتيات بساعدات. كان حوالي عشرين شخصاً، فقط، ينتظرون على مقاعد الأرصفة الخضراء، وكانت الشمس التي صفتها ألواح الزجاج، التي غدت نثاراً من نور، تعطي الصمت والوحدة شيئاً لا واقعياً ما.

- قل أيها الرئيس، هل سنبقى طويلاً؟

نظر الموظف إلى رأس القطار والساعة، لا أدري لماذا، لأنه رد قائلاً:

- لا أدري.

- هل لدينا الوقت للذهاب إلى البوفيه؟

- معكم ساعة كاملة.

- إلى أين يأخذوننا؟

ابتعد وهو يرفع كتفيه ليعني، بهذا، أن السؤال يتجاوز صلاحياته.

أتساءل عما إذا كان لم يحبطنا - وأنا استعمل ضمير الجمع قصداً - أن لا يكون أحد قد استقبلنا، أن نجد، فجأة، أننا تركنا لأنفسنا. قال أحدهم مترجماً، على طريقته، الشعور العام:

- ماذا؟ ما عاد يُقَدَّم لنا الطعام؟

ونتيجة لذلك، ولأننا وجدنا أنفسنا في بلد متمدن، قلت لآنا:

- هل تأتين؟

- إلى أين.

- لنأكل شيئاً.

أول ارتكاس لنا، جميعاً، عندما أصبحنا على الرصيف حيث كان أمامنا، فجأة، متسع كبير من المكان كان تأمل القطار من طرف إلى الآخر، وكانت خيبة أمل أن نكتشف أنه لم يعد القطار نفسه.

لم يقتصر الأمر على كون القاطرة قد بدلت، لكني أحصيت، وراء مقطورة الوقود، أربع عشرة عربة بلجيكية، عربات ركاب نظيفة، في الظاهر، نظافة القطارات العادية.

أما بالنسبة لعرباتنا، عربات المواشي والبضائع، فلم يبق منها سوى ثلاث.

- الأوغاد شطرونا، أيضاً، إلى شطرين.

فتحت البوابات من الأمام، وأول شخص نزل كان كاهناً ضخماً. بعضلات قوية، توجه نحو رئيس المحطة بشكل سلطوي. تناقشا. بدا الموظف موافقاً، وتوجه الكاهن، بعد ذلك، إلى الذين ظلوا في العربة، وساعد راهبة بطاقية بيضاء على النزول إلى الرصيف.

كان هناك أربع راهبات أخذت اثنتان منهما، صغيرتان جداً لكل منهما وجه دمية في مساعدة حوالي أربعين عجوزاً يرتدون ملابس من الصوف الرمادي على النزول والاصطفاف كتلاميذ.

كان ذلك مأوى ينسحب، وعلمنا، بعد ذلك، أن القطار الذي خصص لنا خلال نومنا كان قادماً من لوفان.

كان كل الرجال مسنين جداً، معوقين بدرجات متفاوتة. كانت اللحى قد نمت، بيضاء وغزيرة الشعر على وجوه مرسومة بالقوة التي رسمت بها في اللوحات القديمة.

المدهش كان انصياعهم، اللامبالاة التي تقرأ في عيونهم. انقادوا إلى بوفيه الدرجة الثانية حيث أجلسوهم كما في مطعم مدرسة حيث كان الكاهن يتكلم بصوت منخفض مع الوكيل.

هذه المرة، أيضاً، نظرت آنا إليّ: أكان ذلك بسبب الخوري والراهبات لأنها كانت تفكر في كون هذا العالم مألوفاً عندي؟ أم لأن العجائز المصطفين كانوا يذكرونها بالسجن وبانضباط لم أعرفهما لكنها خَبِرتْهما؟

لا أعلم عن ذلك شيئاً. كنا نتبادل، هكذا، استدارات قصيرة لنستعيد، بعد ذلك فوراً هيئة حيادية.

«*حصون لييج في أيدي الألمان*».

قرأت هذا العنوان في جريدة معلقة في كشك، وقرأت، بحروف أصغر: «*مظليون يهاجمون قناة ألبير*».

- ماذا تريدين أن تأكلي؟ هل تحبين الكرواسان؟

هزت برأسها موافقة.

- قهوة بالحليب؟

- دون حليب. إذا كان لدينا وقت، فإني أفضل أن أنظف نفسي أولاً. ألا يضايقك أن تعيرني مشطك؟

بما أني أخذت مكاني على طاولة وكانت بقية الطاولات قد اكتسحت، فإني لم أجرؤ على النهوض لألحق بها. في اللحظة التي عبرت فيها الباب

المزجج، شعرت بصدري ينهصر لأنه خطر لي أني ربما لن أعود إلى رؤيتها مجدداً.

كنت أرى، من النافذة، ميداناً هادئاً، سيارات أجرة متوقفة، فندقاً للمسافرين، باراً صغيراً مطلياً باللون الأزرق كان النادل يمسح طاولات الشرفة الصغيرة فيه.

لم يكن هناك ما يمنع آنا من الرحيل.

- هل لديك أخبار عن زوجتك وابنتك؟

كان فيرنان لوروا واقفاً أمامي وفي يده كوب من الجعة، ساخر النظرات. أجبت سلباً باذلاً جهدي كي لا أحمر لأني فهمت أنه كان مطلعاً على ما جرى بيني وبين آنا.

لم أحب لوروا قط. كان، وهو ابن مساعد في الفرسان، يشرح لنا في المدرسة قائلاً:

- المساعد، في الفرسان، أهم بكثير من ملازم، بل ومن نقيب في سلاح آخر.

كان يتدبر أمره لجعل الآخرين يعاقبون مكانه، وكان المعلمون يدعون أنفسهم يقعون في أحابيل هيئته البريئة، وهو ما لم يكن يمنعه من التكشير في ظهورهم.

علمت، فيما بعد، أنه رسب مرتين في البكالوريا. مات أبوه، كانت أمه تعمل على الصندوق في دار سينما. دخل إلى مكتبة هاشيت و بعد سنتين أو ثلاث تزوج ابنة متعهد غني.

هل تزوجها من أجل مالها؟ لم يكن هذا يعنيني. سألته، بدوري، دون فكرة خبيئة:

- أليست زوجتك معك؟

- كنت أظن أنك تعلم. نحن في طريقنا إلى الطلاق.

كنت، لولاه، ذهبت لأبحث عن آنا. بدا الوقت طويلاً. تعرقت يداي وكنت فريسة فراغٍ صبر لم أعرفه من قبل، بدا يشبه، إنما بصورة أقوى، ذاك الذي كان يضغط على صدري يوم الجمعة، في محطة فوماي، عندما كنت أتساءل عما إذا كنا سنتوصل إلى الرحيل.

اقتربت نادلة وأوصيت على قهوة وكرواسان لشخصين بينما كان لوروا يستعيد ابتسامته البشعة. كنت أقول لنفسي أن هؤلاء الناس قادرون على توسيخ كل شيء بنظرة، وخلال الوقت الذي كنت أنتظر فيه كرهته حقاً.

انتظر حتى رأى آنا تدفع الباب ليقول وهو يبتعد:

- أدعكما وحدكما.

ايه! نحن الاثنان. عدنا اثنين. يجب أن تكون نظرتي قد فَضَحَتْ فرحي، لأن آنا ما كادت تجلس تجاهي حتى تمتمت:

- هل خشيت أن لا أعود؟

- نعم.

- لماذا؟

- لا أدري. فجأة وجدت نفسي مضطرباً وكدت أركض وراءك على الرصيف.

- ليس معي مال.

- ولو كان معك؟

- لم أكن، مع ذلك، لأرحل.

لم تحدد ما إذا كان ذلك بسببي، طلبت مني، ببساطة، قطعة نقود من أجل السيدة العاملة في دورة المياه التي ذهبت لتعطيها إياها.

كان العجائز يأكلون في صمت، كما في المأوى. كانت الطاولات قد قربت.كان الكاهن جالساً في طرف وأكبر الراهبات عمراً في الطرف الثاني.

كانت الساعة قد بلغت العاشرة والنصف صباحاً. قدمت لهم قطعة جبن وبيضة مسلوقة لكل واحد، وذلك، دون شك، لدمج وجبتين في واحدة أو لأن أحداً لم يكن يعلم بما ينتظرنا في مكان أبعد.

بعضهم، من لم تعد لديهم، أسنان، كانوا يمضغون بلثاتهم. كان لعاب أحدهم يسيل إلى حد وضعت له، معه، راهبة منشفة من ورق حول عنقه وأخذت تتابع حركاته بانتباه. كان لكثير منهم عيون محاطة بالحمرة وعروق زرقاء ضخمة كانت تبرز على أياديهم.

- ألا تريد أن تنعش نفسك أنت أيضاً؟

لم أذهب فقط، بل أخذت ملابس داخلية من حقيبتي. كان رفاقي في العربة يغتسلون في المغاسل. كانوا عراة الجذوع، يحلقون، يمشطون شعورهم المبللة. كانت المنشفة التي لا نهاية لها سوداء وتنبعث منها رائحة كريهة.

- هل تعرف كم شخصاً مروا فوقها هذه الليلة؟

أحسست بانبهار في نفسي وبضغط في صدري، وهو ما أعلمني بأني كنت غيوراً.

- ثلاثة بالإضافة إلى ذاك الضخم! لقد أحصيتهم. لا يلزم أكثر من أن يبصقوا فرنكاتهم العشرين كما في حانتها الحقيرة، هل ذهبت، أنت، إلى خمارتها؟

- مرة مع صهري.

- ومن هو صهرك؟

- لقد رأيتَه عندما تزوجت، وعندما صرحتَ عن أولادك: إنه موظف الأحوال المدنية.

- هل هو هنا؟

- لا يحق لهم الرحيل كما قيل.

- رأيت، مع ذلك، بعيني، ضابط شرطة ينطلق على دراجة نارية وزوجته وراءه.

لماذا خفت؟ زاد ذلك بعثاً على الضحك أن نومي خفيف وأن آنا نامت، نوعاً ما بين ذراعيَّ.

علمت أيضاً، في المغاسل، أنه قد جرت لقاءات أخرى، في الليل، في الركن المواجه لركننا، من بينها لقاء مع فلاحة بدينة جاوزت الخمسين من عمرها. بل زعموا أن جول العجوز جرب حظه، بعد أن مر بها آخرون وأنها صدته بصعوبة.

ألم يكن غريباً أن لا يكون أحد قد حاول مع آنا؟ مع ذلك، رأوها تصعد وحيدة. فقد كانوا يعلمون، إذن، أنها لم تكن تصحبني، وأن لقاءنا كان بالمصادفة. لم يكن هناك، في أذهان هؤلاء الرجال، أي مبرر لأن أتمتع بامتياز حصري.

مع ذلك، اكتفوا بمراقبتها من بعيد. والصحيح، وهذا ما يدهشني الآن، أن أحداً لم يكن يوجه إليها الكلام. هل عرفوا أنها لم تكن من جنسهم؟ أكانوا يرتابون؟

وجدتُها. جاء رئيس المحطة مرتين ليثرثر مع الكاهن. وهكذا، لم نكن مهددين برؤية القطار يرحل ما دام العجائز على المائدة.

- هل تعلم أين نذهب أيها الرئيس؟

كان ذاك الرجل ذا الغليون الذي ظهر حليقاً وجيوبه محشوة بعلب التبغ التي تموّن بها.

- تعليماتي، الآن، هي أن أرسل بكم إلى بورج عن طريق كلامسي، لكن ذلك يمكن أن يتغير بين لحظة وأخرى.

- وبعد؟

- سيتدبرون الأمر في بورج.

- هل لنا الحق في النزول حيث نريد؟

- أترغب في مغادرة القطار؟

- كلا. لكن هناك من قد يغريهم ذلك.

- لا أرى كيف يمكن منعهم ولماذا.

- هناك كانوا يمنعوننا من مغادرة العربات.

حك رئيس المحطة رأسه وواجه الموضوع جدياً.

- هذا يتوقف على ما إذا كنتم نازحين أو لاجئين.

- ما الفرق؟

- هل رحلوكم بالقوة، مجموعات؟

- كلا.

- في هذه الحالة، أنتم، بالأحرى، لاجئون.

- هل دفعت ثمن بطاقتك؟

- لم يكن هناك أحد في الكوة.

- مبدئياً...

أصبح الأمر أعقد مما ينبغي بالنسبة إليه، وبعد إشارة تهرب، أسرع نحو الرصيف الثالث الذي أعلن عن وصول قطار إليه، قطار حقيقي بركاب عاديين كانوا يعلمون أين يذهبون وكانوا قد دفعوا ثمن بطاقاتهم.

- هل سمعت ما يقول؟

أومأت أن نعم.

- لو كنت، فقط، أعلم أين أجد زوجتي وأولادي. يعاملوننا هناك كأننا جنود أو كأسرى حرب: إفعل هذا، ممنوع النزول إلى الرصيف، توزيع عصير وسندويشات، النساء إلى أمام، الرجال إلى الخلف، محجوزين كماشية! يفصلون عرباتٍ من القطار خفية عنك، يرمونك بالرشاش، يفرّقون بينك وبين ذويك، باختصار لم نعد أشخاصاً من البشر. هنا، فجأة، حرية كاملة. أفعل ما تشاء، افعل ما يطيب لك.

ربما ستكون محطة أوكسير، غداً أو في هذا المساء، مختلفة. كانت أفضل ذكرى لي، على اعتبار أننا منحنا الوقت، للسير خارجاً مع آنا. كان يبدو جميلاً أن نكون في ميدان حقيقي، في شوارع حقيقية بين أناس لم يكونوا، بعد مشغولين بالطائرات.

كنا نرى مجموعات تعود، على مهل، من القداس، ودخلنا إلى بار صغير مطلي باللون الأزرق. شربت عصير ليمون في حين أن آنا أوصت، بعد نظرة سريعة، على شراب مشه ٍ ايطالي.

كانت تلك أول محطة، منذ رحيلنا، نرى، فيها، خارجها، مع ساعتها الضخمة، وطنفها المصنوع من الزجاج غير المصقول، ظل الساحة الذي كان يتباين مع الميدان المشمس والجرائد المبرقشة في الكشك.

- من أين أتيتما أنتما الاثنان؟

- من فوماي.

- ظننت أن هذا قطار بلجيكي.

- هناك عربات بلجيكية وعربات فرنسية.

- مساء أمس، كان لدينا هولنديون. يبدو أنهم يأخذونهم إلى طولون. وأنتم؟

- لا نعلم.

رفع النادل رأسه ونظر إليّ بهيئة من لا يصدق. لم أفهم ردة فعله إلا فيما بعد.

- كيف لا تعلمون؟ هل تدعون، إذن، أنفسكم تجرون كما تشاء الصدفة؟

كانت هناك مدن دخلت الحرب وأخرى لم تدخلها بعد. هكذا رأينا على طول الطرق قرى هادئة كانت كل واحدة، فيها، منصرفة إلى شؤونها وبلدات اكتسحتها قوافل من كل الأنواع.

لم يكن ذلك يتوقف، حصراً، على بعد الجبهة، هل كانت هناك جبهة حقاً؟

في بورج، مثلاً، لقينا، من جديد، في منتصف بعد الظهر، لجنة استقبال كما في الشمال ورصيفاً يعج بأسر كانت تنتظر بين الحقائب والرزم.

كانوا بلجيكيين أيضاً. كنت أتساءل كيف استطاعوا الوصول قبلنا. يجب أن يكونوا قد تبعوا خطاً آخر أقل ازدحاماً من خطنا، لكنهم عرفوا مغامرة مماثلة أخطر، من جهة الحدود. رمتهم عدة طائرات بالرشاشات. نزل الجميع، رجالاً ونساءً وأطفالاً، ليرقدوا في الحفرة. عاد الألمان إلى الهجوم مرتين وخربوا القاطرة وخلفوا حوالي عشرة أشخاص بين قتيل وجريح.

منعنا من النزول كي لا نختلط، لكن محادثات راحت تتعقد مع الموجودين على الرصيف أثناء تقديم الطعام والشراب لنا.

اشتريت، في أوكسير، سلتي وجبات، كنا، مع ذلك، قد أخذنا السندويشات التي وضعناها جانباً لأننا أصبحنا حذرين.

كان بلجيكيو الرصيف كئيبين. مخبولين. كانوا قد مشوا ساعتين على العوارض وحجارة سكة الحديد قبل أن يصلوا إلى محطة حاملين ما استطاعوا حمله، تاركين وراءهم قسماً كبيراً من حوائجهم.

كالعادة، كان الرجل ذو الغليون هو الأكثر اطلاعاً بسبب موقعه الاستراتيجي قرب الباب، أولاً، ثم لأنه لم يكن يخشى أن يطرح أسئلة.

- أترون هذه الشقراء هناك، في فستان بحبات زرقاء؟ إنها هي التي حملت ابنها الميت حتى المحطة. ويبدو أنها بلدة صغيرة جداً. كل الناس أتوا لرؤيتهما، وقد أعطت الطفل إلى العمدة، المزارع، ليدفنه. كانت تأكل وهي ذاهلة، فارغة النظرة، جالسة على حقيبة بنية مدعومة بحبال.

- ذهب قطار ليأتي بهم وأنزل الموتى الآخرين والجرحى في محطة أهم لا يعرفونها. أُنزِلوا هنا نظراً للحاجة إلى عرباتهم، وهم ينتظرون منذ الساعة الثامنة صباحاً.

كان هؤلاء ينظرون إلينا بحسد دون أن يفهموا ما يحدث لهم. كانت ممرضة نضرة تماماً، جميلة، دون أية بقعة على ثوبها المنشى، تعطي رضاعة لطفل كانت أمه تنقب في صرتها عن حفاضات بديلة.

لم نر وصول قطارهم. فأنا أجهل، إذن، متى استطاعوا الرحيل وإلى أين أخذوهم أخيراً. وكنت ما زلت، أيضاً، لا أعرف أين كانت زوجتي وابنتي.

حاولت الاستعلام، سألت من كان يبدو أنها رئيسة لجنة الاستقبال

- لا تخشَ شيئاً. كل شيء مدروس. ستنشر قوائم.

- أين سنجد هذه القوائم.

- في المراكز التي ستستقبلون فيها. هل أنت بلجيكي؟

- كلا. من فوماي.

- كيف جرى أن تكون في قطار بلجيكي؟

سمعت هذا عشر مرات، عشرين مرة. لم يبق إلا القليل قبل أن نلام على وجودنا. عرباتنا الثلاث البائسة لم تكن، إثر خطأ لا يعرفه إلا الله، حيث كان يجب أن تكون ويعدوننا مسؤولين عن ذلك تقريباً.

- إلى أين يرسل البلجيكيون؟

- مبدئياً إلى الجيروند والشارانت.

- أهذا القطار ذاهب إلى هناك؟

فضلت، مثل رئيس محطة أوكسير، أن تجيب بحركة مبهمة.

على عكس كل ما يمكن أن يظن، كان يتفق لي أن أفكر في جان وفي ابنتي دون أن أقلق كثيراً، بل ببعض السكينة. انهصر قلبي لحظة عندما علمت بقصة القطار الذي تعرض لنيران الرشاشات والطفل الميت الذي أرغمت أمه على تركه في محطة صغيرة.

قلت لنفسي إن هذا وقع في الشمال، وأن قطار جان كان أمام قطارنا واجتاز، بالتالي، المنطقة الخطرة قبلنا.

كنت أحب زوجتي. كانت كما أردت، بالضبط، أن تكون وحملت إلي ما كنت أتوقعه من قرينتي. لم يكن لدي ما آخذه عليها. ولم أكن أبحث عن مأخذ ومن أجل ذلك، حقاً، نقمت، إلى هذا الحد، على لوروا بسبب ابتسامته الملتبسة.

لم يكن لجان أدنى علاقة بما يجري حالياً ولا، مثلاً، بقداس الساعة العاشرة ومحل شقيقتها وأجهزة الراديو المزودة ببطاقات في ورشتي.

يتفق لي أن أقول «نحن» وأنا أتحدث عن شاغِلي عربتنا لأني كنت أعلم أن ردود فعلنا كانت هي نفسها حول بعض النقاط. بصدد هذه النقطة، أتكلم عن نفسي على الرغم من قناعتي بأني لستُ وحدي في هذه الحالة. لقد حدث صدع. هذا لا يعني أن الماضي لم يعد موجوداً، ولا يعني أني أنكرت أسرتي وكففت عن حبها.

الأمر، بكل بساطة، هو أني كنت، لزمن غير محدود، أعيش على صعيد آخر لا تشترك قيمه في شيء مع قيم حياتي الماضية.

يمكن أن أقول أني كنت أعيش على صعيدين، معاً، لكن الذي يهم، في الوقت الحاضر، هو الجديد الذي تمثله عربتنا التي كانت تفوح منها رائحة اصطبل، وجوه كانت مجهولة قبل بضعة أيام، سلات سندويش، الآنسات ذوات الساعدات وآنا.

أنا مقتنع بأن هذه الأخيرة كانت تفهمني. لم تعد تحاول أن تشجعني بقولها، مثلاً، أن زوجتي وابنتي غير معرضتين لأي خطر وأني سألقاهما قريباً. تعود إلى ذاكرتي كلمة قالتها مساء.

- أنت هادئ!

كانت تعدني شخصاً قوياً وارتاب في كون هذا هو السبب الذي ارتبطت بي من أجله. في هذه البرهة، كنت أجهل كل شيء عن حياتها عدا تلميحها

عن سجن نامور ولا أعرف عن ذلك شيئاً حتى الآن. من الواضح أنه لم يكن لديها ارتباط ولا نقطة استناد متينة.

ألم تكن، من جراء ذلك، الأقوى؟ في محطة بلوا، إذا لم أكن واهماً، حيث كانت تنتظرنا، أيضاً، لجنة استقبال، كانت الأولى التي سألت:

- ألم يمر قطار من فوماي؟

- أين فوماي هذه؟

- في الأردين، على الحدود البلجيكية.

- يمر بلجيكيون كثيرون.

كنا نستطيع أن نرى، على الطرقات، أيضاً، في الوقت الحاضر، سيارات بلجيكية تتوالي وواقي الصدمات في كل واحدة منها، ملتصق بواقي السيارة الأخرى، على خطين بحيث تشكلت ازدحامات في كل مكان. كان هناك، أيضاً، سيارات فرنسية أقل بكثير، خاصة من محافظات الشمال.

لم أكن أعرف اللوار الذي كان يتلألأ في الشمس، ورأينا قصرين أو ثلاثة قصور تاريخية كنت أعرفها من البطاقات البريدية.

سألتُ آنا قائلاً:

- هل سبق أن أتيتِ إلى هنا؟

ترددت قبل أن تقول نعم وهي تضغط على أصابعي. هل كانت تخمن أنها تؤلمني، إني كنت أفضل أن لا يكون لها ماضٍ؟

كان ذلك سخيفاً. لكن، ألم يكن كل شيء قد أصبح سخيفاً؟ وأيضاً، ألم يكن ذلك هو ما سعيت إليه؟

كان القواد نائماً. وكانت جولي البدينة قد شربت أكثر من اللازم، وكانت تمسك صدرها بيديها ناظرة إلى الباب بهيئة من يتوقع أن يتقيأ بين لحظة وأخرى.

كانت هناك زجاجات في كل مكان في القش تقريباً، وكان فتى الخامسة عشرة قد عثر في مكان ما، على غطاءين عسكريين.

كان لكل مكانه المحدد، ركنه الذي كان واثقاً من أنه سيستعيده عندما ينزل إلى الرصيف حين يسمح لنا بالنزول.

بدا لي أن عددنا قل عما كان عليه عند الرحيل، أنه كان ينقص خمسة أشخاص أو ستة، لكن لم أكن واثقاً من ذلك، لأني لم أعدهم، إلا فيما يتعلق بالبنت الصغيرة التي أخذتها الراهبات عندما رأينها بيننا، إلى عربتهن كما لو كنا شياطين.

في تور، قدموا لنا، مساءً، حساء في أكواب كبيرة وقطعاً من اللحم المسلوق وخبزاً. كان الليل قد بدأ بالحلول، وكنت مستعجلاً على استعادة حميميتنا كما في الليلة الماضية.

يجب أن يكون ذلك مرئياً لأن آنا كانت تنظر إليَّ بشيء من الحنان.

حسب آخر الأخبار، كانوا يوجهوننا إلى نانت حيث ستقرر وجهتنا النهائية.

هتف أحدهم وهو يلتف بغطائه:

- ليلة سعيدة يا أصدقاء.

كانت لا تزال ترى بعض السجائر مشتعلة، وانتظرت دون حراك، وعيناي مثبتتان على الإشارات التي كنت أخلط، أحياناً، بينها وبين النجوم.

كان جيف لا يزال نائماً. مع ذلك، كانت هناك حركات خفية في جهة جولي التي قطع صوتها حبل الصمت فجأة.

- لا يا أبنائي. هذه الليلة سأنام. فليكن ذلك معلوماً.

ضحكت آنا في أذني وانتظرنا نصف ساعة، أيضاً.

(٥)

مات أثناء الليل، عجوز من المأوى لا أعرف أيهم، لأنه أنزل في نانت، صباحاً، مغطى الوجه بمنشفة. كان قنصل بلجيكا على الرصيف ورافقه الكاهن إلى مكتب معاون رئيس المحطة لاستكمال الشكليات.

كانت لجنة الاستقبال، هنا، أهم منها في الأماكن الأخرى لا بعدد السيدات ذوات الساعدات فقط، بل لأنه بدا هناك أناس مكلفون بوجهة اللاجئين.

كنت آمل في أن أرى البحر أخيراً، للمرة الأولى في حياتي. فهمت أنه بعيدٌ، أننا كنا موجودين في مصب نهر، لكني لمحت صوار، مداخن سفن، سمعت صفارات ونزل، قريباً منا، بحارة شكلوا قطاراً كاملاً. اصطفوا على الرصيف وغادروا المحطة بخطوات عسكرية.

كان الجو مشرقاً اشراقه الذي لا يصدق في الأيام السابقة واستطعنا أن نغتسل ونتناول طعام الإفطار قبل الانطلاق. قلقت لحظة عندما أخذ معاون لرئيس المحطة يتناقش مع شخص تبدو عليه سيماء رجل رسمي مشيراً إلى عرباتنا العفنة الثلاث كما لو كان فكها موضع بحث.

بدا، بصورة متزايدة، أننا كنا، باندماجنا الخارج عن إرادتنا بقطار بلجيكي، نطرح مشكلة، لكننا تركنا، في نهاية الأمر، نرحل.

من فاجأنا أكبر مفاجأة، كانت جولي البدينة. فقبل الصفارة ببضع لحظات، ظهرت على الرصيف مشرقة، نضرة اللون، في فستان من النسيج القطني بأزهار لم تكن فيه ثنية ناشزة واحدة.

- ماذا تظنون، أيها الفتيان، أن جولي قد فعلت بينما بقيتم قابعين على القش؟ لقد ذهبت لتأخذ حماماً، حماماً حقيقياً، ساخناً، في بانيو بفندقٍ مقابل، ووجدت، أيضاً الوسيلة لشراء ثوب في طريقها.

انحدرنا نحو الفانديه حيث لمحت، بعد ساعة، البحر من بعيد. بحثت، متأثراً، عن يد آنا. كنت قد رأيت البحر في السينما وعلى صور ملونة، لكنني لم أتخيل أنه في هذا الصفاء، في هذه السعة، في هذه اللامادية.

كان الماء بلون السماء. وبما أنه كان يعكس الضوء، وبما أن الشمس كانت، في وقت واحد، فوقاً وتحتاً، فلم يعد هناك حد لشيء، وكلمة «اللامتناهي» انبجست في ذهني.

فهمت آنا أن تلك كانت، بالنسبة إليَّ، خبرة جديدة. كانت تبتسم. كنا، نحن الاثنان، طيبي المزاج. كانت العربة، بكاملها، مرحة طوال اليوم.

كنا نعلم، إلى حد ما، ما ينتظرنا بعد الآن لأن القنصل اجتاز العربات الأولى ليرفع معنويات مواطنيه وحمل لنا الأخبار الرجل ذو الغليون الذي كان في حالة تربص دائم.

- يبدو أن وجهة البلجيكيين هي لاروشيل! إنها ما يمكن أن نسميه محطة فرزهم. لقد أقيم فيها معسكر فيه براكات وأسرّة وكل ما يلزم.

- ونحن؟ على اعتبار أننا لسنا بلجيكيين؟

- سنتدبّر أمرنا.

كنا نسير على مهل، وكنت أقرأ أسماء النواحي التي ذكرتني بالكتب التي قرأتها: بونيك، سان جان ديمو، كروادوفي........

رأينا جزيرة «يو» التي كان يمكن، بسبب الانبهار بضوء الشمس، أن تظن سحابة تتمطى على سطح الماء.

خلال ساعات، بدا أن قطارنا يسلك أطول الطرق، كما لو كنا نقوم برحلة، سالكين الخطوط الثانوية لنتوقف في قلب الريف ثم نعود إلى الوراء.

لم نعد خائفين من النزول والعودة إلى الصعود بسرعة لأنه كان يمكن للميكانيكي أن ينتظرنا.

فهمت لماذا كنا نجري هذا العدد من المناورات، وربما السبب الذي من أجله أمضينا هذا الوقت الطويل للمجيء إلى الأردين.

كانت القطارات النظامية ذات الركاب العاديين الذين دفعوا ثمن بطاقاتهم لا تزال تسير، وكانت هناك، فضلاً عن ذلك، على الخطوط الكبيرة، حركة كثيفة لقوافل عسكرية وذخائر تتمتع بالأولوية.

بدأنا نرى، في كل المحطات، إلى جانب الموظفين العاديين، ضابطاً يعطي أوامر.

وبما أننا لمن نكن ننتمي إلى أي من هذه الفئات، فقد كانوا يوجهوننا، بين حين وآخر، إلى خط مرآب لإفساح المجال.

حضرت محادثة هاتفية في محطة مرآب جميلة وحمراء من الجيرانيوم كان، فيها، كلب نائم على عتبة باب الرئيس. هذا الأخير الذي كان يشعر بالحر كان قد دفع بعمرته إلى الوراء وكان يلعب بعلم موضوع على المكتب.

- أهذا أنت يا دامبوا؟

شرح لي رئيس محطة آخر أن الأمر لم يكن يدور حول هاتف عادي. كان يسمى، إن لم أكن مخطئاً، الاصطفائي، ولم يكن أحد ليستطيع أن يتصل، في الاتجاهين، بغير أقرب محطة إليه. هكذا كان يعلن عن القطارات.

- كيف الحال عندك؟

كانت هناك دجاجات وراء سياج، كما عندي، وقطعة أرض مزروعة خضاراً معتنى بها جيداً. كانت المرأة تنظف في الطابق الأول وتأتي، أحياناً، لتنفض ممسحتها على النافذة.

- لدي هنا الرقم ٢٣٧ ... لا أستطيع الاحتفاظ به مدة أطول لأني أنتظر الرقم ١٦١... هل خط المرآب حر؟ هل حانة هورتنس مفتوحة؟ ... أخبرها أنها ستستقبل حشوداً من الزبائن... حسناً!... شكراً... سأرسله إليك......

أمضينا ثلاث ساعات في محطة صغيرة إلى جانب نزل مطلي بالوردي اكتسحت طاولاته. شرب الزبائن، أكلوا. بقينا، أنا وآنا، خارجاً تحت شجرة صنوبر، وكنا نرتبك، أحياناً، لعدم وجود ما نقوله.

إذا كان عليَّ أن أصف المكان، فلن أستطيع الكلام إلا عن بقاع الظل والشمس، عن وردي النهار وأخضر الكرمة وأشجار الكشمش، عن خدري، عن رخاءٍ حيواني، وأتساءل عما إذا لم أكن قد مضيت، في ذلك اليوم، إلى أقرب ما يمكن من السعادة الكاملة.

كانت هناك، كما في طفولتي، الروائح، رعشة الهواء، أصوات الحياة التي لا تدرك. أظن أني قلت ذلك من قبل، لكن من المحتوم أن أكرر نفسي لأني لا أكتب كل شيء دفعة واحدة، لأنني أخربش بضعة أسطر من هنا، صفحة أو اثنتين، من هناك، على عجل، مختبئاً.

وجدت، عندما بدأت روايتي، ما يغريني بتصديرها بمدخل، ليس لفائدته، بل تعبيراً عن نزعة عاطفية. وبالفعل، كانت مكتبة المصحة تحتوي خاصة على مؤلفات تعود إلى ما قبل عام١٩٠٠، وكان الرائج لدى مؤلفي القرن الماضي أن يكتبوا مقدمة أو مدخلاً. ورق هذه الكتب، المصفر والمبقع بالبني، أكثف، أكثر لمعاناً من الكتب المعاصرة، وكانت لها رائحة طيبة تبقى، في نظري، مرتبطة بشخصيات الروايات. كان قماش التجليد الأسود لامعاً لمعان مرفقي سترة قديمة لكثرة الاستعمال، ووجدت التجليد نفسه في مكتبة فوماي.

عدلت عن المدخل خوفاً من أن أعطي نفسي أهمية. صحيح أنني ربما أكرر نفسي، أرتبك، بل أتناقض، لأني إذا كنت أكتب، فذلك، خاصة، عن حاجة إلى اكتشاف حقيقة معينة.

أما بالنسبة للأحداث التي لا تتصل بي شخصياً، فأنا أذكرها عندما أكون شاهداً عليها، من ذاكرتي في أحسن الأحوال. من أجل استعادة بعض التواريخ، كان علي إجراء أبحاث في مجموعات الصحف، ولا أعرف أين أجدها.

أنا متأكد من تاريخ الجمعة ١٠ الذي لا بُدَّ أنه مذكور حالياً، في الكتب المدرسية. وأنا متأكد، أيضاً، بصورة إجمالية، من المسار الذي اتبعناه على الرغم من أن بعض رفاقي بدؤوا، منذ أن كنا في القطار، بذكر أسماء محطات لم نشاهدها.

كان يمكن لطريق خالية صباحاً، في تلك الفترة، أن تعج بالحياة بعد ساعة. كان كل شيء يمضي بسرعة مخيفة وببطء مخيف. كان ما يزال هناك كلام عن معارك في هولندا، عن دبابات بانزر أمام سيدان.

أخيراً، من الممكن أن تجعلني ذاكرتي اقترف أخطاء. فيمكن، كما قلت بصدد آخر صباح في فوماي، أن أعيد تركيب ساعات بعينها دقيقةً دقيقة، في حين أني لا أتذكر، بالنسبة لأخرى، إلا الجو العام.

كان الأمر هكذا في القطار، خاصة مع التعب، هذا النوع من الإنهاك، من خواء الدماغ التالي لطراز حياتنا.

لم تعد هناك مسؤوليات، مبادرات تتخذ. لم يكن شيء يتوقف علينا، حتى ولا مصيرنا الخاص.

هناك تفصيل اضطربت له، مثلاً، لأني أقرب إلى الوسوسة وأميل إلى اجترار فكرة، إلى إنضاجها. عندما تحدثت عن الطائرة التي رمت قطارنا بنيران الرشاشات، عن السائق الذي يلوح بيديه وعن الميكانيكي الميت، لم أذكر رئيس القطار. إلا أنه لا بد أنه كان هناك رئيس يقع على عاتقه اتخاذ القرارات.

لم أره. هل كان موجوداً؟ لم يكن موجوداً؟ مرة أخرى، لم تكن الأمور تجري حسب المنطق بالضرورة.

أما بالنسبة للفانديه، فأنا أعلم أن جلدي، عينيَّ، كل جسدي لم تتنشق، قط، الشمس بالشراهة التي أبدتها في ذلك اليوم، وأستطيع أن أقول أني تذوقت كل لوينات الضوء، كل أنواع خضرة المراعي والحقول والأشجار.

إن بقرة ممددة في ظل صفصافة، بيضاء وبنية يتحرك خطمها الرطب بحركة لا نهاية لها تكف عن أن تكون حيواناً مألوفاً، مشهداً عادياً

لتصبح......... لتصبح ماذا؟ لا أجد الكلمات. أنا أخرق ومع ذلك، اتفق لي أن دمعت عيناي وأنا انظر إلى بقرة. وفي ذلك اليوم، على شرفة نزل وردي، بقيت عيناي تحدقان، مذهولتين، في ذبابة كانت تحوم حول قطرة من شراب الليمون.

لاحظت آنا ذلك، شعرت بأنها كانت تبتسم وسألتها عن السبب.

- أتيت على رؤيتك كما يجب أن تكون في عمر الخامسة.

روائح الجسد البشري، رائحة العرق، نفسها كانت لطيفة لدى استعادتها. أخيراً، كنت أكتشف بلداً كانت الأرض، فيه، على المستوى نفسه مع البحر وحيث كنا نرى ما يصل إلى خمسة أجراس قرية معاً.

كان الناس منصرفين إلى مشاغلهم، وعندما كان قطارنا يتوقف، كانوا يكتفون بالنظر من بعيد دون أن يشعروا بحاجة إلى القدوم لفحصنا وطرح أسئلة علينا.

لاحظت أنه كان هناك من الأوز والبط أكثر بكثير مما كان لدينا، أن البيوت كانت منخفضة إلى حد كان يمكن، معه، لمسُ السقف باليد كما لو كان السكان يخافون أن تذهب بها الريح.

رأيت لوسون التي ذكرتني بالكاردينال دو ريشليو، ثم فونتوناي لوكونت. كان يمكن أن نصل إلى لاروشيل مساءً، لكنّ رئيس محطة فونتوناي جاء ليشرح لنا أنه سيكون صعباً علينا أن ننزل في الظلام ونرتب إقامتنا في مركز الاستقبال.

لا ينبغي أن ننسى أن قناديل الغاز وكل المصابيح الخارجية كانت،بسبب غارات الطيران، مطلية باللون الأزرق، وأن السكان كانوا مرغمين على وضع ستائر سوداء على نوافذهم بحيث كان المارة، في المدن، يتزودون، مساء، بمصابيح كهربائية وكانت السيارات تجري بطيئة ومصابيحها خافتة.

- سيجدون لكم ركناً هادئاً لتناموا فيه. يبدو أنهم سيأتون لكم بمؤن.

كان ذلك صحيحاً. اقتربنا من البحر لنبتعد عنه مرة أخرى، وقطارنا الذي لم يكن يتبع أي جدول زمني وكان يبدو عليه أنه يبحث عن مأوى انتهى إلى التوقف في مرعى، قريباً من موقف.

بلغت الساعة السادسة مساء. لم نشعر، بعد، ببرودة الغسق. نزل الجميع، تقريباً، لتحريك سيقانهم باستثناء المسنين الذين كان يراقبهم الكاهن والراهبات، ورأينا نساء ناضجات بوجوه قاسية ينحنين لقطف زهور الربيع وأزرار الذهب. زعم أحدهم أن العجائز ذوي لباس الجوخ الرمادي الخشن كانوا غير أسوياء. هذا ممكن. كان ينتظرهم في لاروشيل مجموعة أخرى من الراهبات والممرضين الذين كدسوهم في حافلتين.

كانت لدي فكرتي من قبل، واقتربت من ديديه، صبي الخامسة عشرة لأشتري أحد أغطيته. كان ذلك أصعب مما كنت أتوقع. فقد ناقش بجشع فلاح عجوز في السوق، لكنني كسبت الجولة.

كانت آنا تراقبنا مبتسمة، غير قادرة، كما افترض، على معرفة موضوع صفقتنا. كنت ألعب، كنت أحس بنفسي فتياً أو، بالأحرى، لم أكن أشعر بأي عمر.

- عن أي شيء كنت تتحدث بهذه الحماسة؟

- فكرة لي.

- أخمنها.

- بالتأكيد لا.

- فلنراهن.

كان الأمر كما لو كنا، أنا مراهقاً، وهي صبية صغيرة.

- قولي ما تفكرين به لأرى إذا كان تخمينُكِ صحيحاً.

- لستَ راغباً في النوم في القطار.

كان ذلك صحيحاً وأدهشني أن تفكر فيه. بالنسبة إلي، كانت فكرة مجنونة قليلاً لا تخطر لأحد غيري. لم تسنح لي، أبداً، فرصة النوم في الهواء

الطلق طفلاً لأنه لم يكن من شأن أمي أن تسمح بذلك ولأن هذا كان يمكن أن يكون صعباً لاحقاً في المدينة بسبب مرضي.

فكرت في ذلك منذ أن تحدث رئيس المحطة عن إيجاد مكان في الريف نأوي إليه، وحصلت، الآن، على غطاء يقينا من الندى ويحمي حميميتنا.

وصلت سيارة صفراء مع ممرضة مرحة وأربعة من الكشفيين تتراوح أعمارهم بين السادسة عشرة والسابعة عشرة. حملوا إلينا سندويشات، آنيتي قهوة ساخنة وألواح شوكولاته. كانت معهم، أيضاً، أغطية مخصصة للمسنين والأطفال. اصطفقت الأبواب. كانت هناك، خلال أكثر من ساعة، في النهار الذي كان يمحي ببطء، ضجة مبهمة كانت تميز فيها، خاصة، نداءات باللغة الفلمنكية.

اقتضى الأمر هذه الوقفة الليلية لأكتشف أنه كان في العربات البلجيكية رضعاً. الممرضة كانت، من جهتها، مطلعة على ذلك بفضل الهاتف الاصطفائي، فتزودتْ بالرضاعات اللازمة وبطرد كبير من الحفاظات.

لم يكن هذا يعني عربتنا. لم يكن ذلك لأن الأمر يدور حول بلجيكيين، بل لأن الأطفال لم يكونوا ينتمون إلى مجموعتنا. وفضلاً عن ذلك، كان فرنسيو عربتي البضائع الأخريين غرباء عنا بالدرجة نفسها على الرغم من أنهم صعدوا إلى القطار في الوقت نفسه الذي صعدنا، فيه، إليه، في فوماي.

تكونت خلايا كتيمة، منطوية على ذاتها. وفي كل خلية، كانت تميز خلايا أصغر، كلاعبي الورق، أو مثلنا، أنا وآنا.

بدأت الضفادع تنق، سمعت أصوات جديدة في المروج والأشجار.

كنا نتنزه دون أن نتماسك باليدين، دون أن نتلامس، وكانت آنا تدخن إحدى السجائر التي اشتريتها لها في نانت.

لم تخطر لنا فكرة التحدث عن الحب، وأتساءل اليوم، عما إذا كان ذاك حباً، حقاً، أعني حباً بالمعنى الذي يعطى، عامة، لهذه الكلمة لأن ذلك كان، في نظري، أكثر بكثير.

كانت تجهل ما كنت أعمل في الحياة، ولم يظهر لديها فضول بهذا الصدد. كانت تعلم أني كنت مسلولاً لأنه اتفق لي أن لاحظت، متحدثاً عن النوم:

- عندما كنت في المصحة، كانت الأنوار تطفأ في الساعة الثامنة.

نظرت إليَّ حالاً، وهذه الحركة خاصة بها، حقاً، وكذلك نظرتها التي يصعب عليَّ وصفها. كان يمكن أن يقال أن فكرة خطرت لها بغتة، ليست فكرة ولدت من التفكير، بل كانت شيئاً ملموساً بقدر ما كان خفياً كانت غريزتها تلتقطه وهو مار. تمتمت قائلة:

- الآن أفهم.

- تفهمين ماذا؟

- أنت.

- ما الذي اكتشفته؟

- أنك أمضيت سنوات حبيساً.

لم ألح، لكني أظن أنني فرحت بدوري. كانت هي حبيسة أيضاً. لا أهمية لاسم المكان الذي يحكم المرء بالعيش بين جدرانه الأربعة.

ألم تكن تعني أن هذا يترك علامة، أن هذه العلامة هي التي خيل إليها أنها وجدتها عندي دون أن تعلم إلى أي شيء تنسبها؟

عدنا بخطى بطيئة نحو القطار المظلم الذي لم يكن يرى، فيه، سوى حباحب السجائر وحيث لا تسمع إلا بضع همسات. أخذت الغطاء. بحثنا عن مكان، مكاننا، من التراب الطري والأعشاب العالية، أرض على منحدر سهل.

كانت باقة من ثلاث أشجار تخفينا عن النظرات، وكان يمتد حقل واسع من الجلة تفوح رائحته وكان قد مشى فيه أحدهم. لن يرتفع القمر قبل الساعة الثالثة صباحاً.

بقينا برهة مرتبكين، واقفين، الواحد منا تجاه الآخر، وكي أتماسك، أخذت في ترتيب الغطاء.

أرى، من جديد، آنا تلقي بسيجارتها التي بقيت تلمع في العشب، خالعة فستانها بحركة كنت أراها لأول مرة، ثم ملابسها الداخلية.

اقتربت، عند ذلك عارية، وقد فاجأتها البرودة التي جعلتها ترتعش مرة أو مرتين وجرتني، برفق، إلى الأرض. فهمت، حالاً، أنها كانت تريد أن تكون تلك ليلتي. حَزَرَتْ ارتباكي كما حزرت الكثير من أفكاري.

كانت هي التي اتخذت كل المبادرات هي، أيضاً، التي دفعت الغطاء من أجل أن يلامس جسدانا الأرض برائحة التراب والخضرة.

عندما سطع القمر، لم أكن نائماً. كانت آنا قد ارتدت فستانها، وكنا ملتفين داخل الغطاء متلاصقين بسبب برودة الليل.

كنت أرى شعرها الأسود ذا الانعكاسات الصهباء، وجهها الجانبي الغريب، بشرتها الشاحبة التي كانت برغلتها مختلفة عما عرفته.

كنا ممتزجين إلى حد لم تكن لنا، معه، سوى رائحة واحدة.

أجهل بأي شيء كنت أفكر وأنا أنظر إليها هكذا. كنت رزيناً، لا فرحاً ولا حزيناً. لم يكن المستقبل يشغل بالي. كنت أرفض أن أجعله يتدخل في الحاضر.

لاحظت، فجأة، أني لم أعد أنشغل، منذ أربع وعشرين ساعة، مرة واحدة، بنظارتي الاحتياطية التي ربما كانت ترقد في مكان ما، في المرج أو في قش عربتنا. بين حين وآخر، كانت تعتريها هزة، وكانت ثنية جبينها تزداد عمقاً كما لو كان الأمر يدور حول حلم مزعج أو ألم.

انتهيت إلى النوم. وبدلاً من أن استيقظ من تلقاء ذاتي، كعادتي، أخرجني صوت خطى من نومي. كان أحدهم يمشي قريباً مني، الرجل ذو الغليون الذي كنت أدعوه بالبواب. أدركتني نفحة من تبغه، غير متوقعة في هذا الفجر الريفي. كان مبكر الاستيقاظ مثلي، متوحداً، بالتأكيد، على الرغم من زوجته وأولاده الذين كان يطالب بهم بمزاج سيء مبالغ فيه. كان يمشي بالخطوات نفسها التي كنت أمشي بها، صباحاً، في حديقتي، والتقت نظراتنا.

وجدت له مظهراً طيباً. كان له بكتفيه المتهدلين وأنفه المائل هيئة صبي لطيف في كتاب صور.

استيقظت آنا منتفضة.

- هل حان الوقت؟

- لا أظن. لم تشرق الشمس.

كان ضباب خفيف يصعد من الأرض، وكان هناك بقر يخور في حظيرة بعيدة يتسرب منها قليل من النور. لا بد أنهم يحلبونها. في الأمس، رأينا صنبور مياه وراء البيت القرميدي في الموقف ذهبنا إليه كي نغتسل. لم يكن هناك أحد.

- خذ الغطاء.

خلعت آنا ملابسها في لمحة عين وألقت بماء مثلج على جسدها.

- هل تريد أن تذهب لإحضار صابونتي؟ إنها في القش وراء الحقيبة.

عندما انتهت من تجفيف نفسها وارتداء ثيابها، أمرتني قائلة:

- دورك الآن.

ترددت. قلت:

- لقد بدؤوا ينهضون.

- وماذا إذن؟ حتى إن شاهدوك عارياً تماماً.

قلدتها. ازرقت شفتاي وفركت ظهري وصدري بالمنشفة.

عادت السيارة الصفراء حاملة الممرضة نفسها والكشافين، أنفسهم، الذين كانت لهم هيئة أطفال مفرطي النمو أو رجال غير مكتملين. جاؤونا، أيضاً، بقهوة، بخبز بالزبد، برضاعات لأجل الرضع.

لا أعلم شيئاً عما جرى في القطار، تلك الليلة، ولا ما إذا كانت امرأة قد وضعت طفلها كما راجت الشائعة. هذا يدهشني لأني لم أسمع شيئاً.

كنا نعامل كتلاميذ في عطلة، وكانت الممرضة التي لم تبلغ الأربعين، تقودنا كصف أطفال.

- يا رب! كم تفوح رائحة الأقدام هنا! بعد قليل، في المعسكر، يجب أن يغسل كل هذا يا أولادي. وأنت أيها الجد، هل شربت هذه الزجاجات وحدك؟

وقعت عيناها على جولي.

- قولي، إذن، أيتها البدينة، ماذا تنتظرين كي تستيقظي؟ هل ستنامين إلى الضحى؟ نحن ذاهبون، بعد ساعة ستكونون في لاروشيل.

أخيراً، كان البحر قريباً جداً، كان المرفأ يلامس المحطة مع مراكب بخارية، من جهة، ومن الجهة الأخرى، قوارب الصيد التي كانت أشرعتها وشباكها تقف في الشمس.

في الحال، التقطتُ المشهد الذي دخل إلى جلدي. لم أنشغل بوجود عدة قطارات على الخطوط ولم أر شيئاً. لم أنشغل، كذلك، بالأشخاص المتفاوتي الأهمية الذين كانوا يروحون ويجيئون ويعطون أوامر، ولا بالفتيات ذوات اللباس الأبيض، بالعسكريين، بالكشفيين.

ساعدوا العجائز على النزول، وكان الكاهن يعدهم كما لو كان يخشى أن يضيع بعضهم أو أن ينساهم.

- الجميع إلى مركز الاستقبال، تجاه المحطة.

حملت صندوقي والحقيبة التي حاولت آنا أخذها مني، ولم أدعها تحمل سوى الغطاء وزجاجاتنا الفارغة التي ربما ستستخدم أيضاً.

كان جنود مسلحون ينظرون إلينا نمر، نظروا إلى رفيقتي التي كانت تتبعني عن كثب، وأحست فجأة، بأنها ضائعة وكما لو كانت خائفة.

لم أفهم السبب إلا بعد ذلك بقليل. في الخارج، كان الكشافون يدلوننا على براكات من خشب صنوبر ما زال فاتح اللون مقامة في حديقة عامة، على بعد خطوتين من حوض، كانت براكة أصغر، بالكاد أكبر من كشك صحف تستخدم مكتباً، ووجدنا نفسنا، كالآخرين، نصطف أمام بابها المفتوح.

تفككت مجموعتنا. اختلطنا بالبلجيكيين الذين كانوا أكبر عدداً، ولم تكن لدينا فكرة عما كان يراد منا.

شهدنا، من بعيد، صعود العجائز إلى الحافلات: انطلقت سيارتا إسعاف أيضاً. كنا نرى أبراج المدينة من مسافة ما، وجاء لاجئون مقيمون، من قبل، في المعسكر لينظروا إلينا بفضول. كان كثيرون منهم فلمنكيين والتقوا مواطنين لهم بفرح. سألني واحد منهم يتكلم الفرنسية بلكنة قوية:

- من أين أنت؟

- من فوماي.

- لم يكن عليك، إذن، أن تكون هنا. إنه معسكر للبلجيكيين.

تبادلنا، آنا وأنا، نظرات قلقة ونحن لا نزال ننتظر دورنا في الشمس.

- هيئوا بطاقات الهوية.

لم تكن معي بطاقة على اعتبار أنها لم تكن إجبارية في ذلك العهد، في فرنسا، ولم يكن معي، أيضاً، جواز السفر لأني لم أسافر إلى الخارج أبداً.

كنت أرى بعض من كانوا يخرجون من المكتب يتجهون إلى البراكات وآخرين يرسلون لانتظار ما لا أدري على حافة الرصيف، وسيلة نقل، دون شك، لأخذهم إلى مكان آخر.

التقطت، عندما أصبحت أقرب إلى الباب، شذرات من محادثة.

- ما مهنتك يا بيترز؟

- أنا موضب آلات، لكني، منذ الحرب...

- أتريد أن تعمل؟

- لست كسولاً كما تعلم.

- ألديك زوجة وأبناء؟

- زوجتي هناك، تلك التي ترتدي فستاناً أخضر، مع أولادي الثلاثة.

- يمكنك أن تعمل منذ الغد، في مصنع آيتريه، وستتقاضى أجر الفرنسيين نفسه. اذهب وانتظر على الرصيف. سوف تؤخذ إلى آيتريه حيث سيجدون لك مسكناً.

- أهذا صحيح؟

- إلى التالي.

كان ذاك جول العجوز الذي اندس، وكان من أواخر الواصلين، في الصف.

- بطاقة هويتك.

- لا أحمل بطاقة هوية.

- هل فقدتها؟

- لم أعط واحدة قط.

- هل أنت بلجيكي؟

- فرنسي.

- ماذا تفعل، إذن، هنا؟

- انتظر أن تقول ذلك لي؟

تحدث الرجل بصوت منخفض، مع شخص لم أكن أراه.

- هل معك مال؟

- ليس معي ما أدفع به ثمن ليتر من الشراب.

- هل لديك أقارب في لاروشيل؟

- ليست لي أسرة في أي مكان. أنا يتيم منذ الولادة.

- سنهتم بأمرك فيما بعد. اذهب واسترح.

كنت أحس بآنا متزايدة العصبية. كنت الفرنسي الثاني الذي مر

- بطاقة الهوية.

- أنا فرنسي.

نظر الرجل إلي متضايقاً.

- أهناك فرنسيون كثيرون في القطار؟

- ثلاث عربات.

- من اهتم بكم؟

- لا أحد.

- ماذا تنوي أن تفعل؟

- لا أدري.

أشار إلى آنا.

- أهي زوجتك؟

لم أتردد سوى ثانية قبل أن أقول نعم.

- أقيما في المعسكر حتى إشعار آخر. أنا لا أدري. لم يكن هذا متوقعاً.

كانت ثلاث من البراكات جديدة، واسعة، مع صفوف من فرش القش على الجوانب كان بعض الأشخاص لا يزالون راقدين، وربما كانوا مرضى أو أناساً وصلوا ليلاً.

في مكان أبعد، نصبت خيمة سيرك عتيقة من قماش خشن أخضر اكتفي، فيها، بنشر القش.

هناك وضعنا حوائجنا، آنا وأنا، في زاوية. بدأ المعسكر في استقبال الناس بقيت هناك فراغات كبيرة. توقعت أن لا يدوم ذلك كثيراً وأننا سنترك لشأننا في الخيمة أكثر منا في البراكات. كانت هناك، في خيمة أصغر، حقيرة إلى درجة كافية، نساء يقشرن بطاطا وينظفن خضاراً في دلاء كبيرة.

تمتمت آنا قائلة:

- شكراً.

- على ماذا؟

- على ما قلته.

- كنت أخشى من أن لا يدعوك تمرين.

- وماذا كنت ستفعل؟

- كنت سأرحل معك.

- لا يهم.

كان معي قليل من النقود لأن القسم الأكبر من مدّخراتنا كان في محفظة جان. كان يمكن أن أعمل. لم أكن أنفر من ذلك.

إلا أني كنت أتمسك، الآن، بالحفاظ على صفتي كلاجئ. كنت متمسكاً، خاصة بالبقاء في هذا المعسكر، قرب المرفأ، قرب المراكب، بالهيمان على وجهي بين البراكات التي كانت نساء يغسلن، فيها، ملابسهن ويتركنها تجف، التي كان الأطفال يجلسون، فيها، أرضاً، عراة المؤخرات.

لم أرحل عن فوماي ليكون علي أن أفكر وأتحمل مسؤوليات.

- لو اعترفت لهم بأني تشيكية.

- أ أنت تشيكية؟

- من براغ، مع عرق يهودي من جهة الأم أمي يهودية.

لم تكن تتحدث عن الماضي، مما يدل على أن أمها ما تزال حية.

- ليس لدي جواز سفري الذي بقي في نامور. كان يمكن، مع لكنتي، أن يظنوني ألمانية.

اعترف بأن فكرة سيئة خالجتني وأني تجهمت. ألم تكن هي التي، بشكل ما، اختارتني حالاً، تقريباً، بعد خروجنا من فوماي؟ كنت، في عربتنا، الرجل

الوحيد الذي لم يبلغ الخمسين، باستثناء غلام الأغطية. كدت أنسى زميلي القديم لوروا وتساءلت، فجأة، لماذا لم يجنَّد؟

على كل حال، لم أبذل أي جهد. كانت هي التي أتت إلي. تذكرت حركاتها الدقيقة، في أول ليلة، إلى جانب جولي وقوادها. لم تكن معها حوائج ولا مال. انتهت إلى أن تطلب سيجارة.

- بماذا تفكر؟

- فيك.

- أعلم، لكن ما الذي تفكر فيه؟

كنت أفكر، بغباء، في أنها توقعت، منذ فوماي، أن أوراقها سوف تطلب ذات يوم وفي أنها ضمنت، مسبقاً، كفيلاً، أنا!

كنا واقفين بين براكتين، كان قد بقي قليل من العشب الذي داسته الأقدام في الممر، وكان هناك غسيل يجف على حبال. رأيت حدقتيها تتجمدان وعينيها تصبحان نديتين. لم أكن لأتصور أنها كانت قادرة على البكاء، ومع ذلك، كانت دموع حقيقية تسيل على خديها.

في الوقت نفسه، تشنجت قبضتاها واغتم وجهها إلى حد ظننت، معه، أنها ستقذفني، من خلال دموعها بفيض من الشتائم والملامات.

أردت أن آخذ يدها التي سحبتها.

- أعتذر يا آنا.

هزت رأسها مبعثرة شعرها على خديها.

- لم أفكر في ذلك حقاً. لم تكن تلك سوى فكرة مبهمة كالتي تخطر لنا في بعض اللحظات.

- أعلم.

- هل تفهمين؟

مسحت عينيها بظاهر يدها، وكانت تشهق دون غنج. قالت:

- انتهى الأمر.

- هل آلمتك كثيراً؟

- سأتجاوز الأمر.

- تألمت، أنا أيضاً، ببلاهة. فهمت، حالاً، أن ذلك لم يكن صحيحاً.

- هل أنت متأكد من ذلك؟

- نعم.

- تعال.

جرتني نحو حافة الرصيف ونظرنا نحن الاثنان إلى ما وراء الصواري التي كان يؤرجحها المد، إلى البرجين الضخمين اللذين يشبهان أبراج القلاع واللذين كانا ملتصقين بمدخل الميناء.

- آنا!

كنت أتكلم بصوت منخفض دون أن التفت إليها وقد بهرت عيناي بالشمس والألوان.

- نعم؟

- أحبك.

- صه!

انتفخت حنجرتها كما لو كانت تبتلع لعابها. ثم تكلمت عن شيء آخر، بصوت عاد طبيعياً

- ألا تخشى أن تسرق حوائجك؟

أخذت أضحك ضحكة لم تكن تنتهي، وقبلتها في حين كانت طيور النورس تمر، في طيرانها، على مسافة مترين من رأسينا.

(٦)

هناك نقاط الاستناد الرسمية، التواريخ، التي يجب أن توجد في الكتب. أفترض أنه كان لكل شخص نقاط استناده الخاصة بموجب المكان الذي كان يوجد، فيه آنذاك، وبموجب وضعه الأسري وهمومه الشخصية. نقاط استنادي ترتبط، كلها، بمركز الاستقبال، بالمركز كما كنا نقول ببساطة، مطبوعة بوصول هذا القطار أو ذاك، بتحضير براكة جديدة، بحدث تافه في الظاهر.

كنا، دون أن نعلم، بين أوائل من وصلوا بعد يومين من إنزال القطارات للاجئين البلجيكيين، بحيث أن المركز لم يكن مرتباً.

هل كانت البراكات التي كانت لا تزال جديدة، المبنية منذ عدة أسابيع، هل كانت مبنية لهذا الغرض. لم يخطر لي أن أطرح السؤال. ربما كان الأمر كذلك على اعتبار أن السلطات قد أجلت قسماً كبيراً من الألزاس قبل الهجوم الألماني بزمن طويل.

على كل حال، لم يكن أحد يتوقع أن تجري الأحداث بهذا الإيقاع السريع، وكان واضحاً أنه كان يجري الارتجال يوماً بيوم.

صباح وصولنا، أشارت الصحف، فعلاً، إلى معارك في مونترميه وعلى الساموا. في الغد، كان الألمان يبنون جسوراً في دينان من أجل دباباتهم، وفي ١٥ أيار، إذا لم أخطئ، كانت الصحف اليومية تذكر من جديد، في الوقت الذي أعلنت، فيه، عن انسحاب الحكومة الفرنسية، بحروف كبيرة، أسماء من منطقتنا، مونميدي، روكور، ريتيل التي عانينا كثيراً من المشقة لبلوغها.

كان كل ذلك موجوداً بالنسبة إليَّ، كما بالنسبة للآخرين بالتأكيد، لكنه كان يجري في عالم بعيد، نظري، كنت كأني مفصول عنه.

أود أن أحاول تعريف حالتي الذهنية، لا خلال الأيام الأولى فقط، بل خلال كل الزمن الذي أمضيته بالمركز.

كانت الحرب موجودة، تلمس بصورة تتزايد كل يوم، حقيقية جداً، اختبرناها عندما تعرض قطارنا لنيران الرشاشات، اجتزنا، متبلدين، منطقة سديمية لم يكن، فيها، قتال بعد، لكن المعارك ستتعاقب فيها.

جرى هذا الآن. أسماء المدن والقرى التي قرأناها ونحن مارون، في الشمس، كنا نقرؤها الآن بحروف كبيرة في الصفحات الأولى من الجرائد.

هذه المنطقة التي فاجأنا أن نرى، وراءها، مشاهد خروج من القداس ومدناً تحتفل بيوم الأحد، كانت تتسع كل يوم، وكانت قطارات أخرى تتبع طريقنا، وكانت سيارات أخرى تجري على الطرقات متلامسة، بِفِراش على سطحها، مع عربات أطفال ومسنين عجزة ودمى.

هذه الدودة الطويلة وصلت إلى لاروشيل، فعلاً، متجهة، تحت أبصارنا، نحو بوردو. كان رجال ونساء وأطفال يموتون، كما مات ميكانيكينا، مفتوحي العيون على السماء الزرقاء. وكان آخرون ينزفون كالعجوز الذي كان يمسك بالمنديل المحمر أمام وجهه، يئنون كالمرأة ذات الكتف المخلوع.

يجب أن أخجل من الاعتراف بذلك: لم أكن أشارك في هذه المأساة. كانت خارجنا. لم يعد ذلك يمسنا شخصياً.

كان يمكن لمن يراني أن يقسم على أني كنت أعلم، عندما رحلت، ما سوف ألقاه: دائرة صغيرة على مقاسي ستصبح ملجئي وسيكون من الضروري أن التصق به.

وبما أن مركز الاستقبال كان مكرساً للاجئين البلجيكيين، فقد كنا فيه، آنا وأنا، بشكل غير نظامي. لذلك كنا نتواري، حارمين أنفسنا من التوزيعات الأولى للحساء خوفاً من أن نلاحظ.

أقيم موقد في الهواء الطلق، ثم اثنان، ثم ثلاثة، ثم أربعة مع أحواض، دنان حقيقية كتلك التي تستخدم في المزارع لطهي الخنزير.

فيما بعد، أقيمت براكة جديدة مسبقة الصنع من أجل المطبخ، مع موائد ثابتة كنا نستطيع أن نجلس عليها لنأكل.

كنت، متبوعاً بآنا التي لا تفارقني، ألاحظ الروحات والجيئات. لم ألبث أن فهمت تنظيم المعسكر الذي كان، فعلاً، ارتجالاً متصلاً.

كان يتولى ذلك رجل، بلجيكي، ذاك الذي استجوبني لدى وصولي والذي كنت أتجنبه قدر الإمكان. كان محاطاً بعدد من الفتيات والكشافين، وكان بينهم كشافون كبار من اوستند جاؤوا بواحد من أولى القطارات.

كان يجري فرز، بقدر متفاوت من النجاح، بين اللاجئين، المفيدين وغير المفيدين، أي الذين كانوا قادرين على العمل والذين، من العجائز والنساء والأطفال، لم يكن يمكن سوى إيوائهم.

نظرياً، كان المعسكر محطة لا ينبغي أن يمضي، فيها، الناس سوى بضع ساعات أو ليلة.

كانت المصانع تعمل لصالح الدفاع الوطني في آيتريه وباليس وأمكنة أخرى، وكانت تطلب يداً عاملة وتحتاج إلى حطابين، في غابة قريبة، ليغذوا المخابز بالحطب.

كانت حافلات تأخذ الاختصاصيين وأسرهم نحو هذه الأماكن حيث كانت لجان محلية تبذل جهدها لإسكانهم.

أما بالنسبة للنساء الوحيدات، الأسر دون أزواج، التي لا يمكن استخدامها، فقد كانت ترسل إلى مدن لا صناعة فيها مثل سانت أورويان.

كان هدفنا، آنا وأنا، حالاً، هو أن نبقى في المعسكر وأن نقبل فيه.

كانت الممرضة التي جاءت، في سيارة، تحمل لنا ما نأكله في أول مساء، تدعى السيدة بوش، وكانت، في نظري، أهم شخص بحيث ركزت انتباهي عليها كتلميذ يريد أن يكسب حظوة لدى معلمه.

لم تكن طويلة، كانت ممتلئة، سمينة تقريباً، تبلغ من العمر، كما قلت، ما يتراوح بين الثلاثين والأربعين، ولم أر، قط، أحداً يبذل من الطاقة ما كانت تبذله بمزاج طيب متصل.

أجهل ما إذا كانت تحمل شهادة تمريض. كانت تنتمي إلى مجتمع لاروشيل الراقي، زوجة طبيب أو مهندس، لم أعد أذكر لأنه كانت معها أربع أو خمس أخريات ينتمين إلى المكان نفسه، وكنت أخلط بين مهن الأزواج.

منذ أن كان يعلن عن قطار، كانت أولى الواصلين إلى المحطة، لا لتوزيع كلمات طيبة وحلوى ككثير من الأخريات اللواتي كن يحملن ساعدات، بل لتكتشف، ضمن الحشد، من كان الأكثر حاجة إلى المساعدة.

تزايد عدد هؤلاء مع تسارع الأحداث، وكانت ترى تقود العجزة والأطفال وأسوأ المسنين حالاً إلى براكة خاصة كانت تغسل فيها، وهي جاثية على ركبتيها، وبقميصها الأبيض، الأرجل المجروحة وتضمد الجراح وتقود إلى ما وراء غطاء يستخدم ستاراً النساء اللواتي كن في حاجة إلى عناية خاصة.

في معظم الأحيان، كان ينتصف الليل وهي لا تزال هناك تقوم بدورية صامتة مستعينة، بمصباح جيب، تعزي النساء الباكيات وتؤنب الرجال الصاخبين.

كانت الكهرباء التي مددت على عجل تعمل بصورة سيئة، وعندما تطوعت لإصلاحها، سألتني السيدة بوش:

- هل تحسن هذا العمل؟

- إنه مهنتي إلى حد ما. يلزمني سلم فقط.

- فتش عن واحد.

كنت قد كشفت بناء يشيد تجاه المحطة، في كتلة أبنية جديدة. ذهبت إلى الورشة، وبما أنه لم يكن هناك أحد استأذنه، فقد حملت سلماً بمساعدة آنا دون أن يأتي أحد ليطالب به.

بدلت، كذلك، زجاج نوافذ، وأصلحت صنابير ومجاري مياه على سطح الأرض. لم تكن السيدة بوش تعرف كنيتي وتجهل من أين أتيت. كانت تدعوني مارسيل واعتادت على دعوتي في كل مرة يكون، فيها، شيء ما على غير ما يرام.

بعد ثلاثة أيام أو أربعة، أصبحت الرجل الذي يعمل في كل شيء. كان لوروا قد اختفى مع المجموعة الأولى التي وجهت نحو بوردو أو تولوز. كان جول الوحيد من عربتنا الذي بقي في المعسكر الذي كان مقبولاً فيه لأنه كان يهرج.

صادفت في المدينة الرجل ذا الغليون الذي كنت أسميه البواب. أعلن لي، وهو مشغول، أنه كان يركض إلى المحافظة ليلح في طلب أخبار عن زوجته، ولم أره ثانية.

جرى هذا في اليوم الثاني أو الثالث. في الأمس، غسلت آنا سروالها وحمالة صدرها اللذين تركتهما يجفان في الشمس، وكنا، ونحن نجول في المعسكر، نتبادل النظرات بصورة التواطؤ ونحن نفكر في كونها عارية تحت ثوبها الأسود.

كان برج ضخم ينتصب في طرف الرصيف، برج الساعة الذي كان أكبر من ذلك الذي يلاصق القناة والذي كان الناس يمرون تحته للوصول إلى الشارع الرئيسي.

كانت هذه القبة ستصبح مألوفة لدينا كشارع القناطر الذي كانت تسود، فيه، حركة لا تصدق لأن المدينة كانت، تؤوي، إلى جانب السكان واللاجئين جنوداً وبحارة.

لم تحتج آنا عندما أردت شراء ملابس داخلية احتياطية لها. كان ذلك ضرورياً. تساءلت عما إذا كنت سأفيد من الفرصة لأشتري لها فستاناً فاتحاً كالتي كنا نراها تملأ البسطات. يجب أن تكون قد فكرت في ذلك لأنها كانت تحزر كل ما كان يخطر في بالي. قلت لها:

- أتعلمين، كنت سأقدم لك فستاناً....

لم تعتقد بأنها يجب أن تحتج أدباً كما كان من شأن أخريات كثيرات أن يفعلن، ولو كان ذلك من أجل الشكليات، نظرت إلي باسمة:

- ثم؟ ماذا كنت ستضيف؟

- إني أتردد بصورة أنانية. فستانك الأسود بالنسبة إلي، بمثابة جزء منك. هل تفهمين؟ أتساءل عما إذا كنت سأصاب بخيبة من رؤيتك تلبسين بصورة مختلفة.

تمتمت وهي تشد على أطراف أصابعي:

- أنا مسرورة.

شعرت بأن ذلك حقيقي. كنت مسروراً، أنا أيضاً، وكنا نمر أمام متجر عطور عندما توقفت.

- هل تستعملين مسحوقاً للتجميل وأحمر شفاه؟

- من قبل، نعم.

لم تكن تريد أن تقول قبلي، بل قبل نامور

- هل تريدين استعمالهما من جديد؟

- هذا يتوقف عليك، فقط إذا كنت تفضلني متجملة.

- كلا.

- أنا أفضل، إذن، أن لا استعملهما.

لم ترد، كذلك، أن تقص شعرها الذي لم يكن قصيراً ولا طويلاً.

لم أفكر في هذا أبداً، وليس ذلك، فقط، لأني كنت أرفض أن أفكر في ذلك، بل لأن هذا لم يخطر في بالي: لم يكن لحياتنا كثنائي من مستقبل.

كنت أجهل ما قد يحدث. لم يكن أحد يستطيع أن يتنبأ به. كنا نعيش في فرجة بين فصلين خارج المكان، وكنت ألتهم هذه الأيام والليالي بشراهة. كنت

شرهاً بصدد كل شيء، بصدد منظر المرفأ والبحر المتغير، مراكب الصيد المتنوعة الألوان التي كانت تمر في صف أحادي في ساعة المد، السمك الذي كان يفرغ في سلال أو في صناديق مسطحة، جمهور الشوارع، وجوه المعسكر والمحطة.

كنت أشد جوعاً من آنا، أيضاً، وللمرة الأولى في حياتي لم أكن أخجل من رغباتي الجنسية. الأمر كان عكس ذلك! غدا هذا الأمر، معها، لعبة كانت تبدو لي نقية جداً. كنا نتحدث عنه بفرح، بعفة مخترعين مجموعة كاملة من القواعد، متبنين عدداً من العلامات التي كانت تسمح لنا بتناقل بعض الأفكار السرية في العلن.

كان العمود الأخضر الذي يرى من بعيد يطل على البراكات مركز هذا العالم الجديد، وتحت هذا العمود كانت زاويتنا، في القش الكثيف، التي كنا نسميها حظيرتنا. كنا قد رتبنا فيها حوائجنا، تلك التي أخرجتها من أغراضي، وأخرى اشتريتها، كآنية للماء وسخانة كحول متينة مع اللازم لإعداد قهوة الصباح، خارجاً، بين براكتين تجاه المراكب.

الآخرون، خاصة منهم من كانوا لا يمضون أكثر من ليلة، كانوا ينظرون، بدهشة، إلى معداتنا وبحسد مؤكد في نظري، كما اتفق لي، في السابق، أن انظر إلى حظيرة حقيقية كانت تعيش، فيها، خيول في الدفء على فراشها.

قلت فراشنا أيضاً، ولم أكن أتمسك بتغيير القش مرات كثيرة من أجل أن يبقى مشبعاً بنا.

لم نكن نمارس الحب هناك فقط، بل في كل مكان تقريباً، وغالباً في مواقع غير متوقعة. هذا بدأ في المركب، في ذات مساء كنا، فيه، ننظر إلى قوارب الصيد تتأرجح على حافة الرصيف، في حين كان صرير البكرات يقلد صرخة النورس، كان ذلك أكثر من محتمل لأني كنت أعلم أني لن أبحر أبداً. نظرت بطريقة ما إلى الكوة المفتوحة في أحد المراكب. كانت سلال من

السمك مكدسة على جسره. انتقلت نظرتي إلى آنا، ثم، أيضاً، إلى المركب، وأخذت تضحك ضحكة كانت جزءاً من لغتنا السرية.

- هل تريد؟

- وأنت؟

- ألا تخشى أن يظنونا لصوصاً ويقبضون علينا؟

كانت الساعة قد تجاوزت منتصف الليل. كان الرصيف مقفراً وكل الأضواء مموهة. كانت الخطوات تسمع من بعيد، الأصعب كان النزول على السلم الحديدي المندمج بالحجر. وكانت آخر الدرجات دبقة. نجحنا على الرغم من ذلك وانزلقنا عبر الكوة مصطدمين في الأسفل، في الظلام، بسلال أخرى، بصفائح، بأشياء أخرى لم نكن نستطيع أن نتعرف عليها.

كانت تفوح روائح السمك والعشب والنفط. انتهت آنا إلى القول:

- من هنا.......

التقيت يدها التي قادتني، واستلقينا على سرير ضيق وقاس دفعنا عنه مشمعاً كان يضايقنا.

كان المد يؤرجحنا برفق. كنا نرى قطعة من السماء وبضع نجوم من خلال الكوة. صفر قطار من جهة المحطة. لم يكن ذلك وصولاً. كانت عربات تتقدم أو تتراجع مجرية مناورات كما لو كان ذلك لإسباغ النظام على الخطوط.

لم تكن هناك، بعد، حواجز حول المعسكر. كنا نستطيع أن ندخل ونخرج على هوانا. لم يكن أحد يحرس.

كان يكفينا أن نتمهل كي لا نوقظ جيراننا. فيما بعد، أقيمت حواجز لم تكن لحبسنا، بل لتجنب أن يختلط لصوص بنا ويقترفون سرقات كما حدث.

غالباً، أيضاً، ما كنا نذهب لنطوف حول المحطة، وفي ليلة لم تكن، فيها، أية حركة، رقدنا على أبعد المقاعد عن الأبنية. كان هذا يمتعنا، كان

نوعاً من التحدي وفي ذات مرة، مارسنا الحب وراء حزم القش، على بعد خطوات من السيدة بوش التي كانت تعتني بالأقدام المريضة وهي تكلمنا.

كنت أخصص، كل يوم، بعض الوقت للبحث عن زوجتي وابنتي بقدر إمكانياتي. لم يخدعونا عندما حدثونا، لا أدري أين، في أوكسير أو سامور، وربما في تور، عن قوائم سوف تعلق. بدأ الأمر بلصقها على باب المكتب حيث كانت تقف، كل صباح، مجموعات لمراجعتها.

إلا أنها كانت قوائم بلجيكيين، كان كثير منهم موجوداً في بوردو وسانت وكونياك وأنغوليم. بعضهم ذهب حتى تولوز، وكان عدد كبير منهم يسكنون قرى لم أسمع بأسمائها أبداً.

كنت أقرأ القوائم بصورة عشوائية. كنت أذهب، يومياً، أيضاً، لأرى أحد معاوني رئيس المحطة الذي وعدني بالاستعلام عن مصير قطارنا. جعل من ذلك عهد شرف له، وكان يضايقه أن لا يجد له أثراً. كان يغمغم قائلاً:

- لا يختفي قطار هكذا أثناء الحرب. ينبغي، حقاً، أن انتهي بمعرفة أين ذهب هذا القطار.

استعان، عن طريق الهاتف الاصطفائي، بزملائه، وبدأ الحديث عن قطار شبح.

ذهبنا إلى البلدية، آنا وأنا. كانت كتل تتكون أمام كل المكاتب لأن كل واحد كان، في تلك الفترة، يحتاج إلى معلومة، إلى ترخيص، إلى ورقة عليها خاتم رسمي.

هنا كانت تعلق قوائم فرنسيين وفرنسيات، لكن زوجتي ظلت غير ماثلة فيها.

- إذا كنت تبحث، فالأفضل أن تتوجه إلى المحافظة.

ذهبنا إليها. كانت الردهة مضيئة، وكانت الأروقة والمكاتب مغمورة بالشمس، وفيها موظفون بقمصان مشمورة السواعد وكثير من الفتيات بفساتين

فاتحة الألوان. كنت قد تركت آنا في الشارع لأني لم أكن أستطيع أن أزعم أنها زوجتي في الوقت الذي جئت، فيه، لأسأل عن أخبار هذه الأخيرة.

رأيتها من النافذة واقفة على حافة الرصيف، ترفع رأسها ثم تروح وتجيء، رزينة، متأملة، كنت متعجلاً إلى موافاتها ولمت نفسي على تركها ولو كان ذلك لهذه البرهة القصيرة.

كانوا يوزعون قسائم وقود على أصحاب السيارات. كانت مئات السيارات التي جاءت من كل مكان تزحم ميدان السلاح والأرصفة والأزقة. كان أصحابها هنا، في المحافظة ينتظرون، في أطول الصفوف، القسيمة العتيدة التي ستسمح لهم بمتابعة رحيلهم.

رأيت، أمس، في موكب سيارات متجهة نحو روشفور، سيارة جنائزية من شارلروا كانت أسرة كاملة فيها، وافترض أن حوائجها أخذت مكان النعش.

- هل تبحث عن شيء.

- أود أن أعرف أين زوجتي......

يبدو أننا كنا ألوفاً في الحالة نفسها. لم يقتصر الأمر على كون بلجيكا والشمال لا يزالان يتراجعان، لكن الهلع استولى على الباريسيين منذ أن تركت الحكومة المدينة وكان يروى أن موكباً طويلاً من رجال ونساء مُشاة، فضلاً عن السيارات، يستطيل على الطرقات.

اكتسحت المخابز في القرى القريبة من الطرقات الوطنية، ولم يعد هناك سرير واحد شاغر في المستشفيات.

- املأ هذه الورقة. دع لنا اسمك وعنوانك.

لم أذكر، بداعي الحذر، مركز الاستقبال وسجلت عنواني على شباك البريد. ومع ذلك لم نعد، جول العجوز وأنا، الفرنسيين الوحيدين في المعسكر.

ما زلت أرى، من جديد، أبشع قطار، في أشد أوقات بعد ظهر جميل، حين أتت على المرور، على الرصيف، بنات مدرسة صغيرات يذهبن، في صف، إلى حفلة.

كنا، كالسيدة بوش، نسمي قطارات بشعة تلك التي عانت أشد المعاناة في الطريق، القطارات التي مات، فيها، أناس، ولدت فيها، نساء دون عناية طبية.

كان هناك، مثلاً، قطار مجانين، عشر عربات مليئة بمجانين جرى إجلاؤهم من مصحة. وعلى الرغم من الاحتياطات المتخذة، اقتضى الأمر مطاردة اثنين وصلا، ركضاً، إلى قرية الغروس اورلوج.

لم أعد أعلم ما إذا كان القطار الذي تحدثت عنه قادماً من دواي أم من لاو لأني أميل إلى الخلط بين هاتين المدينتين. لم يكن ينقل سوى قليل من الجرحى الذين ضمدت جراحهم في الطريق، لكن كل الركاب، رجالاً ونساءً وأطفالاً، كانوا لا يزالون يحتفظون بعيون جامدة من الرعب.

كانت امرأة ترتعش بصورة تشنجية وتصطك أسنانها وهي تدفع الغطاء.

آخرون كانوا يتلفظون بكلمات غير مترابطة أو يكررون، دون نهاية القصة نفسها بصوت رتيب.

كانوا مشغولين بإنزالهم في دواي أو لاو، على بعد مائتي متر عن المحطة التي كانت تغص بالناس. بعضهم كانوا ينتظرون متخلفين، أقارب ذهبوا لشراء شيء من البوفيه عندما ظهرت، دون إنذار، طائرات في السماء.

- كانت تصعد هكذا يا سيدي....بالعرض.....كنا نراها تنقض على المحطة، على البيوت المقابلة، وأخذ كل شيء يرتعش، ينسف، السقوف، الحجارة، الناس، العربات التي كانت تقف غير بعيدة عنا.......رأيت ساقاً مقذوفة في الهواء وأنا نفسي وقعت على الأرض، فوق ابني مع أننا كنا بعيدين إلى حد كافٍ.

أعلنت الصحف عن وزارة جديدة، عن الانسحاب إلى دنكيرك، عن أجزاء من الخطوط الحديدية مقطوعة في كل مكان تقريباً، بينما كنا، آنا وأنا، نتابع حياتنا كما لو كانت ستدوم دائماً.

كانت آنا تعلم، مثلي، أن ذلك لم يكن صحيحاً، لكنها لم تكن تلمح إلى هذا أبداً. كانت قد شاركت قبلي، في حيوات أخرى، في برهات أخرى، متفاوتة الطول من حيوات مختلفة وكنت أفضل أن لا أفكر بما سيجري بعدي.

كان قد هصر قلبي أن أراها، من نافذة المحافظة، وحيدة على الرصيف كما لو كنا قد انفصلنا. استولى عليَّ الهلع. عندما وافيتها أخذت بذراعها كما لو كنت قد فصلت عنها عدة أيام.

استطيع أن أقسم على أن السماء لم تمطر مرة واحدة خلال كل هذه الفترة، باستثناء عاصفة، وأنا أتذكر هذا، خلفت جيوب ماء على سطح خيمتنا. كان الجو يبدو غير واقعي لشدة ما كان رائعاً، ولا أستطيع أن أتخيل لاروشيل إلا في حرارة الشمس.

كان الصيادون يأتون إلينا بسمك وكان الكشافون يجولون، كل صباح، في السوق حيث كانت تحشى سلالهم بخضار وفواكه. كانوا يدفعون عربة بذراع كالتي تركتها في فوماي. رافقتهم عدة مرات، سائراً مع المحفات، للمتعة، في حين كانت آنا تتبعنا على الرصيف.

كاد أن يحدث سوء في المعسكر والمحطة عندما أعلن الراديو استسلام بلجيكا. كان الفرنسيون، في تلك الفترة، في عدد البلجيكيين تقريباً. وكانت مصانع كاملة تنسحب. رأيت فلمنكيين وفالونيين يبكون كأطفال، وآخرين اشتبكوا بالأيدي وتوجب الفصل بينهم.

كان كل يوم يمر يقرض رأس مالي الهزيل من السعادة. ليست تلك هي الكلمة الصحيحة. بما أني لا أجد كلمة أخرى، وبما أن الرجال يتحدثون، دائماً، عن السعادة، فأنا مضطر للاكتفاء بهذه الكلمة.

في ذات يوم، في البلدية، في المحافظة، في شباك البريد، سأجد أخباراً عن جان وابنتي. كان الحمل يقترب من نهايته وكنت أتمنى أن لا يكون السفر والانفعالات قد عجلت في الحدث.

كانت صحف باريس تنشر قوائم قراء كانوا ينقلون، على هذا النحو، أخباراً إلى أسرهم وفكرت لحظة، في استعمال هذه الوسيلة. إلا أننا لم نكن نقرأ أية جريدة باريسية. أيها اختار؟ كان يجب أن نتفق سلفاً، وهذا لم يحدث. لم تكن هناك أية فرصة لأن تشتري جان، كل يوم، كل الصحف.

كان الألمان يتقدمون بسرعة كان كثيرون، يتحدثون، معها، عن خيانة وعن طابور خامس. يبدو أنه قد وصل إلى إحدى براكاتنا شخص زعم أنه هولندي. كان يحمل في حقيبته مرسلاً لاسلكياً محمولاً. أجهل ما إذا كان ذلك صحيحاً. السيدة بوش التي تحدثت معها عن ذلك لم تستطع أن تؤكده لي، لكنها رأت رجال شرطة يحومون في المعسكر.

أخاف هذا آنا التي كان اسم أسرتها، كوبلر، جرماني الرنين حقاً. كنا نفكر في ذلك في كل مرة كنا، فيها، ننظر إلى زهور الجيرانيوم في روعتها بين المعسكر والمحطة.

كان بستاني المدينة قد جاء بها، وهي مزهرة بعد وصولنا بقليل. أراه، من جديد، ينجز مبكراً، في الشمس التي مازالت شاحبة، عملاً ما في هذه السكينة في حين كانت قطارات اللاجئين لا تكف عن الوصول إلى المحطة، وفي حين كانت الصحف، في الكشك، مليئة بالكوارث.

يبدو أن محطة إذاعة ألمانية كانت تبث دعاية بالفرنسية قالت، بعد ساعتين، في حين كان البستاني لا يزال هناك، ما يلي تقريباً.

- لطيف منك يا سيد فييجو أن تزرع، على شرفنا، زهوراً على أطراف محطتك، سنكون هناك بعد بضعة أيام.

السيد فييجو الذي لم أره أبداً كان عمدة لاروشيل، واستمر الراديو الألماني في توجيه رسائل ساخرة إليه مبرهناً، هكذا على أنه لا يجهل شيئاً مما يجري في المدينة.

كانت كلمة «جاسوس» تلفظ بصورة متزايدة، وغدت النظرات مرتابة.

- من الأفضل أن تقللي بقدر الإمكان، من الكلام أمام الناس.

- فكرت في ذلك.

لم تكن ثرثارة، ولم أكن ذلك أيضاً، ولو كنا، نحن الاثنان، كذلك، لكان هناك، بيننا كثير من الموضوعات المحرمة. لم نكن لنجد شيئاً كبيراً نتحدث فيه.

لم يكن هناك ماضي ولا مستقبل. لا شيء سوى حاضر هش كنا نلتهمه ونتذوقه معاً. كنا نتمتع بأفراح صغيرة، بصور، بانعكاسات كنا نعلم أننا سنحتفظ بها طوال حياتنا. أما بالنسبة لجسدنا، فقد كنا نعذبه لشدة ما حاولنا أن نصهره في جسد واحد.

لا أخجل من أن أقول ذلك، كنت سعيداً سعادة كانت بالنسبة لسعادة كل الأيام ما هو، مثلاً، بالنسبة للنغمة الطبيعية لكمان النغمة التي نحصل عليها منه بتمرير القوس من الجهة الخطأ من مشطه: كانت حادة، لطيفة، وكان ذلك يؤلم بصورة لذيذة. أما بالنسبة لجوعنا الجنسي، فأنا متأكد، تقريباً، من أننا لم نكن استثناء. فعلى الرغم من أننا كنا، في خيمة السيرك، أقل تلاصقاً مما كان عليه الأمر في عربتنا، عربة الماشية، فإننا لم نكن، مع ذلك، أقل من مائة شخص، رجالاً ونساءً، ينامون في المأوى نفسه. لم تمر ليلة دون أن اسمع أجساداً تتحرك بحذر، أنفاساً متسارعة وتأوهات غرامية.

لم أكن وحدي في الشعور بأني كنت خارج الحياة العادية ومواضعاتها، كان يمكن، من لحظة إلى أخرى، أن تظهر الطائرات في السماء وتسقط سبحتها من القنابل. بعد أسبوعين أو ثلاثة، ستكون القوات الألمانية هنا، ولم تكن، لدى أحد، فكرة عما سيجري.

أثناء إنذار أول، جعلونا نرقد على الأرض، عند حافة الحوض لأن الملجأ تحت الأرض الذي أنشئ في محطة البضائع كان أبعد مما ينبغي.

أطلقت المدفعية المضادة نيرانها. انطلقت رشات من المحطة وأكدوا لنا، فيما بعد، أن ذلك كان خطأ وأن الأمر كان يدور حول طائرات فرنسية لم تعط الإشارات النظامية.

انقضت طائرات أخرى لتضع ألغاماً حول سفينة، الشامبلان، في مرسى لاباليس. في الصباح، انفجرت السفينة. سمعنا الانفجارات دون أن نعرف ما كان يجري، فيما بعد، اشتعلت مستودعات وقود على مسافة ثلاثة كيلومترات أو أربعة عن المدينة. استمر دخان أسود في السماء عدة أيام.

قلت ذلك من قبل، وأكرره الآن، كانت الأيام تمضي سريعة وبطيئة معاً. تغير مدلول الزمان. دخل الألمان باريس في حين لم نغير، آنا وأنا، شيئاً من عاداتنا الصغيرة. جو المحطة هو وحده الذي كان يتغير بين يوم وآخر، يصبح أكثر اضطراباً، أكثر تشوشاً.

كنت، كما في فوماي، أول من ينهض، وكنت أذهب لتحضير القهوة في الخارج وأنا أحلق ذقني أمام مرآة معلقة على قماش الخيمة. انتهى الأمر إلى الاحتفاظ بركن من البراكة لاغتسال النساء وكانت آنا تذهب إليه مبكرة، قبل الزحام. كنا نتسكع حول المحطة حيث تعود الناس علينا وحيث كانوا يتوجهون إلينا بتحية ودية.

- أهناك كثير من القطارات؟

- ننتظر عاملين في رينو.

كنا نعرف القبو، الخطوط، المقاعد، لم نكن نخلو من حنان ونحن ننظر إلى عربات الماشية التي بقي، فيها، شيء من القش. أين كانت عربتنا حالياً، في أي منها كان يجب أن يكون قد بقي، فيها، قليل من رائحتنا؟

كان من النادر، بعد ذلك، أن لا تحتاج السيدة بوش إلي في عمل، في إصلاح باب أو نافذة، صنع رفوف جديدة للأدوية أو للمؤونة.

كنا نذهب إلى وجبات الحساء. بين حين وبين آخر، كنا نأخذ مقداراً إضافياً، كنا نمضي، عابرين الشارع، إلى بار حميم كنت أعلم أن آنا كانت تحب أن تتناول، فيه، شراباً مشهياً، في حين كنت أطلب، لمرافقتها، شراب ليمون. بعد الظهر، كنا نذهب إلى المدينة، وكنت أذهب لأقرأ القوائم قبل أن أذهب إلى شباك البريد.

يكفي أن يكون ابننا متقدماً قليلاً لكي يمكن أن يولد بين يوم وآخر، أتساءل عمن يمكن أن يعتني بصوفي خلال إقامة زوجتي في مشفى التوليد.

الشيء المثير للفضول هو أني لم أكن أتوصل إلى رؤيتهما بعين الفكر. سماتهما كانت تبقى مبهمة، غير محددة.

لم أكن قلقاً كثيراً على مصير صوفي لأنه كان لدينا، في المعسكر، خلال أسبوع، طفلان أضاعا في الطريق أمهما ولم يكونا يعانيان من ذلك. كانا يلعبان مع الآخرين، خاليي البال مثلهم وعندما جاءت أمهما، أخيراً، لأخذهما، ظلا برهة جامدين أمامها، مرتبكين كما لو كانا هاربين.

١٦ حزيران هو أحد التواريخ التي أتذكرها. بيتان طلب الهدنة من أورليان وغادر جنود المحطة دون أسلحتهم على الرغم من معارضة الضباط.

بعد ثلاثة أيام، كان الألمان في نانت. كنا نتصور أنهم كانوا يتنقلون بسرعة لأنهم كانوا مؤللين، وكنا نتوقع أن نراهم منذ الغد.

إلا أن الثاني والعشرين، وكان يوم سبت، هو الذي صاح بنا، فيه، سائقو سيارات، وهم يمرون:

- إنهم في لاروش سير إيون!

- هل رأيتموهم؟

أشاروا أن نعم وهم ينطلقون نحو روشفور.

كانت الليلة التالية حارة. نامت آنا أولاً، وأحسست، وأنا واقف، بالدموع تصعد إلى عيني وأنا أراها تصنع ركنها في القش. قلت:

- لا! تعالي.

لم تكن تسألني، أبداً، لا أين ولا لماذا. كان يمكن القسم على أنها أمضت حياتها تتبع رجلاً، أنها خلقت لهذا.

مشينا ونحن نصغي إلى صوت البحر وصرير عدة القوارب. ربما ظنت أني كنت أبحث عن مركب نلجأ إليه.

أخذتها، على هذا النحو، حتى طرف المرفأ حيث كانت توجد ورشات بناء، وسلكت، معها، طريق المستديرة التي توصل إلى الميدان. لم يكن يسمع أي صوت. لم يكن يرى أي ضوء في المدينة، لا شيء سوى فانوس أخضر قانٍ في طرف المكسر.

رقدنا على الرمل، قرب الأمواج الصغيرة وبقينا طويلاً دون أن نقول شيئاً، دون أن نفعل شيئاً، نرصد دقات قلبينا.

- آنا أود أن تقولي لنفسك دائماً......

- صه!

لم تكن تحتاج إلى كلمات. لم تكن تحبها، أعتقد أنها كانت تخيفها.

بدأت في أخذها، بشكل أخرق، مبدياً، شيئاً فشيئاً، فراغ صبر يشبه أذية. هذه المرة، لم تساعدني. بقيت جامدة، عيناها مثبتتان على وجهي، ولم أكن اقرأ، فيهما، أي تعبير.

بدا لي، لحظة، أنها قد رحلت من قبل وتخيلتها وحيدة من جديد كحيوان ضائع. صرخت بالصوت نفسه الذي كان يمكن أن أطلب، به، الغوث:

- آنا! افهمي إذن!

أخذت رأسي بين يديها كي تتمتم وهي تغالب دموعها:

- كان ذلك جيداً.

لم تكن تتكلم عن عناقنا، بل عنا، عن كل ما كنا عليه خلال هذا الوقت القصير. بكينا، الواحد فوق الآخر، ونحن نمارس الحب. خلال هذا الوقت، وصل الماء إلى أقدامنا.

كنت في حاجة إلى أن أفعل شيئاً. لم أكن أعرف ما هو. نزعت عنها فستانها ثم خلعت ملابسي. قلت مرة أخرى:

- تعالي.

كانت السماء على ما يكفي من الصفاء ليرتسم جسدانا في الظلام، لكني لم أكن أستطيع رؤية قسماتها. هل خافت فعلاً؟ هل ظنت أني كنت أريد أن أغرقها، وربما أن أغرق نفسي معها؟ انقبض جسدها الذي استولى عليه ذعر حيواني.

- تعال أيها الحيوان الكبير!

أخذت أركض في الماء الذي لم تلبث أن وافتني إليه. كانت تجيد السباحة، أما أنا فلا. مضت إلى نقطة أبعد في البحر، ثم جاءت ترسم دوائر حولي.

أتساءل، اليوم، عما إذا كانت مخطئة إلى هذا الحد في خوفها. كل شيء كان ممكناً آنذاك. حاولنا أن نجعل من هذا الاستحمام لعبة، أن نلهو كتلميذين في عطلة، لكننا لم نتوصل إلى ذلك:

- أتحسين بالبرد؟

- لا.

- لنركض كي نتدفأ.

ركضنا على الرمل الذي كان يلتصق بأقدامنا وربلات سيقاننا. كنت سيء الإلهام. أجبرتنا دورية، ونحن عائدان إلى المعسكر، على البقاء مختبئين في إطار أحد الأبواب لمدة ربع ساعة.

بدت لنا خيمتنا حارة حرارة إنسانية، وتكورنا، أخيراً، في ركننا حيث لم استطع أن أنام طوال الليل.

الغد كان يوم أحد. ارتدى لاجئون ملابسهم من أجل القداس. صادفنا، في المدينة، فتيات صغيرات بزينة صافية، أطفالاً في ملابس الأحد يسيرون أمام ذويهم. كانت محلات الحلوى مفتوحة، واشتريت قطعة حلوى كانت لا تزال فاترة، كما في فوماي.

بعد الغداء، ذهبنا لأكلها أمام الحوض، جالسين على الحجر وسيقاننا متدلية في الماء.

في الساعة الخامسة، توقفت دراجات ألمانية أمام البلدية وطلب ضابط أن يقابل السيد فييجو.

(٧)

صباح الاثنين، شعرت بالفراغ والاكتئاب. نامت آنا نوماً مضطرباً وهزتها، عدة مرات ، حركات مفاجئة لم أتعود عليها، وفي عدة مرات، تكلمت بلغتها بطلاقة.

نهضت في الساعة نفسها التي كنت أنهض، فيها، في الأيام الأخرى، لأحضر القهوة وأحلق ذقني، لكني لمحت، بدلاً من أن أكون خارجاً وحدي، مجموعات من لاجئين لا يزالون غير مستيقظين جيداً. كانوا ينظرون إلى مرور الدراجات الألمانية.

كان لدي الانطباع بأني كنت ألقى، في عيونهم، الوهن المستسلم نفسه الذي كان يجب أن يقرأ في عينيّ. وكان ذلك عاماً، ودام عدة أيام، وعدة أسابيع لدى بعضهم.

قلبت صفحة. انقضى عهد، وكل واحد كان متأكداً من ذلك على الرغم من أن أحداً لم يستطع أن يتنبأ، بالعهد الذي سيحل محله. لم يعد موضع الرهان مصيرنا، فقط، بل مصير العالم الذي كنا جزءاً منه.

لقد صنعنا لأنفسنا صورة متفاوتة الترويع عن الحرب والغزو، وها نحن في البرهة التي وصل كلاهما إلينا، فيها، بدورنا، نكتشف أنهما مختلفان عن كل ما توقعناه. والصحيح هو أن ذلك لم يكن سوى بداية.

فعلى سبيل المثال، بينما كان الماء يسخن على سخانة الكحول المتينة الموضوعة على الأرض، وبينما كان الألمان يسيرون في رتل دون الانشغال بنا، متوردين ونضرين كما في عرض، كنت أرى، من بعيد، جنديين فرنسيين، يحرسان باب المحطة حاملين بندقيتين.

لم تعد تصل قطارات منذ أول أمس. كانت الأرصفة مقفرة كصالات الانتظار والبوفيه ومكتب القائد العسكري. نظراً لانعدام الأوامر، لم يكن الجنديان يعرفان ماذا سيفعلان، ولم يضعا سلاحهما مسنوداً إلى الجدار ويرحلا إلا حوالي الساعة التاسعة.

بينما كنت أضع الصابون بالفرشاة على خديّ، سمعت، في الحوض، الصوت المميز لمحركات الديزل، ومضت قوارب إلى الصيد. لم تكن سوى ثلاثة أو أربعة. ومع ذلك يبقى أن صيادين كانوا يذهبون كالمعتاد، بينما كان العدو يكتسح المدينة، ساحبين شباكهم نحو عرض البحر. لم يردعهم أحد عن ذلك.

عندما توجهنا، آنا وأنا، إلى المدينة، كانت المقاهي والبارات والمخازن مفتوحة، وكان تجار يرتبون حوانيتهم. أرى من جديد، خاصة، بائعة زهور ترتب أزرار زهور في دلاء أمام واجهتها. هل كان هناك، إذن، أناس يشترون زهوراً اليوم؟

على الأرصفة، كان المارة يسيرون قلقين قليلاً، تائهين مثلي، وكان رجال فرنسيون، في الزي العسكري يختلطون بالجمهور. سأل أحدهم، في وسط الشارع، شرطياً عما يجب عليه أن يفعل، وفهمت من حركات الشرطي أنه كان يجيب بأنه يكن يعرف عن ذلك أكثر منه.

لم أر ألماناً في محيط القصر البلدي، والحق هو أني لا أتذكر أني رأيت منهم أحداً راجلاً بين السكان. ذهبت كالأيام الأخرى، لأراجع القوائم، ثم إلى البريد حيث انتظرت دوري، أمام كوة شباك البريد، في حين بقيت آنا واقفة، حالمة قرب النافذة.

لم يقل أحدنا للآخر شيئاً، تقريباً، منذ الصباح. كنا متوترين بالقدر نفسه، وعندما مدت إلي رسالة باسمي، لم يفاجئني ذلك. فكرت في أن ذلك كان محتوماً، إنه لا بد أن يحدث في ذلك اليوم.

الأمر هو، فقط، أن الدم انسحب من أطرافي التي أصبحت رخوة، ووجدت مشقة في الابتعاد خطوتين أو ثلاثاً.

كنت أعلم من قبل: الصيغة كانت مطبوعة على ورق رديء مع فراغات ملئت بالقلم البنفسجي.

اسم الشخص المبحوث عنه: جان ماري كليمنتين فان ستراتن، متزوجة من فيرون.

المكان الأصلي: فوماي «الأردين».

المهنة: دون مهنة.

تاريخ الرحيل:........

وسيلة النقل: الخطوط الحديدية.

مصحوبة: بابنتها، ٤ سنوات.

مكان الإقامة حالياً:..........

بدأ قلبي يخفق، وبحثت عن آنا بعينيَّ. كنت أراها، من جهة الشمس، قرب النافذة، ومن حيث كانت تنظر إليّ دون حركة.

مكان الإقامة الحالي: مستشفى توليد بريسوير.

اقتربت منها ومددت يدي إليها بالورقة بصمت. ثم، دون أن أعلم ماذا كنت أفعل، اتجهت نحو كوة الهاتف.

- هل مازال يمكن الاتصال ببريسوير؟

كنت أتوقع أن يرد علي بأن ذلك كان مستحيلاً. وضد كل منطق، كما بدا لي، كان الهاتف يعمل بصورة طبيعية.

- أي رقم تطلب؟

- مستشفى التوليد.

- ألا تعرف الرقم؟ اسم الشارع؟

افترض أنه لا يوجد سوى مستشفى توليد واحد في المدينة.

في ذكرياتي كتلميذ، كانت بريسوير تقع في مكان ما من منطقة نادراً ما يجري الحديث عنها، بين نيور وبواتييه، في موقع أبعد إلى الغرب نحو الفانديه.

- هناك انتظار لمدة عشرة دقائق.

كانت آنا قد ردت إلي الرسالة التي دسستها في جيبي، قلت، دون لزوم لذلك لأنها كانت تعرف:

- انتظر الاتصال.

أشعلت سيجارة. كنت قد اشتريت لها حقيبة يد، وكذلك صندوقاً صغيراً من الجلد المقلد لتضع فيه ملابسها الداخلية وأدوات زينتها. كانت أرضية مكتب البريد ما تزال تحمل آثار الماء الذي سفح من أجل كنسِه. في الاتجاه المقابل، من الجانب الآخر لميدان صغير، كان رجال لهم سمات الوجهاء يتناقشون على شرفة مقهى وهم يشربون نبيذاً أبيض، وبقي صاحب المقهى، بقميص مشمور الكمين، واقفاً قريباً منهم وفي يده منشفة.

- معك بريسوير، الحجرة رقم ٢.

في الطرف الآخر، كان صوت فارغ الصبر يقول:

- آلو! لاروشيل...تكلم!

- بريسوير؟

- نعم. سأمرر لك رقمك.

- آلو! مستشفى التوليد؟

- من يتكلم؟

- مارسيل فيرون. أود أن أعلم ما إذا كانت زوجتي لا تزال عندكم.

- ما الاسم الذي ذكرته؟

- فيرون.

كان علي أن أتهجى الاسم

- أهي ولاّدة؟

- أفترض ذلك.

- أهي في غرفة مدفوعة الأجر أم في غرفة مجانية؟

- لا أدري. نحن لاجئون من فوماي وقد أضعتها، هي وابنتي، في الطريق.

- لا تغادر. سوف أرى.

كنت أرى، من خلال زجاج الحجرة، آنا التي كانت قد أدارت ظهرها لتتكئ على النافذة، وكان يحدث فيّ تأثيراً غريباً أن أنظر إلى فستانها الأسود وكتفيها ووركيها التي عادت، من جديد، غريبة عني.

- إنها هنا، نعم. لقد ولدت أول أمس.

- ألا أستطيع أن أتحدث إليها؟

- لا يوجد هاتف في القاعات، لكني أستطيع أن أنقل لها رسالتك.

- قل لها.......

كنت أبحث عن شيء أقوله، وسمعت، فجأة، خربشة على الخط.

- آلو...آلو! لا تقطعي يا آنسة.

- تكلم إذن، استعجل.......

- قل لها إن زوجها في لاروشيل، إن كل شيء على ما يرام وأنه سيأتي إلى بريسوير في أسرع وقت ممكن... لا أعلم، بعد، ما إذا كنت سأجد وسيلة نقل، لكني...

لم يعد هناك أحد على الخط وأجهل ما إذا كانت نهاية جملتي قد سمعت. لم يخطر على بالي فكرة السؤال عما إذا كان المولود صبياً أم بنتاً وعما إذا كان كل شيء أجري بصورة حسنة.

ذهبت للدفع على الكوة، ثم قلت، آلياً كما فعلت كثيراً خلال الأسابيع الأخيرة:

- تعالي.

لم يكن هناك لزوم لذلك على اعتبار أن آنا كانت تتبعني دائماً.

سألت في الطريق:

- كيف تنوي الذهاب إلى هناك؟

- لا أدري.

- لن تعود القطارات، دون شك، قبل عدة أيام.

لم أكن أطرح على نفسي أسئلة. سوف اذهب إلى بريسوير على قدمي إن لزم الأمر. بما أني عرفت أين كانت جان فيجب أن أوافيها إلى حيث كانت. لم يكن الأمر يدور حول واجب. كان الأمر طبيعياً إلى حد لم أتردد، معه، لحظة. لا بد من أني كنت أبدو هادئاً، واثقاً من نفسي لأن آنا كانت تراقبني بشيء من الدهشة. على الرصيف، توقفت أمام المخزن الذي اشتريت منه سخانة الكحول. كانت تباع فيه أكياس بحارة من القماش الخشن، وكنت أريد واحداً منها ليحل محل الحقيبة التي كانت، حتى وهي فارغة، أثقل من أن أجرها على الطرقات.

بقي الجنود الألمان لا يختلطون بالمارة. ثمة مجموعة منهم سكرت في طرف المدينة، على الأسوار القديمة، حول مطبخ جوال، هذه المجموعة عادت إلى الرحيل عند الفجر.

دخلت، للمرة الأخيرة، إلى المعسكر، إلى خيمة السيرك الخضراء حيث دسست محتويات الحقيبة في كيس البحار. رأيت سخانة الكحول فمددتها إلى آنا.

- اتركها لك، لم أعد في حاجة إليها وليس لها، على كل حال، متسع عندي.

أخذتها دون احتجاج ووضعتها في حقيبتها. كنت مشغول البال وأتساءل أين ومتى سوف يودع كل منا الآخر.

كانت هناك نساء لا يزلن نائمات، وأخريات كنّ يعنين بأبنائهن ويراقبننا بفضول.

- سأساعدك.

رفعت آنا الكيس على كتفي وانحنيت لأمسك بالحقيبة. تبعتني وفي يدها صندوقها الصغير. في الخارج، بين براكتين بدأتُ، بصورة خرقاء، قائلاً:

- طيلة حياتي، سوف......

- أنا ذاهبة معك.

- إلى بريسوير؟

كنت قلقاً.

- أريد أن أبقى معك أطول مدة ممكنة. لا تخف. هناك سوف اختفي.

أراحني أن أرى مشهد الوداع مؤجلاً إلى وقت آخر. لم نلتق السيدة بوش ورحلنا، ككثيرين آخرين، دون أن نودعها ودون أن نشكرها. ومع ذلك، كنا أقدم من في المركز لأن جول العجوز كان قد نقل إلى المستشفى خلال نوبة هذيان رعاشي. توجهنا نحو ميدان السلاح من خلال أزقة متزايدة الوعورة. كانت شرفة مقهى السلام مليئة. كانت سيارات مدنية تجري، وفي طرف الميدان، في اتجاه الحديقة، كان يميز التمويه المبرقش للسيارات الألمانية.

لم أكن أتوقع أن أجد حافلة أوتوبوس. ومع ذلك، كانت هناك حافلات أمام المستودع، على اعتبار أن أحداً لم يصدر الأمر بوقف الخدمة. سألت عما إذا كانت هناك حافلة إلى بريسوير أو نيور. أجابوني بالنفي، وأن طريق نيور كان مزدحماً بالسيارات واللاجئين الذين يسيرون على أقدامهم وأن الألمان كانوا يجدون مشقة في أن يشقوا لأنفسهم طريقاً.

- هناك حافلة إلى فونتوناي لوكونت.

- أهي على طريق بريسوير؟

- إن ذلك يقربك منها.

- متى تنطلق؟

- السائق يتزود بالوقود.

صعدنا وجلسنا فيها تغمرنا الشمس، وفي البداية، كنا وحدنا بين المقاعد الخالية. صعد جندي فرنسي، رجل في حوالي الأربعين من عمره، يحمل سترته على ساعده، وفيما بعد، أخذ نصف دزينة من الركاب مكاناً حولنا.

كنا، آنا وأنا، جالسين جنباً إلى جنب، تهزنا رجات العجلات، نحتفظ بنظرة ثابتة إلى المشهد.

- ألست جائعة؟

- كلا، وأنت؟

- ولا أنا.

مقابلنا كانت فلاحة محمرة العينين من البكاء تأكل، شطيرة من الباتيه طيبة الرائحة. كنا نسير في طريق يمضي من قرية إلى قرية، غير بعيد عن البحر أولاً، نيول، مارسيي، ايسناندرن شارون، وكنا نرى قليلاً من الألمان. رأينا، فقط مجموعة صغيرة في ساحة كل بلدة، أمام الكنيسة أو البلدية، كان السكان ينظرون إليها من بعد كافٍ.

كنا خارج مسار اللاجئين والمجموعات الكبيرة من القوات. في مكان ما، خيل إليَّ أنني أتعرف على المرج والمحطة اللذين نمنا فيهما آخر ليلة من رحلتنا. لست متأكداً من ذلك لأن المشهد ليس، عندما تراه من على السكة، هو نفسه الذي تراه على الطريق.

مررنا أمام متجر ألبان كبير كانت علب الحليب، بالعشرات، تلمع في الشمس، ثم عبرنا جسراً على قناة، قرب نزل التصق به عرزال. كانت هناك أغطية بمربعات زرقاء، زهور على الموائد، طاهٍ من الخشب، على حافة الطريق، مد يده بقائمة طعام مطبوعة على الآلة الكاتبة.

في فونتونيه لوكونت، كان الألمان أكثر عدداً، وكذلك العربات، بما فيها الشاحنات، لكن ذلك، فقط، على الشارع الكبير المؤدي إلى المحطة. في محطة الحافلات، في ساحة، أعلمونا بأنه لم تكن هناك حافلة إلى بريسوير.

لم تخطر على بالي فكرة أخذ سيارة أجرة لأن ذلك لم يتفق لي، أولاً، أبداً، ولأني لم أكن أعتقد أن ذلك لا يزال ممكناً.

دخلنا لنأكل شيئاً إلى مقهى في ميدان السوق.

- هل أنتما لاجئان؟

- نعم، من الأردين.

- هناك اردينيون يقطعون خشباً في غابة ميرفات. إنهم يبدون متوحدين قليلاً: الحق هو أنهم طيبون جداً، شجعان جداً، هل تذهبان بعيداً؟

- إلى بريسوير.

- هل لديكما سيارة؟

كنا الزبونين الوحيدين في القاعة، وجاء عجوز ينتعل خفين من اللباد لينظر إلينا من باب المطبخ.

- كلا. سنمشي إذا لزم ذلك.

- أتعتقد أنك تستطيع الذهاب إلى بريسوير مشياً؟ مع هذه السيدة الصغيرة؟ انتظر لأرى ما إذا كانت شاحنة مارتان قد رحلت.

كنا محظوظين. كان بيت مارتان، في الجانب الآخر من الأشجار، متجر خردوات بالجملة. وكانت لديه توريدات يسلمها في بوزوغ وشوليه. انتظرنا، ونحن نشرب القهوة أمام الساحة الخالية. كان هناك مكان لنا، نحن الاثنين، في قمرة السائق، وبعد طلعة قاسية إلى حد ما، عبرنا غابة لا تنتهي. قال سائقنا، وهو يشير إلى مقطع من الغابة وبضعة أكواخ يلعب حولها أطفال نصف عراة:

- الأردينيون هناك.

- هل الألمان كثيرون هنا؟

- كانت هناك حركة مرور كبيرة مساء أمس وهذه الليلة. سيتجدد هذا الأمر دون شك. لقد رأينا، خاصة، دراجات ومطابخ جوالة. افترض أن الدبابات سوف تلي.

توقف ليودع طرداً لدى حذّاء التفت، عنده، إلينا، حصان حراثة وهو يصهل. بدا لي النهار طويلاً! وعلى الرغم من حظنا لم تكن الرحلة تنتهي.

نقمت، الآن، على آنا لأنها رافقتني. كان من الأفضل، لكلينا، أن ننهي الأمر في لاروشيل، بكيس البحار على كتفي والحقيبة في يدي.

كانت، لعلمها بأني لستُ مسروراً، منكمشة، تماماً، بين السائق وبيني. فكرت، فجأة، بأن وركها الدافئ يمس ورك رفيقنا وأحسست بالغيرة.

أمضينا ساعتين، تقريباً، لبلوغ بوزوغ، ولم نصادف سوى طابور مؤلل يبلغ طوله كيلومتراً. كان الجنود ينظرون إلينا وهم يمرون، ينظرون، خاصة، إلى آنا، ووجه إليها بعضهم إشارات بأيديهم.

- لم يعد أمامكما سوى حوالي عشرين كيلومتراً إلى بريسوير. الأفضل أن تدخلا، معي، إلى هذا المقهى، لعلي أعثر لكما على فرصة.

كان رجال يلعبون الورق عابسين، وفي آخر المقهى، كان هناك آخرون يتناقشون أمام أوراق منشورة بين الكؤوس.

- قولوا لي إذن! ليس هناك من يذهب إلى جهة بريسوير. السيد والسيدة لاجئان يحتاجان إلى بلوغها قبل الليل.

أحد الذين كانوا يتناقشون الذي كانت له هيئة تاجر أرزاق، نظر، مفصلاً إلى آنا، من قدميها إلى رأسها، قبل أن يقول:

- أستطيع أخذهما حتى سيريزاي.

كنت أجهل أين تقع سيريزاي. شرحوا لي أنها في منتصف الطريق إلى بريسوير. كنت انتظر أن أتجاوز صعوبات، أن أبرهن عن شيء من

البطولة لموافاة زوجتي، أن أمشي عدة أيام على الطرقات، أن يضايقني الألمان.

خاب أملي، تقريباً، من جراء تدبر كل شيء بهذه السهولة.

انتظرنا ما يقرب من ساعة نهاية المناقشة. نهض الرجال عدة مرات وبدوا يتبادلون الشد على الأيدي ليعودوا إلى الجلوس والبدء بدورة شراب جديدة.

كان لسائقنا المقبل لون محتقن. بهيئة متعاظمة، جعل آنا تجلس إلى جانبه وجلستُ على المقعد الخلفي. شعرتُ فجأة بتعب ليلتي البيضاء. كانت أجفاني ثقيلة وشفتاي محترقتين كأنني سأصاب بالحمى. ربما أكون قد تلقيت ضربة شمس.

بعد بعض الوقت، انقطعت عن فهم الأقوال المنطوق بها في الأمام، كنت أرى، بصورة مبهمة، مروجاً وغابات، قرية أو قريتين بدتا خدرتين. عبرنا جسراً فوق نهر شبه جاف لنتوقف، أخيراً، في ساحة.

شكرت، وشكرت آنا أيضاً. اجتزنا مائتي أو ثلاثمائة متر قبل أن نرى أمام دكان، شاحنة محملة بالدقيق كتب عليها اسم طحان في بريسوير.

وهكذا لم يكن علي، ولا على آنا، أن نمشي. لم نكن وحيدين مرة طوال النهار.

لم يكن الليل قد حل بعد. كنا على رصيف، قرب شرفة مقهى وكيسي وحقيبتي عند قدميّ. التفت لآخذ بعض الأوراق المالية من محفظتي. فهمت آنا ولم تحتج عندما دسستها في حقيبتها.

كان كل شيء خالياً حولنا. استوقفت غلاماً كان ماراً.

- قل لي يا صغيري.... أين مستشفى التوليد؟

- الشارع الثاني إلى اليسار، في الأعلى تماماً. لا يمكن أن تخطئه.

تمتمت آنا، وقد خمنت أني سأودعها هنا، قائلة:

- دعني أرافقك حتى الباب.

كانت من التواضع إلى درجة لم أجرؤ معها على الرفض. في إحدى الساحات، كان ألمان مشغولين حول دزينة من الدبابات الضخمة، وكان ضباط يصرخون بأوامر.

كان شارع مستشفى التوليد منحدراً، تحده بيوت بورجوازية. في آخره، تماماً، كان ينتصب بناء كبير من القرميد.

وضعت كيسي وحقيبتي، من جديد، على الأرض. لم أكن أجرؤ عل النظر إلى رفيقتي. كانت هناك امرأة متكئة على نافذتها، وطفل جالس على العتبة، ولم تعد الشمس الغاربة تضيء سوى سطوح المنازل. بدأت قائلاً:

- إذن...

توقف الصوت في حنجرتي وأمسكت بيديها. كان ينبغي، مع ذلك أن أنظر إليها مرة أخيرة، ورأيت وجهاً ممحواً.

- وداعاً.

- كن سعيداً يا مارسيل.

ضغطت على يديها الاثنتين. تركتهما. استعدت حملي متعثراً تقريباً، وعندما اقتربت من عتبة المستشفى ركضت خلفي لتهمس لي:

- كنت سعيدة معك.

رأيت، من خلال الباب المزجج، ممرضات في رواق، محفة، نقالة، موظفة الاستقبال تتكلم على الهاتف. دخلت. التفتُّ. كانت ما تزال واقفة على الرصيف.

- السيدة فيرون من فضلك.

(٨)

لم أشرع في كتابة ذكرياتي، خفية عن زوجتي وكل الناس، في دفتر أغلق عليه الدرج بالمفتاح، كلما دخل أحدهم إلى مكتبي، من أجل أن أسبغ النظام على ذاتي فقط، ولا على أمل فهم بعض الأمور التي أوقعت فيَّ الاضطراب دائماً.

ذلك أن لدي، الآن، مكتباً ومخزناً له واجهتان في شارع القصر، وأستخدم من العمال أكثر مما يستخدم ابن معلمي السابق، السيد بونشو الذي لم يعرف تحديث ذاته وبقي متجره يتّسم بالقتامة والوقار اللذين كان عليهما عندما كنت أعمل، فيه، في الماضي.

لدي ثلاثة أبناء يكبرون، بنتان وصبي، ذاك الذي ولد في بريسوير، جان فرانسوا! بينما بقيت صوفي في رعاية مزارعين في قرية مجاورة وجدت، لديهم، زوجتي، المأوى عندما هجرهما القطار.

بدت صوفي مسرورة لرؤيتي، لكنها لم تفاجأ، وعندما عدنا إلى ركب القطار إلى فوماي مع أمها وأخيها الصغير، كانت حزينة. جرت الولادة دون صعوبة. جان فرانسوا هو أقوى الثلاثة بنية.

أخته الثانية هي التي عرفنا، معها، صعوبات. والحق هو أني وجدتُ جان عصبية أكثر من أي وقت مضى، تخاف من لا شيء، مقتنعة بأن بلية تنتظرها.

ايزابيل، الثالثة، ولدت في أشد برهات الحرب دراماتيكية، عندما كنا ننتظر الإنزال. كان بعضهم يدعي أن هذا، الأخير سيؤدي إلى اندلاع المآسي نفسها والفوضى نفسها التي أدى إليها الغزو الألماني. كان هناك من يتوقع أن

يقاد كل الرجال السليمين إلى ألمانيا، وكانت هناك طرق معلمة بأسهم بحيث لا تزحم الطرق العسكرية.

وكان ذلك، أيضاً، عهد الحرمانات، كان التموين في أدنى مستوياته، ولم أكن أستطيع التوجه إلى السوق السوداء إلا على نطاق قليل نسبياً.

المهم هو أن جان ولدت قبل الأوان ووضع الطفل في حاضنة وأن زوجتي لم تتعاف تماماً أبداً. أصف الناحية المعنوية أكثر مما أصف الجانب الجسدي. ظلت خوافة، متشائمة، وعندما أقمنا، أخيراً، في شارع القصر، كانت مقتنعة، لزمن طويل، بأنا كنا معرضين للكارثة وبأننا سوف نلقى أنفسنا أفقر من أي وقت مضى.

استأنفت حياتي من النقطة التي تركتها فيها، وهو ما كان واجبي، قدري، لأنه كان الحل الوحيد الممكن ولأني لم أتصور، قط، أن الأمر سيكون خلاف ذلك.

عملت كثيراً، وعندما حان الوقت، وضعت الأطفال في أحسن المدارس. أجهل ماذا سيصيرون إليه. في الوقت الحاضر، يشبهون كل أطفال بيئتنا ويقبلون الأفكار التي يتم تلقينهم إياها. ومع ذلك، خاصة وأنا أرى ابني يكبر، استمع إلى الأسئلة التي يطرحها، وأرى النظرة التي يوجهها إليَّ، كانت لدي فكرة خفية. ربما استمر جان فرانسوا في الاستجابة بالطريقة التي تعلمه إياها أمه ومعلموه وكما استجيب، أنا نفسي بصورة متفاوتة الصدق.

من الممكن، أيضاً، أن يتمرد، ذات يوم، على أفكارنا، على نوع حياتنا، أن يحاول أن يكون هو نفسه.

ينطبق هذا على البنتين أساساً، لكن محاولتي تخيل جان فرانسوا شاباً هي التي بدأتُ، عندها، اضطرب.

خلا جبيني من الشعر. احتاج إلى نظارتين أشد كثافة. أنا رجل مزدهر الحال إلى درجة كافية، منزوٍ، أقرب إلى الرتابة. الأسرة التي نكونها، جان وأنا، مرئية من زاوية معينة، كانت، بالأحرى، كاريكاتوراً لزوجين.

عند ذلك، خطرت لي فكرة أن أدع لابني صورة أخرى لي. تساءلت عما إذا لم يكن سيفيده، ذات يوم. أن يعرف أن أباه لم يكن، دائماً، التاجر والزوج الوجل الذي عرفه، دون أي توق خلاف تربية أولاده بكل طاقته والصعود بهم درجة صغيرة في السلم الاجتماعي.

سيعلم ابني، وربما ابنتاي أيضاً، على هذا النحو، أنه كان فيّ رجل آخر وأني كنت قادراً، خلال بضعة أسابيع، أن أعيش عاطفة حقيقية.

لا أعلم بعد. لم أتخذ قراراً حول استعمال هذا الدفتر وآمل في أن يبقى أمامي الوقت لأفكر في ذلك. ينبغي عليَّ، على كل حال، أن أكشف، هنا، عن هذه الفكرة الخفية، كما أدين لنفسي، كي أكون صادقاً حيال نفسي والآخرين، أن أمضي إلى النهاية.

منذ شتاء ١٩٤٠، استؤنفت الحياة بصورة طبيعية تقريباً، باستثناء ما يتعلق بوجود الألمان والتموين الذي أصبح صعباً. عدت إلى العمل. لم تكن أجهزة الراديو ممنوعة، وكان يشترى منها أكثر مما كان يشترى في السابق. استعاد نستور، الديك، ودجاجاتنا، ناقصة واحدة، مكانها في حديقتنا، وعلى عكس ما كنت أتوقع، لم يسرق من البيت شيء، لا جهاز راديو ولا أداة. كانت ورشتي كما تركتها، مع مزيد من الغبار.

يجب أن يكون ربيع ١٩٤١ وخريفه قد مرا بسلام لأني لا أحتفظ عنهما إلا بقليل من الذكريات، إن لم يكن أن الدكتور ويلهلم غالباً ما كان يأتي إلى المنزل. كانت صحة جان تشغل باله، واعترف لي، فيما بعد، بأنه كان يخشى أن تصاب بالإنهاك العصبي.

إذا لم تكن آنا موضع بحث بين زوجتي وبيني، فإني يمكن أن أقسم على أنها كانت تعلم. هل وصلت إليها شائعة روجها لاجئون عادوا إلى البلدة مثلنا؟ لا أتذكر أني صادفت منهم في ذلك العهد، لكنه ليس مستحيلاً.

على كل حال، لم يكن لذلك صلة بصحتها، بمخاوفها. لم تكن، قط، عاطفية، غيورة، وكانت، كشقيقتها بيرت التي كان زوجها، صاحب محل

الحلويات، مشهوراً بعلاقاته النسائية، مستعدة لأن تتسامح بمغامرات شريطة أن تبقى مكتومة وأن لا تهدد أسرتنا.

لا أسعى إلى إعفاء نفسي من مسؤولياتي. فأنا أقول ما أفكر فيه، موضوعياً. فإذا كانت قد فهمت، في بريسوير، أني لم أعد الرجل نفسه، فإن سلوكي، بعد ذلك، طمأنها.

هل ارتابت في كونها كادت ألاّ تراني ثانية. لم يكن هذا، أساساً، صحيحاً. بيتنا لم يتعرض لأي خطر جدي. أقول هذا مغامراً بالتقليل من شأني في نظري بالذات.

كان الألمان، خاصة، هم الذين يخيفونها، خوفاً جسدياً، غريزياً، خطواتهم في الشارع، موسيقاهم، الإعلانات التي كانوا يعلقونها على الجدران والتي لم تكن تحتوي إلا على أخبار سيئة.

بسبب مهنتي، جاؤوا مرتين للتفتيش في ورشتي وفي البيت، بل وحفروا حفراً في الحديقة بحثاً عن أجهزة إرسال سرية.

كنا لا نزال نسكن في الشارع نفسه، بين بيت العجوز ماتراي والمعلم، والد البنت الصغيرة ذات الجدائل. لم يَرجع أفراد هذه العائلة إلى بيتهم، ولم نرهم، ثانية، إلا بعد التحرير لأنهم أمضوا فترة الحرب قرب كاركاسون حيث عمل المعلم في المقاومة.

في ذاكرتي أن شتاء ١٩٤١ - ١٩٤٢ كان بارداً جداً. قبل عيد الميلاد بقليل، حين كان الثلج قد هطل من قبل، جاء إلى بيتنا، ذات صباح، الدكتور ولهلم ليرى جان التي كانت مصابة بنزلة برد. أصبنا بها جميعاً، لكنها كانت تتماثل للشفاء بصعوبة وتبدو أكثر قلقاً من المعتاد.

عندما غادر، قال لي في الرواق:

- أرجو أن تتلطف وتأتي لتلقي نظرة على جهاز الراديو عندي. أتساءل عما إذا لم يحترق أحد الصمامات.

كان الظلام يحل منذ الساعة الرابعة بعد الظهر، وكانت المصابيح لا تزال مطلية بالأزرق والواجهات معتمة. كنت قد أتيت على إنهاء عمل عندما تذكرت الدكتور ولهلم وقلت لنفسي أنه مازال لدي الوقت للمرور به قبل العشاء.

أخطرت زوجتي، ارتديت سترتي المبطنة بالفرو. غادرت، وعلبة أدواتي في يدي، دفء المنزل إلى برد الطريق وظلمتها.

ما كدت أجتاز بضعة أمتار، حتى انفصل خيال عن الجدار وجاء نحوي، بينما ناداني صوت باسمي.

- مارسيل.

تعرفت عليها حالاً، كانت ترتدي معطفاً قاتم اللون وتعتمر طاقية. بدا لي وجهها أشد شحوباً من أي وقت مضى. وقفت إلى جانبي كما عندما كنت أقول لها، في السابق، «تعالي»!

كانت ترتعد من البرد، منفعلة، في حين بقيت هادئاً واضح الذهن.

- يجب أن أكلمك يا مارسيل. هذه فرصتي الأخيرة. أنا في فوماي مع طيار انكليزي يجب أن أقوده إلى المنطقة الحرة.

التفت، وخيل إلي أنني لمحت خيال رجل مختبئ على عتبة أسرة ماتراي.

- أحدهم وشى بنا والغستابو في أعقابنا ويبحث عنا. يجب أن نستطيع الاختباء بضعة أيام في مكان أمين، إلى أن ينسونا.

كانت تلهث وهي تمشي، وهو ما لم يكن يحدث لها سابقاً. كانت عيناها متعبتين ووجهها ذابلاً.

كنت لا أزال أتقدم بخطى واسعة، وعند الانعطاف حول زاوية الرصيف، بدأت قائلاً:

- استمعي.....

- فهمت.

كانت تفهم دائماً قبل أن أفتح فمي. مع ذلك، كنت سأصر على قول ما كان علي قوله:

- الألمان يراقبونني، أقدموا مرتين........

كررت قائلة:

- فهمت يا مارسيل، أنا لا ألومك، اعذرني.

لم يتيسر لي الوقت للحاق بها. كانت قد استدارت راكضة نحو الرجل الذي كان ينتظرها في الظل.

لم أتحدث، أبداً، عن ذلك لأحد. بعد إصلاح راديو الطبيب، عدت إلى بيتنا حيث كانت جان تضع المائدة في المطبخ بينما كان جان فرانسوا يأكل في كرسيه العالي.

سألتني وهي تنظر إلي:

- ألم تبرد؟

كل شيء كان في مكانه، الأثاث، الأشياء، كما تركناها عندما غادرنا فوماي، وكان هناك طفل إضافي في البيت.

بعد شهر، رأيت إعلاناً ما زال حديثاً على جدار البلدية. كان يقرأ عليه خمسة أسماء، بينها اسم انكليزي واسم آنا كوبلر الخمسة أعدموا، كجواسيس، رمياً بالرصاص، أول أمس، في باحة سجن ميزيه.

لم أعد، أبداً، إلى لاروشيل. لن أعود إليها أبداً.

لدى زوجة، ثلاثة أبناء، ومؤسسة تجارية في شارع القصر.

نولان(ڤو)، ٢٥ مارس (آذار) ١٩٦١

البـاب

الهيئة العامة السورية للكتاب

الهيئة العامة السورية للكتاب

كما في كثير من بيوت الحي، كانت النوافذ العالية والضيقة تنزل إلى ثلاثين سنتمتراً من الأرضية، وكانت نقوش من الحديد المطروق تسند الرتاج. من خلال هذه النقوش، كان فوا يتابع، بدرجات متفاوتة من الوعي، الروحات والجيئات في الشارع. قطب حاجبيه عندما رأى سيارة الدكتور أوبون الزرقاء الصغيرة تدور حول زاوية شارع فران - بورجوا وتمضي في شارع تورين وتتوقف، عابرة الطريق بصورة مائلة، وراء شاحنة مكتبة هيرببفو.

مد الدكتور رأسه من الباب ليتأكد من أنها ليست بعيدة عن الرصيف، أنهى رجعة إلى الوراء متبوعة بقفزة صغيرة إلى الأمام وانسل خارج السيارة الصغيرة.

لم يكن فوا يعرف التاريخ بالضبط. لم يعرفه أبداً. إنه يوم الخامس أو السادس من تموز والسابع على أبعد حد. بعد أسبوع سيبقون مستيقظين طوال الليل بسبب الموسيقى والمفرقعات في ميدان الفوج في الرابع عشر من تموز.

لم يكن الأطفال في عطلة بعد. منذ نصف ساعة، نبعوا من المدرسة مطلقين صرخاتٍ حادةً ثم انتشروا في الحي.

كان فوا يجهل التاريخ، كان يعلم أن اليوم هو الإثنين لأنه كان يمكن، لنيلي وله، في الشقة ذات النوافذ العريضة المفتوحة،أن يخيل إليهما أنهما وحيدان في باريس لما كان عليه الشارع من فراغ وصمت. في برهة ما، حوالي الظهر، لم ير، فيه، سوى كلب يبدو محبطاً على الرصيف المقفر.

على كل حال، كان الدكتور متقدماً على موعده. كان يأتي، عادةً إلى شارع تورين في نهاية بعد الظهر، في الأسبوع الثالث من الشهر، في اليوم الذي كان يزور، فيه، مريضته المعاقة في شارع سيفينييه.

لماذا تساءل فوا، فجأة إذا كانت هذه القصة حقيقية، إذا كانت العجوز قد وُجدت حقاً؟ كان الدكتور أوبون يرفض أن يدعه يدفع له عن هذه الزيارة الشهرية مدعياً أنه كان يأتي كصديق أكثر منه كطبيب، وهو ما كان يبدو قابلاً للتصديق بعد عشرين سنة من العلاقات.

في العادة، كان، بعد رجعته، الخرقاء إلى حد ما، يرفع عينيه، ورأسه خارج باب السيارة، إلى الطابق الرابع حيث كان متأكداً من أنه سيرى برنار فوا جالساً في إطار إحدى النوافذ، كما كان يرى، من نافذة مواجهة، فوق المكتبة، من أول السنة إلى نهايتها، قفص كناري.

كان أوبون يقوم، على طريقة شخص يمر مصادفة، بحركة تعني: «هل أستطيع الصعود».

لماذا يمكن أن لا يستطيع الصعود؟ لم يكن يحدث إرباكاً أبداً. لم يكن يجهل أن فوا يكون في هذه الساعة، كما في معظم أجزاء النهار، وحده بين أباجوراته وريشه. كانت هذه الحركة تنتمي إلى التقليد، كانت طريقة لإعطاء زيارته طابعاً رفاقياً، وفي الوقت نفسه طابع شيء طارئ.

لكن ذلك لم يكن يمنع من أنه كان يحمل معه حقيبته القديمة الصهباء التي لم تعد جديدة، من قبل، عندما التقى الرجلان في بداية الحرب.

لماذا لم يرفع الدكتور، اليوم، رأسه ويتصرف كما لو كان يجهل أن عيني برنار كانتا مثبتتين عليه؟ ولماذا، خاصة، كان مبكراً أسبوعاً؟

ألم تكن نيلي هي التي هتفت له لتطلب منه أن يقدم موعده؟ ألم يكن، لعدم قدرته على الاعتراف بذلك، متضايقاً من تفكيره في انه يجب أن يكذب، أن يمثل دوراً؟

على الشاحنة، كان رجلان بملابس زرقاء يخرجان منها طروداً مسطحة وثقيلة جداً، يبرزان، بحروف صفراء كلمات: *الأرملة هيربيفو، تجارة ورق بالجملة ونصف الجملة*. لكن السيدة هيربيفو كانت تبيع بالمفرق أيضاً، على اعتبار أن أطفال المدرسة كانوا يتزودون بلوازمهم من مخزنها ذي الواجهتين.

أعاد الدكتور إغلاق الباب مرتين، وفي المرة الثانية، صفقه بأكثر مما ينبغي من القوة، ثم عبر الشارع وهو يميل برأسه برفق كما لو كان مثقلاً بأكثر مما ينبغي من الأفكار، دون أن يلقي بالاً إلى حركة المرور، حاملاً بيده حقيبته.

بماذا كان يفكر؟ ماذا كان يرى في برنار وزوجته والحياة التي يعيشها كلاهما منذ عشرين سنة في مسكنهما في شارع تورين، فوق حلويات إسكاندون، عند زاوية شارع مينيم؟

كان، دون شك، يعرف برنار أكثر من أي شخص، كطبيب وإنسان معاً لكونه غالباً ما راقبه بعينيه الكبيرتين اللتين كانتا تعطيانه هيئة فطنة وسذاجة معاً. لكن، هل كان يعرفه حقاً؟ لم يكن يفعل سوى المرور مرة في كل شهر، وفي السابق أكثر من ذلك: فقد كان له مرضى آخرون، حالات أكثر أهمية في مستشفى سانت أنطوان وبين زبائن خصوصيين. كان يجري عمليات لما يصل إلى خمسة مرضى في اليوم، يعاشر زملاء وأصدقاء، يلعب البريدج، أحياناً، وكانت له، أخيراً، أسرته الخاصة زوجة أحبها، وربما كان لا يزال يحبها، وثلاثة أبناء، ذكور، اثنان منهم متزوجان.

كيف كان يمكن أن يمثل شيئاً آخر خلاف جزء صغير من عالمه وهمومه؟ بقي الطبيب وفياً له بالتأكيد. كان مستمراً، بعد هذا الزمن الطويل، في الحضور لرؤيته كما لو كان ذلك ضرورياً. هل كان يطرح على نفسه أسئلة بشأنه؟ ألم يكن يتصور أن كل المسائل قد حلت؟

كانت تسود حرارة شديدة. لم تكن الشمس قد اختفت وراء أسطُحِ المنازل المواجهة، وكانت ترسم مستطيلات طويلة لامعة على الأرضية المطلية.

ولأن نافذتين كانتا تطلان على شارع تورين، وواحدة على شارع مينيم، فقد كان، هناك، مع ذلك، تيار هواء متناوب ينزلق على البشرة كماء بارد.

بقي فوا في مكانه، غير مرتاح، قلقاً دون أن يعلم، بالضبط، لماذا كان يتابع، بفكره، الدكتور الذي دخل البناية والذي يجب أن يكون قد مس، وهو يمر أمام مقصورة البوابة، طرف قبعته الرمادية، القبعة نفسها التي كان يعتمرها من أول السنة إلى آخرها.

لم يكن هناك مصعد. كانت درجات السلم مهترئة، لكنها مشمعة بعناية. لدى منعطف كل منبسط، كان المرء يعبر منطقة أكثر ظلمة، واعتاد الدكتور أن يتوقف فيها ليسترجع أنفاسه.

عندما رآه فوا لأول مرة في لباس عسكري له هيئة مدني متنكر بلباس ضابط وطماقان من الجلد الأصهب تلفان ساقيه الممتلئين، كان رجلاً في الرابعة والأربعين أو الخامسة والأربعين من عمره بدأ الشعر ينحسر عن جبينه مبرزاً ضخامة رأسه.

كان، الآن، إذن، في الخامسة والستين من عمره. كان مصاباً بمرض قلبي، ويعاني من داء السكر، وفي ذات مرة، وكانت نيلي هناك، استأذن للانسحاب إلى الحمام كي يحقن نفسه بحقنة أنسولين.

كان فوا يتابع صعوده على الدرج، يخمن الأصوات التي كان أوبون يسمعها وراء الأبواب بقدر ما يصعد: الآلة الكاتبة في الطابق الأول، لدى السيد جوسيو، الترجمان المحلف، البيانو في الثاني لدى الآنسة ستريب التي كانت تعطي دروساً لبنات صغيرات، وربما الحاكي أو الراديو لدى الآنسة رونيه، في الطابق الثالث أو في الجهة المقابلة، صوت السيدة ميلان العجوز التي تحاول إسماع زوجها الأصم.

بدا له أن الانتظار كان أطول من المعتاد وتعرق جبينه دون سبب دقيق. نهض قبل أن تبلغ خطوات الدكتور منبسط شقته، تقدم نحو الباب محاولاً، من قبل، أن يبتسم.

كان ذلك مضحكاً، وكان يعرف هذا. كان خجلاً قليلاً في استجاباته. ربما كان كل شيء فيه مضحكاً منذ بعض الوقت. وإذا كان الأمر كذلك، فهذا أسوأ أيضاً.

كان واقفاً عند جانب من الباب المغلق، دون حراك، مهصور القلب، يستمع إلى الخطوات تجتاز الدرجات الأخيرة، ثم تنفس الدكتور الذي كان ينتظر، كي يقرع الباب، استرجاع أنفاسه. كان يخمن حركاته، المنديل الذي يمر به على جبينه، خديه غير المحلوقين جيداً، السيجارة التي يعيد إشعالها لأنها كانت تنطفئ لدى كل مرة يصعد، فيها، درجاً.

قرع أوبون أخيراً، وللتظاهر، خطا فوا بضع خطوات في دائرة قبل أن يفتح.

- كنت أخشى قليلاً أن لا أجدك...

كانت نظرته صافية وصريحة. كان قد سمن في السنوات الأخيرة بسبب السكر. كان يرتدي بزته الكحلية الأزلية التي بدأ نسيجها يلمع، وكانت ربطة عنقه معوجة دائماً.

أجاب برنار قائلاً:

- مضى زمن لم أخرج فيه.....

- هذا خطأ! هذا خطأ!

تجولت نظرته في أنحاء الغرفة الكبيرة التي كانت مألوفة له، التي كانت غرفة طعام وصالوناً معاً، وورشة، فوق ذلك، لأن فوا كان يرسم، فيها، أباجوراته.

كان هناك ثلاثة منها على الطاولة لأنه كان يزين ثلاثة في وقت واحد واضعاً كل الأحمر، ثم كل الأزرق والبنفسجي والأخضر. كان، منذ عدة أسابيع، يكرر رسم الموضوع نفسه الذي أعطي نموذجاً له: وردة، سوسنة. لماذا السوسن؟ لم يكن يدري ولم يهتم بذلك.

- جئت اليوم، في الوقت نفسه الذي جئت، فيه، إلى مشلولتي العجوز لأن علي أن أحضر، يوم السبت، مؤتمراً في ليشبونة. سآخذ زوجتي معي وسنفيد من المناسبة لنحصل على أسبوع أو أسبوعي عطلة في البرتغال.

لم يكن يتصرف كمريض على الرغم من أنه كان يعرف حالته أكثر من أي شخص آخر. كان يتحدث عن رحلته بشغف طفولي تقريباً. وضع حقيبته وجلس على مقعده العادي، مقعد نيلي.

- وأنت يا صغيري برنار؟

شارباه القصيران اللذان عرفهما فوا سوداوين أصبحا أبيضين تقريباً، مع بقعة دائرية بنية كثقب للسيجارة التي كانت، أزلياً، بين شفتيه، مشتعلة أو مطفأة.

- لا بأس، شكراً.

- أما زلت تعمل؟

أشار الدكتور إلى الأباجورات وحقوق الدهان الخزفية.

- لا يمكن أن أبقى كل اليوم دون عمل، لن يكون هذا، فضلاً عن ذلك، عادلاً حيال زوجتي.

كان يحاول أن يحزر، من ردود محاوره، ما إذا كانت نيلي قد هتفت له.

- كيف حالها؟

- جيدة، أفتى من أي وقت مضى.

لم يستطع أن يقول هذا الشيء الذي لم يكن يعني غيرَ شواغل سرية. الحقيقة. هي أن نيلي ليست أفتى منه إلى هذا الحد. عندما تزوجها، كانت في الثامنة عشرة من عمرها وكان، هو، في الثانية والعشرين. الآن، أصبحت في الثامنة والثلاثين.

هل أدهش أوبون هذا التلميح إلى العمر؟ هل خمن، فعلاً، لدى برنار قلقاً مخبوءاً أم أن نيلي هي التي دلته على الطريق عندما هتفت له؟

كان يقول بلهجة واثقة:

- إنها امرأة رائعة.

وقال برنار بشيء من المرارة:

- إنها مدهشة، نعم.

- ألن تأخذا عطلة أنتما الاثنان؟

- عطلتها في نهاية الشهر، لكننا باقيان في باريس.

- لماذا؟

حول فوا عينيه، تمتم:

- ما الفائدة؟

- أما زلت تعاني الدوار؟

- ما زلت، نعم.

- عدة مرات في اليوم؟

- عدة مرات، بالتأكيد.

- في أي برهة ينتابك ذلك على نحو خاص؟

- في أي وقت كان، حالَما أنهض، أحياناً، وعندما أجلس إلى الطاولة، أحياناً أخرى، مثلاً، أو، ببساطة، عندما أنتقل من كرسي إلى آخر.

سبق أن قال له ذلك، لا مرة واحدة، بل عشر مرات على الأقل، وبدأ يتساءل عما إذا كانا يصدقانه وعما إذا لم يعتبراه متصنعاً.

لماذا كان يمكن أن يتصنع بحق الله؟ هل كان الدكتور يتصنع داء السكر؟ وعندما انتابته أزمة قلبية مرتين، هل فعل ذلك عمداً؟

كان يحب أوبون جداً. كان، بعد نيلي، أقرب شخص إليه، الوحيد الذي كان، منذ عشرين سنة، يحس بالطمأنينة في حضوره.

كان، اليوم، مستثاراً ضده، وكان يرغب في أن يستسمحه على ذلك.

- في رأي بيليه، كان يجب أن يخف هذا بالتدريج.

ذلك أن أوبون أرسل برنار، منذ عدة أشهر، عندما بدأ يشكو من الدوارات، إلى البروفسور بيليه. كان الرجلان مختلفين إلى أقصى حد ممكن. البروفيسور كان أستاذاً كبيراً، ولم يكن ينسى ذلك. عندما استقبل فوا في عيادته، كان محاطاً بأربعة أو خمسة مساعدين كانوا يصغون إليه بخشوع ديني، وكان يتكلم ويطرح أسئلة من أجلهم.

- هيا! جرحتك، عام ١٩٤٠، قنبلة ذهبت بيديك الاثنتين.

- لم تكن قنبلة بل لغماً. كنا دورية في غابة، بين خط ماجينو وخط سيغفريد. كنت أزحف في الثلج عندما مست يدي لغماً انفجر.

- هل جرح رأسك؟

- ليس رأسي، يداي فقط. عندما وجدت نفسي في القصر الذي تحول إلى مستشفى عسكري، لم تعد لي يدان و...

لم يعد البروفيسور يصغي، كان، على عكس أوبون، يريد إجابات قصيرة، دقيقة، والباقي لم يكن يهمه. عند ذلك، قاطعه بلهجة جافة:

- من كان أول من عالجك؟ هل تعرفه؟

- الدكتور أوبون.

- فقدت يديك، وما من جرح آخر، أليس كذلك؟

- هو ذاك يا دكتور.

- منذ ذلك الحين، لم تحس، أبداً، بآلام في رأسك؟

- حتى الأشهر الأخيرة.

- صف لي، بالضبط، هذه الآلام.

كان يسجل ملاحظات بالصورة التي كان يمكن أن يرسم، بها، أشخاصاً أثناء خطاب. كان طويلاً وهزيلاً، وكانت أسنانه البارزة تعطيه مظهراً عدوانياً حتى حين كان يبتسم.

- في الشارع.

- في الشارع شعرت بالأعراض الأولى؟

- نعم.... أظن .... كنت أعبر.... كان هناك كثير من الضجة، حركة مرور، عمال كانوا يحفرون أرضية الشارع. منذ بعض الوقت..

كان يبذل جهده ليكون موضوعياً، يبحث عن كلماته. بعد جرح الحرب، أخذوه من مستشفى إلى آخر، وفي كل مرة، أحاط به رجال بملابس بيضاء واستجوبوه. لم يشعر أبداً بالرهبة التي شعر بها آنذاك أمام البروفسور بيليه.

- شعرت بأن رأسي يدور كما يحدث عندما ينزل المرء من مدورة السيرك... بدا لي أني سأعرض نفسي للدهْش.

وجه الطبيب نظرة راضية إلى مساعديه قبل أن يكرر وهو يباعد بين المقاطع:

- كما يحدث عندما ينزل المرء من مدورة سيرك، أليس كذلك؟

- نعم.

- وكأن رأسك يدور؟

- نعم.

- وشعرت بألم في القلب، بنوع من دوار البحر؟

- لم أذهب إلى البحر أبداً.

- أحسست برغبة في التقيؤ؟

- كلا.

- هل ضعف سمعك منذ بعض الوقت؟

- ما جرى هو العكس. أذناي أصبحتا أشد حساسية. هناك أصوات، أصوات حادة خاصة، تؤلمني، حقاً، كما لو كان يجري العمل فيهما بأداة.... هذا يجعلني كئيباً، فارغ الصبر...

لم يكن البروفسور يهتم بمزاج مريضه. كانت تلك الاستشارة الأولى. وثمة استشارتان أو ثلاث أخرى.

أخضعوه لسلسلة من اختبارات شاقة إلى حد كاف، كصب ماء مثلّج في أذنيه وجعله يدور حول نفسه بسرعة. صوروه بالأشعةً. طرحت عليه أسئلة أخرى، أو الأسئلة نفسها مع مزيد من الإلحاح، كما لو كانوا يأملون بأن يناقض نفسه. كانوا يريدون، خاصة، أن يعرفوا ما إذا كان متأكداً من أن رأسه لم يجرح لأن الصورة الشعاعية كانت تكشف عما سماه بيليه «كسراً مجهرياً في العظم الصدغي».

- اسأل الدكتور أوبون. إنه هو الذي يعلم. في تلك الفترة، لم أكن قادراً على تبين حالتي.

كان البروفسور يغتاظ من الوقائع التي كانت ترفض مطابقة نظرياته لأنه كان قد كتب عدة مؤلفات حول الموضوع.

انتهى إلى وصف مهدئات.

- هل تنام جيداً؟

- كنت أنام جيداً.

- حتى متى؟

- حتى هذه الأوقات الأخيرة.

- هل تعاني، الآن، من الأرق؟

- أبقى مستيقظاً حوالي ساعتين، كل مساء، قبل أن أنام.

- هل تثور أعصابك؟

- كلا. انتظر.

- لا شيء يضايقك؟

- كلا.

- ألم يدخل أي عنصر جديد في حياتك؟

- لم يدخل أي عنصر.

- هل تخرج على الرغم من دواراتك؟

- أقل ما يمكن.

- هل تخاف من أن تقع في الطريق؟ هل تحس بأنك ستقع؟

- لا أظن، لكني لست مطمئناً، خاصة عندما يكون هناك كثير من الحركة والضجة. في المساء، نفيد من كون الشوارع خالية تقريباً لنذهب، زوجتي وأنا، لنطوف مرتين أو ثلاثاً حول ميدان الفوج.

- ألا تكون غير مرتاح؟

- بلى. يتفق لي أن أتوقف برهة.

- لأن شيئاً يأخذ في الدوران حولك؟

- نعم.... لا.... ليس هذا مضبوطاً تماماً... لا أحس بأني متماسك ..... لدي شعور بانعدام الأمن، ما يشبه الهلع، ترتخي ساقاي ويتعرق جبيني.

هل صدقوه أخيراً؟ والتساؤل لا يقتصر على الدكتور بيليه ومساعديه الذين يوجد بينهم امرأة شديدة الجمال، بل يشمل أوبون نفسه الذي وجه إليه زميله تقريراً.

في هذه اللحظة أيضاً، كان أوبون ينظر إليه بعينيه الكبيرتين كما لو كان يحاول أن يكشف الحقيقة. كانت أسئلته أقل مباشرة، أقل شخصية.

- في رأي بيليه...

كان فوا يحس بحاجة إلى أن يصيح به:

«لست مريضاً لأني أريد أن أناقض الدكتور بيليه! لا! لا أستطيع شيئاً إذا كانت الأمور لا تجري معي كما في كتبه. أعرف أكثر منه ما أحس به، أليس كذلك؟

- أتساءل عما إذا ما كنتما، زوجتك وأنت، تحسنان صنعاً إذا ذهبتما لقضاء أسبوعين أو ثلاثة في الريف أو على ضفاف البحر. هل تحب البحر؟

هو أيضاً يتحدث عن البحر كما لو كان البحر في طرف الشارع.

- لا أعرفه.

ولا نيلي، أيضاً. فضلاً عن ذلك. كان وهو طفل، أفقر من أن يرسل في عطلة، وهي أيضاً. ثم أنه أمضى خدمته العسكرية في ابينال، في الجهة المقابلة للبحر. وهناك التقى نيلي.

فيما بعد، لدى زواجهما، كانا هنا، على مسافة خطوتين من ميدان الفوج حيث ولد. وحيث كانت أمه، في ذلك العهد، لا تزال بوابة.

كان ذلك في بداية ١٩٣٩. بعد بضعة أشهر، اندلعت الحرب وجند في شباط، في حين لم يكن يجري شيء، وفي حين كانت تسيّر دوريات تشبه مناورات، انتزع لغم يديه.

متى كان يمكن أن يكون قد ذهب إلى البحر؟ ليس أثناء نقله من مستشفى إلى آخر وفي مركز إعادة التأهيل. منذ ذلك الحين، لم يكن، مع كلابتيه اللتين اعتاد عليهما أخيراً، يشعر بأنه كان في بيته حقاً. وهذا، الآن، من باب أولى، وقد أخذت الدوارات تنتابه في كل الوقت.

- أتساءل، يا برنار، عما إذا لم تكن معنوياتك قد مست منذ بضع أسابيع، أنت الذي كنت، دائماً، مقداماً جداً.

وكان هو، فوا، يتساءل عما إذا كان هذا سؤالاً من الدكتور أم أن نيلي هي التي أوحت له به. لم تكن لتجرؤ على طرح هذا السؤال هي نفسها. لم تكن تلمح، أبداً، إلى حالته، وتُظهر مَرَحَها المعتاد. كان، مع ذلك، مقتنعاً بأنها كانت قلقة.

قلقة من ماذا بالضبط؟ هذا ما كان يود أن يعرفه والذي كان يحاول تخمينه من خلال أقوال أوبون.

- فيما يتعلق بزوجتك أيضاً، من شأن عطلة حقيقية حتى إلى مكانٍ منعزلٍ، أن........

- هل رأيتها؟

- ليس منذ آخر مرة التقيتها، فيها، هنا.

لم تضطرب عينا الدكتور الزرقاوان. كان فوا هو الذي أحس بنفسه أخرق، خجولاً، مستاء من نفسه لأنه، إذا كان واهماً، فهو، بكل بساطة، كريه. وكانت هناك فرص متساوية بين أن يكون واهماً أو مصيباً.

- لا أحس بالراحة إلا هنا يا دكتور.

- أفهمك. مع ذلك، يجب أن تنتفض. أنت تدور في فراغ، وهذا لا يفيد أحداً. منذ كم من الوقت لم تخرج؟

- ذهبنا منذ خمسة عشر يوماً إلى السينما في جادة لوتامبل.

- ومنذ ذلك الحين؟

- تنزهنا مرتين أو ثلاثاً في ميدان الفوج.

كيف يمكن أن يفسر كونه قد أصبح من الشاق عليه، بل من المقلق له، بصورة متزايدة، أن يخرج من عالمه الصغير. كان البروفسور بيليه قد قال بغضب تقريباً:

- على وجه الإجمال، أنت تسجن نفسك..

لم يكن ذلك صحيحاً. لم يكن، قط، أكثر منه الآن اهتماماً بحياة الآخرين، سواء أكان ذلك بحياة الشارع أم بحياة البيت. انتهى إلى معرفتها إلى حد كان، معه، يميز خطوات كل المستأجرين والموردين ويعرف، منذ أن يفتح باب ويعاد إغلاقه، من كان يدخل أو يخرج.

كان يمكنه، تقريباً، أن يقول ما هي الكلمات التي ينطق بها الناس عندما يلتقون، أن يعيد تكوين اتجاهاتهم. على حد قول بيليه، وكذلك بموجب مقياس السمع، كان سمعه يضعف. إلا أنه، على العكس من ذلك، لم يدرك الأصوات، قط، بمثل هذه الحدة إلى درجة المعاناة، لدى كل خروج من المدرسة الذي كانت ترافقه ضجة فائقة الحدة.

وصل الأمر به إلى درجة انتظار عطلة الأطفال بفارغ الصبر وإلى كراهية التوأمين روجان، في الشقة المجاورة لشقته، اللذين كانا يصفقان باب الشقة كما كان الدكتور يصفق باب سيارته الصغيرة.

- ويداك؟

كان أوبون يتحدث، دائماً، عن يدين عارفاً بكونهما لا تزالان موجودتين بالنسبة لفوا، على اعتبار أنهما تبقيان قادرتين على جعله يتألم.

- لا بأس إلا عندما يكون الطقس رطباً جداً أو عاصفاً... تعودت على ذلك.

- أ ليست هناك أكزيما؟

أصيب بها في البداية،عندما لم يكن معتاداً على كلابتيه. الآن، الجلد بقي سليماً، وكان يسهر على ذلك.

- هل مضى وقت طويل على ذهابك لرؤية هيلياس العجوز؟

- في الشهر الماضي. لقد ضبط أجهزتي ويجب أن أعود إليه بعد أسبوعين أو ثلاثة.

كان هذا معالج يديه المقيم في شارع شومان - فير. كان قد زوده بالأجهزة الوحيدة التي استطاع أن يتحملها واستمر الرجل العجوز، منذ ثمانية عشر عاماً، في صيانتها وإعادة إحكامها وتحسينها من وقت إلى آخر.

- أود أن أقيس ضغط دمك......

لم يكن ذلك يفوت أوبون أبداً وتلك كانت الممارسة الطبّية الوحيدة في زيارته. فتح حقيبته بالحركات الدقيقة نفسها التي كان الأب هيلياس يعالج بها، كعاشق، أدواته.

- ١٣٥ .....طبيعي تماماً.....يحدث، دون شك، هبوط في الضغط في برهة الدوار....للتأكد من ذلك، يجب أن أكون هنا، بالضبط، عندما يحدث هذا...أما زلت ممتنعاً عن تناول الكحول....ألا تشرب نبيذاً؟

- نصف كأس من النبيذ ممدد بالماء لدى كل وجبة.

انقضى زمن طويل على تحريمهم عليه المشروب ككل مبتوري الأطراف. بيليه، بدوره، نصح، بسبب الدوارات بالامتناع عن الكحول

والقهوة، ولم يكن ذلك، باستثناء حرمانه من القهوة، يحرمه من شيء. لم يكن الشرب يغريه، وبقي قادراً على مواجهة الحياة.

لم يتشكّى قط. لم يكن يعد نفسه رجلاً يرثى له، بل كان يرى نفسه، على العكس من ذلك، ناجٍ بأعجوبة لأنه كان يمكن أن ينسفه اللغم تماماً. وفي المستشفى العسكري، لم يحكموا في البداية على حالته بأنها ميؤوس منها، وهل كانت لديه، لو لم يهتم أوبون به، فرص للنجاة؟

ألم تكن معجزة، أيضاً، أن يلتقي نيلي؟ أليست معجزة أخرى أن تكون لا تزال تعيش معه؟

كانت، كما قال الدكتور ذو الرأس الضخم، امرأة رائعة. كان يبذل جهده ليستحقها. وبسبب هذا، بالضبط.

- لست مسروراً يا صغيري برنار!

- مني يا دكتور؟

- من أن أراك هكذا. شعرت لدى زيارتي الأخيرة، فعلاً، بأنك تعذب نفسك وبأنك لا تقول لي كل شيء... واليوم، يبدو لي أني لا أصل إلى التواصل معك.... أجبني بصراحة. هل تقلقك هذه الدوارات؟

- عندما يمر المرء بما مررت به وينجو، فإنه لا يخاف بسهولة.

- ليس هذا جواباً، هل تفكر فيها؟

- لدى كل نوبة.

- لماذا تتحدث عن نوبات؟

- لا أدري. لعدم وجود كلمة أخرى دون شك. إنها تأتي، تتضخم، ثم تهبط وتمضي..

- أتساءل.......

تردد، أخذ وقته لإشعال سيجارة سيتركها تنطفئ كالسابقة.

- تتساءل عن ماذا؟

- لا أريد أن أحدثك كزميلي بيليه. أعلم أنك لا تحبه وأنك ترتاب فيه. أتساءل عما إذا لم تكن تأخذ الأمر بشيء من المحاباة، إذا لم يكن داؤك معنوياً أكثر منه جسدياً.

- الصورة الشعاعية....

- أعلم. حدثني بيليه عنها.

- يريد، مهما كلف الأمر، أن تكون أعراضي متطابقة مع أفكاره. ليس في مقدوري أن أفعل شيئاً في هذا الشأن.

- منذ عشرين سنة، تتحمل عاهتك بشجاعة أعجب بها... السؤال الذي أطرحه... أنت في الأربعين من العمر...

- في الثانية والأربعين.....

- إنه العمر الذي يميل، فيه، الإنسان إلى مراجعة حساباته ليضع نوعاً من الموازنة.

- لست من الذين ينظرون إلى أنفسهم في المرآة، أنت تعرف ذلك جيداً.

- زوجتك؟

- ماذا؟

- أفترض أنها بقيت كما هي. لم يبد لي، في الزيارة الأخيرة، أنها قد تغيرت.

- لم تكن، قط، في هذا المرح وهذه الرعاية.

لم يكن يحب أن يرى الطبيب يقترب، بهذا القدر من الخطورة، من الموضوع الحقيقي لأنه لم يكن يشعر بأنه واثق من نفسه، وكان يخشى أن يفضح ذاته. لم يكن يتحدث عن ذلك إلا بمزيد من الاقتناع.

- نحن سعيدان، كررت، أنت، ذلك دائماً.

- نعم.

كأنّ أوبون كان يتردد في فرض نفسه بصورة أكثر إلحاحاً في المضي إلى نقطة أبعد، كما يجري عندما يوسع جرح. نهض متنهداً:

- أخيراً.

لم يكن ذلك يعني شيئاً. كان هذا يدل، فقط، على أنه لم يكن راضياً عن هذه المقابلة وأنه لا يغادر إلا آسفاً.

- فكر، مع ذلك بما قلت لك بصدد العطلة. لا تزال، في فرنسا، قرى لن تختلطا، فيها، بفيض السياح.

- نحن وحدنا هنا أيضاً.

والشقة كانت فرحة ومريحة كانا ينعمان فيها بالراحة وبعاداتهما: لم يعد أحد في الحي يدهش لرؤية رجل بكلابتين، بدلاً من يديه، يخرج متأبطاً ذراع امرأة جميلة. لم يكن أحد يلتفت إليهما. لم يكن الناس يشفقون عليه أو عليها.

ما الفائدة من البدء من جديد وخلق عادات جديدة لبضعة أسابيع؟ من يعلم، فقط، ما إذا كانت نيلي ترغب في ذلك حالياً؟

كاد يقول بصوت مرتفع: لست واثقاً من أن زوجتي...

كان الطبيب سيمسك، عند ذلك، بطرف الخيط ويود أن يمضي إلى النهاية. إلا إنه لم يكن هناك ما يعرف.

- عطلة طيبة في البرتغال.

- أوه! لن تكون طويلة. سأعود إلى عملي بعد خمسة عشر يوماً.

وضع أوبون، لحظة، أصابعه على كتفه، كالعادة، لعدم إمكان مصافحته.

- إلى الشهر القادم يا صغيري برنار.

- إلى اللقاء يا دكتور..

أعاد إغلاق الباب، استمع إلى الخطوات تبتعد على الدرج. في الشقة المجاورة، كانت السيدة روجان تتشاجر مع توأميها، لأنها كانت مشاجرات حقيقية، معارك تقريباً، كانت تخوضها يومياً معهما، منذ عودتهما من المدرسة. كانا في الثالثة عشرة من العمر وكانا أصهبين، بشعر منفوش وعيون بنفسجية لا يبدو أنها ترمش قط.

كانت السماء قد اجتازت حدود سطوح المنازل، وكانت أوعية المداخن في لون زهور الأباجور الوردي نفسه: بقي فوا برهة خافض الرأس، وسط الغرفة، ثم سمع صوت اصطفاق باب سيارة الدكتور. لم تعد الشاحنة موجودة. انعطفت السيارة الزرقاء الصغيرة بصورة خطرة واتجهت نحو ميدان الفوج حيث كان يسمع الأطفال يزقزقون في الحديقة.

حان وقت وضع العشاء على النار. صف فوا، دون استعجال، أدواته وأباجوراته، دخل إلى المطبخ حيث أشعل الغاز تحت قدر الحساء.

الآن بعد قليل، سيضع الصحنين متواجهين، قرب النافذة. كان لا يزال لديه وقت، واتكأ على عارضة الاستناد ناظراً، من أعلى، إلى الناس الذين كانوا يمرون على الأرصفة، سامعاً، أحياناً، الجرس المألوف لباب حانوت.

بعد بضع دقائق، ستغادر نيلي محلات دولانغل وآبويه، في ميدان الانتصارات، التي كانت تعمل فيها. سوف تثرثر لحظة مع صديقتها جيزيل التي ربما أعطتها رزمة صغيرة قبل أن تصعد إلى الأوتوبوس. ثم سيراها تنزل تجاه البيت تقريباً، ترفع رأسها، توجه إليه إشارة وابتسامة معاً.

قد تدخل إلى محل الحلوى لتشتري تحلية. ربما....هل ستتوقف، اليوم، أيضاً في الطابق الأول؟

أشعل سيجارة وابتعد الدخان بطيئاً في هواء الشارع الوردي.

ألم تكن أسرتهما، بمعنى ما، معكوس الأسر الأخرى؟ كان هو الذي ينتظر أن تعود زوجته من العمل. كان هو الذي يبقى في البيت طوال النهار، وكانت نيلي هي التي تطير، صباحاً، شتاءً، في جو الفجر المكفهر البارد، والتي كانت تمضي معظم وقتها في عالم غريب، وهي، أيضاً، التي كانت تلتقي أناساً لم يكن برنار يعرفهم إلا بالاسم وتشارك في فعالية كان مستبعداً منها.

لم يكن غيوراً من ذلك، بالمعنى الحقيقي للكلمة، بل كان يحس بوخزة في قلبه في كل مرة يراها، فيها، على الرصيف المواجه، تنتظر الأوتوبوس وتوجه إليه ابتسامة أخيرة مشجعة.

خلال وقت ما، ولبضعة أشهر فقط، كان الوضع معكوساً من حيث كونه، هو، في الشارع، الذي يرفع رأسه ويحمل صورة نيلي في الرداء المنزلي، متكئة على النافذة المزخرفة.

كان، آنذاك، يستطيع طوال اليوم أن يتصورها في مسكنهما الذي لم يكن قد اتخذ مظهره النهائي، بعد، والذي كان يشبه مخيماً.

كم كان مسكنهما مرحاً! كم كانت تلك الفترة من حياتهما تبدو له، بصورة استرجاعية، لا تصدق من حيث خلو البال فيها! لم يكن يتذكر سوى أيام مشمسة، كما لو أن السماء لم تمطر مرة واحدة، لم تكن، قط، رمادية خلال ما يقرب من سنة.....كان يقبل، بصعوبة، في ذكرياته سحابة ضخمة كان يغني خلالها بأعلى صوته ليماحك زوجته التي كانت خائفة، أو كي يطمئنها، محاولاً عبثاً، أن يغطي على صوت الرعد.

عندما تزوج، وجدت له أمه، مستنفرة كل بوابات الحي، هذه الشقة التي كانت تعيش، فيها، لمدى أربعين عاماً عجوز وحيدة ماتت حديثاً. كان ورق

جدران غرفة الجلوس، التي كانت صالوناً، سميكاً، عسلياً، ذا لون بني قاتم، له نتوء مذهب يقلد جلد قرطبة، وكان يرى، فيه، ما يشبه شبح قطع الأثاث واللوحات.

الحمد لله على أنها لا تحتفظ بشبح العجوز، قال ذلك مازحاً دون أن يعلم أن زوجته كانت لا تزال، في ذلك العهد، تؤمن بالأشباح.

احتفظت غرفة النوم، لشهرين، برائحة العجوز والمرض.

كان فوا يعمل ميكانيكاً في مرآب في سوق الخضار. حصل على إجازة لثلاثة أيام كي يكشط الورق، واقتضى الأمر إشباعه بحامض من أجل التخلص منه.

اكتشف تحته أوراقاً أخرى، أقدم وأكثر استعصاءً أيضاً. الاثنان يضحكان وهما يقشران، على هذا النحو ماضيَ شقتهما. كان برنار يقول مبرطماً:

- العجوز تتشبث.

تحت لون الأرضية البني، وجدا دهاناً أحمر كانت نيلي تقشطه، تفركه، جاثية على ركبتيها، بفرشاة الليف، وعندما لم تكف هذه الأخيرة، استعملت فرشاة الحديد.

لم يكن لديهما وفر، وكان عليهما أن يدفعا أجرة ستة أشهر مسبقاً، منها قسط كتأمين في حال لم يدفعا أو في حال تسببهما بأضرار.

في البداية، لم يكونا يملكان، كأثاث، سوى سرير وخزانة اشترياهما مستعملين من شارع المعاطف البيض وأتيا بهما في عربة بذراع. كانا، في أيام الآحاد، يذهبان إلى سوق الأشياء المستعملة حيث كان كل شيء يبدو لهما رائعاً لأنهما كانا يحتاجان إلى كل شيء.

لم تكن نيلي تعمل. كان يمنعها من ذلك مقدراً أنه يكسب ما يكفي لاثنين. وكذلك، ألم يكن يحتاج إلى أن يجدها في البيت، تنتظره على النافذة حين يعود؟

لو كان عليه أن يشرح ما كان يحس به حيالها، فربما لم يكن ليتلفظ بكلمة «حب»، بل كان يمكن أن يتحدث عن حاجة: كان يحتاج إلى حضورها. وخلال الساعات التي يمضيها في المرآب، كان في حاجة لأن يعرف، ساعة بعد ساعة، أين هي، ماذا تفعل.

«الآن، يجب أن تخرج، دون قبعة، مرتدية الفستان الأحمر......»

لم يكن لديها سوى اثنين، وكان الأحمر هو الفستان القطني الذي ترتديه في البيت، ومن أجل التسوق في الحي.

«إنها تدخل إلى حانوت بائعة الخضار التي تتكلم بلهجة أهل الجنوب وترفع الكلفة مع كل زبوناتها..»

كان يتابعها بفكره، مستلقياً تحت سيارة أو منحنياً فوق منصة عمله، وكان طبياً أن يقول لنفسه أنه لم يكن وحيداً، إنهما كانا اثنين، أن نيلي له.

«هذا يوم السمك........»

أو أضلاع الخنزير لأنهما أخذا يخلقان لهما عادات وتقاليد. كانت غالباً ما تأتي لأخذه ظهراً، وكان يتسنى لهما الوقت ليعودا معاً، لتناول طعام الغداء في مطعم صغير في سوق الخضار.

مساء، كانت تنتظره على مسافة بضعة أمتار من المرآب، وكان رفاقه يماحكونه، يتظاهرون بأنهم يظنون أنها كانت تراقبه. كان يعلم أن ذلك ليس صحيحاً. كان هو الذي يضرب لها موعداً هناك من أجل أن يقصر زمن فراقهما.

- من هو هذا الأشقر الطويل الذي له هيئة وحش والذي يتفحصني بنظرة وقحة؟

- لويس؟ إنه أفضل شخص في الورشة: إنه متزوج، وقد ولدت زوجته مؤخراً طفلاً ولم تعد تستطيع أن تأتي لأخذه كما كانت تفعل حتى الأسابيع القليلة الماضية، فخورة ببطنها الكبير.

بين حين وآخر، كانا يمران، معاً، بأمه، في ميدان الفوج، في الطرف الآخر من الميدان الذي لايشكل جزءاً من الدائرة الثالثة، بل الرابعة. كان برنار يدفع الباب المزجج تحت القبة، وكانا يجلسان في جو تفوح، فيه، رائحة مطبخ كثيفة.

لم تكن شقيقته أولغا متزوجة في ذلك العهد، لكنهما نادراً ما كانا يريانها. كانت، وهي تصغره بثلاث سنوات، تمضي جل وقتها تتسكع خارج البيت.

كانت السيدة فوا تتنهد قائلة:

- إلى أن تعود إلي وفي بطنها طفل.

أليس المصير شيئاً لا يمكن التنبؤ به؟ كانت أولغا قد ارتادت أسوأ مراقص شارع لاب. كانت، كقطة في فترة إثارة، تختفي دورياً، وكان ينقضي، أحياناً، يومان أو ثلاثة دون أي خبر عنها.

إلا أنها أعلنت، حوالي منتصف الحرب، أنها ستتزوج، وكان ذلك صحيحاً. تزوجت فتى طيباً يكبرها بست سنوات، يعمل في الخطوط الحديدية، واشتريا شقة في جو فيزي....

ولدت ثلاثة أطفال، واحداً عقب آخر، بنتين وصبياً. أصبحت ممتلئة، وكانت تدبرت شؤون الأسرة بشكل جيد، لا تخرج إلا يوم السبت لتذهب إلى السينما مع زوجها.

كانت هي التي آوت أمها التي أصبحت أكبر سناً من أن تحافظ على عملها، ولم تعد البوابة السابقة تقسم إلا باسمها! كان هذا الماضي يبدو غير واقعي. كان، بالنسبة لبرنار أكثر منه بالنسبة للآخرين، حياً حياة غريبة، مستحيلة تقريباً. كان يفكر، فيه، دون مرارة، دون حنين، باندهاش متجدد دائماً.

عاشا، كلاهما، هكذا! كانا، بعد عشرين سنة لا يزالان معاً، في الشقة نفسها التي أخذت، فيها، قطع الأثاث المتينة ذات الطراز الريفي، مكانها النهائي شيئاً فشيئاً.

كان ينتظر! كان يمضي حياته في انتظار نيلي، وعندما تصل، أخيراً، كان يكاد لا يحس بحاجة إلى أن يكلمها. كانت قريبة منه، بين الجدران نفسها، تتنفس الهواء نفسه، وكان هذا يكفي لارتياحه.

كان الأمر، من قبل، هكذا، في ابيناك حالاً، بعد أول لقاء لهما تقريباً. كانت تعمل كمرشدة في سينما بالاس، في شارع غامبيتا، وفي ذات يوم، كان جالساً إلى جانب المقعد الإضافي الذي كانت تشغله، بشكل عابر خلال العرض.

في كل مرة كانت الشاشة تضيء فيها، كان يلتفت ليراقب وجهها الذي كان يبدو له مكشراً ومتوحشاً قليلاً، وشعرها الذي كان، لدى كل حركة، يقع على وجهها.

كانت، بين حين وآخر، تبتعد ومصباحها الكهربائي مصوب أمامها، لترشد مشاهدين إلى مقاعدهم، وكان يتابعها بعينيه، غير مبال بالفيلم، وهو يأمل، في كل مرة، أن يكون الجميع قد دخلوا أخيراً.

عاد عدة مرات في الأسبوع نفسه، مرغماً، دائماً، على الخروج قبل نهاية الفيلم ليكون في الثكنة قبل الساعة العاشرة. ولم يجرؤ على انتظارها لدى الخروج إلا يوم السبت الذي حصلن فيه، على إجازة ليلية.

كان لا يزال يرى، من جديد، الخيال الآخر الذي أخافه، رجلاً كان ينتظر مثله تنيره بشكل باهت أضواء حانة الغلوب التي كانت والسينما في بناء واحد. كان أكبر منه سناً، حسن الهندام، ولا بد أن الدراجة المركونة عند حافة الرصيف، ملكٌ له.

كانت هناك ثلاث مرشدات في البالاس. لكن هل كان معقولاً أن يتصور المرء أنّ أحداً قد اختار فتاةً غير فتاته التي لم يكن يعرف اسمها؟

إلا أن هذه كانت الحقيقة، والدراجة أخذت شقراء صغيرة، ممتلئة ومرحة، في حين خرجت نيلي بدورها، ترتدي فستاناً أسود، وألقت نظرة حولها كما لو كانت تتوقع أن تجده هناك.

ألم تبتسم وهي تنطلق على الرصيف، أم تكن تسمع وقع خطوات برنار وراءها؟ عندما حاذاها، قالت ببساطة.

- آه! هذا أنت...

رافقها حتى مسافة مائة متر عن بيتها، خارج المدينة، قرب حقل الرماية وكان عليه أن يعود إلى الثكنة ركضاً ليتجنب العقوبة.

ربما كان ذلك المساء، فعلاً، هو الذي يعود إليه تاريخ انتظاره. كانت كنيتها رابو، وكانت تعيش، مع خمسة إخوة وأخوات، في ما يشبه الكوخ وسط أرض خلاء.

كان الأب عاملاً مياوماً، ولم يكن يرى، أبداً، دون ليتر من النبيذ الأحمر في جيب سترته المخملية.

أما بالنسبة للأم، المرأة البدينة متضخمة الغدة، فقد كانت تسمى «الرابودة» وكانت ابتسامة ذات معنى ترتسم فوق كل الشفاه عند الحديث عنها، وذلك حتى من جانب الجنود عندما كانوا يذهبون إلى التدريب قريباً من منزلهم! كان فوا يفضل أن لا يتذكر هذه القصص التي ربما كانت مبالغاً فيها.

كان، خلال النهار، ينتظر ساعة ذهابه إلى السينما وجلوسه، دائماً، على المقعد نفسه، في طرف الصف الأخير. كان ينتظر، أيضاً، عندما كان المشاهدون يتابعون الوصول، في بداية العرض، خلال الأخبار والفيلم الوثائقي، وعندما كانت نيلي لا تفعل شيئاً خلاف الذهاب والإياب وضوءها الصغير يرقص أمامها.

ثم كان ينتظر يوم الأحد ليسرع إلى حقل الرمي الذي كانت توافيه إليه منذ الساعة العاشرة صباحاً.

خلال ثمانية عشر شهراً، تتنزها، اليد في اليد، ثم ذهبا، وذراع كل منهما يحيط بخصر الآخر، إلى الغابات المحاذية لنهر الموزيل.

لم يكن ليستطيع أن يقول ماذا كان يجذبه إليها، ولم يطلب منها أن تكون عشيقته. كانت هي التي تمتمت قائلة، بعد ثلاثة أسابيع أو أربعة، حين انتهيا من الإفطار تحت شجرة زان وتمدد كل منهما إلى جانب الآخر متشابكي الأصابع:

- ألا ترغب في هذا؟

ربما خاب ظنه عندما اكتشف، على هذا النحو، أنها عرفت آخرين قبله، لكن هذا لم يغير شيئاً واستمر في قضاء سهراته في السينما.

في ذات يوم، أعطته بطاقات دعائية، من تلك التي توزع على تجار المدينة لشكرهم على تعليق الإعلانات في واجهاتهم، بحيث لم يعد عليه أن يدفع شيئاً غير الرسم.

لم يكونا يتحدثان عن المستقبل أبداً موليين المزيد من الانشغال بالسيد بوتان، السيد فيليكس كما كانا يسميانه، صاحب السينما الذي أصبح عدوهما الشخصي فقد اعتاد الظهور فجأة، في الصالة التي، كان يقف في آخرها دون حراك، بهيئة من يراقب.

كان رجلاً قصيراً وبديناً، رأسه في ضخامة رأس الدكتور أوبون تقريباً، وعيناه خضراوان مزرقتان خاليتان من التعبير. كان يمشي متباعد الساقين، رؤوس أصابع قدميه متجهة إلى الخارج، ولم يكن يسمع وهو يقترب، ولا يحس به المرء إلا وراءه يراقب من حوله.

كان، في الوقت نفسه، صاحب السينما وصاحب مقهى الغلوب الذي كان يبذل جهده في اجتذاب المشاهدين إليه خلال الاستراحة. ومنذ كانت نيلي تجلس، كانت يداهما تتقاربان، كان أحد الاثنين، والاثنان أحياناً، يلتفت إلى الوراء ليتأكد من أن السيد فيليكس لا يقف وراء ظهرهما.

كان يبقى برهة واقفاً في آخر الصالة في بداية كل حفلة، يرجع إلى المقهى قبل الاستراحة بقليل. وكان خلال السهرة أيضاً يظهر مرات أخرى ظهوراً خفياً وصامتاً، وكان فوا يعتقد، خطأ أو صواباً، أنه مقصود شخصياً.

بل إنه سأل نيلي، بقلق، ليعرف ما إذا كانت له مبررات ليبدو غيوراً

- هو؟ إنه لن يجرؤ على مغازلة إحدى عاملاته. فهو يخاف كثيراً من زوجته.

ربما كان غيوراً من حبهما، من شبابهما، من المتعة التي يحققانها معاً في ظلمة الصف الأخير من المقاعد. كان من شأن برنار أن يقسم على ذلك، وأصبح هذا ذكرى طيبة أيضاً.

في يومي السبت والأحد، كان يرى الفيلم نفسه في حفلتي المساء والسهرة. بعض الأفلام الناجحة كانت تبقى معروضة لأسبوعين بحيث انتهى إلى معرفة جمل الحوار عن ظهر قلب. كان في إمكانه، أيضاً، أن يّسمع حوارات كاملة. بعضها كان يعود إلى ذاكرته وهو يعمل في أباجوراته في عزلة الشقة.

كانت سعادة استثنائية أن يلتقيا نهاراً خلال الأسبوع، وهو ما كان يقتضي تحضيراً طويلاً ومناورات دبلوماسية. وبالفعل، كانت ترسل، دورياً، إلى حقل الرمي، فئات سخرة، وكان الأمر يدور حول أن يحصل على تعيينه في إحداها أو على حلوله محل رفيق.

أصبح ذلك زمناً مسروقاً. كان يراها في الهواء الطلق، في الشمس، ثم، فيما بعد، في الثلج. تضاجعا فصلاً كاملاً في الثلج، وكان يضحكهما، عندما تنهض نيلي، أن تجد ثلجاً، بين ساقيها.

في تلك الأيام، أيضاً، كان ينتظرها بفراغ صبر قلق كما انتظرته، بدورها، بعد أن تزوجا.

كان ذلك رائعاً! هل كان يمكن أن ينقم على القدر الذي حباه بكل هذه الأفراح والذي لا يزال يقدمها له؟ أطرف شيء، هو أنه لم يكن ينتبه، في تلك الأيام، إلى أن نيلي جميلة. ربما لم تعد كذلك. كان غير مبال بالأمر. لم يكن يطرح هذا السؤال. كانت هي، وهذا يكفي.

كان يرى، من جديد، ما كان يسميه فمها الغريب لأن شفتها السفلى المكفوفة بصورة غريبة كانت تعطيها هيئة متوحشة. كان يتفق لهما، أيضاً، أن يتحدثا عن شعرها آنذاك الذي كانت تتركه، عمداً يتشابك وينسدل على وجهها لتلقي به إلى الخلف، بين حين وآخر بحركة رأس مفاجئة.

كانت نحيلة، دون وركين ولا ثديين تقريباً، وقضى سنوات ليتبين تحولها. والحق هو أنه لم يمض زمن طويل على اكتشافه كونها حسناء أو جميلة، مثيرة للرغبة، في الثامنة والثلاثين من العمر أكثر منها في العشرين. لم تعد تعطي الانطباع بالتوحش، بل تعطي، على العكس من ذلك، الانطباع بسيدة صغيرة، عذبة وممتلئة ذات ابتسامة مرحة، مطمئنة.

هل من الممكن أن تكون قد عاشت، خلال هذه السنوات، سعيدة معه وأن تكون لا تزال كذلك؟ كان يجد مشقة في تصديق هذا، وهو ما كان يعذبه في الأشهر الأخيرة، كان يمضي وقته في تعذيب نفسه. لم يكن أوبون واهماً، لكن عذابه لم يكن يشبه ما كان يتخيله الدكتور.

وضع صحنين على الغطاء ذي المربعات الحمراء كتلك التي ترى في نُزُلِ الريف. وربما كانت هذه النزل، مع أنهما لم يرتاداها إلا قليلاً جداً، هي السبب في تأثيثهما الشقة بطراز ريفي وفي وجود نحاس على الرفوف.

كانت رائحة حساء الكرات تصله من المطبخ، وأشعل سيجارة جديدة ومضى ليتكئ على النافذة مترقباً وصول الأوتوبوس الذي كان يرى سطحه المفضض يتقدم، كظهر حيوان ضخم، على الطريق.

توقفت العربة. نزلت منها امرأة لم تكن نيلي. كانت امرأة سمراء وحيوية تسكن، وحيدة، فوق المسمكة وتستقبل الرجل نفسه كل يوم سبت.

لم يكونا يغلقان النوافذ ولا الستائر. كان الرجل في حوالي الأربعين من عمره، وكان يخلع سترته وربطة عنقه ويرتدي رداء منزلياً بنياً ويقرأ، منتعلاً خفين، جريدته قرب النافذة بينما تنظف رفيقته المائدة وتغسل الآنية.

بعد ذلك، كانت تجلس تجاهه، وكانا يريان يتحدثان مطولاً دون حركات، بوجهين دون تعبير، حتى البرهة التي يكون الجميع، في الشارع، قد ناموا، فكانت المرأة تخلع فستانها وتجلس أمام طاولة زينتها بالقميص الداخلي وبالسروال وحمالة الصدر أحياناً.

هذه الأخيرة كانت، أيضاً، تنتظر شيئاً ما، يوم السبت، تجاه فوا تماماً، في الطابق نفسه، وكانت امرأة أخرى تنتظر، كل مساء، زوجها على النافذة، امرأة أكبر عمراً، ذات وجه متعب، قلق.

كانت، في الصباح، تنحني لتتبعه، بعينيها وهو ذاهب ليأخذ الأوتوبوس عند زاوية شارع الفران بورجوا. كان يمشي بخطوات بطيئة، مرغماً، غالباً، على التوقف برهة طويلة ويده على قلبه. أوبون الذي حدثه برنار عنه يفترض أن الرجل مصاب بذبحة صدرية.

لم تكن نيلي مريضة، ومع ذلك، ولأنها لم تنزل من الأوتوبوس الذي كان يبتعد، كان يحس بقلق غريب، خفي لم تكن المحاكمات المنطقية تستطيع شيئاً حيالها. لم يكن يفكر، بالضرورة، بحادث، بكوارث، وأقل من ذلك بهرب من جانب زوجته.

كان ذاك «افتقاداً» كما كان يسميه هو نفسه. لم يجد كلمة أخرى. كان يفتقد وجود نيلي وكان ذلك يكفي ليفقد توازنه. لم يكن ذلك لأنه كان معاقاً! لم يكن في حاجة إليها بسبب كلابتيه والدليل على ذلك هو أنه كان قد أحس بالإحساس نفسه في ابينال، في حين لم يكن قد مر سوى ثلاثة أسابيع على معرفته إياها.

كانت ستنزل من الأوتوبوس التالي. يجب أن تكون صديقتها جيزيل قد استوقفتها على حافة الرصيف لتثرثر، لتوصيتها بشأن أخيها. كانت نيلي قد قالت له باسمة:

- أنت تكرهها، أليس كذلك؟

لم يكن يكرهها، لم يكن يكره أحداً، لكن الوجود في العالم كان أكثر ما ينقم عليه. كانت قد بدأت العمل في محلات دولانغل وآبويه قبل خمس سنوات أو ست، عندما تزوجت شخصاً يدعى لوبيك.

كان فوا يعرف الاثنين لأنهما جاءا لزيارتهما عدة مرات. كان لوبيك الأشقر والرخو، المتأنق دائماً، فخوراً بانتمائه إلى إدارة مصرف الكريدي ليونيه، في الشوارع الكبرى، وكان يمكن أن يخيل إلى المرء أنه هو الذي كان يحتفظ بمفاتيح الصناديق. ومع ذلك، تمسك في أن تعمل زوجته، من جانبها، حتى عندما أصبح لها ولد، ثم اثنان، ثم ثلاثة.

كانا يسكنان شقة من الشقق ذات الإيجارات المعتدلة قرب باب أورليان. وكانا، كلاهما، يجدان من الطبيعي أن يؤدي كل الناس لهما خدمات. فعلى سبيل المثال، كانت عمة للوبيك، وهي عجوز مسكينة ذات ساقين تغطيهما الدوالي، هي التي تحرس الأطفال من الصباح إلى المساء ويكون عليها، بعد ذلك، أن تركب المترو لتعود إلى بيتها في شارع لومارك، في الطرف الآخر من باريس.

وعندما وجد شقيق جيزيل نفسه، بعد شلله، دون مسكن، قالت هذه لنيلي:

يجب أن تستعلمي في حيك. يبدو أن الماريه هو المكان الذي يوجد، فيه، العدد الأكبر من المسنين، ويموت منهم أحد كل يوم، وهو ما يخلق شواغر.

أكثر ما يثير الغيظ هو أنها كانت تنجح في ذلك. والدليل هو أن السيد فرانسوا، المتقاعد الذي كان يشغل غرفتين في الطابق الأول، وراء الترجمان المحلق، مات في ذلك الأسبوع. كان في السادسة والثمانين من عمره، وكان كسيحاً منذ زمن طويل إلى حد كان، معه، بعض المستأجرين يجهلون وجوده

- أتريد أن اسأل البوابة عما إذا كان المسكن حراً؟ إن ذلك سيسر جيزيل كثيراً.

نيلي، من جهتها، تبذل جهدها لإرضاء الجميع. فهل كان يستطيع أن يقول لا؟

- أمضى أخوها خمسة أشهر في مؤسسة لإعادة التأهيل، لكنه يحتاج إلى زمن طويل، ربما إلى سنوات، قبل أن يمشي بصورة طبيعية.

- وشقيقته. ألا تستطيع أن تأخذه عندها؟

- ما هذا الكلام يا برنار! مع ثلاثة أبناء في أربع غرف بما فيها المطبخ! المكان ضيق عليهم من قبل.

- تحدثي إلى البوابة!

- ألا يضايقك هذا؟

- كلا.

ربما كان عليه أن يقول نعم، وفي هذه الحالة، لم تكن زوجته لتلح. ألم تكن تأخذ عليه كونه غير متعاون؟

- هل تعرفين أخاها هذا؟

- لم أره قط.

- أين هو حالياً؟

- يسكن لدى صديق سيتزوج بعد أسبوعين، ولا يستطيع أن يحتفظ به.

- أهو صغير السن؟

- أصغر من شقيقته، هذا كل ما أعرفه. إنها تتحدث، دائماً، عن أخيها الصغير.

- ماذا يعمل؟

- لن تحزر أبداً. إنه يرسم لصحف التسلية. هذا من حسن حظه، أيضاً، لأنه يستطيع أن يعمل في بيته.

جرى ذلك في الربيع الماضي، في آذار أو نيسان. كان لدى فوا مدلول الزمن الذي يمضيه، لكن ليس لديه مدلول الزمن الذي ينقضي. كان يستطيع، بعد سنوات من وقوع حدث، إن يقول ما إذا كانت هناك شمس أو هل كانت

السماء تمطر، ما إذا كان الهواء حاراً أم بارداً، هادئاً أم عاصفاً. كان يرى، من جديد، الأوراق الميتة على الأشجار أو البراعم التي كانت تتفتح.

وبالمقابل، كان يخلط، دائماً، بين التواريخ. لم يكن يهم، في هذا الصدد، آذار أو نيسان. المهم هو أن بيير مازيرون كان هناك، في البيت، تحت فوا بثلاثة طوابق، تحت مطبخهما بالضبط.

أخيراً، توقف أوتوبوس ونزلت منه نيلي بخفة، رفعت رأسها، لوحت بيدها اليمنى، في حين كانت الأخرى تمسك برزمة بيضاء صغيرة. لوح بيده، أيضاً، فرحاً بالتأكيد، أو مرتاحاً، بالأحرى لرؤيتها تعود، لكنه شعر بخيبة وضيق لدى رؤيته الرزمة.

في العادة، لم تكن نيلي تأتي بشيء من المدينة، كما كانا يسميان وسط باريس. إلا إذا كان الأمر يدور حول ملابس داخلية أو ثياب، مثلاً، وفي هذه الحال، كانا يتحدثان عن هذا مسبقاً. عندما لا يكون هو الذي يتسوق، كانت هي التي تتولى الأمر في الحي، وكان يراها تنتقل من دكان إلى آخر عارفاً بما كانت تشتريه من كل منها بل كان يخمن الكلام الذي تتبادله مع البائعات.

لم يكن مازيرون في حاجة إلى أن تنشغل به شقيقته، ولا كذلك نيلي. كانت البوابة تقوم بترتيب شقته، وفي كل يوم، كانت ممرضة من مركز لمساعدة المعاقين تمضي إلى جانبه ساعة أو ساعتين وتقدم له كل العناية اللازمة.

إلا أن جيزيل كانت تحس، يومياً تقريباً، بالحاجة إلى أن تعهد لنيلي برزمة أو رسالة وهي تزودها بتوصيات طويلة في حين لم يكن لذلك، احتمالاً، أية أهمية.

- هل تريدين أن تعطي هذا لأخي في طريقك؟ قولي له، خاصة، أن.....

وأن.......وأن......وأن أيضاً. لم تكن تنتهي من ذلك على حافة رصيف ميدان الانتصارات، في حين كان برنار يتضجر على نافذته.

- ألن تنسي؟.....هل فهمت جيداً؟ أنت لطيفة يا نيلي.

كانت تلك كلمتها، المكافأة التي كانت توزعها على الذين يوافقون على أداء خدمة لها. كانوا لطفاء. العمة العجوز ذات الدوالي، أيضاً، التي كانت تحرس الأطفال الثلاثة كل اليوم وتعود إلى بيتها في المترو في حين كان الزوجان لوبيك يملكان سيارة. هذه العجوز كانت لطيفة.

كان صبره ينفذ، وكان يذرع أرض الغرفة جيئة وذهاباً بخطوات عصبية ونوع من الفراغ يتكون، كما كان يتوقع، في رأسه. حاول، عبثاً، أن يصف هذا الإحساس لأوبون ثم للبروفيسور بيليه. سأله الأول ثم الثاني بإلحاح يقارب عدم التصديق عما إذا لم يكن فريسة لمضايقات: حسناً! لديه واحدة حالياَ، كان ذلك صحيحاً.

توقفت خطوات زوجته عند الطابق الأول فتح الباب ليتأكد ثم أغلقه من جديد، ومرت الدقائق، ثلاث دقائق، ثم أربع، ثم خمس. هل تلزم، إذن خمس دقائق لتسليم رزمة صغيرة لأحدهم؟ كانت تلك مضايقة! فليكن! لكن...ما جدوى الحديث عن ذلك للأطباء ما دام هذا لا يفسر شيئا!؟

عندما أحس بأول دواراته، حدث ذلك في الطريق، ولم يكن مازيرون الذي لم يكن يعرف حتى اسمه، في حينه، موضع بحث بعد.

ماذا إذن؟ هل كان صحيحاً، أم غير صحيح، أن صدغه الأيمن أظهر لدى الصورة الشعاعية، آثار كسر قديم أو حديث، حتى لو كان مجهرياً؟

كان صبوراً، كان كذلك طيلة حياته. كان يحسن الانتظار. كان ينتظر أياماً كاملة، إلاّ أن هناك دقائق زائدة عن اللزوم، وانتابه الهلع من جديد، كما جرى منذ قليل، عندما مر أوتوبوسان دون أن تنزل نيلي منهما.

لم يكن ينقم عليها،لم ينقم عليها من أجل شيء أبداً. كان على العكس من ذلك، ممتناً لها، وكان يزيد، كل يوم، إعجاباً بكونها تقبل أن تعيش مع رجل مثله دون أن تشكو.

هناك ما هو أفضل. اتفق له أن فكر، بصدق، في أنه لم يكن ليمنعها.

صعدت، أخيراً، بخطوات مستعجلة، راكضة تقريباً، عارفة أنه ينتظرها، محشوة ندماً. فتح لها الباب. كانت مبهورة الأنفاس.

- اعتذر منك، لكن..

بذل جهده ليبتسم لها. كان يبتسم حقاً لأنها كانت هنا، وطبعت على وجهه قبلتين.

- إنها جيزيل.

- أعلم.

- كان أخوها في حاجة إلى أشياء مختلفة لعمله لا أدري ماذا بالضبط... كان علي أيضاً، أن أشرح له أنها ذهبت لرؤية أمين تحرير صحيفة، وأن أنقل إليه الجواب.

كان ينظر إليها بانتباه، دون أن يكشف عن أدنى اضطراب، سألته قائلة:

- هل كان يومك جيداً؟

- لم يكن سيئاً.

لم تسأله عما إذا كان أحد قد جاء لأن أحداً لم يكن يأتي باستثناء الباعة وموظف الغاز.

- مر أوبون.

- في هذا الموعد المبكر؟ (بدت دهشتها صادقة) لسنا، بعد سوى في أول الشهر!

- إنه ذاهب إلى البرتغال هو وزوجته، من أجل مؤتمر وعطلة معاً.

لم تقل، وهو ما كان يمكن أن يخشاه: «إنهما محظوظان!».

ولم تقل، بالطبع: «إنها محظوظة!».

إنه هو الذي كانت مشغولة به:

- هل حدثته عن دواراتك؟

- نعم. بالأحرى، هو الذي حدثني عنها.

- ماذا قال؟ ألم يدهشه أن يستمر ذلك على الرغم من الأدوية؟

- اعتقد أنه لا يعلق على الأمر ولا أنا فضلاً عن ذلك، كثيراً من الأهمية...

ذهبت إلى المطبخ وعادت منه إلى غرفة الجلوس، ووضعت آنية الحساء على الطاولة وجلست تجاهه. كان لا يزال يراقبها بنظرات قصيرة وحذرة لأنه كان لديه الانطباع بأنها كانت، من جانبها، تنظر إليه بشيء من القلق.

- هل حدثت لك نوبات؟

- لم تكن نوبات حقيقية، لم تكن قوية!

- ألم تخرج؟

- كلا.

كان شعرها مصففاً جيداً الآن. كان فستانها الفاتح مغناجاً، وكان جسمها قد غدا أكثر اكتنازاً، وكذلك وجهها الذي لم يكن يحمل أي أثر لتعب يوم حار.

تنهد قائلاً:

- أنت هنا!

- هل بدا لك اليوم طويلاً؟

- إني أشغله لحسن الحظ!

- كم أنجزت.

- ستة على الرغم من أني عملت متباطئاً.

- ألم تحس بحر شديد؟ كان الجو، في المخزن، خانقاً على الرغم من المراوح. عانت جيزيل، في المكتب، من الحر أكثر مما عانيناه لأن الشمس تنصب، طوال النهار، على السطح الزجاجي.

كان يعرف محلات دولانغل وآبويه لأنه ذهب إليها مرة واحدة، وقد تابعه الجميع بأنظارهم بسبب كلابتيه. يجب أن يكونوا رثوا لنيلي. ربما كان ذلك هو السبب الذي لم يكن يحب من أجله، أن يظهر معها. كان هو أو هي من يرثي له الناس، وكان ذلك، في الحالين، كريهاً. من جهته، إنه ليس شخصاً يرثى له. سأل فجأة:

- ماذا يفعل؟

- من؟

كان غير قادر على أن يقول ما إذا كانت، حقاً، لا تعلم عمن يتكلم.

- مازيرون.

- الآن؟ لا أدري. افترض أنه لن يلبث أن يتعشى.

- ماذا كان يفعل عندما دخلت إلى شقته؟

ذلك أنها لم تبق واقفة على الباب لقد دخلت. كان يعرف صوت كل باب في البناية. كان البروفسور مخطئاً، بصورة فظة، عندما زعم أن فوا في طريقه إلى أن يفقد سمعه.

- كان يقرأ جريدة المساء.

- في كرسيه المتحرك؟

- نعم. لماذا تسأل عن هذا؟

- لا لشيء.

أضاف بارتباك:

- أعرف بدرجات متفاوتة من الضبط، ما يفعله كل المستأجرين. خذي مثلاً ! الروجان إلى جانبنا. يأكلون، الآن، السمك لأني رأيت الأم روجان تشتري منه لدى نو. ترددت بين الاسقمري والشفنين التي كانت معروضة، وانتهت إلى اختيار الشفنين. استنتجت من ذلك أن الشفنين كان أرخص اليوم، أو أن التوأمين لا يحبان الاسقمري كثيراً.

لم يخدعها مرحه وبدا لبرنار أنها كانت تجهد لفهم موقفه.

- السمراء الصغيرة المقيمة تجاهنا ستغسل شعرها لأنها هيأت، مسبقاً، الشامبو. الآنسة ستريب لم تعط سوى درسين بعد ظهر اليوم، ولديها تلميذة جديدة تنقر على البيانو للمرة الأولى..

انتهت إلى الابتسام.

- ألا تمل يا برنار؟

- أبداً عندما تكونين قربي.

- وعندما لا أكون هنا؟

- انتظر عودتك، وبما أنك عدت، حتى الآن......

- حتى الآن؟

كان جبينها قد تغضن.

- عفواً. أنا أماحكك.

- هل أنت متأكد؟

- متأكد. اعتذر. لاشك في أن زيارة أوبون قد ضايقتني.

- لماذا؟ أنت تحبه جيداً وتسر، عادة، لرؤيته. ماذا قال؟

- لا شيء على وجه الدقة. نظر، خاصة، إليّ بعين كئيبة، كما اتهمني بأني أخفي عنه شيئاً.

- ألا تخفي عنه شيئاً؟

- كلا!

- ولا عليَّ؟

- ولا عليك. لماذا تطرحين السؤال وماذا يمكن أن أخفيه؟

- أتساءل عن ذلك.

أتت بالسلطة واللحم البارد التي كان قد رتبها في صحن. أحس بما يغريه بأن يقول لها، فجأة، وهو يمسك بيدها: «اسمعيني يا نيلي!»

وبعد؟ ماذا سيأتي بعد؟ لا شيء! كانت، الآن، تجاهه. كان كلا الاثنين في بيتهما، في نسيم المساء الأشد برودة الذي كان يداعبهما ماراً من نافذة إلى أخرى. أصبحت ضجات المدينة أقل إبهاماً، بدأت في الانفكاك عن بعضها.

تمتمت نيلي بعد تردد طويل:

- أتساءل عما إذا لم يكن علينا أن نذهب في عطلة.

- أنت أيضاً؟

- هل حدثك أوبون عن ذلك؟

- يتصور أني في حاجة إلى تغيير، إني أضجر، إني لا أعلم ما يضايقني... أجبته بأن ذلك لم يكن صحيحاً، بأني لا أكون سعيداً إلا هنا.

لماذا أحس، فجأة، برغبة في البكاء، كان ذلك، دون شك، الغسق، بعد يوم الانتظار الطويل هذا، ثم هذه الرزمة الصغيرة البيضاء التي انتهت إلى إفساد كل شيء. كان يفكر أكثر مما ينبغي. كان لديه أكثر مما ينبغي

من الوقت للتفكير. كان هذا، في الحقيقة، ما أراد الطبيب أن يقوله. كان يحاول إرساله إلى مكان آخر، إلى أي مكان، ليغير أفكاره، ليمنعه من أن يدور في فراغ.

- ماذا بك؟

نهضت وجاءت لتمسك بكتفيه في حين كان يشد على الشوكة بدلاً من الملعقة.

- أنت حزين يا برنار.

- أقسم لك....

- هل آلمتك دون أن أدري؟

كانت تعلم ذلك! كانت تعلم ذلك! لم يكن يمكن أن لا تنتبه إلى ذلك... ولم يكن يحق له أن يقول ذلك لها ولا أن ينقم عليها...

كرر قائلاً:

- أقسم لك....

عشرون عاماً! تسنى له الوقت الكافي لتوقع ما يمكن أن يحدث، أن يتوقع الأسوأ، أن يعتاد عليه. والآن.......لم يعد يعلم!

قال وهو يتخلص:

- فلنأكل!

عادت إلى الجلوس تجاهه وتابعا وجبتهما بصمت... كانت نيلي تحني رأسها فوق طبقها، وكان يمكن أن يقال أنها لم تكن تجرؤ على النظر إليه.

ترك برهة طويلة قبل أن يتمتم وفمه نصف ملآن:

- عفواً....

وأدارت نحوه عينين بدأتا، من قبل، تأملان.

دون شيء خارق للعادة، كانت تلك إحدى السهرات التي يحتفظ بها المرء في ذاكرته، يضعها جانباً، نوعاً ما، كما لو كان حدسه يقول له أنه سيحتاج إليها، ذات يوم.

كانت مصنوعة من لا شيء، من صور يومية، حركات، كلمات لا أهمية لها، تضخمت هذا المساء، لسبب لا يعرفه إلا الله، بحياة أكثر حميمية، أكثر حرارة.

جلس كلاهما أمام النافذة اليمنى التي كانا قد تبنياها عندما حصلا على الشقة، قبل أن يمتلكا مقاعد بكثير. لم يكن المنظر منها أفضل منه في النافذتين الأخريين، لكنها كانت نافذتهما، وإذا كانا لم يعودا يستطيعان التماسك باليدين كما في سينما ابينال، فقد كانا يتدبران أمرهما، دائماً تقريباً، لتتلامس ركبتاهما.

كانت المائدة قد فرغت وغسلت الصحون. لم يعد عليهما أن يفعلا شيئاً في ذلك، ولم يكن أحد منهما يرغب في ذلك اليوم، في قراءة الجريدة أو في الاستماع إلى الراديو.

وإذا كانت حركة المرور صاخبة، نهاراً، في شارع تورين، بسبب الأوتوبوسات، وخاصة بسبب الشاحنات، فإنه كانت تنقضي عدة دقائق، عند حلول المساء، بين مرور سيارتين، وكان يسمع، من بعيد، وقع خطوات المتنزهين النادرين، أصوات الأزواج المتناوبة، شذرات من جمل، وأحياناً ضحكة.

كان برنار على حق: السمراء المواجهة لهما غسلت شعرها، وكانت الآن، تجففه أمام النافذة بواسطة مجففة كهربائية متصفحة مجلة موضوعة على ركبتيها. كانت ترتدي مئزراً وردياً. كان الأباجور، وراءها، وردياً أيضاً، وكان النور وردياً.

لدى الرجل ذي الذبحة الصدرية، كانت الجدران خضراء قاتمة. كان يقرأ كتاباً، جالساً في مقعد بسنادة عالية. وكانت زوجته ترتق جوارب وجديلة خشنة خلف رقبتها ونظارتان بإطار معدني على عينيها.

على مسافة ثلاثة بيوت، كان شاب غير مرئي يطلق بين حين وآخر، بضع نوتات، نفسها دائماً، من بوقه المسدود، بفواصل طويلة كما لو كان مرغماً على استعادة أنفاسه، أو كما لو كان أحد يعطيه شروحاً، وهكذا كان الأمر على الغرار نفسه على طول الشارع، أناس كانوا ينتهون من عشائهم، يضعون الأطفال في فراشهم، ولا بدّ أنّ التوأمين كانا ينجزان وظائفهما متواجهين، وكانت برودة المساء تتسلل إلى المنازل بعد يوم كان يجب أن ينتهي بعاصفة عنيفة.

استرخت الأعصاب. كان يمكن أن يقال أن كلاً من نيلي وبرنار يصغي، طيلة بقائهما دون إبداء حركة، إلى تفكير الآخر، وبعد وقت طويل، أطلقت المرأة تنهيدة قبل أن تتمتم بصوت وجل تقريباً:

- ألا تريد أن تذهب في جولة..

لا شك في أنها كانت تخشى أن يظن أنها كانت، كالدكتور أوبون، تريد أن تغير أفكاره مهما كلف الأمر. لم يكن يفكر في ذلك، ابتسم في الظلام لأنه، كان، في ذلك المساء، دون فكرة خفية، وانتهى إلى النهوض وهو يتمطى.

- هيا بنا!

ساعدته على ارتداء سترته. لم يأخذ قبعة ولم تعتمر قبعة، هي الأخرى، مكتفية بشال على كتفيها. كانت هي التي أقفلت الباب بالمفتاح بعد أن تأكدت من أن الغاز مقفل جيداً.

لم تكن تخطر لهما، عندما يخرجان من البيت، إلا حين كانا يذهبان إلى السينما، فكرة الانعطاف يميناً في اتجاه جادة التامبل والجمهورية، وهو ما كان يسميانه اتجاه المدينة كما لو لم يكن حيهما جزءاً منها.

استدارا، آلياً، إلى اليسار ثم، بعد مائة متر، إلى اليسار أيضاً، ليصلا إلى مائة متر، إلى اليسار، أيضاً، ليصلا إلى قناطر ميدان الفوج. كان للخطوات، فيه صوت مختلف، وكانت الأنوار مختلفة بدورها، وبصورة متباعدة، يُشاهَد تجار جالسون على عتبات أبوابهم.

والد برنار كان يجلس هكذا، في السابق، على كرسي قش، الكرسي نفسه دائماً، إلى يمين القبة. كان رجلاً طويلاً أعجز جاء، مباشرة من قريته، دروفان، التي تبعد خمسة كيلومترات عن سانت أمان مونترون.

كانت أمه، وهي من أسرة فوشيه، من دروفان أيضاً، وقد ذهبا إلى المدرسة معاً قبل أن يمضي كل واحد منهما في طريقه ويلتقيا، مصادفة، في باريس بعد عدة سنوات.

كانت أمه خادمة، من قبل، في الحي، في جادة بومارشيه، لدى طبيب أسنان شاب. وكان أبوه يقود شاحنات ثقيلة لحساب مؤسسة في شارع القاهرة، وكان يتفق له أن يقوم بتوصيلات في محيط الباستيل.

كان برنار يراه، من جديد، بمريولته الجلدية وعمرته ذات الطراز الطريف وشاربيه الغوليين الكثين اللذين كانت تفوح منهما رائحة النبيذ الأحمر. وقد مات في حادث، عالقاً بين شاحنته وتراموا في شارع سان ميشيل.

كان البيت الذي ولد فيه واقعاً في الجانب الآخر من الحديقة الصغيرة المحاطة بأسيجة التي كانا يطوفان حولها، ببطء، يستمعان إلى صوت أربع نافورات مياه استقبلت فوا، لدى استيقاظه، خلال كل طفولته.

كانت أمه تنام في المقصورة، على سرير يطوى كان يخفيه حاجز. وكان، وشقيقته ينامان فوق، كأنهما معلقان بين الطابق الأرضي والطابق الأول لأن المقصورة قسمت إلى قسمين من جهة الارتفاع، وكان القسم الأول مناراً، على مستوى الأرض، من أعلى النافذة.

ماذا كان يقول الواحد منهما للآخر وهما يمشيان في ذلك المساء؟ لا شيء تقريباً. لا شيء له أهمية. توقفا عند واجهة بائع عاديات ما زالت مضاءة ونظرا إلى دست من النحاس الأحمر.

لاحظت نيلي قائلة:

- إنه أكبر مما ينبغي بالنسبة للبوفيه عندنا.

ثم مرا أمام المدرسة التي درس فيها برنار والتي كانت تفلت، في ساعات ثابتة، أطفالها الزاعقين في الحديقة الصغيرة المحاطة بأسيجة سوداء.

كان ما بقي من باريس، بالنسبة لأمه، كما بالنسبة إليه حالياً، مدينة أجنبية. كان يتذكر رد أمه على مار سألها عن عنوان، في المقصورة التي كان جالساً فيها، على الأرض:

- إنه في الجانب الآخر من الميدان، في الدائرة الرابعة.

قالت هذا كما لو كانت تتحدث عن حدود يكون، فيها، نصف ميدان الفوج في الدائرة الرابعة ونصفه الآخر في الثالثة.

كان مهاجراً، تقريباً، على اعتبار أنه، وهو المولود في الدائرة الرابعة، من جهة سانت أنطوان، كان يعيش، منذ زواجه، في الثالثة.

كانت أفكار من هذا النوع هي التي تخطر في ذهنه بينما كان يمشي إلى جانب زوجته، وعندما انعطفا عند زاوية شارع بيزاغ، سألته قائلة:

- هل نقوم بالدورة الكبيرة؟

- ألست تعبة؟

- كلا، وأنت؟

- ولا أنا.

- لا أعتقد أن هناك عاصفة.

كانت غيوم تمر أمام القمر المكتمل واللامع جداً، لكنها كانت تبقى على بياض مطمئن، وكانت ترى نجوم في قعر السماء. بين حين وآخر، كانت ريح أشد برودة تحرك أوراق الشجر، وثمة شيء يشبه رعشة على سطح الجلد ينتقل من طرف للميدان إلى طرف آخر.

وبما أنهما قررا القيام بما كانا يسميانه الدورة الكبيرة، فقد واصلا السير في شارع بيراغ حيث كانت امرأتان بزينة عدوانية تقفان، عندما كان برنار فتياً، منذ أفول النهار، تحت الكرة المضيئة لأحد الفنادق. كانتا هما ذاتهما دائماً. كانت إحداهما تدعى ايرما وكانت تحيط عنقها بياقة من ريش أبيض.

في ساعة مبكرة من ذات يوم، حين لم يكن قد بلغ العاشرة بعد، حاصرت الشرطة الفندق ونظمت حصاراً حقيقياً كان بعض الفضوليين، وأمه منهم، يتابعونه من بعيد.

سمعت طلقات نارية وألواح زجاج تتطاير شظايا. كان شرطيون بأزياء موحدة يسدون الطريق أمام المارة، وانقضت ساعتان قبل أن تنقل سيارة سجن خمسة أعضاء من العصابة البولونية الشهيرة في ذلك العهد، وكانت من بينهم امرأة.

رآها برنار من بعيد، عارية الصدر، تشتم رجال الشرطة الذين كانوا يدفعون بها نحو السيارة، وبدت له جميلة جداً. رأى، أيضاً، ميتاً كان رأسه يتدلى من المحفة.

عبرا شارع سانت انطوان، غير بعيد عن أنوار سان بول التي رأى، فيها، أول فيلم في حياته دون أن يرتاب في أن مصيره سيتقرر، ذات يوم، في ظلمة دار سينما أخرى.

سأل نيلي قائلاً:

- هل تتذكرين السيد فيليكس؟

أجابت، دون أن تدهش للسؤال قائلة:

- لا يزال يخيفني. يتفق لي أن أحلم به.

- هل تحلمين به؟

- يتفق لي ذلك. أحلم بأنني في ابينال ولا أعرفك بعد مع علمي بأنك موجود ويجب أن تأتي. هناك سلسلة من العوائق بيننا، وأكبر خوف هو أن يمنعك السيد فيليكس من دخول السينما.

- أتعلمين بماذا أفكر حوله؟

- لا. في حينه، كنتَ تتصور بأنه يغار عليَّ.

- لأنه كان يبدو لي أن كل الناس يجب أن يعشقوك. لا يزال يتفق لي أن أظن ذلك. في يوم مضى خطر في بالي مصادفة......

- مصادفة؟

- فلنقل أني كنت أتذكر لقاءاتنا الأولى...

- هل تفكر فيها غالباً؟

- إذا كنت تقاطعينني كل الوقت، فلن أتمكن من إنهاء ما أريد أن أقول لك...فيما يتعلق بالسيد فيليكس، استنتجت أنه إذا كان هذا الرجل المسكين يظهر، فجأة، دون صوت وراءنا، فذلك لأنه كان يتلصص.

وأضاف بهيئة ذات معنى:

- هل تتذكرين؟

- أتساءل كيف كنا نتجرأ وسط هذا العدد الكبير من الناس.

سارا في شارع بوتي - موسك حيث كانت دكان لا تزال مفتوحة بين الواجهات المظلمة، واحدة من هذه الدكاكين التي ترى، خاصة، في الريف وفي الضواحي البعيدة مع سكاكر في آنية زجاجية وعلب محفوظات انقضت صلاحيتها وسلع متفرقة تتدلى من السقف.

بعد ذلك، مباشرة، جاء نهر السين، عند جسر سولي الذي لم يكونا يمران عليه دون أن يتوقفا برهة ينظران إلى جريان الماء، وأخيراً جزيرة سان لويس التي كانا يدوران حولها بتكاسل.

رأياها تتغير شيئاً فشيئاً. نظفت واجهاتها، أعيد طلاء القناطر وأقفاص المصاعد. أقام فيها سكان جدد، ومنذ بضع سنوات، في كل نزهة من نزهاتهما تقريباً، كانت تقام حفلة في مكان ما، مع سيارات حتى على الأرصفة وسائقين بملابس رسمية كانوا يثرثرون أمام نوافذ مضاءة بشكل براق.

كانت ترى، أحياناً، أزواج ترقص، سيدات بنحور عارية، رجال بلباس السهرة. كانت تسمع ضحكات وأصوات محادثات تغطي على الموسيقى.

لم يكن هناك استقبال كبير اليوم، لكن رجلاً أشيب الشعر، يرتدي سترة من المخمل الأسود كان يقرأ، في مكتبة مغطاة بالكتب المجلدة حتى السقف، وسلوقي روسي نائم عند قدميه، كما في لوحة. كانت هناك لوحات قديمة وقاتمة فوق أبواب منحوتة، وكانت ثريا من الكريستال تبرز الجلد الأحمر للمقعد الذي كان يجلس عليه القارئ دون حراك كما لو كان يقدم نفسه إلى الأبدية.

- هل رأيته؟

- نعم.

لم يكونا في حاجة إلى قول المزيد، فقد سجلا، كلاهما، الصورة نفسها التي ستبقى، في ذهنيهما، دون شك، علامة هذا اليوم، نقطة استناده.

توقفا، أيضاً، عند نتوء الجزيرة، أمام كتلة كنيسة نوتردام الغافية، ثم عبرا جسر ماري الذي كانت ترسو قربه زوارق، اثنين اثنين، كأزواج، مع وميض فانوس أصفر على جسر كل منها.

لم تسأله نيلي عما إذا كانت تنتابه دوارات. تجنبت أن تراقبه خلسة، كما كان، يتفق لها في الجمهور. كان يحس بأنه على ما يرام، متحرراً، كما كان يبدو له من الأفكار السيئة التي كان يخجل منها دائماً.

هذه الأفكار كانت تحاصره عندما لا تكون زوجته قربه. عند ذلك، كانت وقائعها وحركاتها، الماضية كالحالية، تتخذ معنى مختلفاً.

أكثر ما كان يبعث على القلق هو أن ذلك كان يمكنه، دائماً، أن يطابق ما كان قد يفكر، فيه، معظم الناس حولها، ما كان بعضهم يفكر، فيه، بالتأكيد حولها. كان يرى، من جديد، مثلاً، في كوخ أسرة رابو، قرب حقل الرمي، أباها الذي كان يعود ثملاً كل مساء والذي كان، من أجل كلمة، يضرب الجميع حوله دون تمييز. ألم ير برنار، عدة مرات كدمات على جسد نيلي، ألم تقل بتسليم من اعتاد على ذلك:

- هذا لا شيء..إنه أبي..

كان الأولاد ينامون على فرش من القش، وينام أصغرهم في كيس صابون! وقد أكد جنود له أن الأم الرابودة حاولت أن تجتذبهم إلى ما وراء التلة، بل أن أحدهم ساوم، من أجل أن يرى كما قال، وكرر، ضاحكاً، السعر المنخفض بصورة مزرية الذي قبلته.

- وهل فعلت؟

- لست غبياً إلى هذا الحد. يبدو أن أحد المتقدمين يحمل عنها ذكرى ظريفة!

لم يكن الأول مع نيلي. ألم يكن يمكن أن يفكر في أنها اقتنَصَتْ الفرصة المتاحة للخلاص من هذه الحياة الباعثة على الاشمئزاز؟ ما الذي كانت تأمل فيه؟ أما كانت، بدلالة الاحتمالات، ستنتهي كفتاة صالة في أحد هذه المقاهي الواقعة على حدود المدينة والتي كان يجب، فيها، الصعود مع الزبائن؟

صرح لها قبل نهاية خدمته بخمسة عشر يوماً قائلاً:

- يجب أن أذهب لأرى والديك.

- لماذا؟

ألم تكن تفهم حقاً؟ هل كانت تمثل دور البراءة؟

- لأطلب منهما الأذن بالزواج منك. أنت لست راشدة، ولا أستطيع أن أذهب إلى باريس والعودة بعد ذلك لأخذك.

ربما كان يخشى أن يأخذ أحد، في هذه الأثناء، مكانه.

اعترضت قائلةً:

- ما الذي يمنعنا من الرحيل؟

- دون كلمة تقال؟

- سأعلن لهما أني راحلة، هذا كل شيء. أو سأدع لهما، لأتجنب أن يضربني أبي، رسالة. لقد بلغت الثامنة عشرة منذ الشهر الماضي ولن تتعرض لمتاعب بسببي.

كان يمكن القسم بأنها استعلمت وعندما أصر، حاولت، أيضاً، أن تثنيه عن مشروعه.

- سترى أنهما سيطلبان منك مالاً.

- لماذا؟

- لأني آتي لهما بأكثر مما أكلفه.

لم يكن لديها سوى فستانين، في ذلك العهد، الأسود الذي كانت تستخدمه كلباس عمل، وآخر قطني اشترته من مخازن السعر الموحد.

ومع ذلك، ذهب ذات صباح، بينما كان الأب رابو نائماً بعد سكره. وكانت الأم تغسل الأولاد في طشت غسيل

- إنه هو يا أمي.

- إذن، هكذا أنت الذي تريد أن تنتزع ابنتي؟ إنها تقسم لي على أنك تنوي أن تتزوجها، أمام العمدة... أهذا صحيح؟ ألم يكن يكفيك أن تعاشرها كالآخرين؟

- هذا صحيح يا سيدتي.

- ريما سيكون علينا دفع تكاليف الزواج؟

- الزواج سيتم في باريس حيث تسكن أمي.

- هل لك، على الأقل مهنة؟ الجنود كلهم سواء. واحدهم يعد، يعد، ثم يتبين بعد ذلك، أن هذا كان مجرد كلام.

ومع ذلك، لم تطلب منه مالاً واكتفت بأن صرحت بأنها لن تدفع فلساً واحداً. وعندما أبدى برنار رغبته بالتحدث إلى الأب رابو أثنته عن ذلك.

- يحسن بك أن لا تنتظر استيقاظه. لا يمكن الاقتراب منه صباح الأحد. سوف يستيقظ سيء المزاج ويطردك خارجاً.

هل كانت نيلي، من جهتها، تفكر، أحياناً، بما كانت ستصبح عليه لو لم تلتق به؟ كانت، من قبل، تحلم، في ذلك العهد، بالترتيب والنظافة، ببيت صغير مصقول جيداً، بحياة منتظمة. هل كانت ستجد أحداً آخر يعطيها كل هذا؟

- أود أن أنام مرة واحدة، على الأقل، في قارب. لا بد من أنه يسمع، هناك، انزلاق الماء على هيكله ويحس المرء بالقارب يرتفع.

كانا ينظران منحنيين، متلاصقي المرفقين على الحاجز، ثم ذهبا في اتجاه شارع سان بول حيث كان عاشقان متلاصقين في إطار باب. قالت أيضاً:

- هل تذكر؟

أخذا يمشيان بمزيد من السرعة، وفي الشقة، أسدلت نيلي الستائر حالاً، ساعدت برنار على خلع ثيابه، وبعد أن غسل أسنانه، سحبت كلابتيه.

في البداية، وخلال عدة سنوات، كان يخجل من جدعتيه، خاصة وأن الجلد بقي زمناً طويلاً أحمر اللون، وغالباً مهتاجاً ومغطى بالأكزيما. كان يخجل، أيضاً، من عجزه عن الحركة المشتركة بين كل الرجال، حركة ضَمِّ الشريكة بين الذراعين. لم يكن لديه، من جانبه، سوى نصفي ذراعين لا يستطيعان، دون الكلابتين، أن يمسكا بأي شيء!

كان ينظر إليها، مرتدياً منامته، تخلع ثيابها، وكان يعلم أنها سوف تتمتم، عاجلاً أو آجلاً، قائلة: ..«هل تريد؟» كانت تلك الاستطالة الطبيعية، المحتومة تقريباً، للجولة الكبيرة. كان صدر نيلي صلباً كصدر فتاة صغيرة.وكانت تستمتع بالذهاب والإياب، حوله، في عريها التام.

- هل تريد؟

كانت تقول ذلك بعد أن ترفع الغطاء عن السرير، وكان يحس، دائماً، بالسكينة الرائعة نفسها، وهو يغوص فيها. عند ذلك، كانا، حقاً، اثنين، وكان يحب أن يبقى، طويلاً، دون حراك وصدرها مسحوق تحت صدره، وطعم اللعاب في فمه.

لم يكن لهما أولاد. كان كلاهما يريدان أطفالاً. بعد سنتين لاحظت نيلي، ذات يوم، بهيئة النادم:

- يجب أن أكون، أنا، المسؤولة.....

لماذا هي وليس هو؟ ألم يقرأ، في جريدة، أن الرجل يكون، بقدر المرأة، إن لم يكن أكثر منها، سبب عدم الخصوبة في الأسر؟ ألم تغير الصدمة التي تلقاها والمعالجات التي عاناها شيئاً ما في عضويته؟ اكتشف، مؤخراً، مصادفة تقريباً، أن عظمة في رأسه، الصدغ، قد أصيبت من الانفجار الماضي، ولم يشك منها إلا بعد عشرين سنة. لماذا لا تكون أعضاء أخرى..

لم يكن ذلك وقت الانشغال بهذا. كانا، الآن، اثنين، أحدهما في الآخر، تسري، فيهما، الرعشات نفسها وتحملهما، أخيراً، الموجة نفسها، وبقيت نيلي، ككل مساء، قبل أن تنام، برهة طويلة في الظلام، رأسها على صدره، قبل أن تسحب نفسها على مهل وتهمس في أذنه:

- ليلة سعيدة يا برنار.

كانت تستيقظ أولاً، دائماً، في الشتاء كما في الصيف، في الساعة السادسة صباحاً، ولم تعد، بعد عشرين سنة، في حاجة إلى جرس كالمنبه. كانت تنزلق، دون صوت، خارج الأغطية وتخرج وخفاها في يدها، من الغرفة التي كانت تعيد إغلاق بابها بعناية. لم يكن، في غالب الأحيان يسمعها. وفي أحيان أخرى كان يحس بها دون أن يؤدي ذلك إلى شرخ في نومه.

كان يصعب أن يقال أياً من عادات الأسرة كانت ناشئة عنها وأيها كان يعود إليه. بعضها كان يعود إلى البدايات وأخرى أضيفت شيئاً فشيئاً مشكلة تقليداً لم يعودا يفكران في انتهاكه.

فيما يتعلق بالاستيقاظ في الساعة السادسة، كانت نيلي التي اقتضته، قبل دخولها إلى محلات دولانغل وآبويه، عندما كانت لا تزال تعمل، أثناء الحرب، لدى فلورنس نوسبوم حيث كانت تصنع زهوراً اصطناعية.

كان ذلك في بيت قديم بأروقة قاتمة معقدة، مليء بمشروعات حرفية، في شارع كوكيير. كانت تبدأ عملها في الساعة الثامنة والنصف صباحاً.

كان برنار لا يزال يتألم من جراحه، ولا يعتاد جيداً على الأجهزة المختلفة التي كان الأطباء وصانعو الأطراف الصناعية يجربونها عليه، الواحدة بعد الأخرى.

كانت تلك فترة شاقة، كأنها مظلمة، بالمعنى الذي كانت، فيه، القرون الوسطى، مثلاً، مظلمة في كتاب التاريخ. كان يصعب عليه أن يتخيل زمن الحصون أقل إظلاماً مما هي عليه على النقوش وكان متأثراً، خاصة، بالنقوش التي كانت تظهر أدوات تعذيب أو، أيضاً، أربعة جياد تسحل رجلاً.

كان يسعده أنه حي، أنه استعاد نيلي، حين تفرَّق السكان، وكان سعيداً لأنها لم تنظر إليه بخوف واشمئزاز، بل وبشفقة كانت ستكون، بالنسبة إليه، أبلغ أثراً.

لم يكن، طيلة الوقت الذي كان يعيش، فيه، في المستشفيات أو في مركز إعادة التأهيل، يفكر في ما ستكون عليه حياته عندما يعود إلى بيته. كان يقال له:

- توجد، حالياً، أجهزة من الكمال بحيث تفعل، بشيء من الصبر وقوة الإرادة، بكلابتيك، كل ما كنت تفعله بيديك...

كان ذلك صحيحاً وغير صحيح معاً. فقد كانت الأجهزة المؤقتة، مثلاً، تسبب له آلاماً كانت تكاد أن لا تحتمل. كان أوبون يأتي كل يومين ليراه ويشجعه ويبحث عما لا يسير على مايرام.

كان الطبيب ذو الرأس الضخم أول فرصة كبيرة له على اعتبار أنه كان على قيد الحياة بفضله. وكانت فرصته الثانية دخوله، مصادفة، لدى مجبر شارع الدرب الأخضر العجوز الملتحي الذي لم تكن جماعة مركز إعادة التأهيل تتكلم عنه إلا من أطراف الشفاه.

طال الاحتلال. كانت الأجهزة المحسنة أمريكية، ألمانية أو سويسرية، وكان من المستحيل الحصول عليها.

- فيما بعد، سيوضع لك الملقط الفعال الجديد أو حتى يد ذات إبهام ذاتي الحركة....

كان يرى، من جديد، النشرات، الأيدي البلاستيكية التي كان يمكن أن تظن، من بعيد أيادٍ حقيقيةٍ والتي كانت تسمى، بسخرية، أياد استعراضية. ولم يكن يريدها.

بعد سنوات، عرضت عليه أياد متمفصلة ذات تحكم كهربائي - هوائي يسمح بتشغيل بعض الأصابع بصورة إرادية، لكن هيلياس العجوز وضع له كلابتين معدنيتين بسيطتين كان يدخل عليهما أسبوعاً بعد أسبوع، تحسينات حذرة.

- دعهم يتكلمون يا فتاي ولا تصدق كلمة واحدة منهم. سوف تلزم سنتان قبل أن يعرف نمط الأجهزة التي تناسبك.

كان يستيقظ ليلاً مرتعداً، يعاني من أصابعه المفقودة، يئن، متعرق الجبين، في حين كانت نيلي تعدّ له مسكناً. كان يرثي لها قائلاً:

- ليست هذه حياة لك. أنا وزن ميت. كان من الأفضل....

- اسكت من فضلك يا أبله!

بقي أسابيع يرفض المضاجعة مقتنعاً بأنه يسبب لها النفور، وكان يتذكر، بدقة، المساء الذي اغتصبته، بالمعنى الحقيقي، فيه ضاحكة ضحكة التحدي.

- هذا هو الأمر! هل فهمت الآن؟

كان يتلقى بلاغات من تجمعات لذي العاهات ومبتوري الأطراف والمحاربين القدماء تتحدث عن مطالبات ومعاشات وسلالم مرتبات.

في ذات صباح، وجدت نيلي باب شارع كوكيير مغلقاً، وأعلمتها البوابة بأن الألمان أخذوا فلورنس نوسبوم.

لم يكن لدى الزوجين مال. كل شيء كان يكلف غالياً. عملت نيلي، خلال عدة أسابيع، خادمة في مطعم قبل أن تجد عملاً كعاملة في مخزن لدى دولانغل وآبويه.

قال لها:

- دعيني أقوم بتنظيف البيت على الأقل.

كانت نحيلة، ذات عينين كبيرتين، كانت تعمل أكثر مما ينبغي ولم تكن تتغذى بصورة كافية.

- كل ما تريد، المطبخ إذا كنت تصر، لكنك لن تتولى تنظيف البيت أبداً.

بدأ يستخدم كلابتيه المزودتين بملقط مغيراً، بنفسه، الأدوات، السكين، الملعقة، الشوكة وأدوات مبتكرة أخرى كان هيلياس العجوز يصنعها.

كان هيلياس يحمل النجمة الصفراء أيضاً، مثله مثل فلورنس، وكان خوفُ فوا أن يُساق بدوره إلى معسكر اعتقال. لحسن الحظ أن دكانه كان شديد الإظلام وقليل الجاذبية، وقلّما كان العجوز يخرج منه، إلى درجة أنه تمَّ نسيانه.

عند التحرير، أرادوا من برنار أن يشترك في العرض مع مائة أو مائتين من المشوهين الآخرين لكنه رفض أن يتجول بكلابتيه في الشانزيليزيه، كما ابتعد، فيما بعد، عن كل الجمعيات.

إلا أنه كان يقبض، بفضل هذه الأخيرة، معاشاً متزايداً دائماً انتهى إلى أن يساوي الأجر العادي. استمرت نيلي في العمل، وأخذ هو يعمل ليشغل أيامه. كان أوبون قد نصحه بذلك.

إذا كان قد فكر في رسم زهور على أباجورات من المعدن أو الجلد، فذلك لأن عانساً عجوزاً كانت تسكن، في السابق، منزل أمه، كانت تكسب من ذلك رزقها. وكان هيلياس قد صنع له ملاقط خاصة ذات دقة عجيبة ليعالج فراشيه.

وهكذا عادا، شيئاً فشيئاً إلى السطح في الوقت نفسه الذي اكتست الشقة، فيه، بالأثاث وبدا عليها شيء من الازدهار.

ما كان يوقظه، في معظم الأحيان، هو رائحة القهوة في اللحظة التي يفتح، فيها، الباب وتهتف نيلي بصوت مرح:

- حان الوقت.

كانت تقبله. كل شيء يكون، إذ ذاك، نظيفاً ومرتباً في المسكن. وبعد حمامه الذي كانت تساعده فيه، كانت تثبت له جهازه الذي كان منظومة معقدة من الأحزمة تسمح له، محيطة برقبته وكتفيه، بمعالجة الأجزاء المتحركة من الكلابتين.

- إلى المائدة.

لم يمر، في تاريخ الأسرة، يوم محدد اختار، فيه، كل منهما مكانه على المائدة. ومع ذلك لم يخطر لأي منهما، خلال عشرين سنة، أن يغير هذا المكان. قطع الكرواسان ساخنة والجريدة على ذراع الكرسي، قرب النافذة.

- هل نمت جيداً؟

- أغفيت حالاً، تقريباً، ولم أستيقظ إلا مرة واحدة.

- هل نهضت؟

- نعم.

- لم أسمعك.

كانت شريحة ضوء رقيقة تدخل، وحدها، في هذه الساعة، من نافذة شارع مينيم. كان الراديو يبث، بصوت منخفض، الأخبار. كان الزوجان المسنان، في الجهة المقابلة، على المائدة بدورهما، وصفق التوأمان الباب المجاور قبل أن يتدحرجا على الدرج. وكانت صرخاتهما لا تزال تسمع في الشارع الذي أخذا، على الفور، يركضان فيه.

كان برنار يود أن يطيل هذه الفترة من اليوم، وكانت نيلي تلقي، بين حين وآخر، نظرة على ساعة الجدار. كان هو الذي يعتني بها. لم تكن تمسها أبداً. كان، منذ طفولته، يحلم بساعة جدار بنواس نحاسي، واليوم الذي استطاع، فيه، أن يحصل عليها كان تاريخاً مشهوداً في حياته.

في اللحظة التي كانت الساعة الناطقة، في الراديو، تعلن عن الساعة الثامنة، كان ينهض آلياً، يذهب ليلمس العقربين، يقدمهما أو يؤخرهما حتى ولو ميلمتراً واحداً.

- ماذا تشتهي أن تأكل؟

رد قائلاً:

- أنا الذي أتولى التسوق اليوم.

- لماذا؟

- لا أدري. ربما ذلك لأن الدكتور أوبون نصحني بالتحرك.

لم يكن هذا صحيحاً، ويجب أن تكون زوجته مرتابة في ذلك. فلم يكن يتسوق منذ أسبوعين، وكان يصد كل ذرائع الخروج، قرر، اليوم، أن لا يمضي يومه كاملاً بين أربعة جدران. أو أن مساء الأمس كان، بالأحرى، الوقت الذي اختار، فيه، أن يطرد، نهائياً، كل أفكاره السيئة.

- الآن جاء دوري كي أسألك ماذا ترغبين أن تأكلي؟

- ما اليوم من أيام الأسبوع؟

- الثلاثاء.

- هذا هو اليوم الذي يكون، فيه، لدى اللحام، كبد عجل. هل تجرؤ على تحضير كبد عجل على الطريقة البورجوازية؟

- بل وأجرؤ حتى على أن آخذ منه ما يكفي لإعداد وجبة باردة بعد ذلك.

كان سعيداً، مرحاً، بدأ يوم جميل دون غيوم، وكانت عصافير الدوري تزقزق بأعلى الأصوات، وتأتي لتتسول فتات الخبز حتى إلى متكأ النافذة، كانت نيلي نضرة وجميلة في فستان منقط باللون الأزرق محكم جيداً يبرز استدارات قوامها وردفيها.

كان لا يزال يحتفظ ببقية من طعم عناقهما في الأمس، وكان ينظر إليها بامتنان عذب وهو يشرب قهوته بجرعات صغيرة.

كانت القهوة، كالنبيذ والكحول، محرمة عليه مبدئياً، لكن أوبون سمح له بكوب منها كل صباح. انتهك النظام وصب كوباً ثانياً ليبين فرحته، من أجل أن يبدأ اليوم بصورة أكمل أيضاً، قال فجأة، مبتسماً لزوجته:

- أحبك يا سيدتي.

- وأنا، أيضاً، يا سيدي، التطابق جيد، أليس كذلك؟

كانا يلعبان هذه اللعبة بين حين وآخر، استأنف كلامه قائلاً:

- أعتقد أني سأنزل معك وأوصلك، كرجل مهذب، إلى الأوتوبوس..

كانت عيناه لا تزالان تضحكان. عينا نيلي اللتان كانتا، في اللحظة السابقة، تضحكان، أيضاً، عبرتا، فجأة، عن تردد، وكان هذا يكفي لجعله قلقاً. مع ذلك، حاول أن يستمر في المزحة.

- ألا تسر رفقتي السيدة؟

- على العكس تماماً يا سيدي؟

لم تعد اللهجة ذاتها على الرغم من جهودهما. فقدت هذه اللهجة خفتها.

- إنما يجب أن أتوقف في الطريق...

توقفت عن التمثيل أمام هيئة زوجها الكئيبة. تابعت كلامها بصوت مختلف، واضعة يدها على كتفه.

- كنت سأقول لك وأنا ذاهبة. شقيق جيزيل ......

لاحظ أنها لم تسمه مازيرون، ولا بيير، كما كان ذلك لإبعاد أية شبهة إلفة.

- يجب أن يكون شقيق جيزيل قد انتهى، مساء أمس، رسوماً مستعجلة، جيزيل ستأخذها إلى الجريدة ظهراً......

- وأنت التي ستمرين به لأخذها؟

- ماذا تريد أن أفعل؟ أنت تعرف ما هي عليه الأمور معها، دائماً، على الدرجة الأولى من الأهمية. لم أفكر أنه في هذا الصباح، بالضبط.

أنهى، دفعة واحدة، القهوة التي كان قد وعد نفسه بتذوقها على مهل، نهض، ذهب ليجلس على مقعد حيث فتح الجريدة على ركبتيه.

- هل أنت غاضب؟

- لا.
- حزين؟
- لا. لا أدري. اعذريني.
أضاف بعد نظرة إلى الساعة:
- حان وقتك. وإذا كان عليك التوقف في الطريق...
- احتاج إلى ثانية... لفة ورق آخذها ... بل لن أحتاج إلى الدخول...
- اذهبي...
- استمع يا برنار.
- اذهبي يا عزيزتي. لا تتأخري..
كان على أهبة أن يتابع قائلاً بمرارة: «لا تخشى شيئاً! لن أنسى كبد العجل!»
ابتلع جملته وتظاهر بالقراءة. انحنت عليه وقبلته طويلاً وعيناها الحزينتان تحتويان على رجاء
- حاول أن تكون سعيداً يا برنار.... تباً لجيزيل!...لن أذهب.
- أريد أن تذهبي.
- أتصر على ذلك؟
- نعم....
- أنظر إلي...
نظر وهو يبذل جهده في إخفاء الكوابيس التي كانت تهاجمه من جديد.
حان الوقت. نادراً ما يتسنى للذين يعملون وقت لجلاء الأمور حتى النهاية.
- اذهبي ....أعدك...
نهض، مع ذلك، بعد قليل لينظر إليها واقفة على الرصيف المقابل تحت رقعة موقف الأوتوبوس الخضراء: نظرت إليه بالإلحاح نفسه، وقبل أن تصعد، لوحت له بيدها ولوح لها بيده بدوره.
ظل وحيداً مع أفكاره مرة أخرى، وكان يحس، فعلاً، بالتوعك الذي كان يسبق دواراته.

هبط الدرج على مهل، لامساً، أحياناً، الحاجز ليطمئن وذلك، إلى حد ما، كصاحب الذبحة الصدرية المواجه لشقته الذي كان يبدو، دائماً، على أهبة لأن يتمسك بالبيوت لحفظ توازنه. كان قد وعد نفسه، فوق، بأن لا يتوقف عند الطابق الأول، لكنه لم يقاوم وأعطى نفسه عذر استعادة توازنه.

من جهة، كان الباب مطلياً مؤخراً. وكانت ممسحة الأقدام مؤطرة بالأحمر، وكان يقرأ على رقعة من خزف اسم ف. جوسيو - فرنان أو فرانسوا، أو فردينان، أو فريدريك، لم يكن يعلم. لم يكن للباب المواجه، الكامد لا ممسحة ولا رقعة، حتى ولا بطاقة زيارة مثبتة بالدبابيس.

ما كان يفتن فوا، هو الزر الخزفي الشاحب الذي لم يمسه قط، والذي ضغطت عليه نيلي هذا الصباح بالذات. لم يكن يتذكر أنه رأى، في عهد العجوز فرنسوا، هذا الباب مفتوحاً، وكان سيجد مشقة في ذكر ما كان يوجد في الجانب الآخر. كان يعلم، فقط، أن المسكن يحتوي على حجرتين، واحدة صغيرة جداً، وواحدة كبيرة إلى حد كافٍ تطل على الباحة، بحيث لا تدخلها الشمس.

لم يكن المستأجر الجديد يفتح بنفسه أبداً. عندما يقرع الباب، كان يصيح بصوت يبدو قادماً من بعيد:

- ادخل!

نيلي دخلت، لا هذا الصباح فقط، بل مساء الأمس ومرات كثيرة أخرى، كان هذا يشكل مكاناً إضافياً، وجهاً إضافياً، كانت تألفهما ولا يعرفهما برنار.

لم يكن يعرف، كذلك، كل أشخاص شارع الانتصارات الذي اكتفى بزيارة واحدة له منذ بضع سنوات. كانت تذكر كل يوم، تقريباً، أسماء رجال ونساء. انتهت قصصهم الصغيرة إلى أن يكونوا مألوفين لديه، في حين لم يكن ليعرف الشخصيات في الطريق.

لم يظهر، قط، غيرة من هؤلاء، وها هو أسير باب، أسير زر من الخزف العاجي إلى درجة الرغبة في مسه بطرف كلابته.

كان يمكن أن يقال أنه يعاني من كون نيلي تعرف وهو لا يعرف. استمر في النزول. توقفه لم يدم، فعلاً، سوى بضع ثوان. ولم يمنع ذلك من أن يبدي ردة فعل مذنب عندما فتحت البوابة، في الرواق، الباب المزجج لدى مروره.

- رسالة لك يا سيد برنار.

كانت البوابة نفسها عندما أقام في هذا البيت، وكانت تسأله، بانتظام، عن أخبار أمه التي عرفتها جيداً. عرفت أباه أيضاً.

- رجل بالغ الجمال! كان مبنياً ليعيش مائة سنة.

تعرف، من بعد، على المغلف. كان المغلف الأصفر لرابطة مشوَّهي الحرب، كانوا مستمرين في دعوته إلى اجتماعات لا يذهب إليها. فإذا كان قد قبل، بما يكفي من السهولة، فكرة أن يكون، بعد الآن، مبتور اليدين وأن يعيش حياة مختلفة، عن الآخرين، فقد كان يرفض أن يكون جزءاً من عالم على حدة، أن يلتقي رجالاً آخرين مشوهين مثله سيحدثونه عن صعوباتهم، عن ميدالياتهم، عن المعاش وحقوقهم.

- كيف الصحة يا سيد برنار؟

- جيدة، شكراً.

نظرت إليه مرة أخرى بإلحاح، كما بدا له، وأحست بحاجة لأن تكرر:

- هل تجري الأمور على ما يرام؟

هل كانت له، إذن، هيئة مرضية، أو محبطة؟ لم يكن في حالة نوبة، ليس بعد. كان يحس بنفسه عائماً قليلاً، مع هذا الشعور بانعدام الأمن الذي بدأ يعرفه جيداً.

كان هذا ما دعاه البروفسور بيليه حالة دوارية ليميزه عن الدوارات الحقيقية. وإذا أخذ برأي البروفسور، فإنه لم يكن يعاني دوارات حقيقية، وكانت واقعة صحيحة أنه لم يكن يقع في الطريق غير قادر على خطوة إضافية. وإذا كان حسب رأي بيليه أيضاً، يتفق له أن يستند إلى جدار، فهذه الحركة لا تستجيب لأية ضرورة جسدية، بل لخوف غير مبرر فقط.

- هل أنت ذاهب لتتسوق؟

كانت السوق، حتى بضعة أشهر، حتى بضعة أسابيع أيضاً، تشكل إحدى أكبر مسراته، ولم يكن يحس بأي حرج في حمل شبكة تمون مثل ربة منزل. في الحوانيت التي ينبغي على المرء، فيها، أن ينتظر دوره، كان يصادف قليلاً جداً من الرجال، وكانوا، كلهم تقريباً، مسنين، متقاعدين، أرامل، وحيدين أو، أيضاً، أزواجاً كانت زوجاتهم يلزمن الفراش.

بدأ بدكان اللحام لأنه يخشى، في وقت متأخر من الصباح، ألاّ يجد كبد عجل. كانت الشمس تضرب وسط الرصيف. ولم تكن الشبكات المطلية بالأحمر والخيام المقلمة بالأحمر التي كانت تمد، في الصيف، وراء رخامة الواجهة لم تكن تدع سوى ممر ضيق يكاد أن لا يتسع للزبائن.

كانت برودة لطيفة تسود في الداخل، وكانت وجوه نساء جامدة في الظل تلتفت كلها معاً نحوه في صمت. كان الأمر هو نفسه بالنسبة لكل زبون يدخل. كان يعرفهن جميعاً بالنظر ويعرف أين يسكن معظمهن.

في الأرض، على النشارة، كانت بقع دم كثيفة تتسحق تحت شقق الثور المعلقة بكلابات. حتى رائحة اللحم الخفيفة لم تكن تزعجه.

- ماذا تريدين يا سيدة بلان؟

تمتمت، كما لو كانت خجلة من كونها وحيدة وفقيرة.

- قطعة بفتيك صغيرة. لا أكثر من ربع ليبرة.

كان اللحام يدعى ديزيريه لانفان. كان لديه ساعدان هائلان أشعران، وكانت على الصندوق زوجته ذات وجه الفلاحة الممتلئ والمتورد والصدر الوفير الذي كانت رافعة الثديين ترفعه إلى ما تحت الذقن.

التفت ديزيريه نحوها ليصيح ذاكراً سعراً.

- التالي...

كانت هناك اللواتي، كالسيدة بلان، يطلبن، بوجل، قطعة صغيرة واللواتي يشترين لاثنين. كانت هناك ربات الأسر اللواتي يتشبث بتنورة إحداهن، أحياناً، صبي صغير أو بنت صغيرة واللواتي كن في حاجة إلى ست أو سبع أو ثمان قطع. كانت وجوههن، دائماً تقريباً، متعبة وأكتافهن متهدلة، وكن يفضلن لحم اليخنة.

كانت تحل محل من يخرجن أخريات ويجري التقدم خطوة. وعلى الرغم من الخيمة المقلمة التي كانت تشكل حاجزاً أمام الشمس، كان ذباب يطن، وكانت نفحة أكثر بروداً تأتي من الغرفة الباردة في كل مرة كان الأجير يذهب ليأتي بقطعة لحم منها.

- ومن أجلك يا سيد فوا؟

- ليبرة ونصف الليبرة من كبد العجل.

- هل بقي لدينا كبد عجل يا هوبير؟

- نعم يا سيدي.

- هل أقطعه لك إلى شطائر؟

- قطعة واحدة أرجو أن تشكها بالشحم.

اتخذ لانفان هيئة ذات معنى.

- كيف تجري الأمور معك؟

- جيدة جداً. شكراً.

لماذا يبدو على الناس أنهم لا يصدقونه؟ كان اللحام ينظر إليه كما لو كانت لديه فكرة خفية. كان برنار يحس بنفسه، في برهة دواراته، شاحباً جداً، جاف المنخرين، جامد النظرة، لكن نيلي التي رأته، عدة مرات، في ذروة النوبة كانت تدعي أنه لا يوجد شيء من هذا.

- أؤكد لك أنك مرتاح الوجه.

نظر إلى نفسه، مرة أو مرتين، في واجهته، لكن الحكم كان صعباً.

كان أربعة أشخاص ينتظرون عندما دخل، ويوجد، الآن، أربعة وراءه كانوا، كلهم، ينظرون إليه، آلياً على وجه الاحتمال. كان الجميع، وخاصة الأطفال، شبه مفتونين عندما كان يمسك بطرف ملقطه، بحركات ساحر دقيقة، الأوراق والقطع النقدية في محفظته.

ماذا كان يقال بعد أن يخرج؟ ألم يكن لانفان يغمغم قائلاً: «أموره ليست على ما يرام منذ بعض الوقت» وأيضاً ألم يكن هناك من يلاحظ قائلاً:«إنه محظوظ بأن تكون له، وحاله على ما هو عليه، زوجة بهذا الصبا وهذا الجمال!» «أصحيح، أنه هو الذي يتولى كل شؤون البيت؟» «كلا! إني أرى، جيداً جداً، من نافذتي، زوجته تنظف الشقة منذ الساعة السادسة» « هل كان هكذا عندما تزوجها؟»«لا أستطيع أن أجزم. إنهما يسكنان الحي قبلنا» «أنا أعلم. كانا قد تزوجا منذ قليل عندما اندلعت الحرب. أمه كانت بوابة في ميدان الفوج» «لا بد أنه يتقاضى معاشاً ضخماً».

كان يخترع، واثقاً من عدم ابتعاده عن الحقيقة. دخل إلى دكان الألبان التي كان، فيها، مبسط ورفوف من الرخام الأبيض وميزان نحاسي جميل جداً.

- ماذا من أجلك يا سيد فوا؟ بماذا ترغب اليوم؟ لدي، بالضبط، الجبن الأبيض الذي تحبه السيدة.....

إذا كانت لم تسأله عن صحته، فقد ألقت عليه، مع ذلك، نظرة فضولية. هل كان هو الذي يخلق، هذا الصباح، لنفسه أفكاراً؟ يبدو أنه كان في وضع أسوأ وأدعى إلى الرثاء وإلى تعمد إبداء اللطف حياله من الأيام الأخرى.

- ألا تعاني من الحرارة، فوق، مع الشمس طوال النهار تقريباً؟... صحيح أنكما في زاوية الشارع وأنكما تستطيعان دائماً، صنع تيار هواء.....

ذهب، أيضاً، إلى بقالية بور، ولم يكن يحتاج إلى قائمة، كان في ذهنه كل ما ينقصه أو سينقصه، حبات فلفل، خردل، سكر، معجون لأواني المطبخ النحاسية. القهوة ستكفي يومين أو ثلاثة. كان يفضل أن يشتريها بكميات صغيرة لكي تكون، دائماً، طازجة.

عندما عاد إلى بيته، كادت تسنح له الفرصة لإلقاء نظرة وراء الباب العتيد ذي الزر الخزفي. كانت الممرضة ذات القميص الأبيض قد دخلت البناية قبله بلحظة. تبعها على الدرج، رأى ساقيها إلى ما فوق الركبتين وحركات وركيها المرنة واليسيرة. كانت نضرة مع الحيوية والمرح اللذين يتمتع بهما حيوان صغير.

كان يمكنه، لو حث خطاه، أن يصل إلى المنبسط معها تقريباً. لكنها، بعد أن طرقت الباب، تبرئة للذمة، فتحته دون أن تنتظر جواباً وتسنى له، وكان تحته، الوقت لرؤية شقة جدار مطلية باللون الأصفر وقطعة من السقف.

سمعهما، في الحال، يتحدثان بمرح، وعندما عاد إلى بيته ووضع رزمه في المطبخ، كان غارقاً في العرق.

قشر البصل، شكل باقة من المطيّبات، دهن قعر القدر بالزبدة، وبعد أن وضع مشترياته في مكانها وأشعل الغاز، عاد إلى غرفة الجلوس حيث لم يكن لديه شيء يفعله خلال برهة طويلة. لم يكن يحس بنفسه الرغبة في العمل في الرسم على الأباجورات. أصلح من شأن الستار الذي علقه تيار الهواء بغلاقة النافذة، تردد في الضغط على زر الراديو، لم يفعل وترك نفسه، أخيراً، يسقط على مقعده.

ألم تكن هذه، بالضبط، البرهات التي كان الدكتور أوبون يريد أن يجنبه إياها بإرساله، في عطلة، إلى أي مكان؟ لقد كان مكتئباً، فليكن، إنه يعترف بهذا لنفسه، لكنه لم يكن كذلك طوال اليوم. كانت معنوياته، كنوباته، تدعه

بسلام خلال ساعات طويلة. الدليل هو سهرة الأمس. وقد بدأ النهار جيداً، بدوره. كان يمكن أن يكون رائعاً. اقتضى الأمر...

كان يكاد أن لا يستطيع أن يقول بماذا اصطدما. كلمة لا تعني شيئاً في اللحظة التي كان وزوجته، فيها، أشد ما يكونان مرحاً. بل إن نيلي ليست المذنبة. كان ذلك ذنب جيزيل بهوسها في التصرف بالناس.

كانت جيزيل....

هل كانت، بالضبط، جيزيل حقاً؟ ها هو مَكمَنُ الخلل وما لا يستطيع الاعتراف به للدكتور أوبون، ولا لأي شخص. وقبل كل شيء، هل كان الناس يعلمون أنه لا يعيش حياة رجل؟

الأدوار في بيتهما كانت، مرة أخرى، مقلوبة. كانت زوجته هي التي تذهب إلى العمل، صباحاً، وتعود ظهراً تنضح بالحياة الخارجية، وترحل، من جديد، كي لا تعود إلا مساءً.

وماذا عنه خلال هذا الوقت؟ كان، كغالبية النساء، يبقى في المنزل، ينتظر، يهيئ كبد العجل بالطريقة البورجوازية، والذي يجب الحرص على أن لا يحترق.

بقيت له ألهية أن يقول لنفسه، بعد نظرة إلى الساعة: «نيلي تفعل هذا..... نيلي تفعل ذاك....»

ماذا كان يعرف عن ذلك بالضبط؟ أليس لدى النساء اللواتي يبقين في بيوتهن طوال اليوم الشكوك نفسها أحياناً بصدد أزواجهن؟ إلا أنهن نساء. لا يقلل من شأنهن غياب الأيدي. تستطيع الواحدة منهن أن تستقبل زوجها بين ذراعيها عندما يعود إلى البيت وتتنزه معه في الطرقات دون أن يلتفت الناس مشفقين.

ألا يعانين مع ذلك من النوع نفسه من الغيرة الذي يراوده أحياناً؟ ألا يتفق للواحدة منهن أن تتشمم العائد بحثاً عن رائحة غريبة؟

لم يكن ذلك جديداً. في السابق، أيضاً، عرف هذا النوع من القلق، خاصة في السنوات الأولى، عندما بقي طرفا ساعديه ميالين إلى اللون البنفسجي وترسخت في ذهنه فكرة كونه لن يتوصل إلى استعمال كلابتيه أبداً.

ولما كان لا يستطيع فعل شيء دون نيلي، فقد كان يحس بأنه ضعيف وعاجز بقدر رضيع بين يديها. أما هي، فقد تزوجت رجلاً، وإلى رجل كانت تحتاج. ذلك لأنها حاجة حقيقية، لاذعة تقريباً، وكان يعرف هذا. بل إنه اكتشفه بشيء من الدهشة. ففي بعض الأحيان، كان يستيقظ ليلاً على اهتزازات في السرير، وعندما كان يضيء المصباح، كان يجدها في حالة ارتعاد إلى جانبه.

في البداية، كان يسألها:

- ماذا بك؟

- لا شيء يا برنار...كنت أحلم.

وشيئاً فشيئاً، اعترفت بأنها كانت، بشكل غير معقول، أحلاماً عاطفية، جنسية، ذات دقة كانت تذهلها. كانت تؤكد أنه كان موضوعها، أنه كان هو، بعض أجزاء جسمه، ما تستدعيه، على هذا النحو، في نومها. أكان ذلك صحيحاً؟ أكان من الممكن أن تهتاج بصدد رجل منقوص؟

لم يكن ينقم عليها. لم ينقم عليها قط، ولن ينقم عليها، أبداً، مهما حدث. لم يكن ليستطيع أن يحدد الفترة بالضبط. كان ذلك بعد التحرير بقليل. كان يمكن أن يقال إن باريس استأنفت حياتها الحقيقية، إن الفرح كان يبعث، أن الشباب استعاد حقوقه.

كانت الأعياد وحفلات الرقص تعقب العروض في الشمس، وكان الجنود الأمريكيون يطاردون الفتيات في الشوارع. كان هناك جنس في الهواء الذي يتنفسانه، واتفق لهما أن تجنبا زوجين يتضاجعان على عمود في ميدان الفوج.

في تلك الفترة، أغراه أن يقول لها: «تعلمين يا نيلي لكِ الحرية.....» كان سيتألم من جراء ذلك، لكنه، كان يرى أن هذه، من جانبه، مسألة صدق. لم يكن له الحق في أن يحكم على امرأة صبية ومفعمة حياة بالعيش المنطوي الذي كان يعيشه.

سوف يبقى زوجها، رفيقها، الرجل الذي تحبه. ستعود، في كل مرة، إليه. ستعود كل مساء. لن يستجوبها. لن تقول له شيئاً. سيكونان مرحين، مطمئنين، كزوجين حقيقيين، وهكذا يحتفظ، على الرغم من كل شيء، بنصيبه.

كان يفضّل ألاّ تتخذ لها عشيقاً، بل تعاشر رجالاً مغفَلي الاسم قدر الإمكان، وما كان ليدعها تشعر بأنه يتألم.

ألم يكن ذلك أفضل من أن يموت، من أن يكون قد فقدها تماماً؟

كان هو، وليست هي، من جند، من انفجر به لغم وهو يلعب دور الكشاف على الثلج. كان هو الذي سلموه ميدالية عندما لم يكن يدري ما جرى بالضبط. لم يكن هناك أي مبرر لأن تعاني من ذلك!

في الحقيقة، لم يقل لها هذا أبداً، كانت أفكار بعض الساعات، كالآن، التي كان يسارع إلى إبعادها بعد ذلك بقليل.

وفي ذلك الزمن، أيضاً، اتفق له أن تساءل عما إذا كانت قد انتظرت موافقته لتذهب مع جنود أمريكيين، أو مع أي كان. ألم يتفق له، عندما كان يعمل في مرآب سوق الخضار، أن يأخذ عطلة لمدة يومين أو ثلاثة، كما جرى في الأسبوع الذي كشطا، فيه، جدران الشقة وألصقا أوراقاً جديدة؟ ألم تكن تعطي نفسها الحرية عندما يكون أمامهما عمل ما، وثائق للتوقيع من أجل معاشه أو، ببساطة، عندما كانا يحسان بالحاجة إلى قضاء برهة معاً، أثناء النهار؟

كانت تذهب، كل صباح، إلى محلات دولانغل وآبويه. ما الدليل على كونها، في هذه الدقيقة بالذات، في ميدان الانتصارات؟

أغرته فكرة أن يأخذ ورقة ويقسم الصفحة إلى عمودين، أن يكتب ما هو «مع» في جانب وما هو «ضد» في الجانب الآخر لصنع نوع من موازنة. كان ما سيكتبه في رأس الصفحة، قبل كل شيء، هو، مرة أخرى، أنه لم يكن ينقم عليها، إنه لا يحق له أن ينقم عليها. ربما سجل، أيضاً، فكرة كانت تخطر له كثيراً. ولم يدع أحداً، وهي أكثر من أي كان، يرتاب في وجودها. هل كان رجل كالدكتور أوبون الذي يرى كل أنواع الناس والذي يسمع اعترافات غريبة، مثلاً، يستطيع أن يفهم؟

«أود لو كانت قبيحة» *لو كانت قبيحة لأحبها بالقدر نفسه، إن لم يكن أكثر، ولما التفَتَ إليها الآخرون*. كان هو الذي كانوا سيرثون له عندما يمران، جنباً إلى جنب، في الشارع.

قبيحة أو مشوهة!

قال لنفسه أيضاً منذ زمن طويل جداً: «عندما تبلغ الأربعين، لن يعود الرجال ليشتهونها». كانت في الثامنة والثلاثين، وكانت مثيرة أكثر منها في أي وقت مضى، ليس بالنسبة إليه فقط، وللآخرين، أيضاً، كما يتبين من نظرات المارة.

كان يود أن يبتدئ بعمود «ضد»، ليتخلص منه بصورة أسرع، ولأنه الأكثر مشقة، شاق إلى حد كان يبذل، معه، جهده، عادة، كي لا يمضي، حتى النهاية، بهذه الأفكار.

هل يسجل، فيه، أحلام نيلي معتبراً أنها لم تكن لتستثار، على هذا النحو، بذكرى معانقاته المسكينة؟

كانت تلتقي ذكوراً طوال اليوم، ولم يكن المسنون، وحدهم، موجودين في محلات دولانغل وآبويه. كان يريد، حقاً، أن يدع جانباً موظفي المحاسبة، كل الرجال المكتفين والمتقدمين في العمر.

كانت أهم مؤسسة مزركشات، لا في باريس وحده، بل في فرنسا، وربما في أوربا. وكانت تستقبل طلبيّات ومشترين من العالم بأسره. كان السيد دولانغل في التاسعة والسبعين من العمر. سوف يحتفل بعيده الثمانين عما قريب، وكانت ابنته الوحيدة تعيش مع زوجها وأبنائها في سويسرا.

السيد آبويه أتى، بالضبط، على اجتياز عمر الخمسين، ومنذ بعض الوقت، دخل ابنه البكر، السيد جان بول كما كانت نيلي تسميه، إلى المشروع.

- أي نوع من الرجال هو هذا؟

- أمضى ثلاث سنوات لدى صناع الحرير في ليون قبل أن يعهد إليه أبوه بمنصب معاون مدير. إنه هو، من الآن فصاعداً، من سيدير القسم الأجنبي لأنه يتكلم عدة لغات ويزعمون أنه سيحدّث كل شيء في المؤسسة.

لم يكن هذا يبين أي رجل كان.

- هل هو متزوج؟

- نعم. لم أر زوجته إلا مرة واحدة، شقراء طويلة، على جانب كافٍ من الجمال. إنهما يسكنان في جادة سوشيه ولديهما سيارة رياضية.

- هل هو أشقر أيضاً؟

- أقرب إلى السمرة (بدا عليها أنها تبحث في ذاكرتها.) نعم، أقرب إلى السمرة.

- أين مكتبه؟

- في الطابق الأول، إلى جانب السيد دولانغل الذي سيأخذ مكانه عندما يتقاعد هذا الأخير. أما الآن، فهو يعيش، إلى حد ما، متنقّلاً.

ألم يكن طبيعياً، أن تتحدث هكذا عن الذين كانت تعمل وتمضي معهم أكثر من الوقت الذي تمضيه معه تقريباً - أكثر بكثير إذا حسم زمن النوم؟

لم تكن ترى في ذلك، دون شك خبثاً، ولا تعي أنه ليس للكلمات، بالنسبة لرجل يمضي أيامه ينتظرها، الصدى نفسه بالنسبة لمن تجد نفسها وسط الحياة.

ربما كان لهذا الجان بول أنف معوج، نظارتان سميكتان، ثنية كريهة عند زاوية الشفتين. ربما كان إنساناً متعجرفاً يخيل إليه أنه يهين شرفه إذا توجه بنظرته إلى شخص من مستخدميه.

كان ذلك غير محتمل. كانت نيلي تتحدث عنه بطريقة أقرب إلى الود، كما كانت تتحدث عن كل ما يمس ميدان الانتصارات.

كان هذا يجعله شقياً أيضاً. هناك أمكنة، غير هذه الشقة، مألوفة لدى نيلي، لها فيها عاداتها، مقعدها، علاّقة لمعطفها، أشياء شخصية في جرّار. كانت تنظر إلى الوقت في ساعة جدارية مختلفة، ساعة كهربائية رآها وهو مار، وكان الأمر، نوعاً ما، كما لو أنها لا تعيش الزمن الذي يعيشه.

هل سميت رئيسة قسم قبل وصول جان بول أو بعده؟ ذلك أنها كانت، منذ عدة شهور، شخصية هامة هناك. بين عشية وضحاها كفوا عن مناداتها باسم نيلي، باستثناء ما يتعلق بالحميمين مثل جيزيل، ليسموها السيدة فوا.

أصبحت، بعد ذلك، تسود في المخزن الواسع في الطابق الأول، إلى جانب مكاتب المديرين، حيث اصطفت ألوف العينات المزودة ببطاقات على الرفوف. كانت خمس فتيات، صغيرات السن في غالبيتهن، وكذلك سيدة في الخمسين من عمرها لكنها دخلت، في الحقيقة، إلى المؤسسة بعد نيلي بكثير، تحت إمرتها. كانت الأقدم باستثناء ما يتعلق بالمحاسبة ورئيس المخازن.

ألم يكن يمكن تسجيل هذا في عمود «مع»؟ لكن ماذا لو أن تعيينها جاء بعد قليل من تسمية جان بول معاون مدير؟ ليس الأمر، فقط، أنه لم يكن يتذكر، لكنها لم تحدثه، بالضرورة، عن آبويه الابن منذ يوم دخوله إلى المؤسسة. كان يتفق لها أن تقول: «بالمناسبة، أحد سائقي الشاحنات في الأسبوع الماضي......»

ألم تكن هذه الفترة، تقريباً، هي التي أوصت، فيها، على ثلاثة فساتين دفعة واحدة؟ لم تكن تشتريها جاهزة لأنها وجدت خياطة عرفت كيف تخيط لها فساتين تناسبها تماماً ولم تكن غالية الأجر، السيدة لوفار، في شارع سيفينييه، تجاه مدرسة البنات. عندما كانت، بعد نهار العمل، تذهب لتجريب فستان، كان برنار يصحبها حتى الباب ويسير جيئة وذهاباً في انتظارها. كانت تلح على صعوده معها.

- يمكن أن تعطيني رأيك.

ذهب مرتين، وأصرت السيدة لوفار على أن تقدم له كأس فيرموت لم يجرؤ على رفضها.

كان هو الذي أراد أن تكون زوجته أكثر أناقة وأن تجدد ثيابها.

- نحن لا نخرج إلا قليلاً يا برنار.....

- لا أصر على أن تكوني لطيفة اللباس من أجل الآخرين..

للوهلة الأولى، كان هو الذي جعلها توصي على ثلاثة فساتين. إلا أنه اتفق له، في فصول الربيع الأخرى، أن أصرَّ بالطريقة نفسها، وكانت تكتفي، في كل مرة، بشراء فستان أو اثنين وإصلاح الفساتين القديمة.

وفضلاً عن ذلك، فقد اشترت، هذه المرة، دون أن يحتاج إلى التدخل، حقيبتين وقفازات وحذاء متوافق مع أحد الفساتين، وهو ما لم يحدث لها أبداً. بل إنها لاحظت قائلة:

- بدأت أكتشف أن المرأة تصبح متأنقة مع تقدمها في العمر. والحقيقة هي أن هذا هو الوقت الذي تحتاج، فيه، إلى ذلك أشد الحاجة. هل انتبهت إلى كوني سأصبح، بعد سنوات قليلة، امرأة مسنة؟ أريد، إلى آخر حد، أن تستمر في رؤيتي جميلة! كما ترى يا برنار. من أجلك أنت.....

ساورته رغبة في أن يقول لها بجفاء: «كلا! من أجلك أنت! أو من أجل رجل آخر، أو لرجال آخرين. لم يكن يدري. كان مقصوراً على الظنون. كل شيء كان يبدو له ممكناً، كل شيء كان محتملاً.

بل إن كونها تصبح، وهي تنضج، أجمل وأشهى كان سبباً للقلق. ألا تكتسب امرأة متخمة بالحب مزيداً من البريق؟

حبه لها كان أمراً تعودت عليه منذ زمن طويل. لم تكن مرشدة السينما في ابينال تهتم بزينتها ولا بمظهرها. كانت تحب، دون أن تبحث عما هو أبعد من ذلك. كانت تعد حب برنار أمراً محققاً، ولم تكن تبذل جهداً لتحافظ عليه بمصطنعات.

بل إنها غيرت الحلاق! الجديد قص لها الخصلتين المتمردتين اللتين كان برنار يحبهما كثيراً فوق أذنيها.

- غضبت! كنت قد أوصيته بعدم تغيير شيء. لم أفكر في مراقبة حركاته، وفي الوقت الذي استغرقه النظر إلى زبونة داخلة كان كل شيء قد انتهى.

«مع» أم »ضد»؟ ألم يكن ذلك أقرب إلى «ضد»؟ وهي تعلم كم كان يتمسك بهاتين الخصلتين... وأنه كان، على كل حال، يفضلها أبعد ما تكون عن التصنع؟

- أنت تفهم أني، الآن، وقد صرت استقبل الوكلاء الجوالين وصار الجميع ينادونني السيدة فوا...

لو لم يكن مبتور اليدين، لو بقي يعمل في المرآب. لو أصبح معلماً أو، من يدري، معاون مدير، ألم يكن من شأنه أن يبدل مريولته ببزة جيدة التفصيل وأن يحلق بمزيد من العناية؟

الأخطر كان مازيرون. عندما بحث أمر سؤال البوابة عن مسكن من أجل السيد فرانسوا، سأل برنار:

- كيف هذا الفتى؟

السؤال نفسه، بالنسبة لكل الرجال، دائماً. ألم يكن ذلك طبيعياً؟

- لا أدري. لم أره قط.

- ألا يأتي إلى شقيقته في ميدان الانتصارات؟

بدا له أنها ترددت قبل أن تجيب، وأن جوابها كان ملتبساً.

- ربما جاء قبل كساحه، أجهل ذلك. جيزيل وأنا لا نعمل في قسم واحد......

وبالمقابل، كانت تعرف كل القصص الصغيرة التي تخص الفتيات اللواتي تعمل معهن، بل وتلك التي تخص، أيضاً، آنسات المكتب، بل ووكلاء المؤسسة الجوالين.

جرى ذلك في الربيع، في آذار أو نيسان.

ماذا لو كانت تعرف بيير مازيرون قبل ذلك بكثير؟ وليس في هذا من مستحيل. كانت جيزيل تعمل في محلات دولانغل وآبويه منذ خمس سنوات أو ست. أصبحتا، حالاً، صديقتين. كان يمكن أن تكون قد قدمت أخاها إلى نيلي ذات مساء، وهما تغادران المخزن. لماذا لا تكون قد قالت له: «سوف ترى! إنها جميلة إلى حد كافٍ وليست سيئة التكوين أبداً.

حياتها ليست سعيدة. إنها متزوجة من رجل شديد الإعاقة لا يخرج من بيته ولا يقدم لها لهواً بديلاً...»

لم تكن تلك هي المرة الأولى التي تشغل، فيها، هذه الفكرة ذهنه. كان يستبعدها عادة. ومع ذلك، اقترح عليه متدرب، عندما كان لا يزال يعمل في مرآب سوق الخضار، جاهلاً أنه متزوج، قائلاً:

- ألا تريد أن تخرج مع أختي أحياناً؟

كلا! محا هذا من ذهنه. لم تعرفه. دون شك، إلا عندما حدثتها جيزيل عن شقة. ولكن، ألم تذهب لرؤيته إذ ذاك بصحبة جيزيل احتمالاً لتعلن له الخبر الطيب؟

نهض ليقلب كبد العجل الذي اكتسحت رائحته الطيبة الغرف الثلاث. ظلت حركاته هادئة. دقيقة وأخذ، محنياً على حوض المطبخ، يقشر بضع حبات من البطاطا ويقطع بعض الجزر إلى قطع مستديرة سيضيفها قبل وصول زوجته بنصف ساعة.

قال بصوت منخفض:

- كلا.

كان لايزال يشطب. لم تلتقي به قبل أن يقيم في شقة الطابق الأول.

لكن منذ ذلك، كان هناك، كل يومين على الأكثر، طرد أو رسالة تحملها إليه من جيزيل. هذا كان صحيحاً. صعدت جيزيل وزوجها إلى شقتهما في يوم أحد كانا يزوران فيه مازيرون. قدمت لهما نيلي نبيذ الروزيه وقطع حلوى جافة، بذلت قصارى جهدها كأنها كانت تصر على إرضائهما.

لماذا؟

قالت جيزيل لبرنار، خلال المحادثة:

- أتساءل كيف فعلت لتكتشف زوجة من هذا النوع! إنها رائعة!

وأضافت بصوت بدا طبيعياً:

- أخجل، أحياناً، من الاستعانة بها. أخي المسكين وحيد جداً. أتساءل كيف كان يمكن أن يتدبر أمره دون مساعدة. أنت تعرف شيئاً من هذا لكونك في الحالة نفسها تقريباً.

ربما كانت هذه الكلمة هي التي آلمته أشد الألم، هذه المقارنة بينه وبين رسام الطابق الأول الشاب الذي كانت زوجته تمر به كل يوم تقريباً.

- إنه ممتن لها جداً من أجل سعيها الحثيث لتجد له مسكناً.

لم يكن ذلك صحيحاً. نيلي لم تسع المسعى الحثيث. لم تفعل سوى طرح السؤال على البوابة مضيفة، احتمالاً، كلمة لصالح شقيق جيزيل.

ماذا بقي من عمود «ضد»؟ لم يعد يعلم. فضل الكف عن التفكير في ذلك. سيَحين، بعد قليل، وقت إعداد المائدة، خلط السلطة، الانشغال بتفاصيل صغيرة كانت من مسؤوليته.

كان، في خاتمة المطاف يستطيع أن يملأ أحد العمودين بالصورة المنطقية التي يمكن أن يملأ بها، الثاني، حسب مزاجه، حسب درجة الثقة في حينه: لم يشك، خلال سنوات، بزوجته، وكان همه الوحيد هو إسعادها إلى أقصى حد ممكن. لماذا شعر، فجأة، في سن الثانية والأربعين، هذا العدد من المرات، بأنه لم يتوصل إلى ذلك؟

فتح الراديو دون أن ينتبه لأنه كان معتاداً على الاستماع إلى الموسيقى عندما يعمل في أباجوراته. كان مشغولاً بوضع قطعة الجبن الأبيض في طبق عندما انتفض مذعوراً تقريباً. لم يسمع شيئاً، هو الذي كان يسمع كل أصوات البيت، وكذلك أصوات الطريق، ومع ذلك، كانت نيلي هنا تحيط كتفيه بذراعيها. بدأ يقول:

- ماذا....

من الباب المنفرج، رأى ساعة غرفة الجلوس التي كانت تشير إلى الثانية عشرة إلا عشر دقائق. لم يكن هذا موعد زوجته، ولم تكن تتصرف كالمعتاد. كانت تقبله، ممسكة برأسه بيديها، على خديه، على جبينه، على شفتيه والقلق بادٍ في عينيها.

كرر محتاراً:

- ماذا...

لم يكن قد انتهى من تبديد أفكاره السيئة، وأقلقته حماسة نيلي وعودتها غير المتوقعة. قالت:

- لم أستطع أن أصمد حتى الظهر........لو تعلم أي صبيحة بشعة أمضيت؟

- لماذا؟

- ألا تحزر؟

تعنت في موقفه الدفاعي كما يحرد المرء.

- هذه هي المرة الأولى التي نفترق، فيها، على هذا النحو.

اعترض قائلاً:

- أشرت إليك من النافذة.

- لا أجرؤ أن أحدثك عن كل الأفكار التي ازدحمت في رأسي...كنا بالغي السعادة مساء أمس!...لم أرك، منذ أسابيع في هذا الاسترخاء...وهذا الصباح أيضاً...ذكرني هذا، قليلاً، بسكنانا هنا...ثم حدث...

- لا تتحدثي عن ذلك، هل تريدين؟

كانت تراقبه بانتباه، أصبحت أكثر جدية.

- كانت صبيحة سيئة لك أيضاً، أليس كذلك؟

اكتفى برفع كتفيه.

- نوبة؟

أصر على أن يروح ويجيء، أنهى إعداد المائدة مديراً لها، في معظم الوقت، ظهره.

- برنار...

- نعم؟

- أ أنت حقاً غيور إلى درجة التألم من ذلك، إلى درجة المرض؟ أتتصور أني قادرة على الاهتمام برجل آخر غيرك؟

- لا أدري. ربما لا.

- ربما؟ وأنت؟ تستطيع (واستدركت حالاً) أنت رجل. ليس هذا الشيء نفسه.

- ماذا قلتِ للسيد جان بول؟

- أني نسيت موعداً مع طبيب الأسنان.

كذبت كانت تستطيع أن تكذب. تابعت قائلة:

- ذهبت إلى جيزيل. رجوتها أن لا تعود تكلفني بمهمات لأخيها.

- لماذا فعلت ذلك؟ أي عذر قدمت؟

- لم أتحدث عنك. قلت لها أن المستأجرين ربما يثرثرون.

- بماذا أجابت؟

- لا شيء. سوف تكتفي بالكف عن وصفي بأني رائعة!

ابتسم على الرغم منه ووعاء السلطة في يديه، وهتفت:

- هل تريد أن تدع هذا لأستطيع أن التصق بك؟

وبكى الاثنان. كانت تلك المرة الأولى التي يحدث لهما فيها أن يبكيا معاً.

لم يكونا، خلال عشرين سنة، في مثل تقاربهما بعد ظهر ذلك اليوم، كما كان يبدو لهما، إلى أقصى ما تستطيع كائنات بشرية أن تكون؟

إلا أنه ما تكاد تعاش هذه الساعات الخالية من التصنع، من التقليد، هذه الساعات التي تكاد تكون خارج العالم والتي يبدو، فيها، كل شيء مختلفاً، التي ازدادا فيها، جسداً وروحاً، حساسية، التي كانا يتحدثان، فيها، كأنهما محمومين، ما تكاد هذه الساعات تعاش حتى تكون قد أصبحت، فعلاً، من الماضي. ماذا يبقى منها غداً، في الأيام التالية؟ ماذا يبقى منها بعد شهور أو سنوات.

انطبعت صور لم يختاراها، بعض الأصداء، بعض النظرات الملتقطة مصادفة، بل وأصوات غريبة شَكَّلتْ موسيقى خلفية لمواجهتهما.

ألن يريا ثانية، دائماً، ليتر النبيذ الأحمر نصف الممتلئ الذي يبدو مصنوعاً من قسمين داميين لأن بقعة شمس كانت تتلألأ في الوسط؟ ظل هناك قليل من الصلصة على الأطباق، بقايا خبز حولها،أربع قطع من الفاكهة لم يمساها على طبق معدني.

شرب برنار أكثر من نصف الكأس المعتاد. شرب كأسين أو ثلاثاً، وربما أربعاً، وشعر بجفونه الحارة ترمش. كانت نيلي تحدثه، بصوت عال، عن صباحها كاشفة عن كونها كادت تنزل من الأوتوبوس، عند أول موقف، لتسرع إلى البيت.

كانا لايزالان يتجنبان أن ينظر أحدهما إلى الآخر، بنوع من التعفف. لم يكونا يريدان أن يتخذ حديثهما منحى دراماتيكياً. وكان يمكن مثلاً، أنهما يتحدثان عن أمور عادية.

- لم أكف، طوال الوقت الذي كنت، فيه، في المخزن، عن النظر إلى الساعة. كنت أحاول أن أتابعك بالفكر. كنت أقول لنفسي إنك تتسوق، إنك

عدت إلى الصعود على الدرج. كنت أجهد لتخيل وجهك، لكنني لم أكن أتوصل إلى ذلك. ربما كان هذا أشد ما أقلقني.

مثله، ليس هذا الصباح فقط، بل في الصباحات الأخرى، كل أوقات بعد الظهر.

- أخيراً، لم أستطع الصمود، فاخترعت قصة طبيب الأسنان.

- ماذا كنت تخشين؟

- أن تكون تعساً...أن تضجر.

- هل خشيت أن أصاب بنوبة؟

- أوبون طمأنني في هذا الصدد..كلا، بل فكرة أنني قد آلمتك، دون علم مني... في الحقيقة، لم أبدأ في الفهم إلا شيئاً فشيئاً... أ أنت غيور، حقاً، يا برنار؟

أجاب آسفاً بنعم بحركةٍ من رأسه.

- أما زلت، إذن، عاشقاً؟

- أحبك.

- بعد كل هذه السنين؟

- وأنت؟ هل مللت لطول ما عشت معي؟

- تعلم أن هذا غير صحيح.

- كيف لي أن أعلم؟

- استمع! هذا ما سوف أفعل. لا أرغب في الذهاب إلى المخزن اليوم. سأبقى معك. سأهتف وأقول أن الجلسة، لدى طبيب الأسنان، أتعبتني، أني أخذت قرصاً مسكناً ونصحت بأن أنام.

لم يكن لديهما هاتف. وماذا كان سيفيدان منه على اعتبار أنه لم يكن لهما، إذا صح هذا القول، أحد يهتفان له وأن أحداً لن يطلبهما، كان يمكن أن

يفيد في التواصل بينهما خلال ساعات افتراقهما، هذا مؤكد، إلا أنه لم يكن يحق لمستخدمي دولانغل وآبويه أن يطلبوا أو يتلقوا اتصالات خاصة.

عندما انتهى الغداء، نزلت ورآها تدخل إلى مقهى تورين، تجاه دكان الحلوى، الذي كان، فيه، حجرة هاتف.

على عكس ما كان يمكن أن يفعله في يوم آخر، لم ينظف الطاولة، وبعد أن دار في فراغ كما لو كان ذلك ليجد مكاناً يجلس فيه، ذهب ليتمدد على السرير.

كان سيجد مشقة في تحديد حالته الذهنية وحالته الجسدية. تذكر كلمة قرأها في مكان ما لم يفهمها جيداً في حينها، وكانت تنطبق عليه اليوم: كان حزيناً.

لم يكن ذلك كريهاً. راح توعك أصم ولذيذ يدخل، بعيداً جداً، في لحمه، وكان يرغب في أن يفتح هذا النوع من الخراجات، وكذلك في التحدث إلى نيلي، أن يقول لها كل الذي لم يقله لها قط، أن يتخلص، نهائياً، من هذا الركام المبهم، الوفير من الأفكار السيئة التي كانت تخطر له بصورة متزايدة.

لم يكن يعرف كيف سيفعل ذلك، ولا إذا كان سيتوصل إليه. كان خائفاً، قليلاً، من أن يتخلص، بصورة أنانية، من عبء أصبح، بالنسبة إليه، أثقل مما ينبغي، فيرهق زوجته تحت وطأته.

سمعها تصعد، تفتح الباب. وعندما لم تجده في غرفة الجلوس، ألقت نظرة نحو المطبخ، قلقة فعلاً، قبل أن تتجه نحو غرفتهما.

كان يمكن أن يقال أنها كانت، هي أيضاً، تعيش على رؤوس أصابعها، وقد فهمت أنهما كانا يعيشان توازناً هشاً وأن أدنى حركة خرقاء تهدد بأن تسبب لهما كثيراً من الألم.

- أتريد أن أغلق الستارة.

كانت نافذة الغرفة تطل على شارع مينيم، وكانت تجاهها، تماماً، نافذة مسقوفة يجف عليها سروال داخلي وردي وحمالة صدر وتنورة داخلية.

- أغلقي الستارة، لكن دعي النافذة مفتوحة.

كان يفضل أن لا يكونا مغاليين في عزلتهما عن العالم، أن لا يحسا بأنهما محبوسان. وبحركة طبيعية، سهلة، مررت الفستان من فوق رأسها. كان غالباً ما يتفق لهما، في أيام الآحاد، أن يتمددا على السرير الذي لم ترفع أغطيته، وكانت تخلع فستانها كي لا يدعك.

رقدت إلى جانبه، على ظهرها، ويداها وراء رقبتها، وكانا يسمعان، من خلف الحاجز، أم التوأمين تغسل الصحون وهي تستمع إلى الراديو.

لدى الآنسة ستريب، في الطابق الثاني، كان تلميذ يعيد، دون نهاية، الجملة الموسيقية نفسها التي كانا يسمعان، منذ عدة سنوات، المبتدئات يعزفنها، وبعيداً جداً، في شارع بادو لا مول احتمالاً، كانت آلة تعمل بالهواء المضغوط تحفر الأسفلت.

خلال بقائهما، على هذا النحو، دون حراك وصامتين، كان يبدو على كل منهما أنه يريد أن يتشبَّع بفكر الآخر. على كل حال، لم يكن برنار يهتم إلا بزوجته، بما قالت له عن صباحها. كان يحس بالاضطراب لكونه اكتشف أنهما كانا تعسين معاً، دون أن يعلما، للأسباب نفسها تقريباً.

- أتعلمين يا نيلي؟

لم يكن أحدهما يرى الآخر. كان كل منهما ينظر إلى السقف فوقه، وكانت ذبابتان تتطاردان، فيه، بصمت.

- ما الذي أعلمه؟

- في الحقيقة، كنت غيوراً دائماً..

- أعلم. في ابينال، كنت تتجنب تقديمي إلى رفاقك.

- الواقع أنه لم يكن لي رفاق حقيقيون.. لا قبل ولا بعد.

كان ذلك أشبه بموسيقى بصوتين ما زالت في طور التلمس. أطلقا، الواحد منهما بعد الآخر، لحنه الصغير، وبدأت الجمل تتشابك.

- حين دعاني شاب للرقص ذات مساء...

- أتكلم عن قبل ذلك....

- قبل أن تعرفني؟

- نعم.

- كنت مغرماً بامرأة أخرى؟

- لم أُغرم بأحد، لكني كنت، من قبل، غيوراً...يصعب شرح ذلك .... منذ قليل، عندما نزلت لتهتفي، خطرت لي ذكرى طفولة ووعدت نفسي بأن أرويها لك. كنت في الخامسة أو السادسة من عمري.... ليس في السادسة تماماً على اعتبار أني كنت في روضة الأطفال.. كنت أمضي ساعات في الباحة أو تحت القناطر، وكانت أمي تراقبني من بعيد... اكتشفت بنتاً أصغر مني كانت متروكة لنفسها في الشارع كل النهار...أجهل ما إذا كان لها أب... أمها كانت ايطالية وكانت تعمل في الحي... كانت تبدو لنا، نحن الذين كنا فقراء، فقيرة جداً...

كانت البنت تدعى ريتا... وجدت مشقة في تذكر اسمها مع أنها احتلت، زمناً طويلاً بما فيه الكفاية، مكاناً هاماً في حياتي....

سألت نيلي بصوت اكتسى حناناً:

- أكنت مغرماً بها؟

- انتظري! دعيني أسعى للتعبير عن الحقيقة... لم أكن مغرماً بها، لكنها، كانت، في ذهني، امرأتي لأنها كانت أضعف وأطوع كائن عثرت عليه... كان لها ساقان نحيلان، بشرة أقرب إلى السمرة وكامدة لشدة اتساخها. أرى، من جديد، عينيها الكبيرتين، السوداوين، البراقتين اللتين كانتا تحافظان على سكون فاتن.

- ماذا كنتما تفعلان معاً؟

- كان باب، في آخر الباحة، قرب الحظائر، ينفتح على غرفة ضيقة دون نوافذ كانت أمي تضع، فيها دلاءها ومكانسها. إلى هناك كنت آخذ ريتا.

- أكنت تغلق الباب؟

- نعم.

- وتبقيان في الظلام؟

- نعم، مع ذلك، كنت أخاف من الظلمة.

- كيف كنتما تلعبان؟

- لم نكن نلعب. كانت امرأتي أو جاريتي، لم أعد أدري. ربما لم أكن أكثر دراية بذلك آنذاك. كنا وحيدين في تلك الغرفة. وكنت أحس بأني السيد.

- أكنت تقبلها؟

- لم تخطر لي هذه الفكرة أبداً. ولم أكن أضربها أيضاً. كنت أطلب منها أن تجلس مستندة إلى الجدار، وكنت أجلس إلى جانبها.

- ألم تكن تخاف؟

- لم أطرح على نفسي هذا السؤال. لا أظن ذلك. عندما كانت أمي تناديني. من أجل العصرونية، كنت أخرج وأعيد إغلاق الباب.

- تاركاً إياها وحدها؟

- نعم. بسبب هذا، جرت في ذات يوم، مأساة صغيرة. كانت أمها تبحث عنها في كل مكان. جاءت تصيح، في باحتنا:«ريتا! ريتا!»، وبكلمات إيطالية. كانت أمي تؤكد لها أنها لم ترها في ذلك النهار عندما سمع صوت صغير مخنوق كان يبدو آتياً من مكان بعيد جداً... انتهى الأمر بالعثور على ريتا. اتهمت الايطالية أمي بأنها حبستها لتتخلص منها أثناء تقديم طعام العصرونية لي.

- ألم تقل أن ذلك لم يكن صحيحاً؟

- أتساءل عن هذا. لا أتذكر نهاية القصة. كنت أريد، فقط، أن أشرح لك ما أحاول شرحه لنفسي... أفكر في ذلك غالباً.

- في الغيرة؟

- فيك.... فيّ... أحبك وأنا غيور... لا تقاطعيني... ما أقول هو الحقيقة، وهي ليست جميلة بقدر ما أرغب... حتى لو لم أكن أحبك، لكن مع كونك زوجتي، فإني كنت سأكون غيوراً وأتألم. هل تفهمين هذا؟

- ربما. هل تألمت كثيراً معي؟

- في بعض الأوقات... يحدث هذا ثم يمضي، وعند ذلك أكون سعيداً تماما..ساورتني رغبة في أن أقول: سعيداً بصورة جنونية لأن هناك أياماً كان يمكن، فيها، وأنا أراك نازلة من الأوتوبوس، أن أصرخ من السعادة... منذ عمر الرابعة عشرة، كنت أرغب في الزواج، في امرأة لي... في عالم صغير أكون فيه.... (تردد هنا) المركز، أكون، فيه، السيد.... وليس ذلك للتحكم.... لأشعر بنفسي أقوى... كنت أفكر في امرأة تحتاج إليّ، لا يكون لها أحد في العالم غيري، يجب على أن أحميها وأسعدها....

- أسعدتني.

هز رأسه وهو لا يزال متمدداً على ظهره في السرير، ووضعت نيلي، بوجل، يدها على وركه. هي أيضا لم تتحرك، وحلت برهات طويلة من الصمت كانت الحياة الخارجية تدخل، فيها، بصورة أكثر ضجة، من خلال النافذة التي انتفخت ستارتها.

- كل ما أتيت على قوله لا يزال غير مضبوط... الأمر أعقد من ذلك، وربما كان أعقد مما ينبغي بالنسبة لي.... كنت أكن إعجاباً كبيراً لأبي، ولن تستطيعي أن تخمني السبب.

- بسبب الخيول...أراهن على ذلك..

- عندما كنت صغيراً جداً، نعم، لكن ذلك لم يدم طويلاً..... ما أثر فيَّ، فيما بعد، هو أن أبي كان يندفع وحده، على شاحنته، في عالم باريس المخيف.... كانت لحياتي حدود ضيقة وكان شارع سانت أنطوان يشكل كوناً غريباً مليئاً بالأخطار... كان أبي يذهب إلى كل مكان ناقلاً طروداً ثقيلة إلى محطة تصفر فيها القطارات، ينطلق بين سيارات الأجرة والأوتوبوسات والتراموايات... كان ذلك معجزاً، في نظري، إعجاز هجمات الهنود في كتب الصور.

- أكنت ترغب عندما تكبر....

- لا ... لا أظن... فضلاً عن ذلك، فقد مات حوالي هذه الفترة... إعجابي الحقيقي...

توقف ليسخر من نفسه.

- هذه هي المرة الأولى التي أفكر، فيها، بصوت مرتفع أمام أحد، وأنت تدركين الآن، مدى تعقيد الأمر... صحيح أن لدي أياماً كاملة لأحيط بفكرة... هل أحيط بها حقاً؟

السبب الحقيقي لإعجابي بأبي هو أنه لم يكن في حاجة إلى أحد، أنه كان يجلس وحيداً تحت القبة... لم يكن يقرأ الجريدة أو يستمع إلى الراديو... كان يبقى هناك، تاركاً غليونه ينطفئ في فمه، ينظر أمامه راضياً كل الرضى.

- لم تكن لتستطيع أن تعيش وحيداً، أليس كذلك؟

- لا. عرفت، دائماً، أني احتاج إلى امرأة.

ماحكته قائلة:

- هل تزوجتني لهذا السبب؟

- لقد أحببتك، لكني كنت سأتزوج حتى لو لم ألتق بك.

- وكنت ستغار؟

- أنا متأكد من ذلك تقريباً... إلا أن مقدار الألم كان سيبقى أقل.

- هل تفكر في ذلك كل يوم؟

- كلا. لكني أحس بعدم الارتياح، بالقلق عندما لا تكونين هنا.

- أنا أيضاً. هل تتذكرعندما ارتفع معاشك، واقترحت، بخجل أن أنقطع عن العمل؟ لم أجرؤ على الإلحاح خوفاً من أن تظن أني كسولة.

اعترف قائلاً:

- ترددت. بل تحدثت عن ذلك إلى الدكتور أوبون...

- لماذا الطبيب؟

- لأنها كانت مسؤولية كبيرة. لم أكن أريد أن لا أفكر إلا بنفسي.

- ماذا قال لك؟

- أن من الأفضل لكلينا أن يحتفظ كل منا بفعاليته..

- هل تود أن أترك دولانغل وآبويه؟ هل تريد؟

- كلا...

- لماذا؟

- لأنك تحتاجين إلى إنفاق طاقتك وأن الفرصة لن تتوفر لكِ هنا...

- في هذه الحالة....

- انتظري! أنا، من جهتي، احتاج إلى أن أقول لنفسي...

لم يكمل جملته حالاً رغبة منه في أن يكون اعترافاً صادقاً صدقاً مطلقاً كان يحس، بإحباط، أنه لن يصل إليه.

- ما الذي تحتاج إلى أن تقوله لنفسك؟

- أعيش، إلى حد ما، من خلال طرف ثالث... أنت تذهبين... تأتين.... ترين أناساً، شوارع، حركة... عندما تعودين، تكونين مشبعة بكل ذلك... أقول لنفسي أن ذلك كان، جزيئاً، بفضلي لأني لا أحكم عليك بأن تلعبي، من الصباح إلى المساء دور الممرضة...في الحقيقة أنا أناني جداً.

- أنت أناني؟

- نعم... لا جدوى من الاحتجاج...لشدة تفكيري في نفسي، فينا، انتهيت إلى معرفة نفسي... إذا كنت قد تداولت إلى هذا الحد مع أوبون، وخاصة مع البروفسور بيليه الذي هو أشد شيطانية، فذلك لأني لم أكن أريد، بأي ثمن، أن يكتشفا الحقيقة... كانا يصران على جعلي أقول أن لدي منغصات...

ساد صمت مقلق قليلاً لأنه أتى، بصورة غير مباشرة، على استحضار مسكن في الطابق الأول لم يفتح بابه قط، زر من الخزف الأبيض لم يلمسه.. كان يتجنب أي تلميح إلى مازيرون، لكن هذا حضر، مع ذلك، فجأة.

- لا أدري لماذا عانيت منذ أول يوم، منذ علمت أنه سيسكن في البيت. كنت لا أزال أجهل أنه سيكون عليك أن تريه... فكرة وجود معاقٍ آخر...

صمت، أيضاً، كانت نيلي تحبس، أثناءه نفسها.

- لم يكن ذلك الذي سبب دواراتي، صدقيني... لقد انتابتني نوبات من قبل، لكنها بدأت تزيد، تقوى في كل مرة كنت تتوقفين، فيها لديه أو عندما كنت أفكر فيكما أنتما الاثنين..

- نحن الاثنان؟

- سامحيني.... كانت هذه هي الصورة في ذهني......

- كنت تتخيل حقاً......

- أحياناً نعم، أحياناً لا....لا يهم...فمجرد كونك تهتمين، مهما قل هذا الاهتمام، بشخص آخر...ومن باب أولى بشخص يحتاج، مثلي، إلى مساعدة، بأحد يحس بنفسه وحيداً، تعساً...

- ليس تعساً.

- آه.

- أنا مقتنعة، على العكس من ذلك، بأنه يعيش قصة حب مع الممرضة التي تأتيه، كل يوم، بزهور وحلويات... اعتقد أنه يستخدمها كموديل يرسمه.

- عارية؟

- على كل حال، هناك لوحات عارية على الجدران، تشبهها... لم ألتق بها سوى مرتين على الدرج، لكن...

- هل طلب منك أن يرسمك؟

- أبداً!

- أنت ترين كيف أنا! ... كلمة، صورة وانطلق من جديد... إذا كان عليك أن تخرجي لحظة، فسوف أخلق من ذلك عالماً كاملاً.. أعلم أن هذا مضحك، بغيض... أحبك... أزعم أني لا أريد سوى سعادتك... ثم عندما، أفكر في أنه يمكنك أن تهتمي بشخص آخر، أن ترغبي...

- اسكت!

- حصل هذا لي، حقاً، ولم يمنع ذلك من كوني أحبك...

- كثيراً؟

- ثلاث مرات... مرتان حقيقيتان وثالثة لا أهمية لها إن صح هذا القول....

- أكان ذلك، منذ زمن طويل؟

- الأولى كانت قبل الحرب، عندما كنت لا أزال أعمل في المرآب... الله يعلم ما إذا كنا عشيقين وما إذا كنا مارسنا الجنس ... حسناً! على الرغم من هذا، شعرت بالحاجة إلى مضاجعة امرأة أخرى...

- من كانت؟

- لا أعرف اسمها، ولن يمكنني بالتأكيد، أن أتعرف إليها..كنت أعمل على مضخة وقود على الرصيف... كان الطقس حاراً جداً... تناولنا طعام الغداء في مطعم صغير رخيص، وكنت، مثل اليوم، قد شربت عدة كؤوس من الخمر..لم يكن ذلك ممنوعاً عليّ بعد... هل تتذكرين؟ ... كان يتفق لنا أن نتعمد، نحن الاثنان، أن نشرب أكثر مما ينبغي بقليل، وكنت أضحك لدى رؤيتي عينيك تشتعلان.

- ومع الأخرى؟

- كانت تروح وتجئ أمام باب الفندق الذي يبعد خطوتين عن المرآب... كان لها ثديان ضخمان... ثدياك كانا صغيرين جداً... اشتهيت، فجأة، أن أمسك بثديين ضخمين بيدي... تركت المرآب برهة بذريعة الذهاب لشرب كأس، وتبعتها إلى الفندق....

- أكان ذلك جيداً؟

- لم أعد أتذكر... ما أتذكره هو أني عشت عدة أسابيع خائفاً من مرض كان يمكن أن أنقله إليك... وأنا الغيور إلى حد المرض!

- والأخريان؟

- هل أؤلمك؟

- كلا. أفضل أن أعرف كل شيء، كل شيء حقاً.

- كان الأمر، مع الثانية، خلال الحرب، في القرية الألزاسية التي عسكرنا فيها... لم يكن قد تم إجلاء السكان تماماً. كان النقيب يَشغل غرفة لدى السكان، وكان يتفق لي أن أحمل إليه رسائل..... كانت المرأة التي يسكن لديها لا تزال صبية، شقراء جداً، مع عينين زرقاوين، وكان لها طفلان أكثر شقرة منها... كان زوجها مجنداً في مكان ما في الأردين...

في ذات صباح، كان علي تسليم رسالة للنقيب. لم يرد عليّ أحد، فدخلت، قرعت كل الأبواب، وانتهيت إلى فتح باب رأيت، وراءه، المرأة ترتب السرير...

- وأخذتها هكذا؟

- تقريباً... لم تكن تتكلم الفرنسية... ولم أكن أتكلم أو أفهم الألمانية... كان في يدي مغلف كبير مصفر ولا أدري لماذا أخذنا، نحن الاثنان، نضحك فجأة...

بعد لحظات، كنا على السرير، وفي أثناء الوقت الذي استغرقه ذلك، كنت أنظر إلى صورة الألزاسية في ثوب الزفاف، أمامي تماماً، مع زوجها الذي كان يرتدي بزة أضيق مما ينبغي...

من المحتمل أن يكون قد عاد من الحرب وأن يكون قد أنجب أولاداً آخرين... هل تفهمين؟

- والثالثة؟

- كان الأمر يدور، بالأحرى، حول بادرة إحسان... ليس من جانبي... كنت لا أزال في القصر الذي تحول إلى مستشفى عسكري! جلبت إليه وأسعفني الحظ بأنني تعرفت على أوبون هناك... كنت في وضع سيء.. لم يكن يحق لي أن أنهض لأن الحمى كانت لا تزال تنتابني...

كانت ممرضات متطوعات يعنين بنا وكنت أسبب لهن الكثير من المشقة بسبب لياليّ المضطربة وهذياناتي التي كنت، خلالها، أحاول نزع ضماداتي...

زادت التصاقاً به.

- تابع.....

- هذا شيء غبي...لدى انطباع بأن هذه أمور لا تروى لامرأة، حتى للزوجة.

- بما أنك بدأت.

- كنت أحقن بحقن مسكنة في الفخذ، في الفخذ الأيمن، تارة، وفي الأيسر تارة أخرى.... في ذات مساء كنت، فيه مهتاجاً، وكان رفاقي نائمين في الأسرة الأخرى...

- كم كنتم في الغرفة الواحدة؟

- ستة أو سبعة... كان هذا يتوقف على حجم الغرف وترتيب النوافذ... أعطتني الممرضة المناوبة حقنة... في هذه البرهة، في حين كنت مكشوف الجسم، حدث لدي انتصاب... لم يكن ذلك بسببها، ولا بسبب أفكاري... كان شيئاً، نوعاً ما، آلياً، وبدأت أحمر.

جلست، كالعادة، على رأس السرير لتنتظر مفعول الحقنة، وبقيت عصبياً: عند ذلك، دست يدها تحت الغطاء وداعبتني وهي تنظر إلي بحنان واستطراف معاً... لا أظن أني بلغت، قط، مثل هذا الارتباك، ولا عرفت، كذلك، متعة في هذه الحدة... افهميني جيداً،،إني أتحدث عن الدافع الجسدي... كنت أتألم من ذراعيّ الاثنتين... المخدر بدأ يؤثر، وتواكب هذا مع...

- كم كان عمرها؟

- ثلاث وعشرون أو أربع وعشرون سنة.

- هل رأيتها ثانية؟

- هناك نعم، خلال الأسبوعين اللذين قضيتهما في ذلك المستشفى.

- هل عاودت؟

- كلا.

- ألم تطلب إليها ذلك؟

- كلا أيضاً.

- ألم تكن ترتبك أمامك؟

- لم نرتبك، لا هي ولا أنا... كانت الحرب... ربما كانت تتوقع أن تراني أموت كما كان يموت كثيرون حولها.......

لا شك في أنها قد تزوجت وأنجبت أبناء.

- أتساءل عما إذا كانت تتذكر..

سألها بصوت مختلف:

- هل تتذكرين أنت؟

- ماذا؟

- تعلمين ذلك.... قبلي....

- لم أكن أعلق على ذلك سوى أهمية ضئيلة... أنت تنسى البيت الذي عشت فيه، وأني رأيت، وأنا صغيرة جداً، أمي...

- صه!

- أنت الذي تسألني.

طرح، أخيراً، سؤالاً لم يكن قد تجرأ على طرحه أبداً

- أكانوا جنوداً؟

- كان بينهم جنود.

- من رفاقي؟

- لا أظن... لم أكن أعرفهم جيداً...

- أكان هناك فتيان من المدينة أيضاً؟

- نعم.

- أين كان ذاك يجري؟

لم تكن، وهي التي، أتت على استجوابه تجيب إلا مرغمة بصوت حزين.

- هل نسيت؟

- في الغابات؟... على ضفاف النهر؟

- وأحياناً على مقعد في الحديقة... ذهبت، مرة واحدة، إلى غرفة حقيقية، وتعريت... خجلت... لماذا أردتَ أن تعلم؟

- كي لا أعود أفكر في ذلك.

- ماذا تعني؟

- عندما أعرف بالضبط، ما جرى، ما يجري، لن أعود أطرح أسئلة. إلا أنه يجب أن أكون متأكداً.

- هل تغار من الماضي أيضاً؟

- أنا غيور من كل شيء، حتى من أبيك!

سرت، فيها، رعشة.

- لم يحاول أبي، قط، أن....

- ليس هذا ضرورياً... كان يعيش معك، كانت له حقوق عليك... وبعد أن جندت؟

هزت رأسها. راح يُسمَع على البيانو عزفٌ لتمرينٍ أكثر صعوبة بإيقاع أسرع، وهو ما كان يدل أن لدى الآنسة ستريب تلميذاً آخر.

سكت الراديو إلى جانبهما وحلت محله تمتمة بأصوات نسائية. كان اليوم الذي تستقبل السيدة روجان، فيه، شقيقة زوجها، وكانتا تستغرقان كل بعد الظهر في هذه الثرثرة.

- أبداً؟

- أبداً، أقسم لك على ذلك يا برنار.

- ألم ترغبي في هذا مرة واحدة؟

- كنت بعيدة جداً عن التفكير في ذلك! في الليل، كنت أحلم بأنك مت أو جرحت، إنك تناديني، وكنت أستيقظ مذعورة.

- ألم يغازلك أي شخص؟

- ليس مغازلة. بعضهم حاولوا كما يحاولون دائماً.....

وأضافت بضحكة صغيرة:

- مثلك أنت والألزاسية؟

- الألزاسية لم تصدني في حين كان ذلك يجري تحت صورة زوجها... كنا نسمع أصوات ولديها وهما يلعبان في الشارع...

- أنا فعلت.

- لماذا؟

- لا أدري... إذا كنت لا تفهم فأنا غير قادرة على أن أشرح لك... لو كنت امرأة...

- والآن، في ميدان الانتصارات؟

- ماذا؟

- الجوالون؟

- بين حين وآخر، يدعوني أحد المستجِدّين منهم إلى الغداء أو إلى الخروج معه...

- بماذا تجيبين؟

- أجيب سلباً.

- ألا تقولين لهم أنك متزوجة؟

- لا ضرورة لذلك. إنهم يفهمون حالاً..

- وجان بول؟

كانت تلك المرة الأولى التي كان يسمي معاون المدير هكذا.

- هو؟ إنه أكثر انشغالاً بخطط التحديث من أن يهتم بواحدة من موظفاته. كل ما في ذهنه هو أن يثبت لدولانغل العجوز، وخاصة لأبيه، أنه أقدر منهما على تسيير التجارة.

- و.....؟

- وماذا؟ اللحام؟ البقال، السيد بور المسكين هذا؟ من أيضاً؟

استعادت سهولة الاتصال. الحياة، مسائلهما، كل شيء بدا، من جديد، خفيفاً.

لاحظ برنار بتذمر مصطنع:

- رويت لك أكثر مما رويت لي.

- هذا يثبت أن لديكَ أكثر مما يجب الاعتراف به.

انحرف تفكير فوا، لأنهما غاصا في الماضي، إلى وجهة أخرى. سألت:

- لماذا تضحك؟

- أضحك منا... مني بالأحرى... مما حصل لنا في أول شهر بعد زواجنا.

كانا يمشيان كثيراً..... يمسحان باريس في كل الاتجاهات مع تفضيل لبعض الأحياء. لم يكن نادراً أن يذهبا على أقدامهما إلى كنيسة القلب الأقدس وينحدرا نحو بيغال حيث كانا يحتكان، دون مال في جيوبهما، بأضواء الحياة الليلية.

وفي مرات أخرى، كانا يختاران الجادات الكبرى التي لم تكن قد تنازلت، بعد، عن مكانتها للشانزيليزيه، خاصة بين الأوبرا والمادلين. كانا يعرفان كل واجهاتها التي كانا يتوقفان عندها والدهشة في عيونهما.

- عندما نصير أغنياء..

لم يكن لكلمة «أغنياء» لديهما، كما لدى الناس البسطاء، المعنى نفسه الذي يوجد في القاموس. كانت تعني عندما سيبقى معهما بعض المال بعد دفع أجرة الشقة والغذاء والملابس الضرورية وفاتورة الغاز والكهرباء.

- عندما سنصير أغنياء......

كانا يحبان، أيضاً، أرصفة السين التي كان يتفق لهما أن يسايراها حتى شارنتون، وأزقة الحي اللاتيني.

تمتم لوضعها على الخط:

- المطعم الصغير...

كان حانة حقيقية بواجهة محمرة فيه مشرب مغطى بالتوتياء وباب في آخره مفتوح على المطبخ الذي كان يرى، فيه، رجل ضخم أمام فرنه.

- تعالي! أراهن على أن لديهم نقانق.

كانا، كلاهما يحبان النقانق، جلسا على طاولة قرب الباب. كانت الساعة قد بلغت الثامنة مساء وأدهشهما أن لا يريا زبائن. افترض برنار أنهم تناولوا عشاءهم من قبل دون أن يخطر له أنهم لم يأتوا بعد ولن يصلوا قبل الثامنة والنصف أو التاسعة.

لم يفهم إلا عندما قدم له النادل قائمة وجبات هائلة مطبوعة على ورق سميك كورق الرسم. فقد كان أدنى طبق من المقبلات يكلف ثمن وجبة كاملة في المطاعم التي اعتادا عليها، وكان أجره الأسبوعي يكاد أن لا يكفي لعشائين.

نيلي التي لم تر القائمة كانت تتساءل لماذا يبقى جاداً، لا يقول شيئاً، في حين كان النادل ينظر إليه نظرة ساخرة.

تردد برنار في الرحيل غير عارف كيف سيتصرف.

- أعتقد... سنعود بعد حين...

أصبحت تلك مع الزمن، ذكرى طيبة.

....في مرة أخرى....

- هل تتذكرين الستيلي؟

كان في الشانزيليزيه، فوق وإلى اليمين، وجار. وكان يرى، في واجهاته، كلاب من كل الأجناس وقطط وببغاوات. كان على أحد الرفوف كلبة أم، من نوع الستيلي، مع جرائها الثلاثة، ولم تكن نيلي تستطيع رفع أنظارها عنها.

- قل يا برنار... ماذا لو اشترينا كلباً؟

كان أحد الجراء، ذاك الذي كان طرف أنفه أكثر توردا من الآخرين، قد غزا قلبها.

- إنه سيكون رفيقاً لي عندما أكون وحيدة في البيت طوال النهار..

كانت هي، في ذلك العهد، التي تبقى تنتظره في البيت!

- من حسن الحظ أننا لم نشتره ماذا كنت سأفعل به بعد رحيلك وكيف كنا سنستطيع إطعامه أثناء الحرب؟

صمت جديد... كانا قد تقاربا أيضاً وتلامسا من الرأس إلى القدمين.

قالت:

- خطرت لي فكرة.

- ماهي؟

- لماذا لا نشتري الآن كلاباً؟ سيكون كلبك....

- كلا! أفضل أن أبقى وحدي حتى لو كان علي، أحياناً.....

- صه......

صمت. كانت حارة من جهتها، وبدأ نفسها يتسارع

- برنار....

- نعم......

- هل تريد؟

في الساعة الخامسة، لم تكن الطاولة قد تحررت من البقايا، وكان ليتر الخمر لا يزال ينتصب فوق الغطاء، في ضوء أكثر اخضراراً لأن الشمس انتقلت إلى نافذة أخرى ولم تعد تبلغه.

سألته هامسة في أذنه:

- كيف تحس نفسك؟

- متألم قليلاً.

- أنا أحس بما يحس به المرء عندما يبل من نزلة البرد....

استندا إلى قضيب المتكأ لكي ينظرا إلى الخارج، ثم ذهبت نيلي لترتيب البيت. مرت حافلة مليئة بالسياح من النوع الذي سيرى خلال الشهرين القادمين. بعد بضعة أيام، في ١٤ تموز، سيرقص الناس في ميدان الفوج، ستسمع المفرقعات وترى نجوم الألعاب النارية تسقط فوق أسطح المباني. لم يكن توأما الجيران مشتبكين مع أمهما فقط، بل، أيضاً، مع عمتهما التي كان لها صوت أكثر حدة. رأى، في الساعة السادسة وعشرين دقيقة، الأوتوبوس الذي اعتادت نيلي على الوصول فيه، وكان إحساساً طريفاً أن يحس بها تذهب وتجيء وراءه.

بعد قليل، وربما قبل العشاء، وبعده على الأغلب، عندما سيجلس كل منهما على مقعده يشاهدان حلول الليل، يجب أن يحدثها أيضاً.

كان قد أتى على اتخاذ قرار.

مر ١٤ تموز وطافا معاً حول الفوانيس على بعد كافٍ من أجل أن يظلا في الظل ويتجنبا كتلة الجمهور. عزفت موسيقى عسكرية من كشك ميدان الفوج، وكانت فرقتان للجاز الصاخب تعزفان على المنصات تجاه المقهيين اللذين وسعا شرفتيهما وكانت العين تلتقط، بين المارة، حالاً الوجوه المألوفة التي كانت ترى كل يوم في الطرقات ولدى تجار الحي.

كانت زجاجات الجعة والخمر تزحم الطاولات الصغيرة. كان بعض الأزواج يرقصون كما لو أن الموسيقى قد ألفت من أجلهم وحدهم، وكان يمكن، بمراقبتهم، ممارسة لعبة تخمين مصائرهم.

عند منتصف الليل، كان الأطفال لايزالون يركضون بين السيقان. كانت بنت صغيرة، في زاوية شارع بيراغ، تشبه ريتا قبل سبع وثلاثين أو ثمان وثلاثين سنة، تبكي بدموع حارة لأنها أضاعت أمها.

اندلعت العاصفة حوالي الساعة الواحدة مثيرة عملية هروب غير منظم. كان المطر من الغزارة بحيث راح الرجال يحمون رؤوسهم أو رؤوس رفيقاتهم بستراتهم، وبعد بضع لحظات، كانت فساتين النساء الخفيفة تلتصق بأجسادهن إلى حد بدا، معه، بعضهن عارياً.

منذ ذلك الحين، بقي الطقس عكراً، والسماء، في معظم الأوقات ملبَّدة بلون رمادي قاتم، والهواء رطباً لأن هطولاً جديداً كان يحدث بعد ظهر كل يوم مصحوباً بقصف رعد من بعيد.

لم يعد فوا يعلم ما إذا كان أخطأ أم أصاب. بتصرفه كما خيل إليه أنه يجب أن يتصرف. إلا أنه راح يتساءل عما إذا لم يكن، بتلفظه ببعض الكلمات، ببعض الجمل، قد حدد أكثر مما ينبغي ما كان قد بقي مبهماً حتى ذلك الحين فأحيا، على هذا النحو، كوابيسه دون أن يحسب أنه لم يعد يحمل،

وحده، وطأتها. هذه الأفكار المسرودة بلهجة خفيفة بقيت معهما، أقامت في خصوصية الشقة بدلاً من أن تتبخر بعد ذلك...

كانا يتبادلان الكلام كالعادة، يتلفظان بالكلمات نفسها، يقومان بالحركات ذاتها...استمر برنار في التلويح بذراعه من النافذة عندما كانت نيلي تشير إليه بيدها قبل أن تصعد إلى الأوتوبوس. لدى عودتها، كانت تجد الغداء أو العشاء معداً والمائدة جاهزة، وكان الباب يفتح، دائماً، قبل أن تصل إلى المنبسط.

وإذا كانا قد انقطعا عن القيام بالجولة الكبرى، فإنهما كانا لا يزالان يتنزهان مساء، حول الميدان متوقفين عند دكان بائع العاديات التي كانا يعرفان كل الأشياء المعروضة فيها بحيث كانا يريان، من نظرة واحدة، إذا كان ينقص شيء ما.

كانا يتبادلان الابتسام بحنان ربما فاق أية برهة في حياتهما المشتركة، مقترن، مع ذلك، بشيء من الارتباك، من الخجل كما لو كان لدى كل منهما شيء يريد أن يغفر له.

لم تكن هناك أية مرارة بينهما، بل كان ما يجري هو العكس تماماً. كان فوا مقتنعاً بأن نيلي لم تكن، قط، أعز على قلبه منها الآن، وكانت، من جهتها، تعيش كما لو كانت معلقة به إلى درجة انبهار أنفاسها أحياناً.

لم يكن ليستطيع أن يقول ما إذا كان بعد الظهر الذي لم تذهب، فيه، إلى ميدان الانتصارات أم محادثة المساء أمام النافذة المفتوحة هو ما أدى إلى تغير غير ملحوظ. بقي بعد الظهر، على الرغم من الأشياء الخطيرة التي قيلت، فيه، بقي في ذاكرته مطبوعاً بنوع من الخفة، بشيء من السيولة، من الابتهاج.

كانا يتركان، ممددين على السرير، أوقات صمت طويلة بين الجمل، وإذا كان يبدو عليهما أنهما يلعبان بأفكار خطرة، فقد بقي ذلك لعبة. والدليل هو أنهما انتهيا بذكريات مسلية قبل أن يمارسا الحب دون حمى، مبتسمين ككائنين مرتويين. بعد ذلك، حافظا، طويلاً، على سكونهما، يصغيان إلى تنفسهما ودقات قلبيهما التي كانت تتشابك مع أصوات أبعد.

أكانت تلك البرهة التي أخطأ فيها وأساء التقدير؟ أم أن ذلك نجم عن كل شيء، عن الصباح، مشهد الإفطار، عن الخمر الذي شربه ظهراً، وعن الاعترافات التي أصر على الإدلاء بها؟

لم يعد يعلم، وتزايدت دواراته. كان قلق ينتابه، حتى في هدوء الشقة، بصورة مباغتة، وكان يبدو له أن الجدران وقطع الأثاث والأشياء المألوفة تفقد صلابتها المطمئنة. عند ذلك، كان يتجنب الاقتراب من النوافذ المفتوحة خشية أن يقع في الفراغ.

كان ينبغي أن يكون قادراً على الانقطاع عن التفكير، عن إدارة زر يغلق الدارة. كان ذلك، لسوء الحظ، مستحيلاً. أوبون الذي يجب أن يكون قد عاد من البرتغال لن يأتي لرؤيته قبل أسبوعين أو ثلاثة، وفضلاً عن ذلك، ما الذي يستطيع أن يفعل له؟ سوف يلح، مرة أخرى، على أن يجعله يأخذ إجازة دون أن يعلم أنه يكون أكثر ضياعاً بعيداً عن عالمه المألوف. ربما كان سيصف له مسكنات جديدة في حين كان، بالضبط، على هدوء مخيف تقريباً.

الحقيقة هي أن حالته لم تعد تنتمي إلى ميدان الطب. لم يكن مريضاً.

ربما كان، أيضاً، قد اقترف زلة، مساء، بإفراغه زجاجة الخمر. لم يغير ذلك شيئاً على اعتبار أنه اتخذ قراره قبل أن يذهب للاتكاء على النافذة وفي حين كانت نيلي تعيد ترتيب الغرفة.

فكر في ذلك وهو مستلقٍ على السرير، إلى جانبها، عندما كان في أكثر حالات الاسترخاء والسعادة. كل ما قاله قبل ممارسة الحب كان حقيقياً. كان صادقاً إلى أقصى ما يمكن. كانت غيرته تعود إلى ما قبل نيلي. كانت نوعاً من عاهة تشكل جزءاً من وجوده، وبما أنه كان يعرف ذلك، وبما أنه سلم به بصوت مرتفع، فلم يعد يحق له أن يجعل الآخرين يعانون من جراء ذلك.

اعترف، كذلك، بأن غيرته من مازيرون كانت أشد إيلاماً لكون الأمر يدور حول معاق مثله. وكان يمكن أن يضيف، ليمضي إلى النهاية، أن مازيرون كان صغير السن، إنه لا يبلغ من العمر إلا ثماناً وعشرين سنة، إنه كانت له يدان وأنه، كما سلمت بذلك نيلي نفسها، كان مرحاً وغير مبالٍ.

- يجب أن تدعيني أتكلم بهدوء، دون احتجاج، دون أن تقاطعيني....

كان الغسق يشوه الوجوه ويمنع من أن يقرأ عليها أي شيء. كانت هناك أضواء في الجهة المقابلة وأطياف تروح وتجيء في الداخل، صاحب النزلة الصدرية الذي كان يقرأ جريدته ويقلب صفحاتها أحياناً.

- ستقولين غداً لجيزيل أني لم أكن مطلعاً على خطوتك في هذا الصباح.....

- برنار.... أتوسل إليك.

- صه!....أصر على المضي حتى النهاية...ليست هذه كلمات في الهواء...لقد فكرت كثيراً.

- أنت تريد أن.......

- أن يستمر كل شيء كما من قبل.... ستقولين لجيزيل أنك حدثتني، أني غير موافق، أني لا أهتم بما يمكن أن يفكر، فيه، الجيران.... لا أستطيع أن يعاني من غيرتي فتى لا ذنب له فيها.

- ما الفائدة؟

- لنقل أني أشعر بأني أقوم بواجبي حيال الآخرين وحيال نفسي... خلاف ذلك، سأخجل من أن أقول لنفسي أنك تجتازين منبسط الطابق الأول أربع مرات في اليوم مشيحة بوجهك... أخجل، أيضاً مما سيفكر هو فيه وهو يسمعك... هل تفهمين؟

- أعتقد أني بدأت.

- ليس هذا من أجله، من أجلك، بقدر ما هو من أجلي.

- ألن تتعذب؟

- كلا.

- ألن تتخيل، بعد، أشياء غير موجودة؟

- سأحاول.

- وإذا لم تنجح؟

- لا يكون شيء قد تغير. قلت لك ذلك. إني أتخيل على كل حال... خطرت لي أفكار بصدد رب عملك أيضاً... أستطيع أن أقول لك الشيء نفسه بصدد محصل الأوتوبوس، بصدد أي رجل تلتقينه..

- يا عزيزي المسكين برنار...

كان يشعر بنفسه قوياً. كان يريد أن يكون قوياً. كانت هي التي تبدي اعتراضات.

- ستظن جيزيل أننا تشاجرنا وأني، أنا، التي أصريت على......

- ليست جيزيل الهامة، بل نحن.

- لاسيما أني لم أذهب إلى المخزن بعد ظهر اليوم.

- لم يكن هناك مبرر لتحدثي إليك كما فعلت لو أردتُ التصرف خلاف ذلك..

- هل أراحك هذا؟

- أظن ذلك... أنا أحبك يا صغيرتي نيلي، كما ترين، هناك ألوف وألوف من البيوت حولنا، مئات ألوف المساكن التي تشبه مسكننا، أزواج يبتردون، في هذه اللحظة بالذات أمام نوافذهم. كلهم يحاولون أن يكونوا سعداء... كلهم، وأنا مقتنع بذلك، يحاولون ما بوسعهم، كلهم يبذلون جهدهم كي لا يؤلموا.هل آلمتك كثيراً؟

- أفضل أن أعلم... الآن، وقد قلت لي كل شيء، يبدو لي...

- ماذا يبدو لك؟

- لست متأكدة بعد... يبدو لي أني سأكون أقل قلقاً، خاصة إذا قلّت نوباتك... هذا يعني، بموجب ما قلت، أن عذابك يقل..

- تعلمين، لا ينبغي أخذ كل شيء بصورة مأساوية... عندما أميل أكثر مما ينبغي إلى رؤية الأمور سوداء، أفكر في الجنازات... كل الأسرة تكون

مفجوعة ويتبارى الجميع في البكاء.. ثم يفتح أحدهم، الأرملة أو أخت الزوج غالباً، البوفيه ليأخذ منها زجاجة كحول والكؤوس الصغيرة... لا أحد يشتهي الشرب... تغمس أطراف الشفاه أدباً... تملأ الكؤوس الفارغة آلياً، وسرعان ما يوجد من يروي قصصاً جيدة...

- أهذا ما ستفعله إذا مت؟

- لن أكون قادراً على الحياة دونك

- ماذا تعني قصتك إذن؟

- أني لا أمضي أيامي في الضجر... استمع إلى الراديو، أطبخ، أروح وأجيء، أصفر، ويتفق لي أن أضحك، وأنا وحدي تماماً، بسبب ذكريات.... حدثتك، خاصة، عن أوقات سيئة دون أن أحدثك عن الجيدة... إذا أجرينا الحساب فيحتمل أن تكون هذه الأخيرة هي التي تتفوق.

- بحيث لا تكون تعساً؟

- كلا! الأمر يشبه الأصوات... ففي كل مرة اسمع، فيها، باباً يصفق تكون استجابتي الأولى هي الغضب لأن الضجة تؤلمني. التوأمان، مثلاً، يجعلان البيت يرتعش كلما دخلا أو خرجا.. هناك، خاصة صباحاً، شاحنات المازوت التي تسمع، قادمة منذ شارع التامبل... أزمجر، أتذمر... مع ذلك، لا تخطر لي فكرة إغلاق النافذة، وقد يخيفني أن يسود الصمت فجأة.... بل إني سأفتقد، دون شك، خروج التلاميذ من المدارس خلال العطلة الصيفية.

- أنت رجل غريب. أتساءل..

- تابعي....

- أخشى أن أؤلمك مرة أخرى. أتساءل عما إذا كنت ستبقى الشخص نفسه دون إصابتك.

- كنا سنزيد من اختلاطنا بالآخرين، هذا محتمل. كان يمكن أن نشارك في حياتهم...هل تتذكرين جولات استكشافنا لباريس؟ ... كنا جزءاً من

الجمهور.... بدلاً من هذا، أبقى في زاويتي، أنظر، استمع.... في الحقيقة، الأمر يبقى هو نفسه باستثناء أني أصبحت أشد حاجة إليك.

فيما بعد، تمتمت، وهما يخلعان ثيابهما، وقد ظهرت ثنية على جبينها:

- هل تظن، بصدق، أني يجب.....

- غداً صباحاً، ستتحدثين إلى جيزيل دون أن تقدمي لها شروحاً طويلة، كما لو كان الأمر بسيطاً وطبيعياً تماماً.

في الغد، عندما عادت من أجل الغداء، سألها قائلاً:

- حسناً؟

- أنجز الأمر.

- ماذا قالت؟

- أن ذلك لايدهشها منك وأنك إنسان رائع.

- ألم تكن لديها رسالة له؟

- ليس هذا الصباح.

لماذا خيل إليه أنه اكتشف، لدى زوجته، شيئاً مصطنعاً؟ كانت تريه عينين صافيتين كما لو كان ذلك من أجل أن يستطيع أن يتأكد من كونها لا تخفي شيئاً.

- كان علي أن أحدد تاريخ عطلتي. رئيس المستخدمين هو الذي يعني بذلك.

ألم يكن هذا يعني: «لم يكن علي، إذن، أن أدخل إلى مكتب جان بول»؟

وتابعت قائلة:

- اخترت الخامس عشر من آب كما قررنا. لم يكن من الضروري أن نأخذ الأيام الخمسة عشر الأولى من آب على اعتبار أننا لا نسافر ولا يهمنا إن كانت السماء تمطر وأن يكون البرد قد بدأ.

- هل كنت تفضلين أن نذهب إلى مكان ما؟

- كلا! أنا سعيدة في باريس، خاصة عندما تكون الطرقات شبه خالية. إذا كنت تشعر بالراحة، قمنا بنزهات طويلة...

كانت ابتسامتها مشرقة إلى حد لم يتساءل، معه، عما إذا لم تكن تقسر نفسها. كان ذلك خطأه، كان يعي ذلك. كانت تعلم أن أدنى زلة، كلمة في الهواء، صورة محددة كانت تكفي، بعد الآن، ليغوص من جديد، في أفكاره السيئة ويتألم جسدياً. ولشدة ما أرادت أن تبدو طبيعية لم تعد كذلك.

- هل أنت متأكدة من أن ممرضته هي التي رسمها؟

- أظن ذلك، لكني لست متأكدة. إنها لوحات بقلم الفحم مثبتة على الجدران بدبابيس... الوجوه لا ترى في بعض اللوحات، وفي لوحات أخر لا تكون سوى وجوه جانبية مبهمة.

- لماذا قلت لي أنها هي؟

- لأنه لايستقبل نساء أخريات.

- ما أدراك؟

- قالت لي شقيقته أن أحداً لايذهب لرؤيته. كان، قبل مرضه، يعيش في ليون، مدينتهم الأصلية، وكان يعمل في إحدى جرائدها. إنه لا يعرف أحداً في باريس تقريباً.

واستؤنف الأمر! وزاد عليه أنه كان يشرب، حالياً، نصف ليتره من الخمر لدى كل وجبه. بل إن ذلك كان مشتقاً من نوايا طيبة. في يومه الحميم مع نيلي، شرب عدة كؤوس من الخمر دون أن ينتبه إلى ذلك، ظهراً أولاً، ثم مساء عندما أفرغ الزجاجة. ثم استمر مدفوعاً بنوع من التفكير الخرافي كما لو كان ذلك يجب أن يؤدي، في كل مرة، إلى النتائج نفسها وإلى منْحِهِما تلك الخفة التي كانت تبدو له، من قبل، غير قابلة للتصديق.

العكس هو الذي حدث. لم يكن يسكر، لم يكن يشرب ما يكفي لتشويش أفكاره. فقد كان يبدو أن المشروب كان يزيد هذه الأخيرة وضوحاً، وكان لكل منها، فجأة، أهمية مخيفة.

غداة زيارة طبيب الأسنان المزيفة، رصد الأوتوبوس كالعادة، نظر إلى يدي زوجته التي لم تكن تحمل رزماً. تبادلا، من بعيد، إشاراتهما المألوفة، وذهب، بعد ذلك، حالاً، ليفتح الباب.

كان قد وعد نفسه بعدم الإصغاء، لكن ذلك كان أقوى منه. توقفت الخطوات عند الطابق الأول. خيل إليه أنه يحس ببعض التردد. قرعت نيلي الباب بقوة، ثم أدارت الزر.

تساءل عما إذا كانت قد أعادت إغلاق الباب وراءها، ولم تفعل. إلا أنه يجب أن تكون قد تقدمت بما في الكفاية في المسكن لأنه لم يسمع الأصوات على الرغم من أنه انحنى فوق الحاجز، لم تدم المحادثة دقيقتين. أعادت إغلاق الباب وصعدت سريعاً جداً، ركضت إلى غرفة الجلوس وقبلته. كان الجو حاراً جداً لأن السماء لم تمطر في ذلك اليوم، وكانت تنبعث منها رائحة عرق خفيفة.

- ألم تعمل؟

كانت تنظر إلى الأباجورات البيضاء المصفوفة على لوحتها والطاولة المعدة للعشاء.

- هل كانت معك رزمة له؟

- كلا.

- رسالة؟

- ولا حتى رسالة! أرتاب في أنها تعمدت عدم إعطائي رسالة لتنتقم مما قلت لها أمس. كان علي، ببساطة، أن أكرر لأخيها أن كل شيء قد تدبر وأن اثنين من رسومه قد قبلا.

- لماذا لم يأت ليفتح لك؟

- لا يفتح الباب أبداً. المدخل أضيق من أن يستطيع كرسيه المتحرك الدوران فيه...

- ألا يمشي أبداً؟

- على عكازين.

- أكان واقفاً هذا المساء؟

- كلا. كان في مقعده.

- ماذا كان يفعل؟

- كان يقرأ الجرائد. إنه يقرأ كثيراً من الصحف والمجلات بسبب مهنته.

- ماذا قال لك؟

- لا شيء. شكراً.

- أهذا كل شيء؟

- أضاف أنه إذا ما وجد شجاعة للعمل هذا المساء، فسوف تكون عنده، صباح غد، رسوم أخرى تؤخذ إلى شقيقته.

- على وجه الإجمال، فإنها هي التي تسعى في الصحف مكانه.

- كيف كان سيفعل؟

ألم تكن تفكر، مثله، في أنه أخطأ لأنه تكلم؟ تمتمت قائلة:

- ربما سأقول حماقة. أتساءل عما إذا لم يكن من الأفضل أن تذهب، أنت نفسك، عندما ستكون هناك، في المرة القادمة رزمة أو رسالة... يبدو لي أنك ستفهم، أنك سترى أنه لا يمكن أن يكون بيننا شيء...

لماذا أضافت:

- إنه لا يزال فتى صغيراً.

كان في صوتها، عندما تلفظت، بهذه الكلمات، لهجة حماسة ذكرته بممرضة القصر. هو، أيضا، كان فتىً صغيراً في ذلك العهد. إذا كانت فتية، فقد كان لا يزال أصغر منها وبدا، في سريره، في عجز طفل.

ألم تعامله كطفل، وليس كرجل تماماً؟

لم تكن هناك إلا نقطة مشتركة بين نيلي وتلك الفتاة التي لم يعرف اسمها. ولم يكن هناك، أيضاً، شيء مشترك بين زوجته والألزاسية.

بلى! ثلاثتهن كن نساء. والزوج ذو البزة السوداء الرديئة التفصيل، على الصورة فوق السرير، كان رجلاً مثله. هل كان سعيداً حالياً؟ وألم يطرح أبداً، أسئلة عما جرى أثناء وجوده في الجبهة؟ لا شك في أن مغامرات قد حدثت له، هو أيضاً، ككل الجنود. وكلهم كانوا مقتنعين، وبرنار على رأسهم، بأن زوجاتهم بقين عاقلات في غيابهن!

لماذا؟ أصبح الأمر لاذعاً. كل شيء كان يستحيل إلى موضوع قلق، ابتسامات نيلي كتكشيراتها وتشتت انتباهها، برهات مرحها مثل قسماتها المهمومة.

- بماذا تفكرين؟

لو فزعت لأستنتج من ذلك أنها كانت بعيدة عنه، أنها أتت على الإفلات منه مرة أخرى. وإذا قدمت له، حالاً، إجابة عادية، فإنه يتساءل عما إذا لم تكن قد أعدَّتْها.

ألم يكن من غير المحتمل، من المستحيل تقريباً، أن تكون قد ظلت كل الوقت وفية، حتى عندما كان بعيداً، وعندما لم تكن متأكدة من أنه سيعود، حتى عندما كان يرقد عاجزاً على سريره؟ ألم تعترف بأنه لم يكن للفعل الجنسي أهمية بالنسبة لبنت صغيرة ربيت مثل تربيتها؟ لقد مارسته على مقاعد الحديقة العامة في ابينال. وربما، فيما يتعلق به، تضاجعا في أمكنة على العشب نامت فيها مع آخرين، جنود مثله أو مدنيين على السواء.

ألم يبدر عنها شيء من الاعتزاز بكونها قد ذهبت، مرة واحدة على الأقل، إلى غرفة تمكنت من التعري فيها؟

عندما كان يفكر على هذا النحو، كان يشعر بألم في أصابعه كما لو أنها لا تزال موجودة، كما لو أنه يغرز أظافره في راحتيه، وفيما بعد، كان يتساءل، خائر العزيمة محبطاً، متى بدأ هذا.

ذلك أن عشرين سنة قد انقضت على حياته معها ولم يعذب نفسه، أبداً، بهذا الشكل. كان غيوراً بالتأكيد، مثله في ذلك مثل معظم الرجال. هل كان ذلك لأنه كان يحس بأنه يتقدم في العمر، في حين كانت زوجته تزداد، على العكس، من ذلك، شباباً؟

أم أن الأطباء قد أخطؤوا وأن صحته كانت متدهورة؟

كان يتلقى الجرائد التي تنشرها جمعيات مبتوري الأطراف وكبار معاقي الحرب، وكان يكتفي، في معظم الأحيان، بإلقاء نظرة على الصفحة التي يتحدثون، فيها، عن المعاشات. إلا أنه اتفق له أن قرأ بعض المقالات وخطر له، منها، مقال لم يستوقفه في حينه، ذكرت، فيه، حالات مبتوري أطراف، بدؤوا، بعد أن تحملوا، بشجاعة، مصيرهم خلال سنوات، في إبداء أعراض وهن عصبي حوالي الخامسة والأربعين أو الخمسين من العمر.

كان ذلك طريفاً، ففي حين كانوا، وهم ما يزالون شباباً، يغلون حياة، ويُفترض أن يعانوا من عجزهم أشد المعاناة، كانوا يتحملونه، بمرح تقريباً. ثم بدا،مع التقدم في العمر، إنهم يعون ما الذي خسروه حقاً، وينقمون على العالم بأسره ويلومون المقربين منهم على ما أصابهم.

بعضهم كان يمضى إلى حد الانتحار، إلى أفعال انتحار معدة بدقة، من زمن طويل، كما لو كانت هذه المبادرة الخاتمة المحتومة لتراكم بطيء.

مؤخراً، في حي باتينيول، أقدم أحد المصابين، في الحرب، بجروح كبيرة في الرأس، على قتل جاره بطلقة بندقية لأنه كان يصر على رفع صوت الراديو إلى أعلى حد.

ألم يكن فوا، من جهته، قد بدأ يشعر بالكراهية حيال التوأمين لأنهما كانا يصفقان الباب بقوة ولأن صوتيهما كانا حادين؟

ذلك لا يفسر أن تصبح غيرته وسواساً لاسيما وأنه كان الآن يعتبر عدم تركها تظهر، مسألة شرف. قال مايكفي في هذا الصدد، بل ربما قال أكثر مما ينبغي. لم تعد نيلي المسكينة تعرف كيف تتصرف، ومهما قالت، كان يجد، فيه، بعد نصف ساعة أو ساعة، مادة للشكوك.

لماذا اقترحت أن يذهب لدى بيير مازيرون؟ ألم يكن ذلك على أمل أن تنشأ علاقات ودية بينهما؟

هناك ما يكفي من الأسر التي لا تكتفي بذاتها وتحس، مساء، بالحاجة إلى التقاء أسر أخرى. إذا لم يكن من الممكن استقبال مازيرون بسبب الطوابق التي يجب الصعود عبرها، فقد كان يمكن الذهاب إليه لإمضاء الوقت في الثرثرة بينهم. لاشك في أنه سيكون من يصغي إليه لأنه الأكبر سناً، وكان يمكن، في هذه الأثناء، لمازيرون ونيلي أن يتبادلا نظرات ذات معنى خلسة.

هذا أيضاً، هذا موجود وحق السماء! لم يكن هناك مبرر لأن لا يحصل ذلك معه كما يحصل مع كثيرين سواه ممن لدى كل منهم يدان. ربما كان الأمر كذلك منذ زمن طويل، ليس مع مازيرون، بل مع رجال آخرين.

خلال فترة ما، قبل بضع سنوات، جاء رفيق قديم التقاه برنار مصادفة في الحي، لزيارتهما، مع زوجته. كان الزوجان يسكنان في جادة بومارشيه التي غادراها، فيما بعد، للإقامة في ليموج.

كان هو وبرنار قد تعارفا في المرآب، كان يدعى لوزوور، لكن الجميع، في المرآب، كانوا يدعونه فريد. كان مهووساً بالنساء، وفي كل مساء، كانت تنتظره، لدى انتهاء العمل، فتاة ليست هي نفسها دائماً. لم

يقتصر الأمر على أنه كان كثير التغيير للفتيات، بل كان يتفق له أن يخوض عدة مغامرات في وقت واحد، وكانوا يمازحونه بصدد صفاته كجواد فحل.

كان صحيحاً أنه كان، وهو القوي والدموي، يعطي الانطباع بانبعاث رائحة الذكر منه. وكان يتحدث، طواعية، بتعبيرات فجة، عن صفاته الرجولية. بل كان يعرضها عن ادعاء وتحدٍ.

ألم يكن ذكراً مثل هذا، هو الذي تحلم به نيلي عندما كانت تبدأ في التخبط ليلاً؟ وهي، أيضاً، التي صدمته، في البداية، في أبينال، باستعمالها كلمات لم يكن ليجرؤ على التلفظ بها أمامها، بل كان يتفق لها أن تكررها، أيضاً، وهما يتضاجعان، وهي تصر بأسنانها كما في تعزيمة.

لم تكن تخرج أبداً دونه خارج أوقات المخزن إلا عندما كانت هي التي تتسوق في الحي، لكن..

أذعن ذات صباح لإغراء مضحك وأخذ الأوتوبوس حتى شارع أبو قير. كان قد مضى عليه زمن طويل لم يذهب، خلاله، إلى حي ميدان الانتصارات، ولم ير، خلاله النوافذ الأربع الكبيرة في الطابق الأول من مؤسسة دولانغل وآبويه.

دخل، وهو يتلطّى بالجدران خوفاً من أن يرى، إلى حانة في زقاق الآباء الصغار، حيث يكتشف منها البناية إلى الجانب الآخر من الميدان.

كان خجلاً من نفسه لأنه لم يكن يعرف ما أتى ليبحث عنه. أنساه ذلك أن يطلب مشروباً، ونظر النادل، بمريولته الزرقاء، إليه ثم غمز سائق أجرة عجوزاً متكئاً على المشرب.... قال دون تفكير:

- كأس خمر.

لمح في الطابق الأول مصابيح مضاءة، رفوفاً، نساء بقمصان رمادية كن يرحن ويجئن، في ضوء غريب. لم يتعرف على نيلي. التي كانت، مع

ذلك، بينهن لأنه كان أبعد مما ينبغي، وغير أبعد مما ينبغي، مع ذلك، من أجل أن يرى، بين حين وآخر، طيف رجل بشعر بني.

هناك، كانت في بيتها أيضاً، كانت تتكلم، تعمل وهي تدندن احتمالاً. كان لأشخاص لم يكن يعرفهم أهمية معادلة، تقريباً، لأهميته في حياتها، وكانت هناك أصوات ووجوه مألوفة لديها بقدر صوته ووجهه.

كان يود لو كان مختبئاً في الغرفة، يلاحظ حركاتها، تعبيرات وجهها ليعرف كيف كانت في غير حضوره.

عندما كان يسألها عما جرى في المخزن، كانت تكتفي بأن تجيب مع رفع كتفيها:

- لاشيء مهم.

مهم بالنسبة إليه لأنه لم يكن مطلعاً عليه، لأنه لم يكن ينتمي إلى هذا العالم ولأن شرح كل شيء له كان سيستغرق وقتاً أطول مما ينبغي.

هذا الشيء غير المهم كان يدوم ثماني ساعات يومياً. وعندما كانت تعود، لم يكن يبدو عليها أنها خارجة من نفق. كانت خارجة من الحياة، من حياة أكثر حركية، أكثر إثارة من حياة شقتهما.

ما الذي كان يحمله إليها؟ كانا زوجاً وزوجة: فليكن ذلك! كانا يتضاجعان، إلا أنها كانت هي التي يجب أن تتخذ بعض المبادرات التي هي، عادة، من شأن الرجل.

ألم تجد مشقة في التغلب على نفورها أمام جدعين مشوهين يحتفظان، مساء، بأثر الأجهزة ويجب عليها أن تطليهما بمسحوق أو مرهم؟

وماذا هناك خارج هذا حتى لو كان يكفيها جسدياً؟ وكان يهيئ وجبات كانت تستطيع أن تجد أطيب مذاقاً منها في أي مطعم صغير. كانت هي التي تنهض في الساعة السادسة صباحاً كي تنظف البيت وتساعده في حمامه وتحكم وضع أجهزته.

... النزهة في ميدان الفوج مع الخوف الذي بدأ منذ بضعة شهور، من أن تراه مصاباً بالدوار... كان يتفق لبرنار، بصورة متزايدة، أن يمشي بخطوات مترددة كمريض...

.... القناطر نفسها دائماً وواجهة بائع العاديات الأزلية التي كانا ينظران، فيها، دائماً، إلى الأشياء بالجدية نفسها.

... الجولة الكبرى المتباعدة الحدوث، أو السينما في جادة التامبل التي كانت تثير برنار عندما يكون الفيلم مغالياً في ضجته. لم يكن هذا ذنبه... كانت بعض الأصوات تجعله يتألم جسدياً، وأرغما، ذات مرة، على الخروج.

أكانت هذه حياة لأمرأة صبية؟

لم يكن يعد نفسه بطلاً. لم ينجز أي عمل باهر، وكانت مصادفة، حين لم يكن يفكر في الخطر، أن اصطدم بلغم. اعتنوا به، نقلوه إلى المستشفى، أقرت قوانين، فيما بعد، لإعادة تأهيل للجنود الذين كانوا مثله. لم يقبل أن يعاد تأهيله واكتفى بالرسم على الأباجورات. كان هذا من حقه. وكان يصرف له معاش يفعل به مايريد. لم يبد، أبداً، أية مرارة، بل وجد، بعد كل شيء، أنه يحسد على وضعه إلى حد كافٍ.

لماذا بدأ، في الطريق، يستثار عندما يصطدم به شخص لم ير كلابتيه؟ حان وقت خروج نيلي. رن جرس كان يعرفه في كل الطوابق لأنه كان هناك أربعة طوابق من المكاتب والمخازن. سوف تسرع إلى حجرة الملابس لتخلع قميصها وتأخذ حقيبتها وتضع شيئاً من مسحوق التجميل وأحمر الشفاه.

لم ينتظر الدقيقة الأخيرة، قفز إلى سيارة أجرة ليكون في البيت قبلها ولام نفسه على هذه النفقة غير الضرورية وعلى سخافة مسعاه.

لم يشاهد سوى واجهة، سوى نساء ورجل كانوا منصرفين إلى مشاغلهم وراء ألواح الزجاج الكبيرة التي كتب عليها اسمي دولانغل وآبويه بحروف ذهبية.

- أما من جديد في المكتب؟

- بلى! جيزيل تأخذ عطلتها في ١٥ آب أيضاً. إنهما ذاهبان إلى بريتانيا، قرب بيمبول.

- من سيهتم برسوم أخيها؟

- لا أدري. على كل حال، لست أنا التي ستطوف متنقلةً بين الجرائد.

- لماذا لا يأخذانه معهما؟

- إذا كنت تظن أنهما يرغبان في تولي أمر عاجز.

قبل الاعترافات العتيدة لم تكن لتحمر ولا لتحاول أن تستدرك، أما الآن، فقد كانت تنظر إليه، مرتبكة، بهيئة متوسلة تقريباً.

- اغفر لي. ما أريد قوله هو أنها امرأة تريد أن تأخذ من الآخرين وتجد من الطبيعي أن يبذل كل واحد قصارى جهده من أجلها، لكنها لا تزعج نفسها من أجل أحد...

- فهمت.

- أ أنت متأكد؟ أخشى، دائماً، من أن أسبب لك ألماً.

اثنان من أرباب العمل يمضيان عطلتهما في أيفيان حيث يملكان بيتاً ولن يبقى سوى دولانغل العجوز.

تجنبت، أيضاً، أن تذكر اسم جان بول، وكانت قد ألحت، في ذلك اليوم، على أنه لا يهتم إلا بالأعمال وتحديث المؤسسة. ومع ذلك، كان يقود سيارة رياضية أنيقة.

هل يتفق الأمران معاً؟

- ألم يأت أوبون؟

- لماذا سيأتي؟ ليس هذا موعده.

- هذا صحيح. مع اقتراب شهر آب، مع كل الناس الذين يروحون ويجيئون، لا يعود المرء يعلم أين هو. بالمناسبة ما هي المخازن التي ستغلق أبوابها؟

- أكثر من نصفها خلال النصف الأول. صانع الأحذية رحل، فعلاً، لمدة ثلاثة أسابيع. احزري أين ذهب؟

- إلى الجنوب؟

- إلى ايطاليا. اللحام سيذهب يوم الاثنين مع زوجته، وسوف أكون مرغماً على الذهاب، لشراء اللحم، إلى شارع بادولامول. دكان الألبان لن يغلق إلا لثمانية أيام، لكنه سيغلق مرة ثانية في برهة القطاف لأن لديهم كرم عنب في اللوار.

كانت تلك البرهات الطيبة. كل ذلك كان باعثاً على الاطمئنان، ملموساً، كان جزءاً من الحياة المغفلة التي يشاركان فيها أرادا ذلك أم لم يريداه. لم يكن عليهما سوى الانحناء على النافذة ليريا المارة ذاهبين إلى أعمالهم متجهمي الوجوه أو مبتسمين، والأوتوبوسات تمضي نحو آخر خطوطها، وسيارات الأجرة تسير نحو العنوان الذي أعطي لها.

كان السيد جوسيو قد رحل لمدة شهر ولم تعد تسمع تكتكة الآلة الكاتبة وراء بابه ولا، في كل لحظة، جرس الهاتف وصوته الأخن الذي كان يتلفظ، في معظم الأحيان بجمل بلغة أجنبية.

أما بالنسبة للسيد والسيدة ميلهان، فقد كان يكاد أن لا يحس المرء بوجودهما. سوف ينتهيان إلى أن يذهب الواحد منهما بعد الآخر خفية على غرار السيد فرانسوا.

كانا، هما بدورهما، مقصورين على عالم مغلق. كانت المرأة العجوز تحاول فيه، بين حين وآخر، أن يسمعها زوجها. كان رأس هذا الأخير يرى من الشارع وراء زخارف النافذة المصنوعة من الحديد المطروق، وكان يستطيع أن يبقى ساعات دون حراك، دون أن يفعل شيئاً.

هل كان يفكر؟ هل كانت تخطر له ذكريات عهد كان، فيه، رجلاً شاباً، فعلاً وعاشقاً احتمالاً؟ هل كان يقول لنفسه، على العكس من ذلك، أن شعاع الشمس الذي كان يصنع من شعره الأبيض ما يشبه الهالة لن يعود، ذات يوم يضيء سوى مقعد خالٍ؟

لا بدَّ أنّ مازيرونات آخرين، كانوا يرقبون خلوَّ المسكن، وربما كانوا مسجلين على قائمة لدى البوابة وماذا لو كان فوا هو الذي يرحل أولاً، ولو كانت دواراته، على عكس ما كان يؤكد له، أعراضاً لمرض خطير؟

هل يكونون، في هذه الحالة، قد أطلعوا زوجته على ذلك؟ هل كان هذا يفسر لطفها، رعايتها، خوفها من أن تسبب له أية مضايقة؟

لم تبق، قط، لدى بيير مازيرون، أكثر من دقيقتين، ولاحظ أنها كانت، عندما تدخل إلى مسكنه، تتجنب إعادة إغلاق الباب... بل لم تكن هي التي كانت تدفعه، لكن ذلك الباب كان، كبابهم، يعود إلى الإطار لأن البيت كان مائلاً.

لم تعد تنتظر أن يسألها.

- جيزيل تلقت قطعة نقانق كبيرة من ذويها وأرسلت له قطعة.

كان برنار قد حاول رؤية الشاب. وما زال يحاول باذلاً جهده كي يدخل إلى البناية، بعد السوق، في الوقت نفسه الذي تصل، فيه، الممرضة ويصل إلى المنبسط في اللحظة التي تستدير فيها. إنها لعبة بلهاء كان يعود إليها، مع ذلك، كل صباح. وما كان يجعل النجاح غير محتمل هو

أن الممرضة تصل على دراجة نارية. توقفها على حافة الرصيف، ولما كانت فتية وحيوية، فقد كانت، في اللحظة التالية، تصل إلى الطابق الأول.

لم يكن يستطيع أن ينتظرها على الدرج، وكان قد فات الأوان على عودته عما قرره ليذهب حاملاً رزمة أو رسالة بدلاً من نيلي.

- يبدو لي أنك أفضل حالاً منذ بضعة أيام..

تركت نفسها تقع في الخطأ. كان يخفي همومه بصورة أفضل، هذا هو كل شيء، وهي، بالطبع، لم تكن تراه عندما يكون وحده. كان يبذل جهده، في حضورها، كي يبدو مرحاً وخالياً من الهم.

أخذها للقيام بالجولة الكبيرة، ولم تشك في أن ذلك كان، بالنسبة إليه، نوعاً من الحج. نظر إلى السين يجري كما شاهداه عدة مرات، ثم إلى البيوت، واحداً بعد الآخر، كما لو كان ذلك ينتمي، من قبل، إلى الماضي. بحث عن الرجل المسن ذي الشعر الأبيض في مقعد الجلد الأحمر، لكن مغالق المكتبة الضخمة كانت مغلقة، فكل الناس، تقريباً، كانوا في عطلة.

- أحبك يا نيلي.

- وأنا أيضاً يا برنار.

- أود أن تعرفي ذلك حقاً، أن تحسي به.

- أعرفه..أحس به.

كاد يضيف قائلاً: «لأني أحبك أجعل حياتنا، نحن الاثنين، تعسة».

ما الجدوى؟ لم يعد حتى متأكداً من أن ذلك صحيح.

أخيراً، توصل إلى ذلك مصادفة، ذات يوم لم يكن يحاول فيه. كان عائداً من التسوق في شارع سانت أنطوان لأن معظم حوانيت شارعه كانت مغلقة.

اشترى بطاطا لعدة أيام، وفوق اللحم والخضار جلب معه بطيخة ومشمشاً جذباه إلى عربة صغيرة.

كانت الشبكة ثقيلة في طرف كلابته، والتقط أنفاسه في ظل الرواق. لم تكن البوابة في حجرتها. كان قد وضع قدمه على أول درجة في السلم عندما سمع الدراجة تقف عند حافة الرصيف. أخذ يصعد ببطء يكفي كي يجبر الممرضة على تجاوزه. كانت خطواتها السريعة تقترب. وعندما وصلت إلى ارتفاعه، اندست بين الجدار وبينه. وفي اللحظة التي بلغت، فيها، المنبسط، كان على الدرجة الثالثة كما حسب.

كان واثقاً، تقريباً، من أنها لم تلاحظه لأنه، هو نفسه، رآها، دائماً، من ظهرها من نصف وجهها الجانبي، وكانت، دائماً مستعجلة ولا تهتم بما يجري حولها.

ومع ذلك، فقد التفتت، قبل أن تمد يدها إلى الزر، لا لتنظر إلى كلابتيه كالذين يرونه للمرة الأولى، لا بدهشة أو فضول، بل بهيئة من يعرف من كان.

هل حدثها مازيرون عنه؟ على كل حال، عاملته كجار واقترحت عليه وهي تشير إلى كيسه.

- يبدو أنه ثقيل. ألا تريد أن أساعدك؟

- أنا معتاد. شكراً.

لم تلح، وأضافت مبتسمة:

- معك بطيخة جميلة.

كان في منتصف المنبسط، وهو ما يزال ملتفتاً نحوها، عندما فتحت الباب. وأخيراً رأى. لم يكن ذلك لوقت طويل، ليس كل شيء، بل ما يكفي كي يدهش. لأن السيد فرانسوا كان رجلاً مسناً جداً ولأنه كان يعيش منغلقاً منذ سنوات، وكذلك لأن هذا الباب كان ذا لون كامد بشع، اعتبر برنار أمراً محققاً أن يكون المسكن المطل على الباحة قاتماً وكئيباً. كانت البوابة تنظف الشقة، ولم تكن شديدة العناية. بل يمكن أن يقال أنها كانت قذرة.

في آخر الردهة الضيقة، رأى جدراناً ذات لون أصفر فاقع كانت تعطي الغرفة جو نضارة ومرح. تيسر له الوقت كي يرى طاولة طويلة جداً من الخشب الأبيض أو، بالأحرى، حوامل مغطاة بأشياء متغايرة، أقلام في جرة صغيرة من صلصال رملي أزرق رؤوسها متجهة إلى الأعلى، أقلام فحم في أخرى، فراشي، أوراق متناثرة، مجلات وجرائد، إناء زهور، نصف كرواسان إلى جانب كوب......

كان يتكون لدى المرء الانطباع بفضاء داخلي ليس كغيره، ليس كفضاء شقتهما الداخلي مثلاً، بل بديكور لم يكن، فيه، للأشياء أماكن محددة وتستطيع الحياة أن تسيل، فيه، على هواها.

من بعيد، لم يستطع أن يميز اللوحات العارية، ولم ير من ماريزون سوى الساقين وعجلة مطاطية للمقعد. كان مرحاً! هذا المسكن كان أشد مساكن البيت مرحاً، ولا بدّ أن تطيب الحياة في فوضى رائعة تمنح الوجود خفة. يجب أن يكون الرسام، بدوره، مرحاً، وكان هو، لا السيد فرنسوا، الذي أراد لوناً أصفر سائداً للجدران ولوناً أحمر للستائر.

بدا له، عندما عاد إلى بيته، بالتباين، أن شقتهما كانت ثقيلة وكامدة، تقليدية على صورته الخاصة دون شك، لأنه هو الذي أنشأها. ألم يكن يتفق له أن ينهض عن مقعده ليضع جرة من النحاس في مكانها المضبوط، لتقويم ثنية ستارة أو وضع جريدة مرمية تحت الراديو؟

إذا لم يفاجأ باكتشافه، فقد بقي متأثراً به. كان قد تصور مازيرون شاباً لا مبالياً، خفيفاً، لكنه، مع ذلك، كان يفكر، فيه، منذ أن رأى داخل شقته، بطريقة أخرى.

بدا على الممرضة أنها تعرف من كان. كانت تعلم، إذن، أن شخصاً مبتور اليدين يعيش في البناية. وبما أن مازيرون لم يره قط، فيجب أن يكون هذا آتياً، في نهاية المطاف، من طرف نيلي.

نيلي كانت تتحدث عنه في الطابق الأول...ثم الشاب بدوره.

عند الظهر، لم يتحدث عن حادثة المنبسط، إلا أنه أحس بالحاجة إلى وضع مازيرون على بساط البحث.

- كيف يوقع على رسومه؟

لم يكونا، إن صح القول، ينطقان اسمه أبداً. كان «هو»، وكان كل منهما يعرف من يدور الأمر حوله، وفي الحقيقة، كانا لايعرفان إلا قليلاً من الناس وأن الذين يتفق أن يتحدثا عنهم كانوا نادرين.

قطبت حاجبيها. بهيئة من يبحث في ذاكرته. إذا كانت تمثل، فهي تمثل بشكل متقن.

- قالت لي جيزيل ذلك يوماً...انتظر.

هذا كان يدل على أنها وجيزيل لم تكونا تتحدثان عنه من أجل المهمات فقط. توقيع مازيرون في أسفل رسومه لم يكن له، أدنى علاقة بحمل رسالة أو رزمة إليه. ربما لم تكن صديقتها هي التي حدثتها عن ذلك، بل هو نفسه.

- إنه يستخدم مقطعين من اسمه...تذكرت! إنه يوقع «مابي» المقطع الأول من اسم أسرته وأول حرفين من اسمه...

- هل رأيت ماذا يفعل؟

- جيزيل أطلعتني على أحد رسومه الصغيرة......

كانت تبدو مرتاحة. لكن من المستحيل أن تكون ذلك حقاً. هذا، في الحقيقة، ما يجعل الموقف دون مخرج. إذا كان هناك شيء بينها وبين شقيق

جيزيل، إذا كانت لها علاقات مع أي رجل، فإنها كانت مرغمة على إخفاء ذلك عنه مهما كلف الأمر، ولو كان ذلك من قبيل الإحسان.

لم تكن تستطيع. أن تعترف له، فجأة، قائلة: «أنت مصيب في كونك غيوراً. أنا كالأخريات، مثل الألزاسية، لكني، مع ذلك، أحبك وأتمسك بالبقاء معك......»

كان سيحتفظ بها، بالطبع، لم يكن ليوجه إليها أي لوم. كان، على عكس ذلك، سيبدو أشد حناناً، أشد مجاملة، دون شك لأنه كان سيعرف أنها تعاني.

كان صادقاً، من جهته، عندما كانا مستلقيين جنباً إلى جنب على السرير، ينظران إلى السقف. هل قال كل شيء حقاً؟ ألم توجد بضع لحظات مخجلة فضل أن لا يراها ولم يتحدث عنها؟

ومن جهة أخرى، فإذا كانت نيلي لا تبالي بمازيرون، كما تدعي، فسوف يكون من المستحيل عليها أن تضاجع رجلاً غير برنار أو حتى أن تتصور ذلك، وكانت، مع هذا، تعلم أنه يراقب استجاباتها، إنه كان يرصد نظرة، تعبيراً وجهياً، مجرد رعشة كان سيستخلص منها ما لا يعلمه إلا الله من نتائج دراماتيكية.

كيف كان يمكن، في هذه الحالة أيضاً، أن تكون طبيعية؟

إلا إنها كانت طبيعية أكثر مما ينبغي. كان غاضباً لكونه يحس، دائماً، بمازيرون غير مرئي يقف بينهما حتى حين يكونان مشغولين بالأكل بهدوء، وكان هو الذي لم يكن يستطيع الامتناع عن ذكره.

كان يود كثيراً أن يرى ماذا يوجد بالضبط خلف جبين زوجته، خلف عينيها! كان يسألها، عشر مرات في اليوم، بغتةً:

- بماذا تفكرين؟

في بعض الأحيان، كان الجواب غير متوقع:

- بشقيقتك.

- لماذا تفكرين في شقيقتي؟

- لأن أمك لم تكتب لنا منذ بعض الوقت. كنت أقول لنفسي أننا سوف نذهب، خلال عطلتي، لنراها، وكنت أتساءل عما إذا كانت شقيقتك قد سمنت.

في آخر مرة ذهبا، فيها، إلى جو فيزي حاملين هدية لكل ولد وقالب حلوى لكل الأسرة، كانت أخته هائلة، وكان يبدو أنها سوف تسمن أيضاً. كانت تبدو سعيدة بذلك، وكانت تحرك، بتثاقل، جسدها الضخم الذي لم يكن يثقل عليها، والذي كانت أول من يضحك منه.

لم تخترع نيلي هذه الفكرة من أجل حاجات اللحظة. كانت هناك حتماً أفكار أخرى تخفيها عنه. فإذا كان أوبون قلقاً على حالته، فأجدر بزوجته أن تقلق. لم تكن تحدثه عن ذلك أبداً. فلا يتحدث المرء إلى شخص ما عن مرضه إذا لم يكن يظن نفسه مريضاً.

إذا كانت قادرة على أن لا تقول له كل شيء، فما الذي يمنعها من إخفاء شواغل أخرى؟

إنه يكاد أن لا يرى، بوضوح، ما في داخله، فكيف سيكون قادراً على أن يقرأ فيها بثقة؟

بدلا من النطق، أزلياً، بكلمات لا تعني شيئاً، كان ينبغي تبادل النظر بصورة ما تسمح بفهم كل شيء.

تخيل، أحياناً، إن ذلك ممكن. كان يغوص بنظرته في عينيها منفعلاً، قلقاً ويتمتم:

- أحبك يا نيلي!

كان ذلك، إلى حد ما، بمثابة مفتاح، وكان ينتظر ردة الفعل. كان يبدو له أنّ هناك، دائماً، خلفية حزن في عيني زوجته عندما تجيب دون أن تحول نظرها.

- أنا، أيضاً، يا برنار.

لماذا الحزن؟ لأنها كانت مذنبة ولأنها تلوم نفسها أو لأنها تعذبه عن خطأ ولأنها تستطيع شيئاً على الرغم من حبها، ولأنها لم تكن تستطيع إسعاده؟

- ما هو لون غرفته؟

كررت دون أن تفهم على الفور:

- غرفته؟

ثم:

- لم أر غرفته قط، رأيت الستوديو فقط، هو مطلي باللون الأصفر كالرواق.

كانا يقولان، إذن، «الستوديو»، وكانت لهما، على هذا النحو، مفردات مشتركة، كما توجد مفردات خاصة لدى دولانغل وآبويه.

- ما هي الجرائد التي يرسم لها؟

- افترض أنه يجرب يساراً ويميناً مثل كل المبتدئين. ما هي الجريدة التي تقع مكاتبها في شارع مونمارتر؟

- أنى لي أن أعرف؟

- إن شارع مونمارتر هو الذي تذهب إليه جيزيل أكثر من غيره....

حصل على جواب عن سؤاله منذ الغد لأنه اشترى كل الأسبوعيات التي تنشر رسوماً مسلية وعثر على ثلاثة رسوم بتوقيع «مابي». في المساء عرضها على نيلي.

- انظري.

- إلى ماذا يجب أن أنظر؟

- في أسفل الصفحة، إلى اليسار.

ابتسمت. التعليق كان مضحكاً. سألها أيضاً.

- هل يعمل مساء؟

- دون شك على اعتبار أنه يطلب، دائماً، أن أمر به صباحاً لأرى ما إذا استطاع أن ينجز شيئاً ما.

- وفي النهار؟

- أجهل كيف يمضي وقته.

لم تجرؤ أن تضيف: «لا تحدثني عنه كل يوم وعند كل وجبة! إن هذا يصبح وسواساً. أنت في طريقك إلى إيلام نفسك»

كان يقول ذلك لنفسه، يحاول أن يغير أفكاره. عاد إلى المكتبة البلدية التي لم يكن قد داسها منذ زمن طويل ليستعير روايتين. بدأ في قراءة إحداهما دون التوصل إلى تثبيت اهتمامه.

وفضلاً عن ذلك، كان الفراغ الذي تكوّن، شيئاً فشيئاً، حوله يزيد من وحدته. لم يعد يسمع صوت لدى أسرة روجان منذ ذهب التوأمان لقضاء عطلة مع أبويهما. كانت الآنسة ستريب غائبة أيضاً. وكانت الشاحنات والسيارات، بل والأوتوبوسات، أقل عدداً في الشارع، وكان يتفق له أن يفاجأ بالصمت كشيء غريب.

لم يعد ما يرى على الأرصفة وجوهاً معروفة، بل أجانب بقمصان مبرقشة وآلات تصوير. كانوا يتسللون، أحياناً، إلى مماشي البيوت ليلقوا نظرة فضولية على الباحات.

خمسة أيام، أربعة، ثلاثة وتبدأ عطلة نيلي بدورها. ستكون له، وحده، من الصباح إلى المساء، من المساء إلى الصباح ولن يعود يسألها ماذا كانت تفعل وإلى من تحدثت وإلى أي صوت كانت تستمع.

كان فرحاً بذلك، مثل كل سنة، مع كونه قلقاً قليلاً من فكرة هذا الانفراد المستمر لمدة ثلاثة أسابيع. هل سيتوصل إلى التحدث بصورة طبيعية؟ هل سيجد ما يكفي من موضوعات المحادثات البريئة؟ لم يكن ينشغل بذلك في السابق، كان يثرثر حول كل شيء ولا شيء. وغالباً ما كان كلاهما يصمتان دون أن ينتبها إلى الصمت.

الصمت، الآن، يخيفه. كان لديه الانطباع بأن نيلي تفكر وحدها تماماً وراء جدار جبينها، وكان ينصب لها الأشراك، يبحث عن أسئلة قابلة لاقتحام متاريسها.

إذا استمر هذا، فسوف يهتف إلى أوبون، يطلب إليه الحضور أو يذهب إليه. سيبذل جهده ليقول له كل شيء، وسيطرح، خاصة، أسئلة محددة متوسلاً إليه أن يجيبه صراحة، لا من أجله بقدر ما هو من أجل زوجته.

هل كان مريضاً حقاً؟ حسناً! كانت هذه هي النقطة الأولى التي يجب جلاؤها. لم يكن الاثنان، البروفسور بيليه وأوبون، واضحين جداً بصدد هذا الكسر القديم في الصدغ. عندما كان يسألهما عما إذا كان يمكن أن يسبب، أيضاً، بعض الاضطرابات، لم يكونا يقولان نعم أو لا، وكان يبدوان مرتبكين.

- في بعض الحالات...

أية اضطرابات بالضبط؟ كان ذلك السؤال الثاني. هل يمكن لهذا، مثلاً، أن يؤثر في معنوياته؟ من المستبعد أن يكون الرجل الوحيد في حالته. لا بُدَّ أنّ أوبون قد رأى آخرين. لم يكن يعالج مشوهي الحرب وحدهم، بل كان يعالج، خاصة، إصابات العمل. كان هذا اختصاصه. لم يكن يبحث عن الزبائن الأغنياء. كان يسكن في ضاحية سانت أنطوان، قريباً جداً من الحرفيين، في شارع كروزاتييه، تجاه المستشفى، وكانت شقته واسعة وبورجوازية إلى حد كاف، وكان عمال الجوار يرتاحون فيها.

لكن الغيرة ليست مرضاً يعالجه الأطباء. كان يجب أن يشفى منها وحده، أو أن يتعود على معايشتها كما فعل خلال عشرين سنة، عندما لم يكن يعاني، إلا من وقت إلى آخر، بصورة مؤلمة. كان يتفق له أن يهمس لنفسه، عندما يكون وحده في الشقة، قائلاً:

- أنا واثق من أنها تتألم.

كان يتحدث إليها وهو يروح ويجئ من غرفة النوم إلى غرفة الجلوس، ومن غرفة الجلوس إلى المطبخ.

- أنت ترين أن هذا أقوى مني... لست المسؤول عنه... أبذل جهدي... ربما كان ذلك لأن لدي تبكيت ضمير...

في عمر معين، العمر الذي أبلغه الآن، يحاول المرء حساب ما عاشه كما لو ليستمد منه الجرأة على الاستمرار... عندما حاولت، أنا، أن أجري الحساب، تبين لي أني كنت، دائماً، أنانياً..

كنت أشتهي أن أحبس نفسي بين جدران شقة فيها، فقط، نوافذ مطلة على باقي العالم وحبستك فيها معي.

تضحيته الوحيدة، وهو لم يوافق عليها إلا بتأثير نصائح أوبون، كانت السماح لنيلي بأن تتابع عملها في المدينة.ألم يكن، بذلك، يخضع لفكرة خفية؟ ألم يكن يقول لنفسه أنها لو بقيت معه طوال اليوم في فضاء شارع تورين المغلق، فإن طبعيهما سيصبحان حادين؟

كان يجعلها تذهب إلى ميدان الانتصارات وهو يحسب الوقت المضبوط الذي تستغرقه للذهاب والإياب. وعندما كان عليها، بتواتر متناقص، أن تذهب للتسوُّق في المدينة، كان يصحبها، ينتظرها أمام واجهات المخازن، حتى لو كان مخزن بياضات، مثلاً، أو كان، إذا تركها تذهب وحدها، يستجوبها، إلى ما لانهاية عما فعلته، عما قيل لها وعن الأشخاص الذين قابلتهم.

- قل لي يا دكتور...

هل جرت بين نيلي وأوبون أحاديث دون حضوره؟ كان ذلك محتملاً، في البدايات على الأقل. يجب أن يكون الطبيب قد أطلعها على حالة زوجها، طمأنها، قدم لها نصائح. هل طلب إليها أن تراعيه، أن تجنبه كل موضوع قلق؟

- أحبك يا نيلي.

- وأنا، أيضاً، يا برنار.

كان ذلك يتكرر بصورة أكثر تواتراً، كما لو كانا يحاولان إطلاق شرارة. كان يحس، أحياناً، بأنهما نجحا، بأنه تحرر، بأن الحياة سوف تستأنف. فجأة كما في الماضي، كان ينسى مازيرون، الباب ذا الزر الخزفي المبيض، الستوديو الأصفر والحوامل المزدوجة.

- أتعلمين ماذا سنفعل بعد أن نزور أمي وشقيقتي؟

- هل لديك مشاريع؟

كان أدنى أمل يُجَمِّل وجهها، وعند ذلك، لا يعود لديه الإحساس بأنها تمثل دور المرأة السعيدة، بل بأنها كنت سعيدة حقاً.

- سنختار كل يوم حياً من باريس، كما كان يتفق لنا عندما أقمنا هنا ولم نكن نعرف أبداً، عندما نصبح عند الجادات الكبرى، من أية جهة كانت الايتوال، ومن أية جهة كان الباستيل. سنذهب باكراً...

منذ القدم، كان يحب الأزقة عندما تنظف.

- سنتنزه كالسياح، ندخل الباحات وتختارين، كل يوم، مطعماً صغيراً مسلياً.

- أنت في حال أفضل، أليس كذلك يا برنار؟

- هل أقلقتك كثيراً؟

- ليس أكثر مما ينبغي، كنت مطمئنة.

- أتساءل، كما ترين، عما إذا كنت محقاً في الكلام معك بالطريقة التي تكلمتُ بها. لقد أردتُ بأي ثمن، أن أكون صادقاً. أعاد هذا الأمر إلى السطح أكداساً من الأفكار كالتي تكمن، كما افترض، في ركنٍ ما داخل أنفسنا جميعاً، لكنه يفضل أن لا نعلق عليها أهمية. في الحقيقة، كنت أفتقدك... كنت في حاجة إليك، إلى عطلتنا.

- ألم تعد تنتابك دوارات؟

- قليلاً.

لم يكن ذلك صحيحاً. انتابه دوار في صباح ذلك اليوم نفسه، لكنه كان يريد أن يطمئنها، الباقي كان صادقاً.

- لستُ سوى غبي عجوز لا يستحق امرأة مثلك... لو تعلمين بما كنت قادراً على أن أرتاب فيك بصدده...

- لا تعد للحديث عنه، لا تعد للتفكير فيه!

- هل تنقمين عليّ؟

- كيف أنقم عليك؟ الذنب ذنبي بالضرورة. لو توصلت إلى جعلك تفهم...

بالتأكيد! هنا كانت المسألة! التعري أمام الآخر، من داخله، وليس جسدياً، تعرية كل الأفكار الصغيرة التي تدور في رأسه ولا تخص سواه.

- لو كانت حانة سان جرمان المزعومة لا تزال موجودة لكنا استطعنا الآن..

ما كان سيخاف من الأسعار المسجلة على القائمة، وما كان سيبحث عن سبب للخروج.

- هل سألت جيزيل كيف سيفعل من أجل رسوماته خلال العطلة؟

- أفترض أن الممرضة ستتولى أمرها.

- ألن ترحل؟

- في أيلول فقط، لدى عودة الصديقة التي ستحل محلها.

- أما زلت لا تعلمين ما إذا كانت هي التي كانت موديل اللوحات العارية؟

- كلا. فأنا أقتصر على الدخول والخروج. أعترف لك بأن ذلك لا يهمني.....

في حين كان الأشد غيرة، كان يثيره أن يتخيل الممرضة عارية وجامدة في الستوديو الأصفر. كان يحسد مازيرون، يحسده على مهنته التي كانت تبدو له لعبة أبدية، على شبابه، على لا مبالاته. وهاهو يحسده على ممرضته.

لم يكن يقول هذا لنيلي. فقد كان، إذن، يغش! ألم يكن من حقها أن تغش بدورها؟

بقيت ثلاثة أيام، يومان........

كانا في صباح يوم خميس، وكان هناك، من جديد، شمس، تيار هواء خفيف في الشارع الذي كانت تمر به عربات سقاية الأشجار التابعة للبلدية، ببطء. ذهبت نيلي إلى ميدان الانتصارات. سوف تعود إليه في الغد أيضاً، ويوم السبت ستكون في عطلة وتستطيع أن تنام إلى الضحى.

أعطت برنار حمامه، وضعت له أجهزته التي سوف يذهبان في أحد هذه الأيام لفحصها، كما كانا يفعلان دورياً، لدى هيلياس العجوز في شارع الدرب الأخضر. بقي كرواسان على الطاولة.

سألت نيلي:

- ألن تأكله؟

- كلا.

- سوف آكله إذن. إنه الرابع.

كان ينظر إليها وهو يدخن لفافته الأولى. كانت ترتدي طقماً من القماش الفاتح، وكان ثدياها يبدوان، تحت قميصها، أشد فتوة وأشد حياة منهما تحت فستان. لاحظ أنهما، عندما يتقافزان، يبدو كأن حياة خاصة تحركهما، وانفعل من جراء ذلك.

لم يقل : «أحبك»

كان يبتسم لها، يفكر في أنه سيذهب ليتسوق في شارع سانت أنطوان حيث كان، في كل خطوة، يستعيد ذكريات من طفولته.

كان يحب العربات الصغيرة على طول الأرصفة، صيحات البائعات، الحوانيت الواسعة المفتوحة حيث يكون المرء على مستوى الطريق، عروض اليوم المكتوبة بالحوّار على ألواح.

تمتم قائلاً:

- غداً مساء..

نهضت، شدت تنورتها إلى الأسفل، وقفت أمامه لتقبله.

- سوف نتسلى كثيراً، سترين.......

أجابت وهي ترد له ابتسامته:

- أنا أتسلى دائماً معك!

قبل أن تخرج قالت له أيضاً

- لوثتك بأحمر الشفاه.

سمعها تتنزل. بعد برهة، سيتجه إلى النافذة ليلوح لها بيده. تساءل عما إذا كان سينظف الطاولة قبل أن يذهب إلى السوق أم بعد ذلك، قرر أن يقوم بالترتيب لدى عودته لأنه كان متعجلاً للتواجد خارجاً، في تلألؤ الصباح.

أصاخ بأذنه، مثله دائماً، توقفت في الطابق الأول، وهو ما لم يكن أمراً غير عادي. خطرت له فكرة أن يأخذ شبكته وقبعته وينزل بسرعة ويفاجئها بأنه وصل إلى تحت في الوقت نفسه، معها.

كل ذلك كان طارئاً. لم تكن هناك أية فكرة خفية. فقد استيقظ طيب المزاج وكان لايزال كذلك.

نزل دون أن يمس الحاجز بكلابته، وهو ما كان علامة طيبة، كان مستعجلاً، قلقاً على الوصول في الوقت المناسب ليقول لها إلى اللقاء مرة أخرى.

ومع ذلك، اعتراه قلق خفيف لعدم سماعه إياها تخرج من شقة الطابق الأول. ربما لم تفعل سوى المرور بها وربما كانت خارجاً من قبل، ربما انتظرها مازيرون، لمرة واحدة، خلف الباب واكتفى بتسليمها رسومه لدى مرورها، إذا كانت لديه رسوم. بلغ الطابق الثاني، رأى، بعد المنعطف، باب الطابق الأول مواربا وغادره مزاجه المنطلق، قطب حاجبيه حاسباً أن زوجته كانت هناك منذ ما يقرب من خمس دقائق.

تردد على المنبسط، بقي لحظة دون حراك ليعطيها فرصة أخرى. وفي الوقت ذاته، كان يقول لنفسه إنه مخطيء، إنه سيربكها، أنها عندما ستخرج ستصطدم به، لن يعرفا ماذا يقولان، وأن كل شيء سيعود ليكون موضع مساءلة.

لماذا تقدم، فجأة، خطوة ودفع الباب؟ كاد أن لا يعي ذلك. كان يطيع دافعاً غريزياً لا يقاوم.

ومثل الصباح الذي دخلت الممرضة فيه، بحضوره، اكتشف منظور الرواق، الضوء المبهر في الستوديو الأصفر، وقرب الحوامل المغطاة بالرسوم والمجلات. ومن الظهر، نيلي منحنية على رجل جالس كان يضمها بين ذراعيه.

فهم، دون أن يرى الوجهين، أن الفم كان على الفم، أن زوجته كانت تحاول التملص لأنها، دون شك، سمعت صوت الباب وأنها كانت على أهبة أن تدير رأسها.

انسحب حالاً، جاذباً المصراع معه، نزل بسرعة إلى الدور الأرضي وقذف نفسه في الطريق دون أن يتوقف عند حجرة البوابة التي كانت تلوح له بمغلف.

كان مذهولاً إلى حد لم يعتذر، معه، عندما صدم صدمة مباشرة امرأة أوقع رزمها. لم يلمَّها، وبينما كانت تترنح مزمجرة، تابع طريقه مرتخي الساقين، فارغ الرأس.

لم يكن يفكر أكثر مما فعل عندما التقت يداه اللغم وأصبح مركز انفجار. كان يمشي، يتجه إلى الدرب الذي كان عليه أن يسلكه ليصل إلى شارع سانت أنطوان، ومر، دون أن ينتبه، بالبيت الذي ولد فيه، سار في شارع بيراغ دون أن يتعرف عليه.

لم يكن يطرح على نفسه أسئلة، لم يكن يتساءل عما سيجري، عما سيفعل. مرت شهور وهو يفكر في هذا، وهو يعذب نفسه، كأنّ ذلك يمتعه، بصور دقيقة كان يمكن لتلك التي أتى على رؤيتها أن تبدو، إلى جانبها، بريئة.

كان قد توقع كل شيء جملة. ربما كان هو الذي أطلق نوعاً من الآلية. لم يعد في حاجة إلى محاولة الفهم. كان يعلم، لم يكن ينقم على نيلي، أكد، دائماً، أنه لن ينقم عليها. بل إنه تردد في أن يلتفت وهو يركض في شارع تورين. لكنه لم يكن متأكداً من أنها قد رأته. سمعت صرير الباب الخفيف الذي كان يمكن أن ينجم عن تيار هواء. في اللحظة التي تخلصت، فيها، من

مازيرون وكانت ستدير رأسها، كان، هو، قد انسحب فعلاً. هل تسنى لها الوقت كي تلمح ظهره. كتفيه قبل أن يعود الباب إلى حاله؟

البائعة التي اشترى منها البطيخة كان لديها ما يملأ عربة منها. حاولت اجتذابه وانصاع هو لذلك. اختارت واحدة له ودستها في شبكته. بدا، للمرة الأولى، أخرق وهو يسحب الأوراق المالية من محفظته، كأنّ كلاّبتيه قد اكتسبتا القدرة على الارتعاش كاليدين. كان ذلك جلياً إلى درجة أن المرأة لاحظت مدهوشة:

- ماذا بك يا سيدي المسكين؟

- لاشيء

كانت حنجرته جافة، لاحظ ذلك وهو يحاول أن يتكلم. كان يبذل جهده ليبتسم بأدب كما يبتسم المرء لغرباء لم يفعلوا شيئاً له. شعر بأنها كانت تتابعه بعينيها وهي تهز رأسها وبأنها كانت ترثي له دون أن تعلم لماذا. تذكر ما كان يجب أن يشتريه. كان في حاجة إلى لحوم وخس، لأنهما كانا قد قررا تناول لحوم باردة، واتجه نحو المخزن الايطالي.

توقف مرتين في الطريق، بين الحشد قرب الجدران لأنه كان يخشى أن يفقد توازنه. كان يعلم أنه لن يقع، أن ذلك لم يكن خطيراً، بل كان مقلقاً قليلاً، فقط.

- إنها غلطتي.

كان يتكلم كما اعتاد أن يفعل في الأوقات الأخيرة عندما يكون وحده في الشقة.

- كان ذلك محتوماً...

وها هي المسألة! لم يعد هناك ما يقال. لقد حدث ذلك!

ألم يكن عليه، مع ذلك، أن يتسوق؟ ألن تعود نيلي في الساعة الثانية عشرة وعشرين دقيقة ككل الأيام؟ وهل لن يحتاجا إلى الأكل؟

- أربع قطع جامبون بعظمه.

كان ينظر إلى الأطباق التي تحتوي على سلطات مختلفة دون أن يراها، وأشار إلى اثنين بكلابته

- نصف ليبرة من كل نوع.

كانوا يعرفونه، يسألونه عن الأخبار، عن أخبار زوجته، وكان يجيب بأدب:

- إنها جيدة جداً.

- متى تذهبان لقضاء العطلة؟

- بعد غد...

لم يلحوا لمعرفة أين يذهبان، ولم يكن ليستطيع إلاّ أن يجيب بقوله..ليس إلى أي مكان.

لم يكن، حقاً، في أي مكان. لايزال العالم يحيط به، أقل واقعية منه في أسوأ أوقاته. كانت الأصوات تصل إليه صماء بحيث يصدق أن بيليه كان على صواب في زعمه أنه في طريقه إلى أن يفقد السمع.

- هل أضعها على الحساب؟

- إذا تكرمت.

كان لهما حساب في بعض المخازن. كانا ينتميان، حقاً، إلى الحي. كاد ينسى أنه يحتاج إلى زبدة، ودخل إلى أول دكان ألبان لأن دكان شارع تورين كان مغلقاً.

- ليبرة من الزبدة البروتونية.

لم يكن في حاجة إلى انتظار دوره تقريباً. الزبونات كنّ أقل بكثير من الأوقات العادية. عندما عاد إلى المرور بشارع بيراغ، لم ير إلا كلباً على الرصيف. كان يتدحرج، مرفوع القوائم، ببطء على الأرض ليحك ظهره. صاحت به البوابة:

- رسالة لك.

أخذها مشتت الانتباه ووضعها في جيبه في حين كانت تتابعه بنظرة تشبه نظرة بائعة البطيخ.

فاجأه، عندما بلغ الطابق الثالث. أنه لم يبطئ عند الطابق الأول، بل إنه لم يلق نظرة على الباب ذي الزر الخزفي. كان ذلك كما لو كان هوسه قد تركه أخيراً.

- سأقول لها.

لم يكن يعلم ما سيقوله لها بالضبط. ستكون كلمات بسيطة وحنون، مطمئنة، كتلك التي تقال لمريض، كلمات كالتي غالباً ما قالتها له وهي تعرض عليه هدوء عينيها الصافي.

لم يكن يسخر، كان يفكر، صادقاً، في هدوء عيني زوجته وصفائهما، وكان يريد أن لا يتغير شيء.

سيقول لها...بحث عن المفتاح في جيبه، أدخله في القفل فتبين أن الباب لم يكن مغلقاً. إما أن يكون قد نسي أن يدير المفتاح في القفل، وإما أن تكون نيلي قد عادت إلى الصعود وقد ظننت، احتمالاً، أنه، هو نفسه، قد عاد إلى شقتهما.

لم يكن شيء قد تغير في غرفة الجلوس. بقي شيء من القهوة في كوب زوجته، وليس في كوبه لأنه كان يشرب، دائماً، حتى آخر قطرة. دخل إلى المطبخ ليودع، فيه، مشترياته، فتح الثلاجة وصف الجامبون والزبدة والمقبلات.

كان يفعل كل هذا آلياً. لم يخطر له أن يبكي، أن يثور، ولا أن يندب حظه. الضباب كان قد تبدد وغدا كل شيء بسيطاً، واضحاً وضوحاً قاسياً كبعض الصور.

هل نسي شيئاً؟ لا شيء! بلى! لم تكن النافذة مفتوحة من جهة شارع مينيم، وذهب ليفتحها لأنها كانت تترك، دائماً، مفتوحة في أيام الحر.

كان باب غرفة النوم مغلقاً وفاجأه ذلك. كان متأكداً، تقريباً، من أنه كان مفتوحاً عندما ذهب.

دفعه آلياً ورأى نيلي راقدة في مكانها، بكامل ثيابها، على ظهرها، في الجانب الآخر من السرير. كانت تنظر إلى السقف كساعات بعد الظهر التي تضاجعا فيها، على مهل وكل منهما يحاول أن يعبر الآخر كاملاً.

ذهب ليكلمها.كلمها:

- كنت أظن.....

اكتشف، وهو يدور حول السرير، ذراع زوجته متدلياً على السجادة الصغيرة. كان مستنقع من الدم قد تشكل. كان دم قد نفر إلى الجدار، وكانت

سكين مطبخ شحذها مؤخراً على الأرض. تقدم منها وانحنى. أخذ برأسها بين يديه بحركة بطيئة ورقيقة كما لو كان يخشى أن يسبب لها ألماً أو أن يوقظها، ألصق فمه على فمها وبقي طويلاً على هذا الوضع.

كان يعلم أنها ميتة، عرف ذلك فوراً، أغلق جفنيها بعناية أيضاً، ثم رفع الذراع الذي كان يحمل حزاً عريضاً. في المعصم ووضعه على السرير.

انتهى، نهائياً، من الأسئلة. كانت لديه كل الإجابات، وكان ينظر إلى الفراغ حوله. استوقفت نظره قطعة ورق على الوسادة. كانت قد كتبت عليها: «اغفر لي».

لا شيء آخر. لم يكن هناك شيء يمكن أن يقال.

- اغفر لي.

تمتم بالكلمتين أيضاً وأضاف بصوت منخفض

- أحبك يا نيلي.

لم يكن هناك أي صوت ليجيب: «وأنا، أيضاً، يا برنار»

لماذا ذهب ليتأكد من أن الغاز كان مغلقاً جيداً كما كانا يفعلان عندما يخرج كلاهما من البيت؟ دخل بعد ذلك إلى الحمام. كانت صيدلية معدنية تحتوي على كل العقاقير التي كانت توصف له لينام. أخذ عشرة أقراص من نوع، عشرة من نوع آخر مختاراً أقواها، ملأ كأساً بالماء وابتلعها واحداً بعد الآخر. عندما عبر غرفة الجلوس، نظر إلى الطاولة، إلى مكان نيلي، إلى كوبها وشرب بقايا القهوة الباردة التي كانت فيه ليطرد طعم الأدوية.

كان هادئاً، غير حزين. وبما أن زوجته احتفظت بالطقم الفاتح، فقد احتفظ بملابسه ليستلقي قربها، على ظهره كذلك اليوم، انتظر وهو ينظر إلى السقف، وهو يتحدث إليها بصوت منخفض جداً، يقول لها كل الأشياء العذبة والخفيفة التي لم يعرف كيف يقولها لها.

الآخرون

الهيئة العامة السورية للكتاب

(١)

الأحد في ٥ تشرين الثاني

مات العم أنطوان يوم الثلاثاء، عشية عيد جميع القديسين، حوالي الساعة الحادية عشرة مساء، احتمالاً. في الليلة نفسها، حاولت كوليت أن تلقي بنفسها من النافذة.

في الوقت نفسه، تقريباً، ذاع خبر أن أدوار قد عاد، وأن عدة أشخاص لمحوه في المدينة.

كل هذا أحدث هزات في الأسرة التي شوهدت، أمس، في الجنازة بكامل عددها للمرة الأولى منذ سنوات.

هذا المساء، الأحد، السماء تمطر من جديد. هزت زخات المصاريع وحركت زجاج النوافذ، وسال الماء بصورة لا تنضب، في الميزاب الذي ينحدر متراً عن نافذتي، الأشجار، في الحديقة العامة المسماة حديقة النباتات، المحاطة بسياجات، تنحني، وتختلط أغصان مكسورة، في الممرات، بالأوراق الميتة.

من حين إلى آخر، تمر سيارة بشارعنا رافعة حزماً من الماء القذر، لكنه ليس فيه أيٌّ من المشاة. أستطيع، إذا أزحت الستارة، أن أرى، تحت نوافذي بالضبط، المبولة الملتصقة بالسياج. أرى، ما وراء الحديقة، أعلى أعمدة قصر العدل وسطحه، وفي مكان أبعد، في الوميض المائل إلى البرتقالي المنبعث من مركز المدينة، برجي الكاتدرائية. يجب أن تكون هناك دور سينما ومطاعم مفتوحة الأبواب. كانت هناك أزواج تنسل على طول الواجهات وكانت هناك، أيضاً، دون شك، مظلات تنقلب.

بقيت طويلاً على النافذة أنظر إلى المشهد الذي شوهه الماء الذي يغسل زجاج النوافذ، قبل أن أبدأ في الكتابة. ثم أعدت إغلاق الستارة ووضعت حطبتين في المدفأة.

جرى ذلك بالصورة نفسها تقريباً منذ ثلاث سنوات، في الفترة نفسها من السنة. في ذات مساء كانت السماء تمطر أيضاً، عندما حاولت أن أكتب قصتي، قصتنا، زوجتي وأنا، وخاصة قصتي، بالطبع، على اعتبار أني أنا الذي كنت أكتب.

في شهر، كتبت ما يبلغ طول رواية، وكانت، في ذهني، رواية، حقاً، مشوقة تشويق تلك التي يخترعها الكتاب وتمتاز عليها بكونها حقيقية من أولها إلى آخرها. وعندما انتهت، اعترف بأن الرغبة ساورتني، بان أراها تنشر، ولو لم يكن ذلك إلا لأبين لبعض الناس أني لست عديم الأهلية تماماً.

أرسلتها، أولاً، إلى ناشر في باريس ردها إليّ بعد بضعة أسابيع مصحوبة برسالة لطيفة هي نفسها، دون شك، التي ترسل إلى الكتاب المرفوضين.

فكرت عند ذلك بروائي قرأت كل كتبه لأني كنت أجد نفسي، إلى حد ما، فيها. كان المؤلف الوحيد من المؤلفين الذين قرأت لهم، الذي كانت شخصياته تعطي الانطباع بأنها بشر مثلي لها المشاكل نفسها، الشواغل نفسها وصورة الاستجابة نفسها.

قلت لنفسي إن هذا الرجل الذي يكاد، حسبما تقول تراجم حياته، أن لا يكون أكبر عمراً مني، سوف يفهمني، وأرسلت إليه مخطوطتي ورسالة شرحت له، فيها، ربما بصورة خرقاء، لماذا توجهت إليه.

على عكس كل توقع، أجابني، خلال أسبوع. أني متأسف، الآن، لبادرة الغيظ التي جعلتني أمزق رسالته إلى قطع صغيرة ألقيت بها في النار. كنت أظن أن كل جملة منها كانت منقوشة في ذاكرتي، وعندما أود الاستشهاد بها، لا أصل إلى إعادة تكوينها. أحرقت المخطوطة أيضاً، وكانت الدموع في عيني وأنا أرى الأوراق تشتعل بين الحطب.

ماذا قال لي بالضبط، وما الذي ترك فيَّ، من رسالته، هذه المرارة؟ هل هي الكلمة المناسبة حقاً؟ ألم أحس خاصة بالمهانة كما عندما يباغتك أحد في موقف مذل؟

إنه، بالتأكيد، «قرأني من الأول إلى الآخر، باهتمام حقيقي»، وأضاف أنها كانت «وثيقة إنسانية» ووجدت، في الجملة نفسها، كلمة «مؤثرة»، لكن المرء «لا يحس بأنه أمام عمل أدبي بالمعنى الحقيقي للكلمة، بسبب هذا على وجه الضبط». لم يستعمل كلمة «اعتراف» التي أحسست بها، مع ذلك، في ذهنه.

« لا أعتقد أني أخطئ إذا فكرت في أنه يمكن مماهاتك بشخصيتك وفي أنك، نفسك، عشت في برهة حديثة إلى حد كافٍ...»

لم أكن أخفي ذلك، ولو صدر الكتاب لما قصر كثيرون عن التعرف عليّ. لماذا حنقتُ إذن؟ كان ذلك لأنه كانت هناك، بالضبط، تلك العبارة العتيدة التي لا أجدها والتي كانت صريحة والمتحفظة معاً، جملة كان يجب، وهو الكاتب، أن يكون قد فكر، فيها، برهة طويلة.

«لدى قراءتك، يحصل المرء على الانطباع المؤلم، إلى حد كافٍ، بأنه يشهد، على الرغم منه...».

ما أهمية الكلمات بعد كل شيء، لقد فهمت. كان يقول لي أن المرء يحس بأنه يصبح نوعاً من متلصص، سيد يتلذذ بمباغتةِ الأمور القذرة التي تجري لدى الجيران.

وبعبارة أخرى، كنت مصاباً بعقدة الاستعراء، لا أكثر ولا أقل...

كان الأمر يدور، وقد قلت ذلك، حول قصتنا، إيرين وأنا. لم أكن أخفي شيئاً. لا أخجل من شيء. من المحتمل، فضلاً عن ذلك، أن أعود إليها. إلا أنه سيكون لقصتي، هذه المرة، بسبب موت العم أنطوان وعودة إدوار المدهشة، بسبب كل ما جرى في هذه الأيام الأخيرة، طابع أقل شخصانية، ولن يعود يمكن مقارنتي بشخصيات معينة أراها، أحياناً، تظهر فجأة خارجةً من المباول لدى مرور خادمة صغيرة.

سوف أتهم، دون شك، بخيانة الأسرة، بتلطيخ اسم أسرة هويه، بغسل غسيلنا القذر في الميدان العام. لا يهمني هذا. فهناك من الناس الذي يعطون أنفسهم حق الانشغال بي ما يكفي كي يكون لي، بدوري، حق الانشغال بالآخرين.

زوجتي تقرأ في سريرها دون أن تعلم أني أكتب. بين حين وآخر. أسمعها تقلب الصفحة لأن باب الغرفة كان منفرجاً. سوف تسألني، بعد قليل، دون أن ترفع صوتها:

- ماذا تفعل؟

سأجيب، كالعادة:

- لا شيء.

لن تلح، ستشعل لفافة، مقلبة صفحات أخرى قبل أن تنظر إلى الساعة وتتمتم:

- ألن تنام؟

- حالاً...

استغرق الوقت الكافي لأدس أوراقي في علبة رسم احتفظ، فيها، بمخططات قديمة ولا يخطر في بال أحد، وخاصة في بال إيرين، أن تفتحها.

الاثنين في ٦ تشرين الثاني

مساء الثلاثاء، عشية عيد جميع القديسين، كان يجب أن نتعشى في المنزل مع نيكولا ماشران الذي كنا نحن الاثنان نسميه نيك والذي كنا نخاطبه برفع الكلفة على الرغم من فرق العمر. حوالي آخر بعد الظهر، هتف من باريس التي دعته إليها أعماله لبضعة أيام ليعلن لزوجتي أنه لن يستطيع العودة إلا في قطار الليل.

أكلنا، إذن، منفردين، وأسرعت أديل، الخادمة في الخدمة لأنها قررت الخروج. انتهينا بالذهاب إلى السينما. أخرجت إيرين السيارة من مرآب البناية، بينما كنت انتظر على الرصيف، وكانت هي التي قادت كما تفعل دائماً، تقريباً، وهو شيء طبيعي لأنها كانت سيارتها.

بسبب الشوارع الوحيدة الاتجاه، مررنا أمام المسرح الكبير المضاء كما لو كان ذلك من أجل احتفال، ولاحظت أن الأشخاص الذين يترجلون عند أول الساحة المعمدة ارتدوا ملابس السهرة. كنت أجهل أنه كانت تقدم، في هذه البرهة، حفلة موسيقية كبيرة، ومن باب أولى أن كوليت تحضرها مع جان فلوريو.

انتهينا بالدخول إلى سينما ريالتو التي كانت موجودة عندما كنت شاباً يافعاً وجددت منذ ذلك الحين. اجتزنا، ونحن خارجان، شارع الكاتدرائية، من طرف إلى الآخر، ثم شارع الشارترو. وإذا كانت السماء لم تمطر بعد، فقد كانت في الجو رطوبة تجعل الأنوار أقل حدة وتعطيها شيئاً من الغموض.

قلت مقترحاً:

- ماذا لو شربنا كأساً؟

- إذا كنت تريد....

كنا أمام المقهى الحديث الذي كان دافئاً جداً وضاجاً بالمحادثات، ورأيت، فيه، بعض بزات السموكنغ وبضعة فساتين سهرة. حييت، بيدي، اثنين من معارفي. فحصت إيرين، بنظرتها الحسيرة، الوجوه من حولها على أمل أن تجد أصدقاء كان من الممكن أن نمدد السهرة معهم لأنها كانت، عندما تخرج، تكره العودة إلى البيت باكراً.

ومع ذلك، نهض كلانا، عند منتصف الليل، لنذهب إلى سيارتنا المتوقفة تجاه الكاتدرائية.

لا أتذكر ما قلناه... لم نتحدث كثيراً، نادراً ما يتفق لنا إجراء محادثة حقيقية، وانتظرت، من جديد، على الرصيف، بينما كانت تعيد السيارة إلى المرآب.

كانت مصادفة أن لا نكون قد مررنا، في طريق عودتنا، برصيف نوتردام كما يتفق لنا كثيراً. وعلى الرغم من كون الرصيف قريباً جداً من مركز المدينة، من كونه يشكل، عملياً، جزءاً منه، فإنه يؤلف منطقة ظلام وصمت.

كانت الكتلة القاتمة لدار الأسقفية التي لا يرى قط منها سوى نافذتين مضاءتين أو ثلاث، متبوعة بحديقة ذات جدران عالية ثم بدارات ذات بوابات يعود تاريخها إلى بداية القرن التاسع عشر. ثالث هذه الدارات، أضخمها كتلة، والمبنيّة كلها بالحجر الرمادي، كانت دارة عمي أنطوان. وما زلت أتذكر الانطباع الذي كونته عن هذا البناء الثقيل في اليوم الذي قالت لي، فيه، أمي، وأنا طفل صغير جداً، أثناء مرورنا به:

- هنا يسكن عمك أنطوان.

بل إني لم أنقطع، فيما بعد، وقد غدوت من بطانة البيت، بقدر ما يمكن لأحدنا أن يكون من هذه البطانة، عن تهيب الفخامة التي يتصف بها رصيف نوتردام، تهيّب ثرائه المتكبر الفظ.

نسكن في حي جديد، حديث أصبح أحد أكثر الأحياء تطلعاً إلى السكن فيه. كان جيراننا من كبار الأطباء والمحامين والصناعيين المهمين. وكانت سيارات جميلة تصطف، ليل نهار، على طول الأرصفة. كل ذلك، إذا كنت أستطيع أن أعبر عن نفسي بهذه الطريقة، يبقى في إطار الحياة، ويمكن للمرء أن يتخيل ما يجري وراء الستائر، كيف يتصرف الناس، ما يقولون لبعضهم بعضاً على المائدة. ولا يدهش المرء للتعرف عليهم في السينما أو في المقهى.

لا شك في أني، بسبب ذكريات طفولتي، أجد مشقة في تخيل أحد سكان رصيف نوتردام في السينما. في بعض الأحيان، تبقى ستائر إحدى النوافذ مفتوحة ويكتشف المرء سقفاً بنتوءات ثقيلة، جدراناً من الصوان أو مغطاة بديكورات خشبية. من النادر أن يلمح خيال، وكان، دائماً، خيال عجوز دون حراك.

ماذا كان سيحدث لو سلكنا، في ذلك المساء، في طريق عودتنا إلى بيتنا، طريق رصيف نوتردام وكنت، بالتأكيد، سألقي بنظرة آلية على بيت عمي. هل كان، فيه، نور عند منتصف الليل؟ هل عادت كوليت من قبل؟ هل كانت سيارة جان فلوريو باقية أمام الباب؟ هل كانت هناك قرينة ما تسمح للمرء بان يخمن، من الخارج، أن مأساة وقعت حديثاً وأن مأساة أخرى ستحل بقدر أدنى من الفجائعية؟

أرانا، من جديد، في غرفتنا، مشغولين بخلع ملابسنا. لدى رؤيتي إيرين تخلع جوربها، انتابتني رغبة في مضاجعتها، ثم فكرت في أنها كانت سيئة المزاج طيلة السهرة وفي أنها ستتخذ وضعية الاستسلام فعدلت.

- ليلة سعيدة.

- ليلة سعيدة.

- هل ستذهب إلى المقبرة صباح غد؟

- ما لم يكن المطر أقوى مما ينبغي.

زوجتي لا تذهب إلى المقبرة في عيد جميع القديسين، ولا في يوم الأموات، على الرغم من أن أمها مدفونة فيها. لا تتحدث أبداً عن أبيها الذي فقدته وهي في حوالي العاشرة من عمرها.

لا يزال لها، في المدينة، في حي غران فير، في جهة الورشات والمصانع، عمة أوعمتان، أبناء وبنات عم، لكنها قطعت صلاتها بأسرتها نهائياً. إنها تعيش كما لو لم تكن لها طفولة أو شباب. إنها لا تقول: «عندما كنت صغيرة» أو، أيضاً: «كان لي عم....».

هذا الماضي شطب، محي لكونه ربما أكثر بؤساً مما ينبغي. أصبحت شخصاً آخر لم تعد له أدنى علاقة مع أسرتي التابويه واللوازو اللتين انحدرت منهما.

لم أعد أذهب إلى القداس منذ سن الخامسة عشرة مسبباً يأس أمي التي كانت تحضره كل صباح والتي لها مركع خاص في الكنيسة، لكني بقيت وفياً لبعض التقاليد كذهابي إلى المقبرة في صبيحة يوم عيد جميع القديسين أو في يوم الأموات.

كنت أنوي الذهاب مبكراً لأن نيكولا ماشران سيتغدى، دون شك، في البيت. عندما نهضت دون صوت ومضيت إلى غرفة الطعام، كانت الريح قد بدأت تهب، وكانت السماء منخفضة مع جيوب ماء معلقة. كان هناك أناس يمشون بسرعة، أيديهم في جيوبهم، في الممر الذي يقطع قطرياً حديقة النباتات.

كنت قد أنهيت حمامي وحلاقتي عندما فوجئت بسماع جرس الباب. نادراً ما نتلقى زيارات غير متوقعة، خاصة في صباح عيد جميع القديسين، وفتحت، قليلاً، باب غرفة الطعام لأتأكد من أن أديل ستفتح.

كانت دهشتي أكبر، أيضاً، عندما سمعت صوت أمي التي لم تطأ قدماها بيتي منذ أكثر من ثلاث سنوات، على وجه الإجمال منذ أن بدأ نيكولا يرتاده، ومنذ أن أخذ الناس يتقولون بصددنا. استمريت في رؤيتها في بيتها، دون إيرين طبعاً، وحاولت مرات عديدة أن تتبهني.

- قل لي يا بليز، ألا تظن أن هذا سينتهي بالإساءة إليك؟

في هذه الأحوال، كنت أتصنع البراءة لأنه موضوع يستحيل أن أناقشه معها. ستكون آخر من يفهمني في العالم.

- يسيء إلي؟

- يزعم بعضهم أن مسألة تجريدك من مكانك في مدرسة الفنون بحث فعلاً.

- دعيهم يقولون.

- لا أفهمك. لو تعلم كم تجعلني تعسة! عندما أفكر في أبيك البالغ التشدد، البالغ الاستقامة، الذي لم يكن ليقبل سنتيماً من أحد.

كانت، مع ذلك، أمي هي التي تقرع بابي في صباح أحد أعياد جميع القديسين، هي التي تنتظر في غرفة الجلوس أن أنهي، على عجل، ارتداء ملابسي.

سأل صوت نائم في ظلمة الغرفة الخفيفة:

- ما هذا؟

أجبت إيرين:

- إنها أمي. لا أدري لماذا هي هنا؟

وجدتها في ملابس رسمية، ترتدي الأسود مع رائحة بخور خفيفة، كما بدا لي، منبعثة من ملابسها. كانت عيناها حمراوين. كانت تشهق وفي يدها منديل سألتني بشيء من الريبة:

- ألم تعرف النبأ بعد؟

- أي نبأ؟

توقفت نظرتها عند الهاتف.

- لديك، مع ذلك، هاتف......

لم يكن لدى أمي هاتف. كانت ترفض، بإصرار، وضعه في منزلها

- أتساءل لماذا لم يخبروك.....

- من؟

- ابن عمك. كان في إمكان جان أن يهتف لك أو أن يكلف زوجته بذلك إذا كان مشغولاً أكثر مما ينبغي.

كانت تتحدث عن فلوريو، زوج ابنة عمي مونيك، الذي كان في عمر الثامنة والثلاثين، طبيب قلب مشهوراً

- عمك أنطوان مات...أنا متأكدة من أنهم أخبروا الجميع ما عداك......

كانت تنظر حولها بقلق كما لو كانت تخشى أن ترى زوجتي تظهر، وسألت بصوت منخفض:

- أين هي؟

- نائمة.

- أأنت واثق من أنها لن تنهض؟

- لن تنهض، قبل ساعة بالتأكيد، اجلسي.

بقيت أمي واقفة وبقيت، أنا، كذلك على الرغم من الخبر الذي حملته لي، كانت تجد الوسيلة لتقوم، بنظرة ناقدة، إن لم تكن مستنكرة، بجرد محتويات غرفة الجلوس. وكنت أعلم جيداً أن ما يصدمها لم يكن الحداثة وحدها. كانت تقدر سعر السجاد والموكيت واللوحات. كنت متأكداً من أنها تفكر كما يلي: «ليس ما يكسبه أستاذ رسم صغير هو الذي....»

أتساءل عما إذا لم أكن أشد حزناً منها بسبب الخبر الذي نقلته. لم أكن، كأعضاء أسرة هويه الآخرين، أذهب، إلا بصورة متباعدة، لرؤية عمي في منزله في رصيف نوتردام.

كنت أجده، دائماً تقريباً، جالساً، وظهره إلى النار، في مكتبه ذي السقف العالي جداً، المفروش بالكتب. كانت نظارتان كثيفتان تعطيان نظرته هيئة السذاجة.

كان يتمتع بتهذيب يمنعه من التعجب لزيارتنا والتظاهر برؤيتها طبيعية، وكان يدل على المقعد المواجه له.

- كيف زوجتك؟ وصحتك؟

بقي، في عمر الثانية والسبعين، مرناً، متيقظ الذهن مثل رجل في إبان شبابه. كان جسمه قصيراً، عريضا، كثيفاً، وبما أنه وقف، دائماً، محنياً، فقد كان يحمل على التفكير في غوريلا.

يذكرني هذا بجملة قالتها أمي ذات مرة. كنا خارجين، فيها، من عنده:

- ما أتعس أن يكون المرء بهذا القبح!

وكان صحيحاً أنها سرعان ما أضافت:

- لكنه ذكي جداً!

العم أنطوان، آخر الأحياء من جيله في أسرة هويه، كان قبيحاً فعلاً. كان وجهه العريض أكثر منه عالياً يذكر ببعض المنغوليين الذين يرون، في الأفلام، يلعبون أدوار الخيانة، وكان يوجد في منتصفه أنف صغير ومسحوق بشكل مضحك، غارق، تقريباً، في لحم الخدين الرخو. سألت أمي:

- من الذي أعلمك بالنبأ؟ وفي البدء، متى حدث ذلك؟

- مساء أمس، لم يعرف في أية ساعة تم ذلك. هذا الصباح، ذهبت إلى القداس في الكاتدرائية بدلاً من الذهاب إلى القديسة بربارة قائلة لنفسي أني سأكون إذ ذاك، في منتصف الطريق إلى المقبرة. لدى خروجي، التقيت مونيك ولديها.....

مونيك هي ابنة عمي التي تزوجت جان فلوريو، الطبيب. لهما ابنتان في الثامنة والثانية عشرة من العمر.

- تصور أن مونيك لم تنم في الليل مساء أمس. بالضبط، خرج زوجها مع كوليت.....

سبق أن قلت ذلك، كوليت هي زوجة عمي أنطوان. كانت أصغر منه بإحدى وثلاثين سنة، ويخمن المرء من مجرد طريقة أمي في التلفظ باسمها، عالماً من أفكار غير معبر عنها.

- إنهما صديقان حميمان، هل كنت تعرف ذلك؟

لم أكن أجهل أن فلوريو كان يرتاد بيت رصيف نوتردام أكثر من باقي الأسرة. مونيك لا تفكر إلا بابنتيها وترفض، دائماً تقريباً، أن تخرج مساء. أنطوان لم يكن يخرج أبداً. لذلك كثيراً ما كان فلوريو، عندما تقدم مسرحية أو حفلة موسيقية، يدعو كوليت..

كانت أمي ترصد ردود فعلي مقارنة، احتمالاً، بين هذا الوضع ونظيره في بيتي.

- قلت، دائماً، إنها مجنونة.

- كوليت؟

- هستيرية على كل حال......أعرف ما أعرفه....لايهم ليس هذا وقت الحديث عن ذلك، وفضلاً عن ذلك، ..... سيكون الحديث طويلاً جداً.

كانت لا تزال تراقب الباب غير ناسية وجود زوجتي غير المرئي في الشقة.

- باختصار، ذهبت كوليت وفلوريو، معاً، إلى الحفلة الموسيقية...بقي عمك أنطوان، وحده، مع فرانسوا، ويبدو أنه آوى إلى سريره حوالي التاسعة والنصف.

عرفت فرانسوا، دائماً، في رصيف نوتردام وأستطيع أن أقسم على أنه لم يتغير منذ طفولتي. كان، وهو السائق ورئيس الخدم والخادم

الخاص، من يتولى أمر تشغيل الخدم الآخرين ويقودهم لأن كوليت لا تنشغل بالمنزل.

- ذهب فرانسوا، بعد أن اطمأن إلى أن عمك لم يكن يحتاج إلى شيء، كي ينام في الطابق الثالث، ولم يسمع شيئاً. حوالي منتصف الليل، أعاد فلوريو كوليت، ولما رأى أنه لم تعد هناك أضواء، لم يدخل ورحل منذ أن أعيد إغلاق الباب.

في البيت، كانت مونيك تنتظر زوجها لأنها لم تكن تنام، أبداً، قبله، كانت البنتان نائمتين. قفزت عندما سمعت جرس الهاتف وخيل إليها، أولاً، أنه كان من مريض أو من المستشفى. كادت أن لا تتعرف على صوت كوليت. كانت هذه الأخيرة تتكلم كهذيانية دون أن تعرف ما تقول. صرخت أولاً، قائلة:

- النجدة! لقد مات.

تستطيع أن تتخيل ذعر مونيك التي لم يكن زوجها قد عاد بعد.

- أين أنت؟ ما الذي حدث؟

- أنا في بيتنا.... وجدته ميتاً في سريره.

- العم أنطوان؟

- يجب أن يأتي جان حالاً...لم أعد أعلم...أنا خائفة.

- وفرانسوا؟

- ما بِه فرانسوا؟

- أليس في البيت؟

- لا أدري. لم أره. لم أر أحداً. أنا وحدي تماماً.... أنا خائفة.... هذا فظيع.

- اقرعي الجرس لفرانسوا أولاً. أنا واثقة من أنه لم يغادر البيت.

- سأحاول، نعم... أود، مع ذلك، أن يأتي جان فوراً.... ربما كان لا يزال هناك ما يمكن عمله.

- أليس ميتاً؟

- لا أدري ....أعتقد....نعم.....

أمي نقلت عن مونيك أن كوليت لم تعد السماعة إلى مكانها ولا بدَّ أنها تركتها تتدلى.

أما مونيك فقد لبثت عند العتبة ترقب عودة زوجها. رأت مصابيح السيارة، هرعت إليها، وفلوريو، الذي كان لا يزال في السموكنغ والمعطف استدار بسيارته. قالت أمي بفراغ صبر:

- يجب أن نذهب إلى هناك. اذهب وأخبر زوجتك.

كانت لا تزال تخشى أن توجد وجهاً لوجه مع إيرين.

- سأروى لك الباقي في الطريق......

وعندما نهضت وجدت خبراً جديداً تنقله إليّ.

- يزعمون أن مصيبة لا تأتي، أبداً، وحدها....أتعرف من يوجد في المدينة منذ عدة أيام، على ما يبدو؟ إنه ابن عمك ادوار! ماذا يمكن أن يعني هذا؟ وكيف سيجري كل هذا؟....

كل كلمة من هذه الكلمات تصبح، في فم أمي، دراماتيكية لأن لديها حس المصيبة.

- سآتي حالاً......

وجدت إيرين جالسة في سريرها تنهي إفطارها. سألتني بنظرة. قلت مع شيء من اللهاث الذي انتقل إليّ، على الرغم مني، من أمي:

- مات العم أنطوان.

نظرت إليّ زوجتي مدهوشة، وفي يدها قطعة كيك.

- لقد تجاوز السبعين من العمر، أليس كذلك؟

- يبلغ الثانية والسبعين، أو الثالثة والسبعين، لم أعد أدري بالضبط.

- ألم يكن يعاني من القلب؟

- ككل أفراد أسرة هويه. ومع ذلك، فقد دفنهم جميعاً.

- هل ستذهب إلى هناك؟ هل ستعود للغداء؟

- لا أدري.

مدت لي جبينها الذي قبلته مشتت الذهن. تبين لي، فجأة، أن العم أنطوان لم يكن، أبداً، في ذهني، أو، بالأحرى، في لا شعوري، رجلاً كأي رجل آخر تماماً. لم يكن هذا فقط، وأنا متأكد من ذلك، لأن جيلاً كاملاً من أسرة هويه، جيل أبي، كان يزول معه.

أتذكر أن فكرة خطرت لي، في تلك اللحظة، لم يتيسر لي الوقت لإيلائها كثيراً من الانتباه. ابن العم ادوار الذي أتت أمي على التحدث إلي عنه والذي عاد إلى الظهور، بصورة غامضة، في المدينة، كان، بعد الآن، كبير الأسرة. كان في الحادية والأربعين من عمره، أي أكبر مني بسنة ومن شقيقي لوسيان بأربع سنوات.

عندما عدت إلى أمي سألتها:

- هل أخبروا لوسيان؟

- افترض أنه سيكون قد علم في الجريدة...

ذلك أن أخي كان يعمل محرراً في جريدة «المخبر»

- هيا بنا، الآن، يا بليز!

أخذت معطفي ونزلت، مع أمي في المصعد واتجهت نحو مرآب البناية. كانت تتبعني بخطوات سريعة لأنها لم تكن، أبداً، أطول من العم أنطوان.

- ألا تظن أننا نصل بالسرعة نفسها إذا سرنا على أقدامنا؟

وقفت أمام السيارة ذات اللون الأزرق الفاتح، الأنثوية جداً، وأخذت أفتش جيوبي بشكل محموم، اعترفت قائلاً:

- نسيت المفتاح فوق.

- لنذهب على أقدامنا يا بليز...أؤكد لك أني أفضل هذا....

ذلك لأنها كانت ترى أن السيارة ليست سيارتي، بل سيارة زوجتي!

اجتزنا الحديقة منحنيين إلى الأمام بسبب الزوابع، وكانت أمي مرغمة على الصراخ لأسمعها.

- أنت تعرف فلوريو. إنه رجل بارد، سيد ذاته، دقيق....يؤكدون أنه طبيب كبير، لكن هناك آخرين ليسوا في هذا التصنع..وجد أنطوان ميتاً في سريره، وهناك كوليت التي ارتمت، منذ أن سمعت خطواته على الدرج، على الجسد وهي تزعق بكلمات غير مترابطة..يبدو أن الطاهية مجازة وأنه لم يكن، في البيت، من امرأة سوى خادمة صغيرة، في السادسة عشرة من عمرها، بلهاء إلى حدٍ كافٍ.

بدأ ابن عمك بالاهتمام بكوليت... كان مرغماً على أخذها بالقوة إلى غرفتها حيث جردت من ملابسها لوضعها في السرير...أعطاها حقنة مهدئة...يجب أن يظن أن ذلك لم يكن كافياً لأن فلوريو، سمع، في البرهة التي كان، فيها، يهتف لزوجته، من الغرفة المجاورة ليطلعها على الوضع، سمع ضجة وصرخات رعب.

عندما هرع إلى الغرفة، وجد كوليت التي كانت قد فتحت النافذة على مصراعيها، بشكل أدى إلى كسر زجاج، تحاول أن تلقي بنفسها في الفراغ، في حين كانت الخادمة الصغيرة تتشبث بها......

لا أدري ما إذا كان ذلك تمثيلية...ليس هذا مستحيلاً...المجانين أنفسهم يمثلون، وعندما كانت صبية، كانت تريد أن تمثل على المسرح...وقد تابعت دروساً...

- من قال لك؟

- هي نفسها، في ذات يوم طلب، فيه، عمك إليّ أن أتناول الشاي معها لأنها كانت في أحد تجليات مزاجها الأسود....

اجتزنا الحديقة، تركنا على يسارنا أعمدة قصر العدل الرمادية، وكنا نتجه نحو الجسر القديم حيث كان المارة يمسكون بقبعاتهم في العاصفة.

- يمكنك أن تتخيل انفعالات مونيك! لقد تركت مرتين متواليتين على الهاتف. عندما طلبها زوجها، ثانية، بعد بضع دقائق، طلب منها أن تخطر المستشفى، من جهته، كي ترسل إليه ممرضة في الحال.

لم يعد إلى بيته ليبدل ملابسه إلا في الساعة السادسة صباحاً.

لم أسأل أمي عن سبب موت عمي لأن الإجابة كانت تبدو لي جلية. فأبوه، جوليان هويه، مؤسس الأسرة إجمالاً، أودت به نوبة قلبية حوالي عمر الرابعة والخمسين، غداة الهدنة، عام ١٩١٨. ابنه الثاني، فابيان، والد كل من ادوار، عضو الأسرة السيئ، ومونيك، زوجة الدكتور، عايش، خمس سنوات، نزلة صدرية قتلته في عمر الخامسة والأربعين. أما أبوه، ثالث أبناء هويه، فقد هوى على مكتبه الهندسي عشية سنواته الخمسين.

الآن، وقد مات أنطوان، بدوره، فلم يبق من هذا الجيل سوى ابنة جولييت التي يجب أن تكون في حوالي الستين والتي كانت تدير، منذ ترملها، على مرتفع كورباسييد، في المدخل الشمالي للمدينة، مؤسسة شحن. كانت تدعى، الآن، لوموان. لها أبناء وأحفاد أكاد أن لا أعرفهم من وجوههم، كما يحدث في فرغ منفك عن الأسرة.

كنا نسير موازيين لواجهات البيوت الواسعة النبيلة عندما أمسكت أمي بذراعي فجأة.

- أتساءل عما إذا كان ما يزال هناك وقت للتحدث مع ابن عمك فلوريو...حتى الساعة السادسة من هذا الصباح، لم يكن قد قال شيئاً إلا لزوجته، لكني أفترض أن الطبيب الشرعي قد مر منذ ذلك الحين...

نظرت إليها مدهوشاً، في البرد، في الريح، التي كانت تكسو وجهها بالزرقة وعند ذلك، تركتني وهي تلتفت لتتأكد من أنَّ أحداً لم يكن يسمعها.

- على حد قول فلوريو، لم يمت أنطوان ميتة طبيعية....ربما قَتَل نفسه بالسم.

(٢)

الثلاثاء في ٧ تشرين الثاني

ضغطت على الزر الضائع في وسط نجمة برونزية ثقيلة، وبقينا واقفين أمام البوابة، أمي وأنا، متهيبين، نستمع إلى صمت البيت. كانت أصابعي، على الرغم من القفازين، خدرة، وكان منخراي وجفوني رطبة.

عندما فتحت نافذة، رفعنا رأسينا في الوقت نفسه، لكنها كانت نافذة بيت مجاور كانت امرأة عجوز ساكنة تراقبنا منها بوجه خال من التعبير. هل كانت تعلم من قبل؟ فتح باب من الداخل. رنت خطوات على أرض القبة وانفرج، أولاً، الباب الصغير الذي أنشئ في أحد مصراعي البوابة، قبل أن يفتح إلى حد يكفي لمرورنا.

- يا لها من مصيبة يا فرانسوا!

للمرة الأولى تبين لي أن فرانسوا كان أكبر سناً من عمي، ولن يدهشني كونُه يقترب من سنته الثمانين. كان حديث الحلاقة، يرتدي السواد كعادته، مع ربطة عنق ذات بياض ناصع تكاد أن لا تكون أكثر بياضاً من وجهه الذي كان مع ذلك، متعباً والذي كانت قسماته ترتسم بمبالغة كما لو كانت على كاريكاتور.

لم يرد على أمي مكتفياً بهز رأسه. تنتهي القبة بباب مزجج يؤدي إلى ردهة واسعة إلى حد كاف في آخرها صف من الحظائر القديمة وفي وسطها شجرة زيزفون هائلة.

كان باباً مزججاً آخر مفضياً إلى باحة معمدة في أعلى سبع أو ثماني درجات من الرخام الأبيض، هو الذي اجتزناه. كان أحد أبواب الطابق

الأرضي مفتوحاً، لكن المصاريع الداخلية كانت مغلقة ولم يكن يرى، في الظل، سوى انعكاسات على نقوش الأثاث.

أعرف هذا الطابق الأرضي لكوني قد لمحت غرفه وأنا مار، ولكوني ذهبت لأنقب فيه بينما كان أبواي يثرثران في مكتب عمي. لم تكن سوى صالونات: اثنان كبيران وواحد صغير، مظلمة في وسط النهار، مع بورتريهات قديمة ومناظر ذات أطر مذهبة معلقة على الجدار، وفي الصالون الأول لوحة جدارية قديمة تغطي جداراً كاملاً تمثل صيداً بواسطة الكلاب. الردهة، وحدها، كانت تبلغ ضعفي غرفة جلوسنا أو ثلاثة أضعافها، وكانت مبلطة بالرخام الأبيض أيضاً. كانت ملساء ومصقولة إلى حد يتعرض، معه، المرء للانزلاق عليها. كان عمودان يحملان زنوجاً برونزية تمتشق مشاعل، وسلالم مزدوجة المصراع مغطاة بسجادة بلون الرمان يؤدي إلى الطابق الأول.

كل ذلك كان خالياً مع سكون مهيب، غياب مطلق لرعشة، لأصوات وروائح في الجو. لا أتذكر أنه تكوّن لدي هذا الانطباع إلا في المتاحف.

لم يكن ذلك بسبب موت عمي. عرفت بيت رصيف نوتردام، دائماً، بهذا الحياد، بهذا الانعدام للإنسانية باستثناء غرفة العمل التي كانت تبدو الحياة والحرارة مركزتين فيها.

لم نستقبل حقاً، أبداً، أبي وأمي وأنا، في البيت، ولا أظن أن عضواً في الأسرة، باستثناء فلوريو احتمالاً - ولست متأكداً من ذلك أيضاً - قد تناول، فيه وجبة.

كنا نأتي في زيارة.. في بعض المرات، رأيت كأساً من البورتو وسيغاراً يقدمان إلى أبي. ما كان يقدم، في أغلب الأحيان، هو الشاي وقطع من الحلوى الجافة مختلفة عن كل الحلوى التي أكلتها في أي مكان آخر.

ومع ذلك. فقد استُخدمت صالونات الطابق الأرضي ذات المقاعد الصلبة المغطاة بقماش دمشقي وبروكار، وكذلك استخدمت قاعة الطعام في الطابق الأول أيضاً. لا أتوصل إلى تخيل حفلات العشاء والسهرات هذه. أعرف أسماء بعض

المدعوين، رجال وقورون، مهمون، مصرفيون فرنسيون وأجانب، ساسة وربما رؤساء دول بلدان صغيرة كانوا يلجؤون إلى معارف عمي.

صعدنا في الصمت، نحن الثلاثة، إلى الطابق الثاني ودفع فرانسوا، دون كلمة، باباً، وخطت أمي خطوتين أو ثلاثاً مترددة قبل أن تتجمد وترسم إشارة الصليب.

كان أنطوان هويه ممدداً على سريره في الوضع التقليدي للموتى ويداه متصالبتان على صدره. لم تغلق الستائر ولم تشعل شموع، وكان ضوء الخارج البارد والرمادي هو الذي ينيره. كنت أفهم أن ذلك كان يصدم أمي، أنها كانت تبحث، بعينيها، عن أحدهم. خرج فلوريو من الغرفة المجاورة مرتدياً ملابس رمادية ورمادي اللون هو أيضاً، لأنه لم ينم.

- يا إلهي يا جان!

نظر إليها بعينيه الصافيتين اللتين لا تعبران عن شيء ما لم يكن عن شيء من فراغ الصبر احتمالاً:

- من الذي أخطرك يا عمتي؟

- زوجتك....لقد التقيتها لدى الخروج من القداس وروت لي كل شيء. يا إلهي يا جان! لماذا لم يسدلوا الستائر؟ لا يمكن للمرء أن يصدق أن هذه غرفة ميت.

وأضافت بشيء من الضغينة عالمة بأن فلوريو لم يكن ممارساً للشعائر:

- بل إنهم لم يضعوا سبحة بين أصابعه! سأضع له سبحتي.

- لا يستحق الأمر هذا العناء يا عمتي.

- لماذا؟ ماذا تعني؟

- سيأتون لأخذه.

- لأخذه؟

- حاولي أن تبقي هادئة. الأمور بالغة التعقيد. أنتظر، من لحظة إلى الأخرى، مفوض الشرطة، جاء الطبيب الشرعي منذ قليل، وهو من رأيي.

- هل كنت تحتاج، فعلاً، إلى أن تقول له ذلك؟

- كنت ملزماً بهذا. الأمر أعقد من أن أشرحه لك. أنا طبيب ولم يكن يحق لي.....

- هل أنت على يقين من أنك لست مخطئاً؟

- متأكد.

أصبحت اللهجة جافة.

- ماذا سيفعلون به؟

- سيأخذونه إلى المشرحة لتشريح جثته.

- وهل أنت الذي ستتولى ذلك؟

كانت فظة بدورها، مهددة تقريباً، كما لو كان عليها، مع أنها ليست من أسرة هويه إلا بالزواج، أن تتولى أمر الدفاع عن شرف الأسرة.

- كلا، بل الطبيب الشرعي. إنها القاعدة في حالات الانتحار.

- حتى بالنسبة لرجل مثله كان له أصدقاء في مراكز عليا؟

كنت قد لاحظت، على طاولة الليل، كاساً فارغة تقريباً وزوج نظارات وعلبة كانت لا تزال تحتوي على أقراص ميالة للبياض.

- لماذا قد يفعل ذلك يا جان؟ كان لديه كل ما يريد.

تركت أمي فكرتها الخفية تظهر بمتابعة كلامها قائلة:

- كيف حال كوليت؟ زوجتك قالت لي.....

- اعترتها نوبة ثانية لدى استيقاظها...أرغمت على إعطائها حقنة أخرى.......الممرضة إلى جانبها، سوف تؤخذ، بعد قليل، إلى عيادة سان جوزيف.

- يا للمرأة المسكينة!

كانت أمي تكرهها، لكنها كانت تتكلم مع فلوريو الذي كان يعتبر عشيق كوليت. كان هذا، على كل حال، ما يتهامسون به في الأسرة.

لم تكن أمي تحب فلوريو بدوره، لكنها كانت تكن له شيئاً من الاحترام لأنه كان طبيباً معروفاً يتحدثون عنه كبروفيسور مقبل، وربما، أيضاً، لأن هدوءه وبروده لم يكونا يسمحان بأي تأثير فيه.

- ألا تعتقد أنها كانت، دائماً، مجنونة قليلاً. سمعت أن أمها ماتت في مأوى في الجنوب....

ولم تضف ما كان على طرف لسانها:

«....وأن أنطوان هو الذي كان يدفع النفقات....»

فضلت، مرة أخرى، أن تغير الموضوع. لاحظت مقتربة من السرير:

- إنه جميل تقريباً.......

كان ذلك صحيحاً. فقد انتزع الموت من وجه عمي ما كان فيه من تشويه، من رخاوة، وانبعثت منه طمأنينة مؤثّرة. بل لقد تشكل لدي الانطباع بأني فاجأت على زاوية فمه ابتسامة لم أرها، أبداً، في حياته.

- ألم يترك أية رسالة؟ هل تفهم، أنت، أن يرحل هكذا دون أن يقول شيئاً؟

الجملة التالية أثارت ظنوني لأن كل شيء، كل كلمة، كل صوت، كل صمت، له حساب مع أمي.

- أنت تعلم أن إدوار في المدينة منذ عدة أيام، أليس كذلك؟ أجهل ما إذا كان قد ذهب ليرى زوجته وأولاده، لكن ذلك سيدهشني. ومع ذلك، كانت زوجته، كما يبدو لي، على درجة كافية من الغباء كي ترسل له مالاً عدة مرات.

هل بدأ فلوريو، بدوره يحس بأن الأمر آت؟ لم يكن يبدو عليه ذلك. كان يصغي بأدب في الوقت نفسه الذي كان يبدو، فيه، أنه ينتظر شيئاً ما بضيق، مجيء مفوض الشرطة دون شك. يجب أن يكون قد نقم على زوجته لأنها تحدثت إلى أمي في حين لم يكن قد انتهى كل شيء.

- ماذا ستفعل إذا جاءك؟

كنت أعلم الآن، لماذا جاءت إليّ أمي، في بيتي، باكراً، مجازفة بلقاء إيرين.

كان فلوريو أول من وصل إلى المكان، وليكن ذلك مصادفة لأنه كان قد خرج مع كوليت في ذلك المساء، ولأنه هو، بصورة طبيعية، الذي هتفت له هذه الأخيرة عندما وجدت زوجها ميتاً. ولذلك أمسك فجأةً بزمام الأمور. ألم يتحدث منذ قليل، كأن الأمر لا يعني سواه، عن إرسال عمتي إلى عيادة؟

ما كان لن يلبث أن يستخلص من أقوال أمي هو أن فلوريو ليس من أسرة هويه. وحتى لو كان منها، فإنه لن يكون كبير الأسرة الحي.

البكر كان هذا الإدوار الذي عاد للتو إلى الظهور في المدينة على نحو لا يُفسَّر ويبعث على القلق.

طرحت أمي السؤال أولاً على فلوريو الذي كان يتخذ، وقتياً، صورة سيد البيت.

- ماذا تفعل إذا جاءك؟

لكنها لم تدع له الوقت للإجابة والتفتت نحوي.

- وأنت يا بليز؟ ماذا ترى في ذلك؟ أنت البكر بعد إدوار.

ألم يقسم العم أنطوان لأمه على فراش موتها بأن ثروته ستذهب إلى أسرة هويه مهما حصل؟ جرى ذلك عام ١٩٤٨، في هذا البيت نفسه الذي لم تكن كوليت قد وطأته بعد والذي كان يبدو آنذاك أنها لن تطأه أبداً.

كانت أنطوانيت هويه في الحادية والثمانين من عمرها، وكان ابنها في الخمسين. كنت، في ذلك العهد، في الثامنة والعشرين وسرت، كباقي الأسرة في الجنازة. كان الجميع يبحثون، بعيونهم، عن كوليت التي كان وجودها معروفاً متسائلين عما إذا كانت ستجرؤ على الظهور. لم تفعل. ولم يتحدث أنطوان المرهق مع أحد عملياً.

إلا أنه كان كل واحد يكرر، منذ ذلك اليوم، الوعد الرسمي المعطى لأمه المحتضرة. ماذا كانوا يعلمون عن ذلك؟ لم يكن أحد قد شهد هذه المحادثة الأخيرة.

ومنذ ذلك الحين، استمر تأكيد الأمر بثقة حتى بعد زواج أنطوان.

- في ذات يوم، سنرث..

كانت أمي واثقة من ذلك. وكانت العمة صوفي، أرملة عمي فابيان - والدة ادوار ومونيك - التي اقتربت من التاسعة والسبعين، تشاطرها هذا بالتأكيد.

ألم تكن أمي قد أتت هذا الصباح لتراقب ميراثها؟ ألم تكن قد جاءت بي دعماً لأن دم هويه يجري في عروقي؟

سُمع أنين في الغرفة المجاورة التي بقي بابها منفرجاً، وسألت أمي:

- هل تتوجع يا جان؟

أجاب بتعالٍ، كطبيب لا يحب أن يتحدث في الطب مع أناس غير قادرين على الفهم:

- في الوقت الحاضر، لا تشعر بشيء بفضل الحقنتين، ولن تستعيد الوعي إلا في العيادة.

حتى ذلك الحين، تكوّن لدي الانطباع بثلاث شخصيات، لا واقعية تقريباً، في فراغ البيت. وكان الصمت الذي يبدو منبعثاً عن الميت يعطي صوتي أمي وفلوريو نغمة غريبة.

كان صوت جرس مخنوق رن في مكان ما، في غرفة مجاورة أو في رواق، بمثابة إشارة. وبعد أقل من ربع الساعة، ازدحمت الغرف التي كانت ضروب الرواح والمجيء قد قطعت جمود الجو فيها، بمجهولين كان مثاراً للدهشة أن يرى بينهم عضو في الأسرة لم يشهده أحد يدخل.

بدأ ذلك بمفوض الشرطة المصحوب بسكرتيره أو معاونه. كان الاثنان في وضعية رسمية وكان أنفاهما محمرين من البرد.

قدم ابن عمي نفسه:

- الدكتور جان فلوريو.

- أعرفك بالاسم يا دكتور.

نظر المفوض إلى أمي ثم إليَّ نظرة متسائلة:

- عمتي.... ابن عمي بليز هويه ....

خلال كل الوقت الذي استغرقه الحديث بين أمي وفلوريو، اتفق لي، عدة مرات أن ألقي، خلسة، بنظرة إلى الميت. ولم يكن يدهشني أن أراه يفتح عينيه ويشارك في الحديث بصورة غير متوقعة.

لم يعد الأمر نفسه الآن وقد حضر المفوض، وربما كان الاعتراف بذلك طفلياً. كنت أستطيع أن أنظر، دون اضطراب في الوجه المتجمد في تعبير هادئ. ودت أمي لو تبقى. سأل الموظف:

- أهي شقيقته؟

- زوجة أخيه.

سعل المفوض كمن ينتظر شيئاً لا يحضر، وفهم فلوريو.

- يجب أن تذهبي، لبرهة، إلى كوليت يا عمتي.

ابتعدت على مضض ومطمئنة قليلاً، مع ذلك لأني لم أستبعد، وكانت النظرة الأخيرة التي ألقت بها علي تتضمن توصية.

- هل رأيت الدكتور باجيس أيها المفوض؟

- تركته منذ ربع ساعة. أطلعني ......

نظر للمرة الأولى إلى السرير المواجه فرسم إشارة الصليب وبقي برهة، دون حراك كما يحدث عندما يقفون، في المجالس، دقيقة صمت. ثم أشار إلى القارورة على طاولة الليل.

- أفترض أنه المنوم. هل كنت طبيبه؟

- اتفق لي أن فحصته، في المناسبات، مرتين أو ثلاثاً، إلا أنه كان له طبيب معالج، زميلي بونّار.

- أهو الذي وصف هذا الدواء؟

- مع موافقتي التامة. لم يكن عمي يستعمله دائماً، بل في حالات الأرق فقط.

- كان يعرف، بالطبع، الجرعة التي يستطيع أن يتناولها.

- كان رجلاً حريصاً. على حد قول فرانسوا، الخادم، القارورة فتحت منذ أسبوع تقريباً. لم يكن، إذن يجب أن ينقص منها إلا نصف دزينة من الأقراص. حسب ما بقي، أستطيع أن أظن أن عمي تناول، منها، ثلاثين قرصاً مساء أمس.

- قيل لي أن زوجته كانت غائبة.

- صحبتني إلى المسرح الكبير حيث أقيمت حفلة. أنزلتها أمام بيتها حوالي منتصف الليل.

- وأنتَ، ألم تصعد؟

- كلا. عندما وصلت إلى بيتي، كانت قد هتفت لزوجتي لتطلعها على ما جرى ولتطلب أن أعود فوراً.

- حوالي أية ساعة، في رأيك، حدثت الوفاة؟

سمعت خطوات ثقيلة، أصوات، احتكاكات على الدرج. دخل فرانسوا إلى الغرفة وتكلم، بصوت منخفض، مع ابن عمي.

- هل تسمح أيها المفوض؟ جاء حملة المحفات لأخذ عمتي إلى عيادة سان جوزيف.

عبر رجال بقمصان بيضاء يعتمرون طاقيات على غرار الجراحين في الغرفة، ترددوا لحظة لدى رؤية الميت في سريره متسائلين، احتمالاً، عما إذا كان هو الذي يجب أن يأخذوه.

تبادل المفوض ورفيقه بضع كلمات بصوت منخفض. ولف المعاون القارورة بمنديل دسه في جيب معطفه. سأل قائلاً:

- والكأس أيضاً؟

- لا أظن هذا ضرورياً.

التفت لدى سماعي إجهاشة صغيرة غريبة ودهشت لرؤية أمي تبكي. كان باب الاتصال مفتوحاً. راحت ممرضة بلباس رسمي رمادي مزرق تساعد حملة المحفة على وضع عمتي التي كانت دون حراك على المحفة وتمسح فمها الذي كان خيط من لعاب يسيل منه.

أفترض أن فرانسوا المسكين لم يكن يفعل شيئاً خلاف الصعود والنزول، لأني التقيت الآن مونيك زوجة فلوريو، التي جاءت لتتضم إلى زوجها وتبحث عنه في الغرف. وما كادت تغيب عن أنظاري حتى كان رجال المشرحة هم الذين يصطدمون بحملة عمتي. كان رجال المجموعتين متعارفين. وراحوا يتبادلون التحيات والإشارات الغامضة. قال صوت أمي في أذني:

- أتساءل عما إذا لم يكن عليك أن تهتف إلى أخيك؟

وما إن أخذوا كوليت حتى طلب منا أن نخرج من الغرفة ليحملوا جثمان عمي أنطوان. وبعد أن عبرنا حماماً لم نكن نعرفه، وجدنا أنفسنا في غرفة نوم صغيرة مفروشة بالحرير الرمادي حيث كان لا يزال على الأرض خفان كرزيان، وعلى ظهر كرسي رداء منزلي.

تنهدت أمي قائلة:

- أنطوان يذهب بدوره...ألا يعني ذلك أنه لن يعود هناك أحد في البيت باستثناء فرنسوا العجوز وخادمة في السادسة عشرة من العمر؟

رأيت، من جديد، المفوض ورفيقه على المنبسط حيث كان فلوريو يصافحهما. في اللحظة نفسها فوجئت برؤية أخي الذي يصعد على الدرج. ربما يكون أكثر ما أدهشني هو الغليون في فمه، كما لو أنه ينجز ريبورتاجاً مبتذلاً.

لوسيان أصغر مني بثلاث سنوات، إلا أنه يبدو لي أن الحياة تركت أثراً أقوى فيه. كان جاداً في عمله، يعيل زوجة وثلاثة أبناء. لم يكن يقتصر على العمل كل الليالي في «المخبر» التي يعمل مدير تحريرها، بل كان يجري ريبورتاجات لصحف باريسية ويكتب كل أسبوع، مجموعة من عروض الأخبار.

كان قليل الاعتناء بنفسه، يبدي شيئاً من اللامبالاة وأسنانه صفراء إلى الدرجة التي يمكن أن تكون عليه لو لم يغسلها أبداً.

- كيف علمت؟

- بطوافي بالهاتف، ككل صباح، على أقسام الشرطة....أعلمني عريف من أصدقائي بان عمي أنطوان قد مات....وبأن المفوض موجود في الموقع. هل تعلم أمنا؟

كانت تلك اللحظة التي حملوا، فيها، الجثمان، وكان علينا أن نلتصق بالجدار. سمع في قفص السلم صوت امرأة يسأل:

- من قرر هذا؟

تعرفت، فوراً، على صوت العمة جولييت، شقيقة أبي وأنطوان، تلك التي تزوجت لوموان، صاحب مؤسسة الشحن، والتي أخذت، بين عشية وضحاها، بعد ترملها، تدير المشروع.

لا بدَّ أنها أرغمت على الوقوف في الطابق الأول للسماح لرجال المشرحة بالمرور مع حملهم، ومن جديد سمع صوتها الرنان.

- أهكذا تدعون أنه لا تحق لي حتى رؤيته؟

وافتنا أمي إلى المنبسط، في حين كان فلوريو وزوجته يتهامسان في غرفة عمي حيث كان السرير خالياً.

- ما هذه القصة؟

ظهرت العمة جولييت في الدرج غير مبهورة الأنفاس أبداً، وفي يدها مظلة كانت تستخدمها كعكاز لأنها كانت تعاني من ساقيها. مضت سنتان، على الأقل، لم أرها خلالهما، وكان لقاؤنا، أيضاً، في مخزن كبير، مصادفة.

- من الذي اتخذ، هنا، كل هذه القرارات؟ ذهاب كوليت إلى العيادة مقبول. كان يجب أن تكون، فيها منذ زمن طويل! أما أخذ جثمان أخي دون أن أتمكن فقط من رؤيته على سرير موته.....

نظرت إلى أمي.

- أ أنت هنا؟ مع ابنيك.....

كانت قد أتت مع واحد من أبنائها، أصغرهم، موريس الذي كان يساعدها في مؤسسة النقليات. كنت لا أزال أجهل وجوده. أوقفه، كما أوقف أمه، الموكب النازل، فبقي ليسائل فرانسوا، وظهر في الدرج فقط.

- سأشرح لك يا عمتي......

واجهها فلوريو باحترام وحزم معاً.

- يؤسفني أن يبدو عليّ أني أتدخل فيما لايعنيني، لكن ليس لي، على عكس الظواهر، أي نصيب في القرارات المتخذة... العم أنطوان انتحر، والقانون ينص، في هذه الحالة...

- كيف تعرف ذلك؟ كيف تعرف أنه انتحر؟ هل ترك رسالة؟

- لم نجد شيئاَ. الفحوص الطبية لا تدع مجالاً للشك.

- أ أنت الذي أجريت الفحوص؟

لم يفقد شيئاً من هدوئه، واقتربت منه زوجته كما لو كان ذلك لتقدم له مساعدتها الصامتة.

- الطبيب الشرعي جاء هذا الصباح في ساعة مبكرة، مفوض الشرطة غادر منذ قليل.

- وهكذا سيقطعون أخي المسكين بذريعة أنه قد انتحر...

ما كان يزيد من غرابة المشهد أنه يجري على المنبسط الذي كان، لحسن الحظ واسعاً، أمام باب الغرفة المفتوح حيث يرى السرير غير المرتب وحيث لم يجرؤ على الدخول.

لم يكن أحدنا من رواد البيت حقاً ولم يتخذ أحد، بالتالي، مبادرة اقتحام واحدة من الغرف، أو النزول إلى غرفة طعام الطابق الأول مثلاً، ومن باب أولى أحد صالونات الطابق الأرضي المظلمة.

- ماذا قالت كوليت قبل أن تذهب؟ إنها، بعد كل شيء، زوجته شئنا ذلك أم أبيناه.

- لم تقل شيئاً. أصيبت بصدمة عنيفة في الليلة الماضية، حاولت الانتحار......

- محاولة حقيقية؟ ألم تكن تمثيلية؟

- لولا أن تشبثت بها الخادمة الصغيرة، ولولا أني وصلت في الوقت المناسب، لكانت قفزت من النافذة.

- هل تظنها مجنونة؟

- ليس من شأني تقرير ذلك. إنها، في رأيي، ليست مجنونة دون أن يعني ذلك أنها في حالتها السوية.

- كم من الوقت ستستمر حالتها غير السوية؟

- في هذه الساعة، يعنى بها طبيب اختصاصي...

عمتي جولييت مربوعة كرجل، مع كتفي وحركات رجل وصوت ذكوري تقريباً. لم يكن ابنها، إلى جانبها، يتفوه بكلمة وكان ظاهراً أنه اعتاد على عدم الكلام في حضور أمه. لاحظته بانتباه وبدا لي أنه كان أشد ثلاثتنا غربة في البيت. إنه فتى طويل، بملامح ثقيلة وقامة شخص عامّي. لم يكن

يعرف ماذا يفعل بيديه الضخمتين، وكان يطلق، أحياناً، نظرة مختلسة، شبه مذعورة، على الغرفة.

كان رائجاً في الأسرة أن العمة جولييت أساءت الاختيار بزواجها من لوموان الذي بدأ حياته كسائق شاحنة.

- من الذي سيهتم بكل شيء الآن؟

كانت العمة جولييت هي التي لا تزال تتكلم والتي تبدو ممسكة بزمام الأمور.

سألت أمي بسذاجة مصطنعة:

- يهتم بماذا؟

- يجب أن يدفن، أليس كذلك؟ من الذي سيرسل أوراق النعي ويهتم بالموكب، بالكنيسة ب...

تجرأ أخي، مفاجئاً إياي، على الكلام.

- الكنيسة لا تسمح بجنازة دينية للمنتحرين.

- وهل ستعرف الكنيسة؟ ربما تعرف ما لم نكن نعرفه، نحن، عن ذواتنا. هذا الرجل مات وحيداً في سريره، وما جرى ليس من شأن أحد.

بقي أخي كاثوليكياً جداً، بل كان مناضلاً، وكان لزمن طويل، رئيس رعية أبرشيته. قال:

- لا يمكن أن نغش.

- ومن يتحدث إليك عن غش؟ أعرف الدين بقدر ما تعرفه. لا أحد يستطيع أن يقول ما فكر فيه أخي قبل أن يموت، بل لا يستطيع أحد أن يقسم على أنه كان في عقله السليم عندما أخذ هذا الدواء.

تبادلنا النظرات بارتباك لأنه لم يكن لدينا إجابة على سؤال عمتي. من سيهتم بأوراق النعي، بالنشر في الصحف، بهيئة دفن الموتى؟

نظرت إلى أخي. كنت متأكداً من أنه كان يحترق رغبة لاقتراح نفسه، لا عن مصلحة، لا عن رغبة في إبراز ذاته ولا ليلعب دوراً هاماً، بل لأنه كان الرجل الذي يتولى، دائماً، أعمال السخرة. من المؤكد، في الجمعيات التي كان عضواً فيها، لاسيما في جمعيات الإحسان، إن اسمه كان متبوعاً بكلمة «أمين مساعد» أو «أمين صندوق مساعده» وهو ما كان يعني أنه يفرض على نفسه كل العمل.

ومع ذلك، كان أضعفنا، جميعاً، صحة. زوجته معتلة الصحة أيضاً. كان لديه، دائماً، ولد مريض، وهو ما لايمنعه، بعد يوم عمله، من إنهاك نفسه بأعمال لا يفرضها عليه أحد.

في الحقيقة، لم أكن بعيداً عن أن أحسده، وأتساءل عما إذا لم يكن أسعد أفراد أسرة هويه على الرغم من كونه أفقرهم. فاجأت أمي تلكزه. التفت، أولاً، نحوها ليحتج، ثم تمتم قائلاً:

- إذا لم يكن هناك شخص آخر...

لم يرفّ للعمة جولييت جفنٌ:

- لا بدَّ من وجود دفتر عناوين يمكن أن تجد فيه قائمة بأسماء من يجب إخطارهم. لا تنس، خاصة، عمتك صوفي. أبلغها النبأ بمداراة، ما لم تكن مونيك قد فعلت ذلك من قبل.

هزت مونيك رأسها.

- سوف يجد فرانسوا هذا لك بالتأكيد...أين فرانسوا؟

شاهدنا الخادم العجوز يخرج من غرفة لم أكن أعرفها.

- ربما أمكنك يا عزيزي فرانسوا أن تقدم لنا ما نشربه. ماذا نفعل، جميعاً، هنا، على المنبسط؟

كانت أول من نزل ومظلتها لا تزال في يدها، متبوعة بابنها البهيم، ودخل الآخرون وراءها إلى غرفة الطعام التي فتحت بابها بسلطة.

- هل لديك بورتو؟

كان أبوها، جول هويه، صاحب فندق ومطعم الغلوب، في شارع شارترو، مشهوراً، في تاريخ الأسرة، بأنه رجل يتناول، طواعية، كأساً صغيرة مع زبائنه. وقيل، أيضاً، أنه إذا مات غداة الهدنة، فذلك لأنه أفرط في الاحتفال حتى الفجر. غالباً ما أكدت لي أمي قائلة:

- لو لم يشرب إلى هذا الحد لعاش العمر الطويل الذي عاشته زوجته.

أمن أجل ذلك لم يكن أبي يتناول الكحول، ونادراً ما كان يسمح لنفسه بكأس خمر؟ عمي فابيان لم يكن يشرب بدوره. أنطوان الذي مات منذ قليل، بإرادته، كان يكتفي بمقبل قبل العشاء.

كانت العمة جولييت، على ما يبدو، الابنة الوحيدة في الأسرة التي ورثت ميول الأب هويه، وكانوا يزعمون أنها تشرب النبيذ الأحمر مع سائقيها. بينما كان فرانسوا يضع على الطاولة كؤوساً من الكريستال المنحوت، وبينما كانت عمتي جولييت تتهالك على كرسي، سحب فلوريو ساعته من جيبه.

قال، وهو يبحث عن زوجته بنظرته:

- يجب أن أذهب إلى عيادة سان جوزيف.

فهمت هذه الأخيرة.

- هل تستطيع أن توصلني إلى البيت في طريقك؟

نقص الجمع اثنان. بقينا خمسة، العمة جولييت، ابنها موريس، أمي، أخي وأنا. أمام سبع كؤوس وصب فرانسوا البورتو بيد مرتعشة.

ساد صمت طويل. قررت أمي أن تجلس بدورها، وكذلك موريس، في حين بقينا، أخي وأنا، واقفين. كنت أرى من النافذتين الكبيرتين، أشجار الرصيف وماء النهر الرمادي، الذي كان الهواء يرفع فيه موجات صغيرة ميالة إلى البياض، أناساً على الجسر كانوا يمرون حاملين زهور الأقحوان.

تنهدت عمتي، مدت يدها لتمسك بكأس.

- في صحتكم يا أولادي.

وكررنا، كل بدوره، كالترديد في القداس:

- في صحتكم....

- في صحتكم.....

أضافت أمي قائلة:

- في صحتك يا جولييت.

قرعت الكؤوس بحكم العادة. انسحب فرانسوا على مهل، أجهل ما حل بالخادمة الصغيرة التي لم أرها ثانية خلال كل الصبيحة. ربما انتهت بالنوم بكل ملابسها، على سريرها.

كانت صورة بالحجم الطبيعي لعمي في ثوب المحاماة والرداء الفضفاض، مع ربطة عنق ضابط كبير في جوقة الشرف تهيمن علينا في سكونها.

قالت عمتي بعد أن أفرغت كأسها:

- حسناً! يتملكني، أنا، الفضول لمعرفة ما وراء كل هذا من دسائس!

بدا عليها أنها تبحث عن دعم بيننا. سكتنا مرتبكين، بمن فينا أمي التي لم تكن بعيدة عن هذا التفكير، لكنها كانت تفضل أن تدع مسؤولية الهجوم الأول لعضو حقيقي في أسرة هويه.

تابعت جولييت قائلة:

- إنه أمر غريب أن يفعل أخي هذا، بالضبط في ليلة خرجت، فيها، كوليت مع هذا الفلوريو المدعي.

التفتتْ نحو أخي كما لو كان يفترض في لوسيان أن يعرف عن ذلك أكثر مما نعرف.

- أصحيح أنهما كانا يخرجان كثيراً معاً؟

ورد لوسيان مرتبكاً:

- لا أدري يا عمتي....

عند ذلك التفتت إلى أمي.

- أتعرفين مطعم لاهوشيت في غابات البارود؟ كلا! أنت لا تخرجين من حيك. يبدو أنه ليس، فقط، مطعماً يرتاده عليةُ القوم في المدينة، بل إن غرفاً تؤجر، فيه، أيضاً....أحد أصهاري، ارنست الذي يملك مقلعاً غير بعيد عن هناك يدعي أنه رأى، عدة مرات، سيارة فلوريو أمام هذا المكان....إنه رأى، مرة واحدة على الأقل، كوليت خارجة بصحبته.

نظرت إلينا، من جديد، كل منا بدوره، كأنما لإجبارنا على اتخاذ موقف.

- هذا الفتى هو الذي يتحدث، اليوم، عن انتحار وتشريح... لكن، هل كان ذلك سيحدث لو لم يتفق له أن ضاجع عمته؟

نهضت مرتاحة، صبت لنفسها كأساً من البورتو، شربته دفعة واحدة، نظرت إلى ابنها وأمرته قائلة:

- تعال يا موريس.

التفتت على الباب كأنما انتابها قلق.

- هل أنتم باقون؟

أسرعت أمي.

- كلا! أنا نازلة معك يا جولييت.

لم يبق سوى أخي وأنا أمام سبع كؤوس، وتمتم لوسيان قائلاً:

- يجب أن أطلب دفتر العناوين من فرانسوا.

رافقته دون أن أقول شيئاً.

(٣)

اليوم نفسه، العاشرة مساءً

كتبتُ الصفحات السابقة خلال بعد الظهر لأنه ليس لدي، في يومين من أيام الأسبوع، الثلاثاء والخميس، سوى دروس صباحية. حصلت، بفضل العم أنطوان، على وظيفة أستاذ رسم في مدرسة الفنون الجميلة التي كانت قاعاتها الواسعة والباردة والمزودة بكوىً هائلة بلا ستائر وتطل على باحات وأسطح، تتحد بمتحف الرسم.

شيد البناء في الوقت نفسه الذي بني، فيه، الكونسرفاتوار والمسرح الكبير، حوالي منتصف القرن الماضي، وقت عرفت المدينة نهوضها الصناعي. إلا أنه على الرغم من أجيال التلاميذ التي تعاقبت، لم يتخرج من المدرسة رسام ذو قيمة حقيقية. بعضهم اكتسب شهرة محلية. ويوجد لوحات للأقدم بينهم في بيوت كبيت عمي. بعضهم ذهب إلى باريس، وعرض، مرة أو مرتين، في صالون الخريف قبل أن يصبحوا مجهولي الاسم.

أعطيت درسي، إذن، هذا الصباح، لحوالي أربعين صبياً وبنتاً، وخاصة لبنات، تتراوح أعمارهم بين السادسة عشرة والثامنة عشرة، يرتدون قمصاناً بيضاء. هذا ما يسمى، في لغة المدرسة، درس الجص. تلاميذي ينسخون، من أول السنة إلى آخرها، بأقلام الفحم نقوشاً بالجص على الطراز القديم، يداً أحياناً، قدماً، ثم جذعاً، وأخيراً رأساً لإمبراطور روماني أعمى.

بعد ظهر هذا اليوم، خرجت إيرين للتسوق، وللذهاب إلى الحلاق، وما لا أدري لأي شيءٍ أيضاً، وأفدت من ذلك لأكتب قطعة كبيرة.

نيكولا ماشرين جاء للعشاء مبكراً، وبدا لي أنه قد سمن. كان، وهو في الثامنة والخمسين من عمره، يزن أكثر من تسعين كيلوغراماً، وبدأ يمشي وبطنه يتقدمه وساقاه متباعدان قليلاً.

يتوسل إليه طبيبه أن يتبع حمية غذائية ولا يكف عن توصيته بالتمارين، لكنه لا ينشغل بقوامه أكثر مما يبدو مشغولاً بصحته. كأنه يحس بمتعة ما لكونه ثقيلاً، مشوهاً تقريباً. إنه يأكل ثلاثة أضعاف ما آكل. وهذه متعته الكبيرة في الحياة.

عندما يتعشى عندنا وهذا ما يتفق له، بانتظام، ثلاث مرات في الأسبوع، وغالباً أربعاً بل وخمساً، كان يهتف إلى زوجتي مقدّماً ليناقش معها قائمة الطعام. في موسم الصيد، خاصة، وهو ما عليه الحال الآن، كان غالباً ما يمر بالسوق، صباحاً، وهو ذاهب إلى مكتبه، ويرسل إلينا طيور حجل، دجاجاً برياً، سيقان يحمور أو خنزير بري.

إنه هو، أيضاً، الذي يقرر بشأن الخمور التي ملأ بها، فضلاً عن ذلك، قبونا. يشتهر بأنه صلب في الأعمال، لا يرحم. يرتجف معاونوه ومستخدموه وعماله أمامه. هذا يعود، في رأيي، إلى أن وجهه الكثيف يستطيع، بين ثانية وأخرى، أن يفقد كل تعبير. هذا لا يحدث بيننا مطلقاً. إنه، في ذلك الحين، رجل مرح، طيب يدهش المرء لرؤيته يستمتع بقصص ساذجة أو بذيئة.

لكني أتذكر عدة مناسبات كان لدينا، فيها، ضيوف حددهم بنفسه لأنه يكره المتطفلين. إذا حاول أحدهم، مثلاً، مخدوعاً بمزاجه، أن يختلس منه معلومة مالية أو أن يستخلص ربحاً ما من هذا اللقاء، فإنه ينغلق فجأة، وتصبح نظرته جامدة، كأنما دون حياة، دون أدنى حرارة إنسانية، وكان المتطفل يحس بأنه أصبح شيئاً من الأشياء.

أعلم أن هناك أناساً يتخيلون أني إذا كنت أبذل جهدي لتحسين صورتي لدى العموم، فإني خاضع في بيتي وأني أدفع بمهانات يومية ثمن الرفاهية والترف اللذين يحيطان بي.

سيفاجئهم جداً أن يرونا، نحن الثلاثة، على المائدة أو نتناول، بعد العشاء، في غرفة الجلوس، القهوة أو الكحول. فسواء صدقوا ذلك أم لم يصدقوا، لم يكن بيننا أي حرج.

في ذلك المساء، وربما كان ذلك لأنه مر أسبوع، بالضبط، على موت عمي أنطوان، دار الحديث حوله. لقد عرفه نيكولا ماشران جيداً. لقد كانا يعيشان في الوسط نفسه، يلتقيان في أمكنة لا يمكنني الوصول إليها وليس لدي سوى فكرة مبهمة عنها. قال نيكولا:

- لجأت عدة مرات إليه. في إحدى المناسبات، أنقذ لي عشرات الملايين. سيخلق موته فراغاً لأني لا أرى من يستطيع أن يحل محله.

إذا كان عمي الذي لم يرافع، قط، في الجنايات، غير معروف جيداً من الجمهور، فقد كان شخصية هامة في فئة اجتماعية معينة تتعاطى الأعمال الكبيرة العالمية وليس القومية فقط. كان اختصاصه القانون الدولي، وعُرِضتْ عليه عدة مرات عضوية محكمة لاهاي.

كان مُشَرِّعاً أكثر منه محامياً، ونادراً ما كانت القضايا التي كان يعمل فيها تصل إلى المحاكم المدنية. كان يركب، مرتين أو ثلاثاً في الشهر، الطائرة إلى ميلانو أو لندن أو أمستردام دون أن نذكر باريس التي شغل فيها، دائماً، الشقة نفسها في فندق بعيد عن الأضواء في الضفة اليسرى.

كان هذا الجزء من حياة أنطوان خافياً على الأسرة. إلا أننا كنا نعده رجلنا الكبير. هو الشخص الذي كنا نقصده، باستحياء، في الأوقات الصعبة. كان يستقبلنا استقبالاً ودياً. لم تخطر له فكرة إنكار أحد منا، حتى لو كان ادوار الذي أبدى حياله تسامحاً أكبر من الذي أبداه إزاء باقي الأسرة.

لقد حضر كل زيجات أسرة هويه معزولاً، قليلاً، في المآدب بسبب حرجنا واحترامنا.

أتساءل الآن، عما إذا لم يكن هو الذي كان محرجاً لعدم شعوره بأنه على المستوى نفسه معنا. كان يسرّه، وأنا مقتنع بذلك، أن يرى أحدنا يدخل

مكتبه. كانت عيناه الصغيرتان تشعان كما لو أنه يستعيد، لدى اتصاله بنا، شيئاً من طفولته.

- كيف أنت يا بنيّ؟ كيف إيرين؟

لم يكن ينسى اسماً. لم يكن يضيع في تشعبات الأسرة. دهش أخي لوسيان، من جملة آخرين، أن يسمعه يسأل عن أخبار مولوده الأخير الذي لم يره عمنا أبداً، ولم يعلم بقدومه إلى العالم إلا عن طريق بطاقة كرتونية مبتذلة.

- احكِ لي يا بني....

كان يسمينا، جميعاً، أبناءه. كان يعلم أننا إذا أتينا إليه، فلم يكن مصادفة وأننا لم ندخل إلى بيت رصيف نوتردام المهيب، ونحن مارون.

عندما كنت متزوجاً حديثاً، أشد الشيطان من ذيله، حدثته عن وظيفة أستاذ كانت شاغرة في مدرسة الفنون الجميلة، سألني ببساطة:

- من المسؤول عن؟

- أفترض أنه المدير.

هز رأسه.

- كلا. المدير ليس إلا شخصاً يتلقى الأوامر. أفترض أن مدرسة الفنون الجميلة تابعة للمدينة.

- أظن ذلك.

- في هذه الحالة، كل شيء هو من شأن العمدة. إنه راديكالي اشتراكي. أعرف رئيس حزبه.

رفع سماعة الهاتف، جرى ذلك، كما نرى، على مستوى أعلى بكثير من مرشح مغمور لوظيفة أستاذ.

لم يكن العم أنطوان يتنفس الهواء نفسه الذي نتنفسه. كان يعيش في عالم تبدو، فيه، كل مدلولاتنا مضحكة ووضيعة. عندما أنكر على العمة

صوفي، لدى وفاة العم فابيان، حقها في المعاش التقاعدي بسبب ما لا أدري من الخفايا الإدارية، كان الوزير، شخصياً، هو الذي توجه إليه، وانتهى الأمر في ثلاثة أيام.

- أتعتقد أنه انتحر يا نيك؟

عندما يكون مع زوجتي على انفراد فإنهما يرفعان الكلفة في الخطاب، واتفق لي أن فاجأتهما دون أن أريد. في العلن، أو في حضوري، كانا يتخاطبان بضمير الجمع دون أن يخطئا ابداً. ومع ذلك، كنا، نيكولا وأنا، نتخاطب بناء على طلبه، بضمير المفرد، وهو ما صعب عليّ طويلاً بسبب فرق العمر، أولاً، ولأنه كان شخصية أهم مني بكثير.

- يجب أن نظن ذلك ما دام الجميع متفقين عليه.

- بسبب زوجته؟

- هذا محتمل. ليس هذا هو السبب بالضرورة.

- أي مبرر آخر كان له لينتحر؟ طبيبه يؤكد أنه لم يكن مصاباً بالسرطان وبأي مرض غير قابل للشفاء. لم يكن عاجزاً. أفترض أنه لم تكن لديه متاعب مالية.

التفت نيكولا ببطء نحوها وهو يبتسم بشيء من الحنان، ابتسامة كالتي خيل إلي أني رأيتها على شفتي عمي في صباح عيد جميع القديسين. أعتقد أن زوجتي تضايقتْ من ذلك.

- لماذا تنظر إليّ هكذا كما لو كنت بنتاً صغيرة جاهلة لا تنطق إلا بالحماقات؟

- لا لشيء. أنت فاتنة يا إيرين، لكنك لا تستطيعين أن تفهمي.

- ماذا هناك للفهم؟ لا ينهي المرء حياته دون سبب، أليس كذلك؟

- هناك أسباب كثيرة للذهاب!

- ماذا مثلاً؟

بدرت عنه حركة غير محددة بيده السمينة واستمر يأكل. كالعادة، لم تستطع إيرين أن تسكت. إنها لا تدع محادثة تنتهي قبل أن يتكون لديها الانطباع بأنها انتصرت.

- هل كان يحبها حقاً؟

- كان يحبها على طريقته.

- وهذا يعني؟

- كان قد قرر أن يسعدها. كان يحتاج إلى أن يسعد أحداً ما، شخصاً على الأقل.

- لماذا اختارها، وهي الفتاة الفاقدة لكل توازن، فهي تبقى، أحياناً، ثلاثة أيام أو أربعة في قعر سريرها والستائر مسدلة، دون أن تسمح له بدخول الغرفة، وينتابها، في أحيان أخرى، هياج محموم؟ كانت معتوهة، أليس كذلك؟

بقي ظل ابتسامة متسامحة على شفتيه كما لو كان يجهل أن زوجتي تكره التسامح أكثر من أي شيء آخر. أجاب نيكولا وهو يقشر أجاصته:

- لا أدري.

- غالباً ما تعشيتَ في بيتهما. لقد رأيتهما معاً. يبدو أنه كان يتفق لكوليت، أمام عشرة ضيوف أو أحد عشر، أن تنهض عن المائدة وتصعد، دون أية كلمة، إلى غرفتها من أجل أن لا تعود إلى الظهور طيلة السهرة. أليس كذلك؟

- حضرت المشهد مرة.

- ماذا كان يقول؟

- كان يشحب لونه، لا غضباً كما يمكن للمرء أن يظن، بل قلقاً. كان يجد لضيوفه عذراً مقبولاً بدرجات متفاوتة، وكان يصعد، بعد انتهاء العشاء ليسأل عن الأخبار عبر الباب.

- كانت، على وجه الإجمال، تسخر منه؟

- لا أظن ذلك.

- كانت تخدعه أيضاً. أليس صحيحاً أنها اكتشفت، في ثالث أو رابع يوم من اختفاء لها، مريضةً في غرفة فندق قذر ذهبت إليه مع مجهول؟ بل قيل إن رفيقها رحل في الليلة الثانية حاملاً معه حقيبتها وحلاها ومعطف الفرو؟

- سمعت عن ذلك.

- أهو صحيح أم لا؟

- إنه محتمل.

- وتزعم أن هذه المرأة كانت تحبه؟

هذا التأكيد كان، بالنسبة لإيرين، تمويهاً. كانت تحس بنفسها مهانة من جراء ذلك، وكنت أراها قريبة من الدموع. أحس نيكولا بذلك أيضاً، وحاول تدبير الأمور بعموميات دون أن يتراجع مع ذلك.

- هناك أنواع كثيرة من الحب.

- أكان النوع سيَروق لك؟

كان ذلك تحدياً. الشجار لم يكن بعيداً إلا أنه كان عليهما أن يذهبا، معاً، إلى المسرح حيث كانت فرقة جوالة تقدم إحدى أحدث المسرحيات الناجحة في باريس.

- شخصياً لا. كانت هناك فروق كبيرة بين عمك وبيني.

لم تستطع أن تمتنع أن تقول من بين أسنانها:

- آمل في ذلك.

تجنبنا، نيكولا وأنا، تبادل النظر من أجل أن لا نذكي النار بالابتسامة التي كنا لن نقصر في تبادلها.

ذهبت زوجتي للتجمل وأخذ فرائها. على عكس ما يمكن أن يظن، لم نفد، ماشران وأنا، من بقائنا منفردين، لنعلق على الحادث. فأنا وهو لا نتحدث، فيما بيننا، عن إيرين ولا عن أي شيء يتصل بها.

تبادلنا، بكل بساطة، عبارات مبتذلة عن المسرحية التي كانا سيحضرانها وعن فرص هطول الثلج، لأن السماء أصبحت كتلة بيضاء موحدة مع أن العاصفة قد توقفت ولم تعد السماء تمطر. كانت هذه الأخيرة منخفضة جداً، ثقيلة جداً، وبعد ظهر اليوم، قبل غياب الشمس بقليل، كان هناك ارتعاش في الجو، غبار غير مرئي وبارد يمكن أن يتحول إلى رقاع.

قلت بصورة طبيعية تماماً:

- تسليا جيداً.

بعد المسرح، ستقترح إيرين، بالتأكيد، أن يذهبا لشرب زجاجة من الشمبانيا في التاباران، الملهى الجديد الذي تقدم، فيه، حتى الساعة الثانية صباحاً، برامج جيدة إلى حد مقبول. سأنعم إذن، بالهدوء في مكتبي. مهندس الديكور الذي استخدمناه صمم، من أجلي، مكتباً صغيراً حديثاً ومريحاً إلى جانب غرفة الجلوس. وقد ألحيت، بسبب مكتب العم أنطوان احتمالاً، على الحصول على موقد، ومن حين إلى آخر، كنت أنهض لأضع، فيها، حطبة.

أود أن أنتهي، هذا المساء، من يوم عيد جميع القديسين لأن أحداثاً أخرى وقعت في ذلك الحين وأنا مهدد بأن تختلط علي الأمور.

نظرت إلى ساعتي في اللحظة التي صعد، فيها، فرانسوا، من جديد، بعد أن رافق عمتي جولييت وابن عمي وأمي إلى الباب الخارجي. خرجنا، أخي وأنا، من غرفة الطعام التي لم يعد لنا ما نفعله فيها، وكنا ننتظره في ردهة الطابق الأول، فوق درجين مفروشين بالسجاد الأحمر كان يتسلقهما ببطء، محني الرأس إلى الأمام بحيث كنا نرى، خاصة، جمجمته الصلعاء. بدا لي أنه كان يكلم نفسه بصوت منخفض، ولا أدري لماذا جعلني أفكر بخادم كنيسة. كان له لونه الحيادي، مشيته الصامتة وحركاته الممتلئة عذوبة. كنت أقول لنفسي أن دفتر العناوين العتيد الذي كنا ننتظره يجب أن يوجد في مكتب عمي أو في المكتبة التي تلحق به والتي جعلتني، بسبب جدرانها الخشبية وما

أتيت على التفكير، فيه، بصدد فرانسوا، أستدعي، بيني وبين نفسي، صورة الكنيسة. كان هذا يجعلني مستثاراً من فكرة الدخول، ثانية، إلى هاتين الغرفتين اللتين تهيبتهما، دائماً، الآن وعمي لم يعد موجوداً. يتفق لي، عندما لا يكون لدي ما أفعله، أن أحضر عمليات بيع بالمزاد، لا لشيء إلا لاكتشاف دواخل بيوت الناس، خاصة إذا دار الأمر حول أشخاص عرفتهم، لأتبين الإطار الذي كانوا يعيشون، فيه، والأشياء التي كانوا يحيطون أنفسهم بها.

وهكذا بيع، ذات يوم، على الرصيف، أثاث قاض عجوز كان يسكن الحي الذي ولدت فيه، على مسافة خطوتين من بيتنا.

كنا، ونحن أطفال، نسخر من هذا الرجل المتقشف والشرس الذي كان يستدعي الشرطة في كل مرة كنا، فيها، نقرع جرسه أو تحطم كرتنا المطاطية زجاج إحدى نوافذه. كان أرملاً، وكان يعيش مع خادمة عجوز. وكم كانت دهشتي عندما اكتشفت أنه كان ينام في سرير كبير من طراز لويس الخامس عشر، وأنه كان له صالون مغطى بحرير الزر الذهبي وأنه كان يجمع أختاماً غرامية من القرن الثامن عشر.

لم أكن قد نظرت، حقاً، أبداً، في مكتب عمي لأني لم أدخله، أبداً، إلا في حضوره، ولأنه كان يرهبني. كنت احتفظ، منه، بذكريات جزئية، بانطباع إجمالي.

- قل لي يا فرانسوا.......

كان أخي يتكلم، وهو ما يزال يرتدي معطفه، مثلي، لأن أحداً، غير فلوريو، لم يأخذ راحته هذا الصباح.

- نعم يا سيد لوسيان؟

كان فرانسوا يعرف الأسرة بقدر ما يعرفها عمي. لقد عرفنا ونحن أطفال صغار. كنا نلوذ به عندما كان أهلنا يزورون المكتب.

- أحتاج لإرسال أوراق النعي إلى قائمة بأسماء الأشخاص الذين كانوا على صلة بعمي. أفترض أنه كان لديه دفتر عناوين.

أعتقد أن لوسيان اغتاظ بقدر ما اغتظت عندما أجاب الخادم قائلاً:

- لا بدّ أن هناك عدة دفاتر، لكني سأكون غير قادر على العثور عليها. لم يكن يحق لي أن أمس أي دفتر، أية ورقة. الآنسة جان هي المطلعة.

لم يكن أحد منا قد فكر، في عجلة الصباح، في سكرتيرة عمي، وفي الحقيقة، لم أكن، شخصياً، لأتعرف عليها في الطريق. كنت أتذكر، فقط، امرأة، بدينة إلى حد كاف، لمحتها في المكتبة خلال زياراتي، وربما كانت قد ظهرت مرتين أو ثلاثاً في المكتب:

- أفترض أنها لن تأتي اليوم.

- إنه عيد جميع القديسين يا سيدي.

- وغداً يوم الأموات. يجب أن تكون في عطلة أيضاً.

- هذا محتمل.

- هل لديك عنوانها؟

- هناك رقم هاتف. أتريد أن أحاول الاتصال بها؟

لم يدعُنا فرانسوا إلى دخول المكتب. أنا مقتنع بأنه كان يفعل ذلك عمداً، بأنه كان يعد المكان شبه مقدس. أرغم على السماح لنا بدخول غرف الطابق الثاني، ثم غرفة الطعام بناء على أمر العمة جولييت. أما الآن، وقد غدا البيت أهدأ، فإنه عاد ليكون حارس كنوزه، قائماً على عبادة ما.

كان اسم السكرتيرة وعنوانها ورقم هاتفها ماثلة على قائمة معلقة على هاتف الجدار في المطبخ الذي صحبنا الخادم إليه.

- هل تريد أن أتصل بها؟

ركب أخي الرقم وانتظر طويلاً إلى حد ما.

- الآنسة شامبوفيه؟

كان الصوت مدوياً، على الطرف الآخر من السلك إلى حد لم أضيع، معه، كلمة.

- كلا يا سيدي. أنا أمها.

- هل يمكن أن أحدث ابنتك؟

- لن تعود قبل الساعة الثانية عشرة والنصف أو الواحدة. ذهبت إلى المقبرة، من يريدها؟

- أهتف لكم من رصيف نوتردام.

- أهو السيد هويه؟

كان الاحترام قد خيم على الصوت.

- كلا، أحد أبناء إخوته. حلت مصيبة بعمي وسوف أحتاج إلى رؤية ابنتك في أقرب وقت ممكن. أسكن في الحي الذي تسكنون فيه. إذا سمحت، سوف أمر بعد قليل.

- أتريد أن تقول أنه قد مات؟

- بلى!

- هل أصابته نوبة؟

- لقد مات. إلى اللقاء قريباً.

لم يعمل فرانسوا على استبقائنا. تساءلت عما إذا كان سيجرؤ على التهيؤ للغداء. ما زلنا لا نرى الخادمة الصغيرة التي كان يجب أن تكون نائمة. ألن ينام فرانسوا الذي لم ينم في الليل بدوره؟ كنت أتخيل البيت وفيه، فقط، هذان الكائنان النائمان في الطابق الثالث، تحت السقوف في حين ظلت الطوابق الأخرى ميتة كأنها متروكة لذاتها.

- قل لي يا فرانسوا، أنت الذي كنت تعرفه جيداً.

- نعم يا سيد بليز؟

- هل كانا يتشاجران؟ هل كانا، خاصة، في هذه الأوقات الأخيرة....

- أبداً يا سيدي.

قال هذا بهيئة مستنكرة، كما لو كنت قد أتيت على التجديف.

- لكنها هي؟

- أنت تعرف كيف هي السيدة. لها أيامها الطيبة وأيامها السيئة. ليس هذا ذنبها.

- أكانت مزعجة معه؟

- لم تكن، في بعض الأحيان، تريد أن ترى أحداً. اتفق لها أن ظلت يومين في غرفتها دون أكل. عند ذلك، كان سيدي يقول، عشر مرات، عشرين مرة.

- اذهب واصغ يا فرانسوا....

«كان قلقاً، تعساً. لم يكن يجرؤ على الصعود، هو نفسه، خوفاً من أن يزيد إثارتها. عندما كنت أعيد الهبوط كان يسأل:

- هل هي تبكي؟

في بعض الأحيان كانت تبكي إلى حد تمزيق حنجرتها، وفي أحيان أخرى، كانت تئن على مهل كحيوان.

عندما كنت أجيب السيد بأن شيئاً لم يكن يسمع، يزداد قلقاً.

- هل حاولت أن تفتح الباب؟

- نعم يا سيدي، الباب مغلق بالمفتاح.

- أنظرت من القفل؟

- نعم يا سيدي. لا تبدو السيدة نائمة.

- اتفق له أن قطع، على هذا النحو، اجتماعاً هاماً مع سادة جاؤوا من الخارج لاستشارته.

- هل كان يخشى أن تنتحر؟

هز فرانسوا رأسه إيجاباً.

- هل كان يتحدث عن ذلك؟

- كلا. لكنها حاولت مرتين، الأولى في البيت الذي كانت تسكنه قبل الزواج، والثانية منذ أربع سنوات.

- ألم يكن عمي مزعوجاً لذهابها إلى الحفلة الموسيقية مع فلوريو؟

- على العكس من ذلك، كان هو الذي حجز لهما بواسطة الآنسة جان. أنت تعلم كيف كان. كان يكره الخروج مساء. كان يعي أن السيدة تحتاج إلى تسليات، وكان هو، دائماً، من دعا الدكتور إلى العشاء.

- ألم يكن غيوراً؟

اتخذ فرانسوا هيئة خفرة ليجيبني خافض العينين:

- لا أدري يا سيد بليز.

تزوج فرانسوا، منذ أكثر من أربعين سنة، خادمة لعمي ماتت أثناء المخاض، هي ووليدها، وأتساءل عما إذا كان فرانسوا قد مس، منذ ذلك الحين، امرأة.

- ألم يقل لك أمس شيئاً يفسر....

- كلا ياسيدي.

- أ أنت الذي قدمت طعام العشاء؟

- نعم يا سيدي. لقد تعشيا مبكرين، مع السيد فلوريو، بسبب الحفلة.

- كيف كان عمي؟

- كالعادة. تحدثوا عن الموسيقى أثناء كل الوجبة.

- أكان عمي يفهم في الموسيقى؟

- لديه مئات الاسطوانات فوق، وغالباً ما كان يتفق له أن يعمل وهو يستمع إليها مساء.

- أكانت عمتي مرحة؟

- كانت ترتدي فستاناً جديداً، أصفر زعفرانياً، وقد بدت سعيدة عندما امتدحها السيد فلوريو.

- لا ينبغي أن تلومني، يا فرانسوا، على أسئلتي، إني أحاول أن أفهم.

- الجميع يسعون إلى أن يفهموا يا سيد بليز.

ربما كنت واهماً. على كل حال، ارتعدت في حينه، لأنه بدا لي أن الخادم كان يعطي أقواله معنى غامضاً. هل أراد أن يلمح إلى وضعي الخاص؟ المهم هو أن جملته الصغيرة أثرت فيّ. وكنت أحس، وأنا أجتاز القبة، بشيء من البرد في ظهري. سألني لوسيان عندما صرنا على الرصيف حيث كانت الريح تدفع بنا:

- أمعك سيارتك؟

- كلا، جئت مشياً مع أمنا.

لم يكن لدى لوسيان سيارة. خلال الأسبوع، ومن أجل العمل، في حال الضرورة، كان يستخدم إحدى سيارات العمل القديمة أو إحدى دراجات الجريدة. ما عدا ذلك، كان يركب الترام.

قلت وأنا أرفع ياقة معطفي:

- سأمشي معك جزءاً من الطريق.

لم يتفق لنا، منذ زمن طويل، أن سرنا، على هذا النحو، جنباً إلى جنب، في الطرقات. ذكرني هذا بالعهد الذي كنت، فيه، وأنا فتى، مع صديق أو صديقين، وخاصة مع دونيفر، أمشي ساعات على رصيف شارع الكاتدرائية وشارع شارترو.

لم يتفق لي أن أقيم سوى إقامات قصيرة في باريس أو في عاصمتين أخريين. لم أعش فيهما، حقاً، أبداً. أعتقد أن الأكثر نمطية، الأكثر إثارة للضيق، خاصة بالنسبة لشاب، في حياة مدينة كبيرة في الضواحي، هو هذه النزهات التي لا نهاية لها، لا هدف لها، في الشوارع نفسها، مع الواجهات نفسها التي تدوم سنوات، الوجوه نفسها التي يلتقيها.

لم أكن أستطيع، أنا ودونيفر الذي كان زميلي في مدرسة الهندسة، لكنه مضى، من جانبه حتى نهاية دراسته، أن نقرر العودة إلى البيت. كان يسكن في الحي المواجه لحيي، على المرتفع، غير بعيد عن البيت الحالي لأخي. كنا نخرج من المقهى، مقهانا الحديث لأنه كان لكل واحد، لكل مجموعة، مقهاها الذي لاترتاد سواه. وهكذا كان يمكن أن نرى، في شارع الكاتدرائية خمسة مقاه، الواحد منها إلى جانب الآخر. كنا نمر ونعاود المرور. ننظر إلى الداخل حيث كان المستهلكون يبدون متجمدين وراء طاولاتهم، حيث كانت عقارب الساعة تبدو وكأنها تتقدم بصورة أبطأ منها في أي مكان آخر.

- سأرافقك جزء من الطريق.....

أتساءل عما كنا نقصّه لبعضنا، على هذا النحو، كل يوم، خلال ساعات. كنا نصل إلى جادة المحطة حيث كان يجب على دونيفر أن يركب الترامواي، وكان هو الذي يقترح من جديد:

- سأذهب معك حتى الجسر......

وهكذا كان كل منا يرافق الآخر مرتين أو ثلاثاً قبل أن نفترق في الشوارع التي تتزايد خلواً من المارة، وحيث كنا ننتهي إلى عدم سماع سوى وقع خطواتنا.

في يوم جميع القديسين، لم أكن أرغب في أن أعود إلى بيتي حالاً. سيتغدى نيكولا ماشران معنا وقد لا نجلس إلى المائدة قبل الساعة الواحدة، أو ربما الواحدة والنصف. كانت زوجتي التي لا تذهب إلى القداس تبطئ، دون سبب، في حركاتها أيام الآحاد.

أظن، أيضاً، أني شعرت بنفسي، بسبب موت أنطوان واجتماع الأسرة هذا الصباح أقرب، فجأة إلى لوسيان، بل ربما كنت أحس، حياله، بنوع من الحنان.

من بين الذين اجتمعوا، هذا الصباح، في رصيف نوتردام، والآخرين الذين جرى الحديث عنهم، كان الأبسط، الأفقر، وكان، أيضاً، أكثرهم استماتة في عمل الخير. إنه الوحيد من أسرة هويه الذي لم أسمعه، أبداً، يشتكي، وأول كلمة قالها لي، وهو يضع يديه في جيبه، تصوره بصورة كاملة.

- لحسن الحظ، هناك قداس في الساعة الخامسة من بعد الظهر.

كان قد أخذ على عاتقة كل الشكليات الناجمة عن وفاة عمنا، وكان يفكر في قداسه.

أضاف قائلاً:

- يجب أن أمر بالأسقفية. آمل في أن أحصل، على الرغم من كل شيء على جنازة دينية.

- العم أنطوان لم يكن ممارساً. لم يكن، على وجه الاحتمال، مؤمناً.

أجاب لوسيان بهدوء:

- لقد مارس كل الشعائر طيلة حياة أمه.

- هذا لا يعني شيئاً.

- يمكن أن يعني أشياء كثيرة. أعلم، أيضاً ،أنه تولى، مجاناً، عدة قضايا كنسية.

- لماذا انتحر في رأيك؟

- لا أحاول أن أفهم.

- أتظن أن ذلك كان بسبب كوليت وفلوريو؟ هل سمعت ما قالته العمة جولييت عن مواعيدهما في لاهوشيت؟

قال أخي:

- كنت أعرف ذلك.

وصلنا إلى شارع الكاتدرائية الذي لم يكن في نشاطه في الآحاد وأيام الأعياد. ولم يكن ذلك بسبب الجو فقط، بل لأن معظم الناس يذهبون، اليوم، إلى المقبرة. كان الجو مظلماً إلى حد كانت مصابيح المقاهي، معه، مضاءة، وكانت الوجوه تبدو مشوهة بسبب تكاثف بخار الماء على الزجاج.

- ألا تريد أن نتناول كأساً؟

- تعلم أن هذا لا يناسبني بسبب معدتي...

ذلك أن لوسيان يعاني، فوق كل شيء، من معدته. استأنفت كلامي قائلاً:

- أتساءل عما إذا كان فلوريو عاشقاً حقاً.

- هذا محتمل. قريبتنا مونيك امرأة طيبة. لقد أُحسنت تربيتها، إنها ربة بيت ممتازة وأم أسرة استثنائية. وهي تعطي، في أية ساعة في اليوم، الانطباع بالنضارة والوضوح.

- هو أيضاً.

- إلا أنه أكثر تعقيداً منها. له شواغل أخرى، اهتمامات أخرى في الحياة. كوليت موسيقية، ترسم، قرأت كل شيء.

كان على أهبة أن يضيف شيئاً، تردد، وكنت، أنا، الذي أنهيت العبارة.

- وهي، خاصة، شهيّة.

هذا صحيح. عمتي كوليت كانت، وهي في الأربعين من عمرها، دون شك، أشهى نساء المدينة وأكثرهن إثارة. يصعب علي أن أبين سبب ذلك، لكن الواقع هو أن كل الرجال يتلفتون إليها في الشارع وأنه تتولد، لديهم جميعاً، ولبضع ثوان على الأقل، الرغبة في امتلاكها. تبدو نظرتها، دائماً، كأن لديها ما تبوح لك به، كأنها تقيم، منذ أول وهلة، صلة بينها وبينك.

جسدها لدن، مكتنز قليلاً، ولا يستطيع المرء، لدى رؤيته إياها تتحرك في الطريق، أن يمتنع عن تخيلها في غرفة نومه. شعرها الأسود الذي تعود خصلة متمردة منه إلى السقوط، باستمرار، على وجنتها الممتلئة كان، هو نفسه، أكثر شعر عرفته إثارة.

اشتهيتها، أنا أيضاً، الجميع اشتهوها. وكان ما تسميه أمي جنونها، عدم استقرارها، مخاوفها المفاجئة، طريقتها في الانطواء، بغتة على نفسها كحيوان يشتم خطراً تضيف، أيضاً، إلى فتنتها.

يود المرء أن يصنع لها سياجاً ضد العالم، أن يحميها من الآخرين، ومنها ذاتها. إنها ذلك النوع من النساء اللواتي ترغب في الحجر عليهن بحرص، كشيء ثمين في جو حريم مترف.

هل أحس لوسيان الشريف بهذا، هو أيضاً؟ هل انتابته هبات الشهوة نفسها؟ إذا صح هذا، فأنا واثق من أنه أحس بالخجل من ذلك وأنه ذهب للاعتراف به حالاً.

- ها هي حرة. لا أظن أنهم سيحتفظون بها، إلى الأبد، في العيادة.......

حزر لوسيان السؤال الذي كنت أطرحه على نفسي. ماذا ستصير إليه إذا تركت لذاتها؟ هل التزم العم أنطوان بقسمه العتيد أمام أمه؟ أم هل ترك، على العكس من ذلك، ثروته وبيت رصيف نوتردام لكوليت، أم اكتفى بتأمين ريع لها؟

ألن يغري فلوريو أن يلعب، حتى النهاية، دور الحامي، وما مصير أسرته في هذه الحالة؟

كنت، من جهتي، مقتنعاً بأن العم أنطوان قد اختار، عمداً، قريبنا ليجنب زوجته مغامرات كارثية بقدر تلك التي كادت تنتهي بفضيحة، إن لم يكن بمأساة، والتي ذكرتها العمة جولييت، دون تسامح، في الصباح.

إلا أنه انقضت ثلاث سنوات، تقريباً، على تحوُّلِ فلوريو إلى شخص من أهل البيت. هل كان عمي يستطيع آنذاك، أن يتوقع أنه، في ذات يوم، سيفضل التخلي؟

ألم يكن رجلاً يرى إلى مسافة أبعد من التي نراها بكثير، رجلاً يملك وضوح ذهن مخيفاً قليلاً؟

كان ذلك يوم عيد جميع القديسين، أذكر بأن أسبوعاً سينقضي، غداً، على نزهتي هذه مع أخي وعلى قيامي بهذه التأملات. لم يكن نيكولا قد حدثني، بعد، عن عمي، كما فعل هذا المساء. كنت أحاول أن أكّون فكرة لنفسي من عناصر متناثرة، من جمل هذا أو ذاك.

كنت فائق الاستثارة، وأنا أعترف بذلك، من جراء ما حدث وجراء كل ما كنت أتوقعه. في ذات يوم، وقد أشرت إلى ذلك في البداية، كتبت قصتي، قصتنا، أنا وزوجتي ونيكولا، وجعلوني أخجل منها إرادياً أو لا إرادياً.

هذه المرة، لم يعد عالمي الصغير، وحده، هو مدار البحث، بل دائرة الأسرة بكاملها. خلال سنوات، عشنا، كل واحد منا في حيه، كل واحد بوسائله وعاداته وهمومه وأفراحه الشخصية، دون أن يكون لأحد منا، مع الآخرين، ما يتجاوز الاتصالات العابرة الموسمية.

لكن، ها هم كل أفراد أسرة هويه، بمن فيها العمة جولييت التي لم نسمع عنها أبداً، والتي كنا نكاد أن لا نعرف أولادها، ها هم أفراد أسرة هويه، إذن، يلتقون وجهاً لوجه، يكتشفون بعضهم بعضاً من جديد، وربما سيكون عليهم أن يتواجهوا......

كان هذا يثير لديَّ حمى خفيفة من الحماسة، وفي الوقت نفسه ابتهاجاً خفياً. كنت أود أن أركض، حالاً، من واحد إلى الآخر، أراقب استجابتهم، أطرح أسئلة فضولية. كنت أعلم أنهم يزدرونني، ما عدا لوسيان الذي كان مسيحياً أطيب من أن يزدري أياً كان، والذي كان يكتفي بأن يرثي لي ويصلي من أجلي.

إلا أن لوسيان نفسه ربما سيجد نفسه في وضع دقيق. ولما كنت أجهل ما إذا كان يعرف، الخبر، فإني لم أجرؤ على التحدث إليه عنه، وكان، هو نفسه، الذي وضع عند موقف الترامواي الذي كنا ننتظر عنده، المسألة على بساط البحث.

سألني عرضاً قائلاً:

- قيل لي أن إدوار في المدينة.

- حدثتني أمي عن ذلك.

- إنه هنا منذ عدة أيام.

- هل صادفته؟

- كلا.

- هل رأى زوجته؟

وصل الترام الأحمر والأصفر مجلجلاً وضاء كالمقاهي، مع رؤوس تتهادى مع كل هزة قال لي أخي سريعاً قبل أن يقفز إلى درجة الترام:

- إنه يعيش لديها منذ يومين.

بقيت على الرصيف أنظر إلى طيف لوسيان الذي كان يدخن غليونه على المصطبة ويحضر النقود.

(٤)

الأربعاء في ٨ تشرين الثاني

في لحظة ما، ونحن ماران، أخي وأنا. بشارع دوكال. خطرت لي فكرة دعوته إلى الغداء في المطعم لمتعة البقاء منفردين، وهو ما لم يكن يحدث لنا إلا نادراً، أولاً، ثم ربما لأنني لم أكن أرغب في العودة إلى البيت لأروي لإيرين ونيكولا ما جرى منذ الصباح.

وجدت نفسي أغوص، بصورة غير متوقعة، في الأسرة، أسرتي، التي بقيت زوجتي غريبة عنها. كانت تتوارد ذكريات زاد في قوتها جو عيد جميع القديسين.

لم أكن قد توقعت، بعد، أني سأروي الأحداث التي كنت أعيشها. حيث كنت أعيشها، إن صح القول، بكل براءة، دون انشغال بالمنطق.

وهكذا دخلت، فجأة، وقد وجدت نفسي في شارع دوكال، بعد أن صحبت لوسيان حتى الترام، إلى فندق الغلوب حيث غمرتني، منذ أن دفعت باب المطعم، حرارة ذات رائحة.

كان هذا، سابقاً، مطعم جد أبي حيث لم يتغير إلا القليل من الأشياء على الرغم من تعاقب ملاكين أو ثلاثة عليه، وبقي الجو على القدر نفسه من البورجوازية وحسن الاستقبال.

كان هناك، بسبب عيد جميع القديسين، قليل من الناس حول الموائد. لم يكن الخدم والنادل وأمينة الصندوق يعرفونني، وجلست في ركن قرب نافذة.

ربما كان الغلوب قد بقي، بالنسبة إليّ، لأني لم أسافر كثيراً، مكاناً فريداً لا تبلى فتنته، ويطيب العيش فيه. وعلى الرغم من وجود ثلاثة أو أربعة فنادق أحدث وأريح، في المدينة، بينها واحد بني حديثاً جداً، وعلى الرغم من

وجود مطاعم أشهر أو أجمل، فقد احتفظ الغلوب، بعد كل هذه السنين بزبائنه الرصينين، الفاحشي الثراء، رجال أعمال من المدن المجاورة، صناعيين، أصحاب قصور وتجار كبار. خلال الأسبوع، كان من المستحيل، تقريباً، العثور على طاولة فيه، وكان الجميع، تقريباً، متعارفين، يتبادلون التحية، ينهض بعضهم ويذهب لمصافحة آخرين.

لا توجد عوارض ظاهرة في السقف، أغطية الطاولات بمربعات حمراء، أوان معلقة على الجدران. يخيل إلى المرء أنه في بيت ريفي عتيق، بيت مسجل عقود، مثلاً، نظيف ومرتب.

بعد أن أوصيت على قواقع وضلع، اتجهت إلى الهاتف.

- إيرين؟ هذا أنا.... نعم، كل شيء جرى بصورة جيدة، أعني بأحسن ما هو ممكن.

صوتها في الهاتف يفاجئني دائماً، يبدو لي غريباً، أكثر حدة وجفاء.

- نيكولا وصل؟.... تنتظرينه بين دقيقة وأخرى؟..... أهتف لك لأعلمك بأني لن أعود للغداء... كلا، لم أعد مع أمي.... تركت لوسيان.... أنا في المدينة، نعم وتبقى لدي أمور مختلفة أنجزها.

لم تلح، أعلمتني، فقط، أن نيك هتف لها منذ قليل وأنه ينوي أخذها للغداء في بارانتراي.

- تمتعي جيداً... اتفقنا!... إذا لم تعودي، سأجلس إلى المائدة..... لا أدري، فضلاً عن ذلك، إذا ما كنت أنا نفسي سأكون في البيت.

بارانتراي كان قصر ماشران الذي يبعد خمسين كيلومتراً عن المدينة، قرب جونيي حيث يتصيد أغنياؤنا. نيكولا ليس صياداً. مع ذلك، كان يصحب إيرين، كل يوم أحد إلى هناك في سيارته الرولز السوداء التي يقودها سائق. يتفق لي أن أصحبهما، أن أختار بندقية من مسند الأسلحة في الردهة وأتنزه في الغابات دون أن أهتم بالصيد. لا أحب الصيد أيضاً. وفضلاً عن ذلك، فإن الريف يجعلني، حزيناً، قلقاً تقريباً.

عدت إلى الصالة وأخذت أفكر في لوسيان، في الدعوة التي كدت أقدمها له والتي ربما كانت ستدهشه.

ليس أخي، فعلاً، رجلاً يرتاد مطاعم إلا في السفر. يبقى هذا بالنسبة إليه، ترفاً يجب أن يقدمه لأسرته مرة أو مرتين في السنة.

لقد ربي كلانا ضمن هذه الذهنية. لم نكن فقراء. كان أبي يكسب رزقه بصورة مناسبة. لكن ذلك لم يكن يمنع من أنه كان يرى بعض النفقات غير ضرورية، عادات تنتمي إلى بيئة أخرى غير بيئتنا.

بقي لوسيان عند هذا الطابق الاجتماعي، بل إنه هبط بضع درجات.

حاولت، وأنا أتلذذ بقواقعي، أن أتخيل جدي، جول هويه القصير، المتين البنية كالعم أنطوان، في هذا المشروع الذي خلقه تقريباً، الذي جعله، على كل حال، مشهوراً ومزدهراً. المالك الحالي الذي كنت أعرفه لم يعد يأتي ليحيي الزبائن ولا ليجلس معهم، بعد انتهاء الوجبة من أجل القهوة.

لم تكن أمينة الصندوق، بدورها، مثل جدتي. لم أعرفها سوى عجوز. في ألبوم الأسرة الذي كانت أمي تحافظ عليه بحرصٍ، ثمة صورة لها صبية ذات صدر ناهد وقسمات رقيقة ونظرة براقة. لا أعرف أية صورة لجدّي عندما كان شاباً. ربما وجدنا واحدة بين أوراق العم أنطوان. لم يكن هناك سواه، وهو البكر، من يعرف التاريخ الكامل لذويه. لم يكن أبي والعم فابيان يتحدثان عن أبيهما إلا قليلاً. أما بالنسبة للعمة جولييت، الصغرى، فلا بدّ أن ما تعرفه عنه أقل من معرفة الآخرين... وفضلاً عن ذلك، لم تعد من أسرة هويه تقريباً. لقد أصبحت من أسرة لوموان وبقيت كذلك بعد موت زوجها.

من جهتي، لم أكن أعرف إلا الخطوط الكبرى. ولد جدي لفلاحين فقيرين إلى حدٍ كافٍ، على هضبة بيرول، أكثر أجزاء البلاد إجداباً، على مسافة حوالي عشرين كيلومتراً عن المدينة. كان له إخوة وأخوات، لكنني لم أسمع عنهم أبداً. وفي كل مرة كنت أعبر، فيها، القرية، كنت أنظر إلى لوحة الصفيح على النزل الذي يحمل أسم هويه.

عمل جدي، وهو صغير، نادلاً في أحد هذه المقاهي حوالي سوق الخضار التي اعتاد لحامون وبائعو خضار على تناول طعام الإفطار، فيها، منذ بزوغ الشمس. هذه المطاعم، أو بعضها على الأقل، لا تزال موجودة، لكني لا أدري حول أيها يدور الأمر.

ذهب إلى باريس في أيام المعرض العالمي، عمل في أحد مطاعم المعرض، ويؤكدون، في الأسرة، أنه لم يكن ينفق شيئاً تقريباً، محرماً على نفسه التدخين، توفيراً، وعاد بثروة صغيرة.

أين التقى جدتي، أنطوانيت أوبيك، الفلاحة الأصل هي الأخرى، مع كونها من أسرة أكثر تطوراً؟

أعجب، حالياً، من قلة المعلومات التي نملكها عن الأرومة التي ننحدر منها ويؤسفني أني لم أسأل العم أنطوان الذي كان، وأنا واثق من ذلك، مستودع هذه الأسرار.

ولد، هو، عام ١٨٨٨، حين كان والده في الرابعة والعشرين، وأمه في الحادية والعشرين من عمرهما. فقد شاركهما، إذن، حياتهما قبل أن ينشئا فندق الغلوب.

كيف استطاع جدي، وهو صغير السن إلى حدٍ كافٍ، أن يشتري هذا الفندق؟ هل بدأ بكونه مجرد مدير؟ هل أقرضه مصرف محلي المبلغ الذي كان يحتاج إليه؟

أبي ولد، بدوره، في مكان آخر، في الطابق الثاني من بيت قديم في حي كلو، لكنه غادر هذا المسكن منذ سن الخامسة بحيث أن كل ذكرياته كانت تتعلق بفندق شارع دوكال. ومثل أخيه أنطوان، ومثل فابيان، احتفظ، حتى النهاية، بحنان كبير، إن لم يكن بإجلال، لأمه التي كان يذهب لرؤيتها ثلاث مرات، في الأسبوع، على الأقل.

لم يحدثني أحد، أبداً، بهذا الوضوح، إلا أن هناك ما يبرر اعتقادي بأنّ الزوجة، في ثنائي جول هويه، كانت هي الأنشط والأصلب والأذكى.

فقد أخذ جدي، منذ أن انطلق مشروعه، على ما يبدو لي، يعيش الحياة السهلة، في حين كانت جدتي تسهر على كل شيء، على البياضات في الغرف وعلى العاملين في المطبخ.

كيف كانت تجد الوقت للاهتمام بأبنائها الأربعة، وجعْلِهم يستذكرون دروسهم أمامها؟ كيف توصلت، في الرواح والمجيء غير المنقطع، إلى المحافظة على حياة أسرية؟ ومع ذلك، فهذا واقع يفسر إعجاب العم أنطوان الكبير بأمه.

تبقى نقطة غير واضحة. لماذا وكيف بدت الأسرة مهدمة، عملياً، لدى موت الأب؟ كان أنطوان، في تلك الفترة، في الثلاثين من عمره، وكان يتدرب في مكتب محام كان، في الوقت نفسه، عضواً في مجلس الشيوخ. وكان أبي، الأصغر سناً، قد أمضى أربع سنوات من الحرب في الجبهة والمستشفى، لأنه تعرض للغاز. لم يختر، لا هو ولا أخوه فابيان الذي عاد من ألمانيا التي كان أسيراً فيها، طريق العمل الفندقي.

بدا المشروع، حتى ذلك الحين، مزدهراً. فقد كان الفندق والمطعم ممتلئين بالزبائن. إلا أنه لم يكن في الصندوق أي احتياطي لتسيير المؤسسة. وكان دائنون جدد ينبعون كل يوم وأصبح البيع محتوماً.

على وجه الإجمال كان البكر بين الأبناء الأربعة، أنطوان، هو، وحده، الذي كان له مركز. كان هو الوحيد الذي استطاع أن ينهي، في السنوات السمان، دراسات مكلفة. وكان، أخيراً، الوحيد بين الصبيان، الذي أفلت، لأسباب أجهلها، من الخدمة العسكرية.

إذا كان قد وعد، حقاً، أمه بأن ثروته ستذهب، من بعده، إلى أسرة هويه، فإني أتساءل عما إذا لم أكن قد أتيت للتو على ذكر السبب. كان ذلك، إلى حد ما، كما لو أنه يدين للآخرين - لهم ولأولادهم - بتعويض لأنه كان أكثر حظوة. إن هذا يفسر كونه قد استقبلنا، دائماً، بعطف صبور على الرغم من مركزه.

كان هو الذي أدخل فابيان الذي وجد نفسه بدون مهنة، وبدون معارف خاصة، في مصلحة مياه المدينة حيث لم يلبث أن أصبح، بفضل حمايته، رئيس مكتب. وهو، أيضاً، الذي ساعد أبي على إنشاء مكتبه الهندسي. وأخيراً، وقد ذكرت ذلك، كان هو الذي حصلت، بواسطته، على وظيفة أستاذ رسم.

الشيء الطريف هو أن هذه الساعة التي أمضيتها وحيداً في ركني، في ذلك اليوم، كانت إحدى أكثر ساعات حياتي امتلاء. يبدو لي أني أحسست بأشياء لا أستطيع أن أعبر عنها، بصلات خفية بين البشر، بين الأجيال ومصائرها.

كنت، وأنا الذي لا يشرب إلا قليلاً جداً، قد شربت كأس بورتو في رصيف نوتردام، وأوصيت على أخرى في انتظار القواقع. وقدم لي، بعد ذلك، مع ضلع بوردو، نصف زجاجة من نبيذ البورغون الساخن. وكنت أنظر، وجفوني تخزني، إلى الوجوه حولي كما في حلم، عندما اقترح علي النادل كأس أرمنياك. لم أكن قادراً على الرفض، وقدم إليّ في كأس تذوق كبيرة.

تكوّن لدي الانطباع، مع بقائي أنا نفسي، بأني أعيش عدة حيوات في وقت واحد، أتلبَّس شخصيات مختلفة بدت لي، فجأة، أخوية. بل إني أوصيت على سيغار، وهو ما لم يكن يتفق لي إلا نادراً، لأني رأيت زبوناً عجوزاً يشعل، أمامي، واحداً بغبطة، ولأن ذلك كان يذكرني بسيغار العم أنطوان.

لا بدّ أنّ ابتسامة سعادة ظهرت على وجهي وأنا محاط بالدخان، وأني كنت أغوص، بين حين وآخر، بأنفي في كأسي الكبيرة.

كنت في كل مكان في الوقت نفسه. كان يبدو لي أني أرى، في بيتي، زوجتي ونيكولا منفردين، وهي باعتبارها ريابة قليلاً، على أهبة أن تحقد، لأنها تظن دائماً، أنها موضع سخرية أو أنها يُنظَر إليها على أنها غير قادرة على الفهم. كانت لهما، هما الاثنان، طريقة خاصة في الشجار. هو، من جانبه، لا يرف له جفن. ينظر إليها تثور، ينتهي بالضرب على الأرض بقدمه، ولا يبدو منه سوى عينه التي تتوقد، في حين يتخذ فمه، على العكس من ذلك، تعبيراً حزيناً.

لا بدّ أن أمي تأكل، وحيدة، في شقتها. في انتظار برهة الذهاب لتروي الأحداث للجارات.

لقد ولدت في مخزن خردوات في زقاق بوتي فير الضيق، في حي سانت إيلو الذي هو أكثر أحياء المدينة ازدحاماً بالسكان. نقلها أبي، نوعاً ما، بزواجه منها، إلى حي سانت بارب الأكثر هدوءاً وبورجوازية ببيوته الجديدة.

وما كاد يموت ونتركها، أخي وأنا، حتى ارتدت إلى أصولها. فاستقرّت على مسافة خطوتين من زقاق بوتي فير وأعادت عقد الصلات مع أناس لم تكن قد رأتهم خلال عشرين سنة.

ومع ذلك، استمرت بالإمساك بما اسمّيه سجل أسرة هويه وبرؤية أفرادها بين حين وآخر، والاهتمام بأعمالهم وحركاتهم. وكنت أنا، بسبب نيكولا وزوجتي، أقل من تهتم به. أتساءل عما يمكن أن يجري لو وجدت نفسها، فجأة، وجهاً لوجه مع إيرين.

فكرت، أيضاً، في العم فابيان وأنا أتناول كأس الأرمنياك، في نفسي، أيضاً، عندما كنت في السادسة عشرة، ثم في العشرين والرابعة والعشرين من العمر، في نفسي، أيضاً، في أيام كهذا اليوم مثلاً، وأنا أطوف، وحدي، في شوارع المدينة ذات المخازن المقفلة وأتوقف، ضجراً، أمام الواجهات.

بقيت زمناً طويلاً دون أصدقاء لأني، جاهلاً ماذا أريد أن أصير، لم أكن أرى بأية مجموعة أندمج. سأكتب شيئاً فيه مفارقة، جملة خطرت لي هذا اليوم، في مطعم الغلوب وبدت لي، في حينها، بسبب سكري احتمالاً، عميقة: كنت *أكثر طموحاً من أن أكون كذلك!*

يبدو لي هذا أقل وضوحاً، الآن، لكني، مع ذلك، كنت أستعيد فكرتي. هذه المدينة، هذه الشوارع التي كنت أتنزه، فيها، دون نهاية، هذه الوجوه التي تبقى هي نفسها دائماً، هذه الأسماء على واجهات المخازن كانت توحي لي، بالإضافة إلى ذلك، بملل موجع تقريباً، برغبة في الهرب، الهرب إلى أي مكان، هرب يضاهي في لا معقوليته، إحساسَنا في الحلم بأننا مطاردون.

إلا أن قدميّ، كما في الحلم أيضاً، تبقيان مسمرتين بالأرض وأحس بنفسي عاجزاً عن التقدم.

أستطيع أن أقول إني أمضيت مراهقتي، خاصة في أيام الآحاد، في الطواف حاملاً مللي وخور عزيمتي بنوع من الانتشاء.

كنت أود لو أفلت من هذه الحياة الريفية التي كنت أجدني لاصقاً بها. كنت أود أن أبلغ موقعاً استثنائياً، أن أصعد عالياً جداً، أعلى، أيضا، من العم أنطوان الذي كنت أعده، آنذاك، بورجوازياً حزيناً.

كيف؟ بسلوك أي سبيل؟ لم تكن لدي أية فكرة. كنت تلميذا خائباً. لم تكن لي أية موهبة خاصة. في الصميم، كنت متأكداً من أني لن أفلت أبداً، من أني سأتبع، في الثلاثين، في الخمسين، في الستين من عمري، الأرصفة نفسها، متوقفاً عند الواجهات نفسها، ملتقياً، مساء، بالنوافذ المضاءة بنور سكري نفسها.

ما الجدوى إذن؟ ما العمل كي أصل إلى شيء؟

في ذات يوم، وكنت في السابعة عشرة من عمري وأتيت على الرسوب في البكالوريا الثانية، أعلنت لأبي عن رغبتي في دخول مدرسة الفنون الجميلة وفي أن أصبح رساماً. لم يكن الأمر يدور حول نداء باطني. خطرت لي الفكرة عشية ذلك اليوم عندما التقيت، في شارع شارترو، عصبة من تلاميذ الرسم.

لم ينتفض أبي. لم يكن ينتفض أبداً. كان إنساناً مستسلماً. كان يعلم أنه مريض. وأعلمه طبيبه، وقد عرفنا ذلك فيما بعد، بأنه لم يكن لديه سوى بضع سنوات يعيشها.

- ادخل إلى مدرسة الفنون الجميلة إذا كنت تميل إلى ذلك. إلا أني أصر، لأن من الجيد أن تكون لك مهنة حقيقية، على أن تتبع دروساً في العمارة.

لم أتبعها سوى سنتين لأني لم أكن أفهم شيئاً في الرياضيات التي رسبت، من قبل، بسببها، في البكالوريا.

هناك التقيت دونيفر، وفي صحبته، منذ ذلك الحين، كنت أطوف في شوارع المدينة، وأجلس ساعات طويلة في المقهى الحديث.

دونيفر، من جهته، استمر في الهندسة. كان قبيحاً، أقبح من العم أنطوان، سميناً، مصفر البشرة. كان نفسه كريه الرائحة، ولا يتلفظ بجملة ليست مريرة أو متهكمة.

كنت أعد نفسي فاشلاً. اعتدت على هذه الفكرة، ولم أكن بعيداً عن الإعجاب بتبصري الخاص، بل كنت، أيضاً، استمد منه متعة سرية.

دونيفر، من جهته، كان يقسم على أنه سوف ينتقم. من أي شيء؟ من كل شيء، من الحياة دون شك.

إنه،اليوم، في البرازيل حيث يشيد أحدث الأبنية التي ترى صورها في المجلات. هل يتذكر نزهاتنا الرتيبة في شارع الكاتدرائية وشارع شارترو؟ هل يتذكرني، أنا الذي بقيت.

في المخطوط الذي رد إلي بازدراء والذي آسف، الآن، لأني أتلفته، توقفت طويلاً عند هذه الفترة من حياتي، الفترة التي كانت تسمح بفهم بقية الحكاية. ظنوا أني كنت أتحسر على مصيري. وأنا أستطيع التاكيد على أنهم كانوا واهمين. لست سوى فاشل، أعلم ذلك، لكني، فاشل متبصر، بل سأقول، دون كثير من المبالغة، إني فاشل راضٍ.

عندما خرجت من الغلوب، التقيت من جديد بالريح والبرد والخيالات المحنية إلى أمام التي تتلطى بالجدران. اجتزت، منحنياً، أنا أيضاً، ويداي في جيبيّ، متجمد الأنف، حديقة النباتات. كنت في حالة شعور بالخفة، وفاجأت نفسي أجر قدميّ في الأوراق الميتة كطفل. كانت أمي تقول لي سابقاً:

- ارفع قدميك وأنت تمشي يا بليز.

في شارع جوفر، كان عدد من النوافذ مضاء لأن السماء تزداد إظلاماً. وددت لو علمت ماذا يفعل الناس، في بيوتهم، في مثل هذا اليوم. فتنت، دائماً،

بالنوافذ، خاصة في المساء، عندما لا تعود هناك سوى بضعة أضواء في شارع لا يمر فيه أحد.

كان علي أن أقرع جرس باب الشقة: لم أكن قد أخذت مفاتيحي، وجاءت أديل، الخادمة، لتفتح لي، وفي يدها صحن مبلل وممسحة لأنها كانت تغسل الصحون.

- هل ذهبت السيدة؟

- منذ حوالي عشرين دقيقة.

- هل كل شيء على مايرام؟

- لقد طُلبتَ للتو على الهاتف، من قبل السيد لوسيان. يريد أن تتصل به منذ عودتك.

- في بيته؟

- لم يقل.

خلعت قفازيّ ومعطفي وقبعتي وتركتها في الردهة. عندما عبرت غرفة الطعام، شممت شيئاً من عطر زوجتي، ومن غرفة الجلوس اتصلت بأخي.

- يسرني أن تكون قد عدت. قيل لي أنك ستتغدى في المدينة، لكنهم لا يعلمون أين وكنت مصراً على إعلامك بما يجري.

ولم أعترف لأخي بأني تغديت في الغلوب.

- هل من جديد؟

- رأيت السكرتيرة، الآنسة جان التي هي شخص رابط الجأش ويعرف عمله. من حسن الحظ أن وجهنا فرانسوا إليها.

- لماذا؟

- لأننا كنا معرضين لأن نخطئ. سألتني بعد أول لحظة انفعال:

«- هل أخطرتم مسجل العقود؟

«- ليس بعد.

«- هل وضعت الأختام؟

«- لم يفكر أحد في ذلك. إلا أننا أمام إرث هام. لا أحد يعلم، سوى مسجل العقود احتمالاً، على ماذا تحتوي الوصية بالضبط. هل تفهم؟

قلت:

- أفهم.

أمتعني هذا فجأة. تخبطنا كل الصبيحة في المنزل كما في بيتنا ولو كان ذلك تحت رقابة فرانسوا. ألم يكن هذا الأخير أول من ارتاب ومنعنا من الذهاب للبحث عن دفتر العناوين في مكتب عمي؟

ردنا، بحذر، إلى السكرتيرة.

الآنسة جان ردتنا، بدورها، إلى مسجل العقود.

- أفترض أن مكتبه مغلق اليوم.

- طبعاً، لكن الآنسة جان أعطتني رقم دارته في كوربيسيير واتصلت به. اسمه غوترا ...

- سبق لي أن رأيت مكتبه في رصيف كولبير...

- نعم....تركني أتكلم....بدا لي رجلاً بارداً، دقيقاً.....عندما سألته إذا ما كان من الضروري وضع الأختام، صرخ بجفاء:

- دون أي شكّ! يجب حماية الأملاك طالما لم تفتح الوصية. لا أفهم أن لا يكون مفوض الشرطة قد أثار المسألة.........

سألت قائلاً:

- على أي شيء ستوضع الأختام؟ على البيت؟

- لا شك في أنها ستوضع على أبواب الغرف التي يمكن أن تحتوي على وثائق أو أشياء ذات قيمة.

- متى يجب أن يتم ذلك؟

- في الساعة الرابعة من بعد ظهر اليوم. لدينا، الآنسة جان وأنا، موعد مع مسجل العقود ومع محضر، إذا كنت قد فهمت جيداً، إن لم يكن مع شخص من شرطة رصيف نوتردام. أردت أن أعلمك في حال رغبتك في الحضور أنت أيضاً.

- ما الفائدة؟

- حاولت أن اتصل بفلوريو. مونيك قالت لي أنه لم يعد من أجل الغداء، إنه لا يزال في العيادة حيث يبدو أن هناك تعقيدات.

- أية تعقيدات؟

- لا أدري بالضبط، لا يمكن، بالطبع، إبقاء كوليت، فيها، بالقوة. إذا كنت قد فهمت جيداً، فإنها ترفض البقاء، فيها، وحدها.

- بعبارة أخرى، إنها تود الاحتفاظ بفلوريو إلى جانبها.

- هذا محتمل. الأمر يتعقد من حيث أن الطبيب الشرعي يصر على حضور ابن عمنا التشريح وينتظره، في الساعة الثالثة، في المشرحة.

قلت بمزاج طيب:

- الأمر معقد فعلاً.

وأضفت بعد برهة:

- يبدو أن مسجل العقود يعرف مضمون الوصية.

- إنه، على كل حال، يأخذ الأمور بالكثير من الجدية. تكّون لدي الانطباع بأنه يتوقع صعوبات .... بالمناسبة.......

ساد صمت.

- ماذا؟

- لا شيء.... تشير إلي بأن لا أحدثك عن ذلك.... أمنا هنا.....

كان يجب أن أتوقع ذلك. فمنذ أن كلف لوسيان رسمياً، بالشكليات أصبحت أمي تكاد أن لا تجد وقتاً للطعام، وأسرعت إلى بيته.

- انقل إليها تحيتي.

- تسأل عما إذا كنت قد ذهبت إلى المقبرة.

- سأذهب غداً صباحاً.

- إذن لن تكون في رصيف نوتردام في الساعة الرابعة.

- كلا! اهتف لي فيما بعد وأعلمني بما جرى.......

أعدت سماعة الهاتف. لم أكن قد أضأت المصابيح، وكانت عيناي ترمشان. تمددت بكامل لباسي على أريكة غرفة الجلوس تجاه شحوب النافذة، وما لبثت أن نمت......

بقيت، مع ذلك، واعياً للمكان الذي كنت فيه، للوقت، روحات أديل وجيئاتها في المطبخ. بقيت في مركز العالم، عالم متزايد الإبهام يتخذ فيه جسدي، إيقاع تنفسي ونبضات قلبي، شيئاً فشيئاً، أهمية رئيسية.

انقضت فترة طويلة إلى حد كاف كانت، فيها، على شبكة عيني، صورة كوليت، تلك التي أتخيلها عارية، وكنت أبذل جهدي، في تبلدي، لإعادة تكوين تفاصيل جسدها.

كان يمكن أن أنالها، أنا أيضاً، كأي رجل. إذا كنت لم أفعل ما كان يجب من أجل هذا، فذلك لانعدام الفرصة، أولاً، ثم لخشيتي أن أخلق لنفسي تعقيداً، وربما، أيضاً، بسبب عمي أنطوان، بدافع روح الأسرة.

كوليت غير مسؤولة. يكفي أن يضع رجل صورة أيروسية تحت أبصارها أو أن يتلفظ، ببساطة، ببعض الكلمات الموحية حتى تشتعل الشرارة وتفقد تحكمها في ذاتها. تحدثت عن حالتها مع صديق طبيب. لم يكن فلوريو طبعاً، وما قاله لي جعلني أفهم أشياء كثيرة.

أفهمني هذا، خاصة، موقف عمي حيال زوجته.

صرّح لي صديقي في النهاية:

- أكثر ما يخشى، إذا كانت لها الشخصية التي تصفها، هو أن تنتهي بالانتحار.

حاولت ذلك في الليلة الماضية، للمرة الثالثة على ما يبدو، لكن عمي أنطوان هو الذي مات!

يجب أن أكون قد غصت بعض الوقت، في لا وعي أشد اكتمالاً لأن النافذة كانت، عندما فتحت عيني، مظلمة تماماً، منقطة بأضواء الحديقة البعيدة. بقيت، برهة طويلة، مسترخياً، مفتوح العينين. ترددت، كما يحدث لي دائماً، عن كسل أكثر مني عن فضيلة، وانتهيت بالضغط على زر الجرس الذي يرن في المطبخ.

قبل وصول أديل، أشعلت المصباح الصغير في زاوية الأريكة، الذي ينشر ضوءاً مائلاً إلى اللون البرتقالي. هل فهمت إديل من قبل؟ تقدمت خطوتين أو ثلاثاً في الغرفة باحثة عني بعينيها، قالت بصوتها الطبيعي:

- آه! هل نمت؟

- نمت قليلاً. اخلعي ملابسك.

نظرت حولها آلياً.

- حالاً؟

- نعم.

- هنا؟

لم يكن هذا قد حدث، بعد، في غرفة الجلوس...كنت غالباً ما ألاقيها في غرفتها. نلتها، أيضاً، في غرفة نومنا وهي ترتب السرير في غياب زوجتي. لم تكن تدهش، لم تكن، أبداً، تقول لا، مكتفية بمراقبة الباب والإصغاء. كان لها، في أقل من سنة، أربعة عشاق متعاقبين، وكانت تستسلم للرجال بصورة طبيعية، كما كانت تأكل، كانت دون حياء، دون نفور، وكانت ترى في عضو الرجل مجرد عضو من أعضائه.

- أمهلني دقيقة فقط، لأن هناك قدراً على النار...

عادت، بعد لحظة، وقد حلت، من قبل، عقدة مريولتها البيضاء. ثم خلعت، بالبساطة نفسها، فستانها الأسود.

- هل أسدل الستائر؟

- ما الفائدة؟ لا يمكن لأحد أن يرى من الخارج.

كان يمتعني أن تتعرى أمام أضواء المدينة. لم أكن أنشد ممارسة الحب ولا المتعة بقدر ما كنت أشتهي جعلها تتعرى في غرفة الجلوس. فعلى الرغم من مروري بمدرسة الفنون الجميلة حيث كنا نرى موديلات كل اليوم، احتفظت بهوس العري، بهوس بعض الأوضاع الحيوانية كما لو كنت أنتقم، بذلك، لنفسي، على هذا النحو من كل أنواع الإكراه.

- ألن تعود السيدة؟

- ليس قبل ساعة العشاء.

لماذا كنت أختبئ من إيرين التي لم يكن لديها ما تقوله لي؟ غالباً ما تساءلت عن ذلك. كان، في حياتي، أديلات كثيرات، في البيت وخارجه. لم أتحدث عن ذلك لأحد. أختبئ كما لو كنت خجلاً.

لم تكن هذه هي الحال. لم يكن لدي خجل من حياتي الجنسية، ولا من بقية حياتي، لكنني في حاجة لبقاء هذا ميداناً سرياً بقي هذا لي من العهد الذي كنت، فيه، أذهب لأعترف حالما أتحرش ببنتٍ، كما كنت أقول آنذاك.

كنت أراها واقفة، مترددة، مكتنزة وبيضاء، كثيفة الثديين، وفي أسفل بطنها مثلث أسود.

سألت قائلة:

- ماذا أفعل؟

- لاشيء....ليس في الحال.

ضحكت ضحكة مترددة:

- هل أبقى واقفة هكذا؟

- تستطيعين أن تجلسي.

جلست بشكل أخرق على الحافة البعيدة لمقعد.

- هكذا؟

كم مرة، خلال مراهقتي، حلمت بمشاهد مثل هذه كانت تمثل بالنسبة لي، آنذاك، قمة السعادة! ألم تكن هذه الذكرى هي السبب في تكراري لها؟

قالت:

- وأنت؟ ألا تخلع ثيابك؟

كلا! ليس هذا الشيء نفسه.......

- هل أستطيع الاقتراب منك؟

كان عدم الفعل يتعبها. وافتني إلى الأريكة، وفي هذه اللحظة، بالضبط سمع جرس المدخل.

هتفت أديل، وهي تنهض بقفزة مسرعة إلى ثيابها المتناثرة.

- السيدة! ماذا أفعل؟

- ليست هي. معها مفتاحها. يجب أن يكون هذا أخي.

أسرعت، وهي ما تزال عارية، نحو مطبخها، نحو غرفتها، في حين ذهبت، متكاسلاً، لأفتح الباب. لم أخطئ. كان لوسيان هو الذي حمل إلى الشقة الفائقة الحرارة شيئاً من هواء الخارج البارد.

دهش من ظلمة المدخل، من مصباح الأريكة المضاء، وحده، في غرفة الجلوس، وربما لرؤيته إياي محمراً قليلاً. سأل أمام الوسائد الهابطة:

- أكنت نائماً؟

- بعد هاتفك، تمددت لبرهة، وأعتقد أني أغفيت. كم الساعة؟

- الخامسة والنصف. أليست زوجتك هنا؟

- خرجت.

لا بدّ أنه ندم على هذا السؤال لأنه خمن من كانت في صحبته. في هذه اللحظة، أنا متأكد من أنه أشفق علي شفقة ممزوجة بشيء من الاشمئزاز غير الطوعي.

ماذا كان سيفكر لو وجد نفسه في الغرفة قبل لحظات؟ هل اتفق للوسيان أن ضاجع امرأة غير زوجته؟ أشك في ذلك. ومع ذلك، فهو لا يحبها. على كل حال لم يحبها في البداية. تزوجها ليكون له بيت، وأطفال، ليعيش حسب الكتاب المقدس.

تلك التي أحبها، وأستطيع أن أقسم على إنه لا يزال يحبها، هي ماري هويه، المولودة ماري تابويه، التي أصبحت زوجة ابن العم ادوار. سألت وأنا أضيء السقف لأريح أخي.

- هل انتهى الأمر؟

- نعم. لم يستغرق وقتاً طويلاً جداً. ذهبت الآنسة جان مصحوبة بمسجل العقود، إلى المكتبة وأحضرت دفتري عناوين وملفاً، لا أعرف ما هو، أعطته للأستاذ غوترا. بدا الاثنان شديدي التهذيب معي، لكني أحسست بأني كنت زائداً عن اللزوم. كان هناك شخص ثالث، أشقر قصير لم يقدماه لي وطلب من فرانسوا شمعة. وهذا الأخير هو الذي أذاب الشمع الأحمر وألصق شرائط من القماش ووضع عليها أختاماً.

- على أية أبواب؟

- على بابي المكتبة ومكتب عمنا، أولاً، ثم على باب صندوق صغير في الجدار، في الطابق الثاني، عند أعلى السرير ومخفي بلوحة. وفرانسوا، أيضا، هو الذي أصر، تقريباً، على وضع أختام على أبواب خزائن المطبخ التي تحتوي على الفضيات، ثم نزلوا إلى الطابق الأرضي حيث أغلق اثنان من الصالونات.

- لم يقل مسجل العقود شيئاً خاصاً؟

- سألني عن أخبار العمة كوليت، وعندما أعلمته بأن فلوريو أخذها إلى عيادة سان جوزيف، لم ينجح في إخفاء استيائه. أراد أن يعرف من أتى صباحاً وإلى أية غرف دخلوا.

- الم يتحدث عن إدوار؟

- بلى، للاستعلام عن عنوانه. أعلمته بأنه في المدينة منذ عدة أيام وقلت له أين يجده.

- ماذا يعني هذا؟

- لا أدري. بدا لي، طوال الوقت، كما في الهاتف قبلاً، مشغول البال. إنه رجل قليل الكلام ويرد على الأسئلة بقدر من الجفاء أكبر، أيضاً، من الذي يبديه قريبُنا فلوريو. أعتقد أنه كان والعم أنطوان صديقين. سألني:

«- هل قالت الشرطة متى نستطيع استرداد الجثمان؟

« أجبت بأن لا، وكانت الآنسة جان هي التي تلقت تعليماته، بصوت هامس دائماً، كما لو كان ذلك لايعنيني. في بعض اللحظات، أخرج مفكرة من جيبه، راجعها، وسمعته يذكر يوم السبت للجنازة. أضاف قائلاً:

«- يمكن أن نعمل على فتح الوصية بعد الظهر، مكتبي سيهتم بالاستدعاءات.

«وجدنا أنفسنا، نحن الأربعة، على الرصيف، وقال لي مسجل العقود ويده على مقبض سيارته:

«ستبقى الآنسة شامبوفيه على اتصال بك. أفترض أن لديها رقم هاتفك.

بدا أخي متعباً كما لو كان ذلك بعد مقابلة مرهِقة. أحسست به محبطاً من جراء الاستخفاف بخدماته، من جراء هذا الاستبعاد للأسرة.

تنهد وهو يحشو غليونه الذي أُصلح أنبوبه بسلك حديدي، وقال:

- مع ذلك، استطعت أن أطرح سؤالاً أخير، قبل أن يغلق باب السيارة، سألته عما إذا كنت أستطيع العمل على أن تكون لعمنا جنازة دينية. رد بجفاء:

«- لست أنا المسؤول عن هذا الأمر. تدبر الأمر مع الخوري.

وذهب مع السكرتيرة.

(٥)

اليوم نفسه

تعشيت وحدي، وخدمتني أديل بصورة طبيعية، كما لو أن شيئاً لم يحدث بعد الظهر. بل إني لم أمد يدي لأداعب مؤخرتها الصلبة. كان ذلك، أولاً، لأنه كان لزوجتي أن تعود بين لحظة وأخرى، فلا أحد يعلم متى تنتهي أيام آحاد بارانتراي، ثم لأن رغبتي قد زالت. ألم أحصل، في الحقيقة، على ما كنت أريد؟

في أي يوم آخر، كنت سأغوص في مقعدي مع كتاب في يدي، أتذوق الهدوء حولي، في حين يتحرك كثير من الناس، على الرغم من الطقس الرديء، في المدينة. لكني انتزعت، منذ الصباح من وحدتي، احتجت، فجأة، إلى اتصالات، إلى أن أعرف، على الأقل، ما كان يفعله الآخرون في الساعة نفسها.

هتفت إلى بيت قريبي فلوريو، وكانت مونيك هي التي ردت. أحسست، حالاً، من صوتها، من الطريقة التي كانت تختار بها كلماتها، بأنها كانت محبطة، قلقة:

- أليس زوجك هنا؟

- لم أره منذ هذا الصباح. ليس عندي أخبار عنه إلا من الهاتف.

- هل حضر التشريح؟

- نعم. أعطى النتائج التي كانت متوقعة. العم أنطوان ابتلع أكثر من عشرين قرصاً من المنومات. وبالمقابل، وفي حين كان يعالج، منذ زمن

طويل، بسبب القلب، وجدوا أن هذا الأخير كان في حالة جيدة جداً بالنسبة لرجل في عمره. كان يمكن أن يعيش عشر سنوات أخرى.

- وكوليت؟

عند ذلك، خاصة، أصبح صوتها أكثر اختناقاً، أصبح متردداً.

- يبدو أنها بدت، فجأة هادئة وعاقلة، لكنها ترفض البقاء في العيادة. الطبيب النفسي، وهو صديق لجان، وجد نفسه عاجزاً لأن لا شيء يسمح له، في وضعها الحالي، بإبقائها بالقوة، ولا يحق له، كذلك، أن يطبق عليها، دون موافقتها، علاجاً ينقص من وضوح ذهنها. إنها خبيثة!

كانت هناك مرارة لدى مونيك التي كانت رضية إلى حد يمكن، معه، أن تذكر كنموذج للزوجة الجيدة، للأم الجيدة، لربة الأسرة الجيدة. هل كانت تشعر بأن زواجها كان في خطر؟

- هل ستعود إلى بيتها؟

- ربما هي هناك الآن. جان، من جهته، لا يصدق هذا الهدوء الظاهر. كان عليه أن يجد ممرضتين تتناوبان في رصيف نوتردام. ما أتساءل عنه هو هل ستدعه يذهب؟

عادت إيرين، الآن، مقطبة الحاجبين عدوانية، ولم ألبث أن أنهيت الاتصال.

- ماذا؟ هل حصل أفراد أسرة هويه على هذا الميراث أم لا؟

- لن تفتح الوصية إلا بعد الدفن.

ألقت بمعطفها على مقعد وارتمت على آخر وقدماها أمام النار:

- حسناً! أجد، وأنا المرأة المعنية، كما يقال، أن مما يبعث على الاشمئزاز أن نحصل على هذا الميراث الذي يتحدثون عنه منذ هذا الزمن الطويل. كوليت أعطت هذا الرجل، مجنونة كانت أم غير مجنونة، هستيرية أم غير هستيرية، أحلى سنوات عمرها، ولا أرى لماذا تكونون، أنتم، مَن يرث.

لم ألح. لم أسألها عما جعلها في مزاج سيء. ذهبت لترتدي رداءها المنزلي. قرأ كل منا في ركنه، هي مجلة، وأنا كتاب مذكرات، ونمنا حوالي الحادية عشرة.

قالت لي وهي تبتعد:

- ليس هذا المساء رجاءً.

في صباح الغد، يوم الأموات، استيقظت، كالعادة، قبلها، وكانت لا تزال نائمة، أو تتظاهر بالنوم، عندما خرجت من المنزل في الساعة التاسعة والنصف. هذه المرة لم أنس مفتاح السيارة. أخرجتها من المرآب ومضيت نحو الأرصفة. كانت المدينة قد استعادت وجهها المألوف على الرغم من عطلة بعض المهن. كان لا يزال يرى أناس يتجهون إلى المقبرة وفي أيديهم زهور. تعمدت أن أقوم بلفة عبر رصيف نوتردام لألقي نظرة، وأنا مار، على بيت عمي.

فوجئت برؤية شاحنة صغيرة لإدارة دفن الموتى واقفة أمام البوابة التي كان مصراعاها مفتوحين. كان فرانسوا، بملابسه السوداء وربطة عنقه البيضاء وصلعته الشاحبة، يقف تحت القبة، في حين كان رجلان يفرغان رزماً هائلة من السجف السوداء.

من الذي عمل بهذه السرعة؟ هل هو مسجل العقود، أم الآنسة جان، أم أخي؟ على كل حال، فإنهم سيقيمون، كما تدل المظاهر، غرفة موتى في البيت.

اتجهت إلى المقبرة. كان المطر يسيل على زجاج سيارتي الأمامي بدرجة من الغزارة راحت المسّاحات معها، تتوقف عن العمل، أحياناً، كما لو كانت مترددة. كنت قد تزودت بمظلة.اشتريت أصيصاً من الأقحوان عند السياج، وسرت في الممرات المغطاة بأوراق الأشجار الميتة.

كانت هناك نساء يمسك بعضهن بيد طفل أو اثنين وبضعة رجال، فقط، يطوفون حول القبور التي شحبت ألوانها، ورأيت عجوزاً محنية القامة تماماً تعزق الآجر عند أسفل صليب خشبي، صليب مؤقت دون شك.

جرى تكبير المقبرة مؤخراً، و وجدت مشقة في العثور على قبر أبي الذي حمل اسمه وتحت الاسم: الرقم ١٨٩٣ -١٩٤٣. كانت صيانة القبر جيدة. أضفت زهوري إلى تلك التي كانت عليه من قبل، أسندت الأصيص إلى حجر، ووقفت خاشعاً برهة. في تلك اللحظة التي كنت أستعد، فيها، للرحيل، تعرفت على مسافة بضع خطوات على خيال، ووجه ماري، زوجة ابن عمي ادوار.

كانت واقفة تحت مظلة، ملتفتة نحوي، أمام قبر لا يعني لها شيئاً. كان نصباً مدعياً من الرخام الوردي، وعندما توقفت نظرتي عليها، تقدمت بشجاعة. هذه الكلمة تناسبها. فماري التي رغبت، دائماً، بتسميتها باسم ماري تابويه، اسمها قبل الزواج، شخص شجاع يواجه الحياة دون تبجح ويقبل قدره دون تذمر.

الله يعلم إن كان لديها أسباب للشكوى. وجهها نقي تماماً، كل ما فيها نقي. كانت، بمعطفها الأزرق وطاقيتها الزرقاء ذات الحاشية البيضاء، تذكر بممرضة، على الرغم من أنها تعمل في مكتب الاستقبال في المستشفى.

- نهارك سعيد يا بليز. قالت لي أمك أنك ستحضر مبكراً هذا الصباح. وبما أنه كان علي أن أجيء، أنا أيضاً، إلى قبر والدي فقد انتظرتك.

- أليس ابنك معك؟

لا يصدق المرء، لدى رؤيتها بهذا الصغر، بل بهذا الصبا، أن لديها ابناً في السادسة عشرة والنصف من العمر، فيليب الذي نجح، مؤخراً، نجاحاً لامعاً في البكالوريا الثانية، ودخل الجامعة.

- أود أن أتحدث إليك. هل تلومني لأني انتظرتك؟

كنت أرى الموضوع الذي ستخوض فيه. لم نكن نستطيع أن نجري هذا الحديث، بصورة لائقة، ونحن نروح ونجيء، تحت مظلتينا، في المقبرة:

- من الأفضل أن نجد لنا مأوى.

اخترنا أحد المقهيين الموجودين تجاه السياج الكبير. كان بضعة رجال يشربون فيه، وكانت هناك نساء أتين بإفطارهن وكن يأكلن أمام أكواب من القهوة بالحليب. كانت هناك خيوط من الماء على الأرضية وتيارات هواء ورائحة زهور ذابلة وتراب منبوش.

جلسنا في ركن هادئ إلى حد كاف لا يجاورنا سوى زوجين من الفلاحين، وأوصينا على قهوة ما إن قدمت لنا حتى لزمنا صمتاً طويلاً إلى حدٍ كافٍ.

- يبدو أنك رأيت لوسيان أمس. أمك رأته أيضاً، لكن الفرصة لم تسنح لها للتحدث إليه. ألم يقل لك شيئاً؟

هززت رأسي نفياً، وهو ما كان صحيحاً لأني لم أكن قادراً على التنبؤ برد فعل أخي.

- إنه يعرف، أليس كذلك؟

- نعم.

- وهل يعلم، أيضاً، إنه عندي.

- علم بذلك.

- أود لو تكلمه يا بليز وأن ننتهي من هذه القصة البائسة. أفهم أخاك. أفهم موقف الأسرة. وها هي وفاة العم أنطوان تزيد الأمور تعقيداً!

كانت منفعلة، وكان صدرها الجميل المكور جيداً، الناهد جيداً، في صدارة ضيقة يرتفع بإيقاع أسرع. لم تكن تبكي.

- لو رأيت الحال التي كان عليها!

تمتمت قائلاً:

- أفهم أن تشفقي عليه.

كان ذلك خرقاً مني. كان يجب أن أعلم أن هذه الكلمة ستجرحها، لكن رد فعلها تجاوز ما كنت أستطيع توقعه. قالت بجفاء تقريباً:

- لا تتحدث عن شفقة، إذا سمحت، فيما يتعلق بي. الشفقة هي ما أطلبه منكم جميعاً، خاصة من لوسيان الذي لديه، أكثر من الجميع، أسباب للنقمة على ادوار. أما أنا، فإنه زوجي. إنه والد فيليب إنه الرجل الوحيد الذي أحببته، وما زلت أحبه.

ارتعش صوتها لدى الكلمات الأخيرة، وأدارت رأسها لحظة. كنت أود، لأبين لها أنـي كنت أفهمها، أن ألمس يدها العارية من القفاز.استأنفت كلامها قائلة:

- كل الأخطاء تقع على عاتق ادوار، فليكن ذلك، وأنا لا أحاول أن أدافع عنه. لكن، أما من نهاية لعذابه؟ إنه، الآن، رجل في الثامنة والثلاثين من عمره، في حين لم يعد له عمر. عندما رأيته يقف على الرصيف، منذ ثلاثة أيام، شاخص العينين نحو البيت.

أخذت منديلها من حقيبتها، عضت عليه لتهدئ أعصابها، كي لا تنفجر باكية، وفي هذه المرة، تجرأت على مد يدي نحو يدها، في حركة أخوية.

استأنفت كلامها بصوت أخفض، لاهثة، مائلة نحوي بسبب الزوجين اللذين كانا يصيخان السمع:

- اسمع يا بليز! أنت تعرف ادوار. إنك تتذكر الشاب الذي كانه، أجملكم جميعاً، أكثركم اعتزازاً بنفسه وغروراً. كان وقحاً، وكان يمكن أن يخيل للمرء أن العالم كان ملكه. حسناً! إن الرجل الذي كان، في ذلك اليوم، يحوم حول بيتي لم يعد سوى حطام، وكان يذكر بكلب ضامر ينقب في المزابل....

«كنت أعلم أنه في المدينة. قيل لي أنه صودف في زقاق فقير، قريب من القناة حيث يعيش عمال أجانب، كل خمسة أو ستة منهم في غرفة واحدة....

«تساءلت عما إذا كان سيتجرأ على المثول في منزلي.... كنت أتمنى ذلك دون أن أتمناه، بسبب فيليب....... ترددت في إيصال رسالة، أو مال، إليه.... لكن مع من؟

«كنت أنظر إليه، من وراء الستار، هزيلاً، منطوياً على نفسه، مستضعفاً تماماً، وعندما توقفت نظرته على النافذة، لم أعد أستطيع الصمود. نزلت ركضاً فتحت الباب، أشرت إليه بأن يعبر الطريق....

«تردد. انتهى بالدخول إلى الرواق، دون أن يواجهني، وفجأة ارتميت، والباب مازال مفتوحاً، على صدره وأنا أبكي.......

كانت يد ماري باردة في يدي. ظلت لا تبكي، مكتفية بالشهيق.

- إنه مريض، مثل أبيه، مثل أبيك، يتفق له أن يصاب بنوبتين في اليوم وأن يبقى دون حراك، شاخص النظرات دون أن يقوى على القيام بحركة. أنت تتذكر أباك أليس كذلك؟ إلا أنه كان، من جانبه، في الخامسة والأربعين عندما بدأ ذلك. ادوار يعاني، فضلاً عن ذلك، من معدته ويتقيأ كل ما يأكله...

«كدت أذهب لرؤية لوسيان. فكرت في أن ذلك قد يضايقه. كان، دائماً، طيباً معي، لم ينقم علي. إنه هو الذي وجد لي عملاً في المستشفى، وفيليب يعده إلى حد ما، بمثابة أب...

«لا أستطيع أن أدعه يرحل من جديد يا بليز! أنت ترى إنه في نهاية طريقه. أنت تعرفه إلى درجة تكفي لتعلم أنه ما كان ليذل نفسه بالعودة إلى هنا لو بقيت له أصغر فرصة......

لم أكن واثقاً من ذلك مقدار ثقتها. ادوار مثل تمثيليات أخرى، ولم تكن تلك أول مرة يعد، فيها، بتغيير حياته. لم يكن لدي، شخصياً، أية كراهية له. أما بالنسبة للوسيان، فأنا متأكد من أنه، كمسيحي جيد، قد سامحه. لكن، ألن يحاول حماية ماري من نفسها ومن زوجها؟

- في الوقت الحاضر، يختفي، يختبئ، يرفض أن يخرج.

- مم يخاف؟

- لا أظن هذا خوفاً. ربما كان خجلاً. إنه يعلم ماذا تفكرون جميعاً، بصدده. إنه يتساءل عما سيجري لو التقى أحدكم، وخاصة لوسيان، في الطريق. يريد أن يعمل لأنه لا يريد العيش على حسابي...

- ماذا ينوي أن يفعل؟

ليست لادوار مهنة. لم يمارس، أبداً، مهنة حقيقية في حياته التي كانت سلسلة احتيالات.

- سيفعل أي شيء كان. لقد اعترف لي بأنه كان، في لندن، يعمل في حمل لوحة إعلانية على صدره وأخرى على ظهره، واتفق له أن عمل في فتح الباب في قاعة موسيقية...

مع ذلك، كانت ماري على حق: فقد كان، في السابق، أجملنا، أكثرنا حماسة، أحفلنا بالوعود. كان الأسمر الوحيد في الأسرة، وكان له شعر متموج وعينان زرقاوان قانيتان وقسمات تمثال إغريقي فخورة.

كانت له كل المواهب، كل الجسارات، وكان يمكن أن يقال أن لا شيء يصمد له. ولا يقف الأمر عند كونه يغري النساء، بل إن الرجال كانوا يؤخَذون بحيويته العدوانية. كان، في عمر العشرين، وحشاً فتياً بأسنان لامعة أسس، فيما كنا نطوف على الأرصفة مصممين مشاريع ضبابية، مجلة ووجد شركاء لإنشاء مطبعة.

جاءت الحرب، لا حرب أسلافنا، بل حرب ١٩٣٩، والاحتلال. كنا نعيش بإيقاع بطيء، جميعنا، مع ثقل على كواهلنا، القلق من الغد، هم الغذاء الدائم والخوف من عمليات النفي.

كان ادوار الوحيد، من الأسرة، من كل أصدقائنا، الذي كان يعيش كأن المستقبل كان له. كان يرتاد بثياب جيدة وجميلة، ومعه فتيات جميلات، مطاعم السوق السوداء، في حين كانت شقيقته مونيك التي لم تكن متزوجة والتي لم تكن تعرف فلوريو، بعد، تكرس وقتها للحساء الشعبي.

لم نكن نسكن، والداي وأنا، الحي نفسه الذي يسكنه ادوار وأمه ومونيك. أبي الذي كان مريضاً من قبل، مات عام ١٩٤٣، في السنة التي اعتُقل فيها، أخي الذي ظن الجميع، خلال شهرين، أنه سيرمى بالرصاص.

أسعفني الحظ، لدى توقيع الهدنة، حين كنت جندياً في الألزاس، بأني لم أؤخذ أسيراً، واستطعت أن أعود إلى بيتي. كانت تلك هي الفترة التي كنت فيها، على الرغم من تركي لدراسة هندسة العمارة، أعمل مع أبي، مع إنجازي رسوماً صغيرة لمؤسسة إعلانية. اتسم سلوك لوسيان الذي كان يعمل في توزيع بطاقات التموين في البلدية، بالغموض، ولم نعرف، إلا عند التحرير، أنه كان يعمل لمصلحة شبكة مقاومة.

ماري تابويه كانت تسكن البيت المجاور لبيتنا. كانت ابنة معلم بقي أرملاً. كان لها شقيق قتل، فيما بعد، في حادث سيارة، وكانت هي التي تربيه وتعنى بالبيت. كانت كما كنت أراها، الآن، في مطعم المقبرة، أو أنها، بالأحرى، لم تتغير، بقيت في النضارة نفسها. لست واثقاً من أني لم أكن، إلى حد ما، مغرماً بها، أنا، أيضاً.....

لوسيان قرر، من جهته، منذ عمر التاسعة عشرة، وعلى الرغم من كونه يصغرها بسنتين، أن يجعل منها زوجة له. كنا، والداي وأنا، نجهل ذلك. كان لأخي، دائماً، طبع متكتم عن خفر.

ماري تابويه لم تكن تجهل هذا، ولم تقل له لا........

في صباح يوم الأموات، في هذا المقهى المعتاد على الجنازات، قالت لي ببساطة:

- كنت أحب لوسيان كأخ. لم أكن أجرؤ على ثنيه لأني كنت أحترمه أكثر من أن أجعله تعساً. ربما كنت سأتزوجه لو لم أصادف إدوار، وكان ذلك سيكون في مصلحة الجميع.

بيت والديّ، بيتنا كما كنت أقول، هو الذي عرفتْ، فيه ادوار، وما زلت أتساءل كيف جرى هذا اللقاء لأن ابن عمي لم يكن يتردد علينا كثيراً. فمن أجل سبب يفوتني فهمه، وربما لأنه كان لكل واحد ما يكفي من الهموم الخاصة، تراخت العلاقات الأسرية أثناء الحرب، وأكاد أن لا أتذكر اتصالات نادرة بعماتي وعمومي.

والحقيقة هي أني، أنا نفسي، لم أكن أشارك، أبداً، في حياة البيت. كانت تلك أقتم فترة من حياتي، أكثرها فراغاً وقلقاً، ولا أفكر، فيها، أبداً، دون كدر. لم أكن أرى أي مستقبل لي، ولم أكن قد رضختُ بعد.

كانت الفلسفة الناشزة لصديقي دونيفر الذي كنت ألتقيه كل مساء تقريباً، تنطبع علي شيئاً فشيئاً. وإذا لم يكن لديه سوى ازدراء للرجال، فقد كان يعامل النساء بصورة أقسى أيضاً مبدياً حيالهن كراهية حقيقية. ولم يكن يفوته، حوالي الساعة التاسعة من مساء كل يوم سبت، أن يصرح، ناظراً، إلى ساعته، قائلاً:

- هيا! إنها ساعة تفريغ ميزابي.

لم تكن له علاقات، وكان يكتفي بأن يذهب، مرة في الأسبوع، إلى بيت مومس هادئة تدعى زولما، في عمر أمه تقريباً. كانت تسكن في شقة في الطابق الأول في شارع بورجوازي، وتحافظ على نظافة ملحوظة، ملزمة زوارها بانتعال خفين من لباد لعدم تلويث الأرضية المشمعة. كانت صهباء، ذات لحم شاحب ورخو، لكنها كانت ذات ابتسامة جميلة. ذهبت إليها، أنا نفسي، مرتين أو ثلاثاً.

- هل صديقك هكذا مع كل الناس؟

يبدو أنه كان فظاً معها يستعمل، عن عمد، أقذر الكلمات.

عبثاً عشت في البيت، فلم أكن، إن صح هذا القول، جزءاً منه. لم أكن، أبداً، على علاقة حميمة جداً مع أخي الذي يصغرني بثلاث سنوات. وفكرة الإسرار بما في نفسي إلى أمي لم تخطر في بالي حتى عندما كنت طفلاً صغيراً. وكان وسط عماتي وأعمامي يبدو لي عالم كوابيس.

كانت تلك آخر سنة في حياة أبي. كنا، جميعاً، نعرف ذلك. كنت أمضي عدة ساعات في اليوم، أعمل معه في مكتبه. إلا أني لم أنشغل، مرة واحدة، لما كان يفكر فيه. لم يكن، هو بدوره، يطرح علي أسئلة، أو كانت، إذ ذاك، أسئلة مبهمة كنت أجيب عنها بصورة أشد إبهاماً بحيث أني أتساءل، حتى اليوم، أي رجل كان حقاً.

كل ما أعرفه عن هذه الفترة، تقريباً، استمديته من أمي، أي من وسيط ويجب أن أحسب حساباً لتشويه محتوم، خاصة من جانبها.

لماذا خطر لادوار، في ذلك اليوم، حين كانت ماري تابويه في بيتنا، وهو ما كان يتفق لها كثيراً، على اعتبار أنها كانت جارتنا، لماذا خطر لادوار الذي كان يعيش في حلقة مختلفة جداً أن يأتي لنا بكيلو من الزبدة؟

ليست البادرة هي التي تدهشني، بل المصادفة، وخاصة ما تلاها. البادرة كانت من طبعه. وهكذا كانت له أفضال غير متوقعة، واهتمامات مجانية.

في ذلك اليوم، وأنا أتذكره، كانت أمي تحضر مربيات - دون سكر! - وكانت ماري تابويه تساعدها مغطية الأواني باسطوانات ورقية شفافة مغموسة في الكونياك. كان ذلك، إذن، في تموز أو آب، حوالي نهاية اليوم لأن الشمس كانت تدخل مائلة إلى المطبخ.

لم أبق، وأنا الآن متأسف على ذلك، لأني كنت سأحضر الصدمة التي حدثت بين ادوار وجارتنا. أكدتْ للوسيان، فيما بعد، أنها أحبت ادوار منذ ذلك اليوم ولم تعد تفكر إلا في رؤيته من جديد.

المصيبة هي أنها لم تقل ذلك لابن عمي. كانت لا تزال تناضل ضد ذاتها. ولمحت له أنها خطيبة لوسيان. مع ذلك رأينا، من جديد، خلال بعض الوقت، ادوار في بيتنا غالباً وكان يحمل، دائماً تقريباً، أغذية. كان لديه مشروع لم أعرف سوى خطوطه الكبرى، من خلال هؤلاء أو أولئك، لأنه لم يكن يفضي إلي بأسراره.

في بداية الاحتلال، كانت «المخبر» الجريدة الوحيدة، في المدينة، قد أغرقت نفسها، كما كان يقال في ذلك العهد. كانت جريدة محافظة، عتيقة المظهر، وكان يحررها، قبل الحرب، محرران أو ثلاثة شاخوا في العمل.

كان ادوار الذي كان يملك مطبعة ويصدر مجلة صغيرة يفكر فيما بعد الحرب ويهيئ جريدة حديثة من شأنها، أن تنافس «المخبر» وربما منعتها من العودة إلى الصدور.

كان قد وجد عدداً من المساندات وهو ما كان يبين مدى براعته في تلك الفترة لأنه كان يكاد أن لا يبلغ الرابعة والعشرين من عمره. تدعي أمي أن العم أنطوان، نفسه، كان يدعمه وأنه كفله لدى عدة شخصيات محلية.

إلا أنه حدث، فجأة، في أيلول، أي بعد بضعة أسابيع على قصة كيلو الزبدة واللقاء في بيتنا، بين ماري تابويه وادوار، حدث أن داهمت الشرطة الألمانية بيتنا، فتشته من القبو إلى الأهراء وبعد أن أساؤوا معاملة أبي، اقتادوا معهم لوسيان.

في اليوم نفسه، اعتقل ستة أشخاص آخرون كان أخي على صلة بهم، من بينهم بائع أجهزة راديو، في شارع بوانكاريه، أعدم رمياً بالرصاص.

بعد شهر، وبعد أن بقينا دون أخبار، علمنا أن أخي ورفاقه كانوا في معسكر بوشنفالد.

هل عجل هذا الحدث في نهاية أبي؟ هذا محتمل. فقد مات في مكتبه بعد ثلاثة أيام من هذه الإخبارية بحيث لم يره لوسيان من جديد.

لم تنقض ستة أشهر حتى تزوج ادوار ماري تابويه. لمحت أمي إلى كونها حاملاً وهو ما لم تخطئ بصدده لأن فيليب ولد قبل الموعد الطبيعي.

لم نكتب حول ذلك إلى لوسيان الذي لم نكن نحصل إلا على القليل من أخباره، بصورة غير مباشرة، دائماً تقريباً. كنا ننتظر الهجوم الذي أعلن راديو لندن عنه. كانت هناك إعلانات تحضر الترحيل كل الرجال السليمين إلى ألمانيا، بحيث كنا نعيش بين الرعب والأمل.

خلال زمن ما، كنت أذهب، كل مساء، لأنام في بيت صديقة لأمي تملك مزرعة صغيرة على مسافة خمسة كيلومترات من المدينة، ما وراء غابات بارود. كنت أذهب إليها على دراجة، مجرياً انعطافة لتجنب تقاطع الطرق.

تم الإنزال، حررت باريس، ثم جاء دورنا. كان ادوار يعيش مع زوجته والرضيع في البيت الذي استأجره غير بعيد عن بيتنا والذي لا تزال تسكنه ماري وفيليب.

لماذا اختفى بين عشية وضحاها؟

الزواج لم يقلل، وهذا مؤكد، من سعيه وراء النساء. وغالباً ما كان يقضي سهراته وقسماً من لياليه في ملهى صغير، الوحيد الذي كان مفتوحاً ويرتاده ما يكفي من الزبائن، وزعموا أنه وقع في غرام مغنية باريسية معروفة باسم شوبيت.

وعندما أفكر في الأمر تتملكني الدهشة من كمية المعلومات المختلفة الأنواع التي كانت تجمعها أمي حول هذا أو ذاك من أعضاء الأسرة. يمكن التحدث معها عن أي كان، كانت تعرف، كما يقال، أكثر تصرفاته سرية.

لا يدور الأمر حول شائعات، فقط، وقد سنحت لي فرصة التحقق من ذلك. وفضلاً عن ذلك، لم تكن تتحدث، إلا قليلاً عما تعرفه، وعندما تريد ذلك فقط، لسبب محدد.

يعود هذا، كما أظن، إلى أن أمي تملك ما يسمى حس المصيبة. كانت تشم رائحة الكارثة من بعيد، ومنذ أن يقع حدث مزعج، لدى هذا أو ذاك، كان من المؤكد أنها ستظهر، كما ظهرت يوم عيد جميع القديسين في بيتي.

كانت هي، أيضاً، من يتولى الخطوات الصعبة، كأن ترعى طفلاً مريضاً أو تذهب لتنظيف بيت إحدى القريبات، بل بيت جارة تلزم السرير.

وحتى عندما لا يسر أحد إليها، كانت لا تلبث أن تكتشف الحقيقة، أو ما تعده الحقيقة.

فيما يتعلق بإدوار، قالت، منذ البداية:

- هذه الأسرة لن تدوم، ماري مستقيمة أكثر مما ينبغي، أكثر سذاجة مما ينبغي. عن سذاجة أعطته ما أراد دون أن ترتاب أن ذلك لم يكن، بالنسبة إليه، إلا نزوة.

المهم هو أن ابن عمي قد غادر المدينة ذات مساء، مع شوبيت، وبعد أشهر، قيل لنا أنه شوهد في باريس.

بدأت، في تلك البرهة، تروج شائعات حوله. بل جرى التحدث عنه في لجنة التطهير التي تشكلت منذ رحيل الألمان. ثبت، تقريباً، أن ادوار اشتغل في السوق السوداء على نطاق واسع، إلا أن الدهشة تملكت الناس بسبب عدم تعرضه للعقاب. فإذا لم يكن قد ظهر مع المحتلين، فقد كان بعضهم يتمتمون بأنه كان، مع ذلك، على علاقات سرية معهم.

قيل الأمر نفسه، في الحقيقة، عن أناس أبرياء تماماً، وبعضهم اعتقل، وجزت شعور نساء لم يقترفن ذنباً.

المؤكد هو أنه قد اكتشف، بعد رحيل ابن عمي، أنه مدين لكل الناس، وأنه أخذ، معه، أموال شركائه. لماذا لم يتقدم هؤلاء بشكوى؟ لا أستطيع سوى أن أكرر أني أمضيت تلك الفترة دون أن أهتم بالآخرين وأن الأسرة كانت، آنذاك، آخر همومي.

عاد لوسيان من ألمانيا نحيلاً، سيء الصحة، وطوال شهرين بقي غير قادر على أكل وجبة طبيعية لشدة ما اعتادت معدته انعدام الغذاء.

علم، بالطبع، أن ماري تزوجت، خلال غيابه، وأن لها ابناً، وأن ادوار قد غادر المدينة.

لم يبح لي بمكنون قلبه. دخل، بفضل العم أنطوان، إلى «المخبر». ولم نعد نراه في البيت تقريباً.

كان صديق لأبينا، شخص يدعى لوتراد، موظف في مديرية الشرطة، هو الذي اكتشف الرسالة. كان قد كلف بجرد أطنان من أوراق تركها ألمان القيادة. وبعد عدة أسابيع، عثر على رسالة مغفلة تشي بلوسيان بوصفه عضوا في شبكة مقاومة.

بعد هذه الرسالة، روقب أخي، خلسة، خلال عدة أيام، هو ما يفسر الاعتقالات التي أجريت في يوم اعتقاله. لدى رؤية الوثيقة، تعرف أخي، حالاً، على خط ادوار. ولمرة واحدة، أطلعني على السر، خائفاً من أن

يكون قد أخطأ. قارنا، معاً، البطاقة بكتابات أخرى لابن عمنا، ولم يكن أي شك ممكناً.

الآن، تجاه المقبرة، تقول لي ماري ضامة يديها في حركة توسل:

- لا يمكن للمرء أن يدفع طيلة حياته يا بليز!........ هناك لحظة حيث....... تكلم مع لوسيان، هل تريد ذلك؟...... إذا أراد، فسوف أذهب لأراه....... سأكرر له ما أتيت على قوله...... سأجثو على ركبتي...

- الأمر لا يقتصر على لوسيان.

كيف جرى التسرب؟ أكان ذلك عن طريق أمي؟ هل تكلم لوتراد؟ المهم هو أن كل الأسرة اطلعت على الأمر، وكذلك اطلع عليه قسم كبير من المدينة.

- إذا سامح لوسيان فلن يجرؤ الآخرون......كانت تشد أصابعها المتشابكة بقوة أصبحت معها شاحبة. سألتها:

- هل تنوين استئناف الحياة المشتركة؟

- إنه زوجي.

- ماذا يقول فيليب؟

- إنه لا يعرف أباه. لم يره أبداً. قلت له إنه في غرفة في الطابق الأول، وهو مريض، وهذا صحيح لأني أرغمت ادوار على الرقاد.

- ألا يعلم ابنك شيئاً؟

- تحدث أناس إليه....هذا محتوم. إنه خائف علي، خائف من أن يؤذيني أبوه. أتساءل عما إذا لم يكن غيوراً قليلاً، أيضاً، لكني أتولى أمره. لوسيان، الآخرون هم الذين يخيفونني، بعد يوم أو اثنين. سأجعل فيليب يواجه أباه. إني أعده لذلك....

- هل يعلم أنه قد سجن؟

- رووا له ذلك.

المدينة، كلها، تعرف هذا. فإدوار لم يعش، منذ رحيله في باريس فقط، بل، أيضاً، في مرسيليا والجزائر وبروكسيل، ولا يعلم إلا الله أين أيضاً. على فترات متباعدة، تلقت زوجته رسائل مؤثرة كان يعلن، فيها، أنه إذا لم يتيسر له مبلغ معيّن يجب أن يسدده مهما كلف الأمر، فلن يكون أمامه سوى الانتحار.

قرأ لوسيان الرسائل لأنه، على الرغم من زواجه، بعد بضع سنوات، بصديقة طفولة، تيريز بورديا، بقي بيت سر ماري وسندها المعنوي.

كان غالباً ما يزورها، كما يزور المرء شقيقة له، ويتابع، عن كثب، دراسة فيليب.

هل كانت ماري ترسل، ضد رأيه، مالاً في كل مرة؟ أمي تلقت رسائل من النوع نفسه، إحداها كتبها ممرض مزعوم، تعلمها بأن ادوار في المستشفى - كان ذلك في الجزائر على ما أظن - وأنه ينقصه كل شيء.

أمي، مثل ماري، أرسلت نقوداً، وهي تؤكد أن العم أنطوان ساعد ابن عمي عدة مرات!

راجت، عدة مرات، خلال السنوات الست عشرة، شائعة تقول أنه كان في المدينة. بعضهم رآه حسن اللباس يتحدث عن أعمال دقيقة يعد لإنشائها، ورآه آخرون على العكس من ذلك، رث الثياب يسعى وراء ورقة من ذوات الألف فرنك.

أفدت من وقفة لأسأل ماري:

- أصحيح أنها ليست المرة الأولى التي يعود فيها؟

- عاد مرة واحدة منذ عشر سنوات. انتظرني على باب المستشفى الذي أعمل فيه.

- هل طلب منك مالاَ؟

اكتفت برفة من عينيها.

في انكلترا، حيث كان يعيش مع مومس شهيرة، اعتقل بتهمة القوادة. ليس من المستحيل أن يكون، كما أعرفه، قد أغرم بهذه المرأة التي رأيت صورتها في الصحف، وكانت جميلة جداً ومن المحتمل، أيضاً، أن يكون قد عاش على حسابها، وهو ما كان رأي العدالة الانكليزية التي زجت به سنتين في السجن.

هل كانت هناك أوقات جيدة في هذه الحياة التي لا أعرف سوى أوقاتها الرديئة؟ هذا محتمل، لأن ادوار رجل موهوب على الرغم من كل شيء.

قلت لماري:

- الخلاصة أنك، تريدين أن يذهب لوسيان لرؤيته.

- هذا سيساعدني، خاصة فيما يتعلق بفيليب. لوسيان، في نظر ابني، الطيبة كلها، وإذا رآه يصافح أباه....

وعدت قائلاً:

- سوف أتحدث إليه.

وعندما أشرت بيدي للنادل، أمسكت بذراعي وتمتمت مرتبكة:

- انتظر، هذا ليس كل شيء. فكرت أنكم في يوم السبت.......

كانت «مخبر» الصباح قد أعلنت أن جنازة عمي أنطوان ستجري في الساعة العاشرة من يوم السبت، في الكاتدرائية. وكما كنت أتوقع، لم تكن الجريدة تتحدث عن انتحار، بل عن «جرعة كبيرة من المنوم» وهكذا كانوا يحملون على الاعتقاد بأن الموت ربما كان عرضياً.

تابعت ماري دون أن تجرؤ على النظر في عيني.

- كل الأسرة ستكون مجتمعة. إنهم يعلمون أن زوجي في المدينة. العم أنطوان بدا، دائماً، متسامحاً معه. ستكون مناسبة.......

- ادوار هو الذي حدثك عن هذا، أليس كذلك؟

كانت مرغمة على الاعتراف بأن نعم. لم تكن تعرف الكذب. وفضلاً عن ذلك. فهذا من طبع ادوار! إنه يعود هزيلاً، مريضاً، كحيوان يزحف نحو وجارِه. وكان يظهر نفسه لزوجته، متواضعاً ونادماً. استقبلته، جعلته ينام في سرير نظيف، وقبل أن يصالح ابنه، كان يدبر نوعاً من الاعتراف الأسري به.

ظهر ادوار في الجنازة، شاحباً، بلباس جديد حتماً. هذا الظهور هو دون شك الممحاة التي تمحو كل ماضيه وتعيد دمجه في المدينة، وليس في بيته وأسرته فقط.

لم أستطع إلا أن أتنهد وأنا أنظر إليها بإعجاب.

- يا عزيزتي المسكينة......

كانت ذكية إلى حد يكفي لتعرف الدور الذي كان زوجها يحملها على أن تلعبه، وكانت تلعبه بإتقان. أ لم تكن تتوقع مثلي أنها إذا نجحت، فإن كل شيء يجب، في ذات يوم، أن يبدأ من جديد. هل كانت تتخيل ما ستكون عليه الحياة بين ابنها وهذا الزوج الذي هجرهما خلال عشرين عاماً وكان البؤس، وحده، هو الذي غيّره مؤقتاً؟

أجابت وهي تحاول، بشجاعة، أن تبتسم:

- لا ينبغي أن ترثي لي. قلت لك: لم أحب سواه، وما زلت أحبه.

كانت الكلمات تمر بصعوبة عبر حنجرتها المحتقنة. قلت وأنا أمد لها حقيبتها ومظلتها:

- تعالي....

وأضفت على مضض:

- سأحاول!

(٦)

الخميس في ٩ تشرين الثاني

ليس لدى ماري سيارة بالطبع. ليس هناك كثير من السيارات في الأسرة، ولولا زوجتي لم أكن، كذلك لأملك سيارة. ربما كنت، لو اقتصدت، أستطيع أن أدفع ثمن دراجة نارية.

قلت عندما صرنا خارجاً:

- سأوصلك.

- استطيع أن أركب الترام يا بليز، لا تزعج نفسك.

- اصعدي!

سمح لي هذا بأن أجد نفسي، من جديد، تحت المطر الغزير، في حي طفولتي، وأتساءل لماذا أحس، في كل مرة، بنوع من الانزعاج، بقلق كما لو كنت معرضاً لأن أكون، من جديد، محبوساً في هذه الأزقة المغالية في هدوئها حيث لا يرى، إلا على فترات متباعدة، مار على الرصيف، عجوز تشق بابها، ستارة تتحرك.

كنا نسكن في زقاق فيرجيه. عندما غادرتْ ماري أباها لتتزوج، لم يكن عليها أكثر من الالتفاف حول زاوية من شارع، واجتياز مئتي متر، وزقاق الصفصاف الذي تعيش، فيه، منذ ست عشرة سنة شبيه، تماماً، بذاك الذي ولدت فيه.

لماذا يبدو لي كل شيء، في هذا الحي، ساكناً، كأنه متجمد. ولا يقف ذلك عند البيوت والنوافذ، بل يشمل المقاعد وشجر دردار الحديقة والناس أنفسهم الذين أجدهم، من جديد، يقومون بالحركات ذاتها؟

كل شيء شاخ. الواجهات النضرة والملونة في زمن طفولتي تأكسدت. هناك بنايات شهدتُ تشييدها، هرمت فعلاً، وأصبح السكان الذين كان لهم عمر أبي وأمي عجائز.

سوف ينبغي، حقاً، عندما سيموت القدامى، أن يخلفهم شباب ما لم يهدم الحي لبناء حي آخر. الموضوع موضع بحث. شهد أبي، في هذا المكان، حقولاً حقيقية، أشجار صفصاف حقيقية أعطت اسمها لبعض الأزقة، وعندما ولدت، كانت هناك آخر مزرعة، وكان، فيها، بقر، دجاج، خنازير، على حافة القناة.

أجريت انعطافة من أجل أن لا أمر بزقاقي القديم. توقفت عند بيت ماري ورفعت عينيّ، آلياً نحو نافذة الطابق الأول. لم أر أي خيال يتلامح فيها.

- شكراً يا بليز. اعتمد عليك.

كانت تريد نفسها هادئة عندما تعود إلى بيتها وتوصلت إلى ذلك.

- سأبذل جهدي.

- شكراً!

عبرت الطريق راكضة ومفتاحها في يدها. وأعدت تشغيل المحرك.

في البيت وجدت إيرين مرتدية مئزراً.

- هل ذهبت إلى المقبرة؟ ألم تصادف أمك؟

- كلا، لماذا؟

- لا لشيء.

كانت زوجتي تصقل أظافرها، نصف ممددة على الأريكة، في حين كانت أديل تضع الطاولة في الغرفة المجاورة.تحب إيرين أن تتسكع في الشقة، في المئزر، عارية القدمين في خفيها، شعرها على وجهها، دون أن تفعل شيئاً محدداً، وعندما أذهب إلى مدرسة الفنون الجميلة، يفاجئني، أحياناً، وأنا عائد بعد ثلاث ساعات، أن أراها كما تركتها بالضبط.

بقيت شعبية في أوضاعها، في أذواقها، في لغتها، ولم يكن ذلك يسؤوني، بل على العكس أنا الذي أردتُ ذلك. لم أكن لأستطيع أن أعيش مع امرأة كابنة عمي مونيك، مثلاً، أو كماري التي كان من شأنها أن تخلق لدي، دون أن تريد ذلك، احساساً بالدونية.

من المبالغ فيه أن يقال أني اخترت زوجتي، عمداً، من أدنى مستوى ممكن، من السواقي تقريباً. لا يختار المرء تماماً، أبداً، ومع ذلك، فقد كان هذا هو النوع الوحيد الذي كنت أستطيع أن أتزوج منه إذ لا ترغمني على أي قسر، على أية مقارنة.

أمها، فرناندا الضخمة، كانت تجر عربة خضار في الطريق. كانت محتقنة الوجه، هائلة الوركين، قوية الفكين، وكانت تشرب بثبات مع الرجال على مشارب الحانات. وقد ماتت، فضلاً عن ذلك، في المستشفى خلال أزمة هذيان، مثل عجائز السكارى.

كانت لها، ابنتان. كانت إيرين، عندما عرفتها، تعمل لدى بائعة زهور في شارع البريد وكانت أختها أصغر منها بأربع سنوات، وأعترف بأني ترددت بين الاثنتين، بأني كدت أختار ليلي. وإذا كنت لم أفعل، فذلك لأنها لم تتجاوز السادسة عشرة آنذاك.

اختفت بعد قليل، ولم تعد إلى المدينة، على حد علمي، أبداً. خلال السنوات الثلاث الأولى، لم نتلق منها شيئاً. ثم تلقينا دعوة إلى زواجها بمدير فني يدعى بلوش.

أنجبت منه ولداً، بنتاً صغيرة، وهو ما لم يمنعها من أن تطلقه، بعد أربع سنوات، وتتزوج من جديد.

زوجها الثاني انكليزي، هاري هيغنز، من أسرة صناع جعة. وهما يملكان شقة في التروكاديرو، وأخرى في لندن، مزرعة واسعة في السوسكس، دارة على الكوت دازور، وكثيراً ما يرد ذكر اسمهما في الصحف، بمناسبة سهرات في كان أو مونت كارلو.

إيرين المسكينة كانت أقل حظاً معي والصحيح هو أن لدى شقيقتها اشراقة وحيوية وبهيمية بعيدة، هي، عن امتلاكها بالدرجة نفسها.

- أتريد أن تعطيني كأس بورتو، لقد انتهيت لم يبق إلا ظفران.

أكثر ما يعجبني هو أن أحداً منا لا يداهن الآخر. أنا طبيعي معها بالقدر الذي أكون، فيه، مع صديق، مع دونيفر مثلاً.

لما كنا نعرف بعضنا بعضاً، فإن أحداً منا لا يحاول أن يخفي عن الآخر عيوبه، ولا أن يصحح عيوب الشريك. وهذا ما هو مريح وما لا يفهمه الناس.

كانت لها نظرتها الحادة التي تظهر عليها عندما تعتني بجسدها، سواء أكان ذلك لتصقل أظفارها، لتتجمل، أم لتمشيط شعرها. يحس المرء بأن هذه مهمتها الأساسية وأنها يمكن أن تكرس لها ساعات دون ملل، مع خلفية راديو أو وقفة بين حين وآخر، لتشعل سيجارة.

صببت لنفسي، أيضاً، كأساً من البورتو. عندما مررت إليها كأسها، التقت نظراتنا بهدوء. وعندما تكلمت، عرفت بماذا فكرت خلال الصباح. سألتني قائلة:

- ماذا ستفعل إذا ورثت في نهاية المطاف؟

لم تشغلني الفكرة، هذا الصباح، بسبب ماري، لكني كنت قد طرحت السؤال على نفسي، في الأمس، وأنا أنام، فلم أجد جواباً.

- هذا يتوقف.....

جلست تجاهها وكأسي في يدي.

- يتوقف على ماذا؟

- أولاً، على المبلغ الذي قد نرثه.

- أتظن أنه كان غنياً جداً؟

كنت أعلم أن إيرين لا تتكلم عن جشع، وأنّ لأسئلتها جذوراً أبعد من ذلك بكثير.

- غني جداً؟ أجهل ذلك. لكن بيت نوتردام لوحده، يجب أن يساوي حوالي أربعين مليوناً. إنه يملك، بالتأكيد، سندات. تزعم أمي أنه يملك بنايات أخرى، أن مبلغاً كبيراً يجب أن يتوزع بين أفراد أسرة هويه جميعاً.

تنهدت قائلة:

- بالطبع!

هل كان هذا يعني أنها بدأت تضيق بنيكولا ماشران؟ على كل حال، سرتني هذه التنهدة، أحدثت فيّ انفعالاً صغيراً بهيجاً.

على عكس ما يمكن أن يظن الناس، أحب زوجتي، وأنا مقتنع بأنها تحبني، على طريقتها دون شك. لكنها لا تستطيع أن تستغني عني. والدليل هو أنها لم تفعل كشقيقتها، وأنها بقيت.

لم يكن نيكولا، بالتأكيد، ليتزوجها. سنحت لي، خلال ثلاث سنوات، فرصة دراسته، وهو لا يخفي، في هذا الصدد، طريقته في النظر. ليست لديه أية رغبة في أن يعقد حياته مع امرأة وبيت وأطفال. أما بالنسبة للعشيقات، فقد كانت له، سابقاً، عشيقة أرهقته وكادت تجره إلى فضيحة. حاجاته الجنسية معتدلة، وفضوله ضعف منذ زمن طويل. ومع ذلك، كان في حاجة إلى مكان يستطيع أن يوجد فيه عندما يرغب في ذلك، وعند ذلك فقط، شيء يشبه حرارة عائلية.

لا أجهل أن أمي تسميه الوقواق، والمقارنة ليست بعيدة جداً عن الصحة. لم يكن وجودي، عندما يأتي ليتغدى أو ليتعشى، يضايقه. على العكس من ذلك، أنا مقتنع من أن بقاءه أكثر مما ينبغي منفرداً بإيرين، وأن عدم إحساسه بجو أسرة حقيقي، شيءٌ يضجره.

يجب أن يكون لوسيان، نفسه، مقتنعاً بأني قبلت، عن مصلحة، ما كان يسميه وضعاً خاطئاً. لا شيء أبعد عن الحقيقة، لكني لم أتحمل، أبداً، عناء الشرح له أو لأي شخص آخر حول هذا الموضوع.

كانت إيرين تخونني قبل الالتقاء بماشران. عندما عرفتُها، لم أكن أجهل أنها لم تكن تعلق أية أهمية على التصرفات الجنسية التي كان تبدو لها تافهة، طبيعية، بالقدر الذي تبدو، فيه، لــ أديل مثلاً. عدة أصدقاء لي ضاجعوها قبلي، ولم يمنع ذلك زواجي بها.

هذا لا يعني أني لم أكن غيوراً. كنت آمل، وأنا أعترف بذلك، في أنها سوف تتغير. لكني كنت أحبها من أجل عيوبها وليس من أجل فضائلها، ولم تكن لدي أية صفة لإصلاحها.

أطرف ما في الأمر هو أنه لم يكن لها مزاج بالمرة، وأنا مقتنع بأنها لم تعرف، قط، متعة حقيقية. يتفق أن يسليها ذلك، وهو ليس، في معظم الأحيان سوى المحصلة المحتومة لمغامرة أو طريقة في دفع ثمن مكانها.

إنها ليست طموحة بالمعنى الحقيقي للكلمة، ولم تكن تحسد شقيقتها التي كان من شأن مستوى بيتها ومسؤولياتها أن يُشعرها بالأحرى بالخوف.

كلا! إنه أمر مختلف. عندما تمل، كانت تحتاج إلى أصوات، إلى أن تضحك مع أحد يهتم بها ويجعلها تؤمن بأهميتها. لا يهم إذا كان ذلك يجب أن ينتهي في السرير! لا تفكر في ذلك مسبقاً وتفعل ما يجب فعله عندما يحين الوقت.

هذا شيء لم يكن أي زوج، كما يبدو لي، يستطيع أن يعطيها إياه، والدليل هو أنها قد خانتني، لكي أستعمل كلمةً لا تبدو لي دقيقة، في أول شهر من زواجنا.

في ذلك العهد، لم تكن، بعد، تحدثني عن ذلك، وكانت تعتقد بأن عليها أن تختبئ، وكانت ترتبك في أكاذيبها.

في ذات يوم، عادت مع حقيبة جديدة كنت أعرف أنها غير قادرة على دفع ثمنها، ففهمت.

كان يمكن أن أغضب أو أن أؤنبها، أو أن أضربها. هل كان علي أن أفعل؟ هل كان الناس سينظرون إلي، الآن، بدرجة أدنى من الاستنكار؟ أم

كان علي أن أطلقها لاستحالة تغييرها، في حين كنت أحس بأني لا أستطيع العيش من دونها؟

كل ذلك رويته تفصيلاً في المخطوطة المتلفة، باذلاً جهدي في وصف كل المراحل التي مررت بها. يبدو أن ذلك كان ذوقاً سقيماً من جانبي، إن ذلك كان يعبر عن ميل مَرَضي استعراضي.

هل يتحسن، الآن، فهم السبب الذي اهتممت من أجله، دائماً، اهتماماً خاصاً بالعم أنطوان؟ لم يكن وضعه هو وضعي نفسه، لكن هناك، مع ذلك، نقاطاً مشتركة بين وضعينا.

كوليت ليست بنت شارع مثل إيرين. إنها تنحدر من أسرة ممتازة من الجنوب، من نيم، كما أظن، وتلقت تربية جيدة.

صادفها أنطوان هويه على الكوت دازور حيث كان يقيم كل سنة، وحيث كانت تعيش مع أمها.

كيف أقنعها بأن تتبع إلى مدينتنا الضبابية رجلاً أكبر منها بثلاثين سنة؟ لا أحد، في الأسرة، يعرف شيئاً حول هذا الموضوع.

ما أستطيع أن أقسم عليه، عن خبرة شخصية، هو أن عمي كان يعلم أنها كانت شبقة، وأنها كانت ستجعله يعاني. لم تكن، مثل إيرين، تعطي نفسها للرجال لأنها لا تعلق أهمية على ذلك، لدفع ثمن عشاء، سهرة في المرقص، أو حلية صغيرة ما. بالنسبة لكوليت، كان ذلك، دائماً، مأساة كانت تعاني منها معاناة عميقة.

ألم تتعلق برجل كان يمكن أن يكون أباها على أمل أن ينقذها؟ كان يفهمها. كان يساعدها. أنا واثق من أنه كانت لها، بفضله، أخيراً، حياة سوية. كان يلعب، نوعاً ما، دور الجدار الحامي.

لا بد أن أنطوان انتظر، مثلي، أمسيات، ليال كاملة متسائلاً عما إذا كانت ستعود هذه المرة. لقد استعد لصوت الباب، للخطوات على الدرج محاولاً أن يعطي لوجهه تعبيراً هادئاً.

مع ذلك، أمل، على عكسي، في أن يشفيها. من جهتي، لم أداعب هذا الأمل إلا شهوراً، أم أقول خلال أسابيع.

كنت أقول، في البداية، بصوت أبح قليلاً:

- مرة أخرى يا إيرين؟

- ماذا؟ ما الذي فعلته؟ ماذا تأخذ عليّ؟

- أنت تعلمين، أليس كذلك؟

كان يتفق لها أن تغضب، أن تمضي إلى حد التمرد.

- إذا كنت قد تزوجتني لتحبسني بين أربعة جدران، وأنا أنتظرك طوال النهار، فما كان يجب أن تتزوجني.

بماذا أجيب؟ كانت على حق، وكنت أبدو أكثر عذوبة، أكثر حناناً معها. حاولت أن أكون مرحاً، أن أذهب بها إلى أماكن تحبها. كانت تحس بأني لست، فيها، في مكاني. كانت تعرفني أكثر مما ينبغي.

ثم كانت، وأنا مرغم على أن أضيف ذلك، تشتهي كل ما تراه. رغبت في خادمة أولاً، لأنها كانت تكره القيام بشؤون البيت. من كان يرتب البيت في أسرتها؟ لا أحد على وجه الاحتمال. كن يعشن كيفما اتفق الأمر في نوع من كوخ يأكلن أي شيء، لحماً بارداً، في معظم الأحيان، على طرف طاولة.

فهل سأعلمها الطهي، ترتيب سريرها، موازنة ميزانية متواضعة؟ حاولت، بسذاجة، خلال سنوات، فكنت أغسل الصحون وأرسل البياضات إلى المصبغة عندما أعود من عملي.

أحبها، أحب وجهها الصغير الذي يتخذ، بسهولة بالغة، تعبير الحرد وأحبها، أيضاً، من أجل جسدها حتى لو كانت تسلمني إياه بلا مبالاة. أحب كسلها، خمولها، حياتها شبه الحيوانية أو الطفلية. احتاج إلى أن أحس بها في بيتي، أن أجدها أو انتظرها، أرقب مزاجها في ثنية شفتيها.

مهما قال الناس، فنحن نشكل زوجين على الرغم من ماشران والآخرين، وإذا كنت قد قبلت ماشران، وإذا انتهيت إلى الاعتياد على ذلك، فمن أجل أن أتجنب فقدها.

كانت في حاجة إلى سيارة، إلى معطف فرو، إلى ترف مبتذل إلى حد كاف لخليلة ينفق عليها تجد، فيه، مناخها.

أنا أيضاً، في العشية، طرحت وأنا أصغي إلى تنفسها المنتظم، على نفسي السؤال: «ماذا لو ورثت حقاً؟»

خلال برهة، تركت الأوهام تهدهدني. ألن تصبح إيرين لي، وحدي، أخيراً؟

حاولت تخيلنا منفردين، دون دروس مدرسة الفنون الجميلة، انفراداً في كل الساعات تقريباً، وفهمت أن زوجتي لن تتحمل ذلك.

أتساءل عما إذا لم يكن نيكولا ضرورياً لها، مثلي، بمعنى آخر. فهو يمثل، بالنسبة إليها، بسبب عمره وثروته، وأهميته الاجتماعية، السلطة. ودون أن أمضي إلى حد الزعم بأنها تخاف منه، فمن المؤكد أنها تهابه. إنها تغتاظ منه كما كان من شأنها، لو كان لها أب، أن تغضب منه.

يتفق لي أن أشهد ثورات خفية تسلي نيكولا ويسره أن يستجرها. ومع ذلك كان بمثابة لجام حتى إذا كانت إيرين تحتاج إلى أن تخدعه. أنا لم أعد ألجم شيئاً. أنا الرفيق، الشريك تقريباً، ذلك الذي يثق المرء بأنه سيجده مهما حدث، ذلك الذي يُعرف بأنه لن يطرح أسئلة، الذي سيفهم دون أن يظهر أنه فهم.

- سيكون طريفاً أن نصبح غنيين فجأة!

كنت أحس بأن ذلك كان يبعث فيها الاضطراب، بأنه لم يكن منظوراً مفرحاً فقط، بل بأنه يطرح، بالنسبة إليها أيضاً، مسائل لا تحل.

أعلنت أديل بصوتها اللامبالي:

- طعام سيدتي جاهز.

عندما هتفت إلى بيت أخي، بعد الغداء بقليل، أجابتني زوجته بأنه في الجريدة. سألت إيرين قائلاً:

- هل تستخدمين السيارة؟

نظرت عابسة إلى المطر الذي يسيل على الزجاج وانتهت بأن تنهدت قائلة:

- ربما ذهبت إلى السينما. ماذا يستطيع المرء أن يفعل في مثل هذا الطقس؟

أخذت الترام. في شارع فينوز، دخلت إلى ردهة الجريدة العتيقة، السيئة الإنارة حيث كانت توجد كوتان تعلوهما كلمات «الاعلانات الصغيرة» و«الاشتراكات» في الواجهات التي تشغل شقتين من الجدار. لمحت، بين قوات مسلحة تمشي ورؤساء دولة ينزلون من طائرات، صوراً لعمي أخذت بمناسة بعض الاحتفالات الرسمية.

كانت هناك، أيضاً، صورة له في الصفحة الأولى من الجريدة، وعلى ثلاثة أعمدة مقالة تأبينية بتوقيع رئيس التحرير.

من الصعب إيجاد مكتب أخي، قرب ورشة اللينوتيب. يجب عبور مماشٍ ضيقة، صعود درج، اجتياز عدة غرف تتكدس فيها رزم من صحف قديمة. لم أصادف سوى ضاربة واحدة على الآلة الكاتبة حولاء دلتني على الورشة وراء باب. كان لوسيان هناك، مشمر الساعدين، منحنياً على الصور مع مخرج الصفحات. كانت آلات اللينوتيب تفرقع، وكانت تسود رائحة رصاص مصهور ثقيلة.

لم أشاهد لوسيان بنظارة قط. كنت أجهل أنه يضع، من أجل العمل، نظارتين من طراز قديم، بإطار معدني. استقبلني بدهشة، إن لم يكن بقلق.

- أتريد أن تتحدث معي؟

- لدي كل الوقت اللازم.

- أنا تحت تصرفك بعد حوالي عشر دقائق...انتظرني في مكتبي إذا أردت.

فضلت أن أتجول في الورشة. هذا هو ديكور لوسيان كما كان صف الفنون الجميلة، برخاماته الباهتة وتلاميذه، يشكل ديكوري. دهشت لرؤيته يقرأ أسطر الرصاص مقلوبة ويسحب بملاقط صغيرة، بحركة بارعة، الأسطر التي يجب أن يلغيها ويضع أخرى مكانها.

هنا، كان لوسيان، بالنسبة للذين كانوا يعملون حوله، شخصية. كانوا يعترفون بقيمته المهنية، ببراعته. جعلني هذا سيء المزاج. ألا يحتاج كل واحد إلى من يحس بأهميته في ميدان ما، مهما كان متواضعاً؟

هذه الترضية تنفصني. تلاميذي لا يأخذونني على محمل الجد ويكشرون في ظهري.

الأساتذة الآخرون لا يجهلون أني أدين بمركزي لحمايات. الأسرة، بمن فيها أمي، تزدريني أو ترثي لي، وليس هناك أخيراً، سوى إيرين، من يقدرني قليلاً.

ربما كانت تقدرني كثيراً. فسوف تصبح، بالتأكيد، تائهة إذا انتهيتُ. ومع ذلك، فلن يكون هذا يأساً حقيقياً. فمنذ قليل، أشارت، ونحن نأكل، إلى جريدة تعلن عن جنازة عمي، وسألتني:

- أتعتقد أني يجب أن أرتدي ملابس الحداد؟ ليس لدى معطف أسود.

- سترتدين الفيزون.

- أراهن على أن أمك وعماتك سيضعن النقاب.

كنت أحس بأن وضع واحد كان يغريها لترى كيف تكون ملابس الحداد عليها، كما يتنكر المرء إلى حد ما.

تبعت لوسيان إلى مكتبه حيث بدا أنه يتوقع ما سأحدثه عنه. أشرت إلى الضاربة على الآلة الكاتبة، وتردد في أخراجها. انتهى إلى أن قرر وهو يرتدي سترته.

- فلنذهب لنتناول قهوة في المقهى، تجاهنا، إذا سئلت عني، فقولي يا جنفييف أني عائد حالاً.

المقهى ذو الطراز القديم، بمقاعد من الجلد ومرايا تحيط بالصالتين، هو مقهى لزبائن منتظمين لا أتذكر أني وضعت قدميّ فيه. كان خالياً تقريباً. كان رجلان خلعا سترتيهما يدوران، ببطء، بصورة رسمية، حول البليار، وجاء أحدهما، وكان مفوض شرطة، ليصافح أخي. أوصى هذا الأخير على قهوة. كنت قد تناولت القهوة في البيت، وأوصيت على كأس كحول، وهو ما بدا مفاجئاً لـِ لوسيان.

كان ينظر إليّ قلقاً، غير مرتاح، كما لو كان يحاول أن يخمن ما تخفيه زيارتي غير المتوقعة.

منذ أصبحنا وحدنا، دخلتُ في الموضوع.

- رأيت ماري.

كان يتوقع ذلك.

- هل جاءت إليك؟

- لا. صادفتها، هذا الصباح في المقبرة.

- مع فيليب؟

- كانت وحدها.

فهم، فعلاً، وهو الأعرف مني بماري وعاداتها، أن ذلك لم يكن لقاء بالمصادفة، سأل بشيء من الضغينة:

- لماذا قصدتْكَ أنت؟

- لأنها لم تجرؤ على القدوم إليك.

- أتعلم أنك هنا؟ هل أرسلتك؟

- نعم.

خيم صمت كنا نسمع، خلاله، تصادم كرات البليار تحت المصباح ذي الأباجور الأخضر الذي كان يضيء البليار.

- ما الذي كلفتك بأن تقوله لي؟

نادراً ما أحسست، بهذا الوضوح، إلى أي حد كنا، أخي وأنا، غريبين. صوته نفسه الذي سمعته، كل يوم، خلال كل شبابي، كان يرن في أذني كصوت أي شخص مجهول. كنت أنظر إلى بروفيل وجهه ولا أتعرف على أي من قسماته. بقي هادئاً في الظاهر، وهياجه كان داخلياً إذا وجد.

- أتعلم أنه عندها؟ أليس كذلك؟

- نعم.

- يبدو أنه مريض جداً، لم يعد سوى ظل رجل.

كانت أصابعه تنقر على الطاولة، واكتشفت باقات من الشعر الأصهب على كل سلامية. سأل بجفاء:

- وبعد؟

- وضعته في السرير، في غرفة من الطابق الأول.

- وفيليب؟

- فيليب لم يره بعد.

- هل يعلم؟

- نعم.

- ماذا كانت ردة فعله؟

- تنوي أن تعوده على هذه الفكرة تدريجياً.

- أية فكرة؟

- أن أباه قد عاد.

- هل تنوي الاحتفاظ به؟

- اسمع يا لوسيان! طريقتك في طرح الأسئلة تصعب مهمتي. لقد وعدت ماري بأن أدافع عن قضيتها.

- في المقبرة؟

- مقابلها، في مقهى لجأنا إليه. إنها تواجه الموقف بشجاعة. أنت تعلم أنها، على الرغم من كل شيء، لم تتوقف عن حبها له.

- أقالت لك ذلك؟

- نعم. وكررت لي، مرتين أو ثلاثاً، أنه لا يمكن لانسان أن يدفع طوال عمره وأنها تأتي برهة يكون، فيها، قد أدى دينه. ادوار في الطور الأخير من حياته.

- أمن أجل هذا قد عاد؟

كان الصوت، على الرغم من انخفاضه، من العدوانية بحيث لم أستطع أن أمتنع عن الرد.

- يبدو أنك تنسى المحبة المسيحية....

- المسيح قال: «ويل لمن تأتي الفضيحة عن طريقه.....»

- أعلم: «إذا كانت عينك تعيبك، فاقلعها وألق بها بعيداً عنك........» لكنه لم يأمر بقلع عيون الآخرين!

نظر إلي لوسيان، مدهوشاً كما لو كان، من جهته، يكتشف فيّ رجلاً لا يعرفه. ظل برهة صامتاً يحدق في البليار. انتهى بأن تنهد قائلاً:

- هل تدرك التهديد الذي يمثله؟

- لمن؟

- لفيليب أولاً. كل ما أُريدَ لهذا الفتى أن يعرفه عن أبيه، شيء، ورؤيته له لحماً ودماً وتبين انحطاطه والعيش إلى جانبه شيء آخر.....

- فيليب رجل تقريباً.

- أما بالنسبة لماري، فإنها قد توصلت إلى تنظيم حياتها بشكل من الأشكال، ومداواة جراحها. ما الذي سيحدث بعد شهر، بعد ستة أشهر، بعد سنة، عندما يسترد ادوار قواه؟ لن يبقى إلى الأبد في سريره. لن يكتفي بأن يعيش عندها دون أن يفعل شيئاً. سترى أنه ما يكاد يقف على قدميه حتى سيريد أن يتأنق في لباسه، أن يظهر، أن يشيد مشروعات خيالية.

- ماذا يمكننا أن نفعل بهذا الصدد؟

وجازفت بأن أضيف ساخراً:

- هل نقتله؟ من المؤكد أن هذا أفضل للجميع.

- اسكت! ما الذي أنت مكلف بأن تطلبه مني بالضبط؟

- أنت أكثر من يشعر بالذنب إزاءه. فيفترض أن تكون أنت، إذن، من ينقم عليه أشد النقمة...

كان أخي يحاول التأثير بي لأنه كان يحدق فيّ كما لو لم أكن، أنا، الذي يراه، بل زوج ماري.

- تابع.

- إذا صدرت عنك بادرة........

- أية بادرة؟

بدا صوته آتياً من بعيد.

- تتساءل ماري عما إذا لم تكن تستطيع أن تذهب إليه، أن تسامحه.

بدأت أندم على قبولي هذه المهمة. كان أخي يحافظ على برودة أعصابه ظاهراً. تجمدت يداه على الطاولة. لم تكن واحدة من قسمات وجهه تتحرك. لكني لا أظن أني أحسست، من قبل، هذا الإحساس بالجهد شبه اللا إنساني الذي يبذله رجل للتحكم بذاته.

كنت أخمن مشاعر عنيفة عنفاً لم يسبق أن شككت بوجودها وكانت تهزني لأنه كان يتوصل إلى احتوائها.

كان يجد مشقة في النطق كما لو كان فكاه لم يعودا يطيعانه.

- هل طلبت إليك ذلك حقاً؟

هززت رأسي إيجاباً.

- أن أذهب لأصافحه؟

لم أعد أجرؤ على النظر إليه، وتمنيت لو أتى مفوض الشرطة ليقاطعنا.

- من أجل أن يستطيع، دون شك. أن يقود، يوم السبت، مراسم الحداد بوصفه كبير الأسرة؟

أنا، أيضاً، فكرت في ذلك صباحاً، ولم تجرؤ ماري على مناقضتي. كنا، جميعاً، نعلم. لم تكن الأوهام تهدهد واحداً منا. لكن ماري كانت، من جهتها، مستمرة في حبها له. ولوسيان هو الذي يطلب منه أقسى جهد.

- هل ينوي حضور الجنازة؟

- خيل إلي أني فهمت هذا.

- وماري ترغب في ذلك؟

هززت رأسي من جديد.

- ألم تحدث عن ذلك أحداً آخر؟

- كلا.

- أما رأيت أمنا؟ أليست مطلعة على هذا الأمر؟

- تجهل كل شيء.

أطلقت على الرغم مني، تنهيدة طويلة كما لو كان الأصعب قد انقضى. لم يعد الأمر، بعد الآن، سوى شأن بين لوسيان وضميره، بين لوسيان وإيمانه. كان محظوظاً لأنه يؤمن بالله. هل سيساعده هذه في برهة كهذه؟

التزمنا الصمت خلال ما يقرب من خمس دقائق. كان مكاناً غير متوقع لاتخاذ قرار في هذه الخطورة. إلا أنه ربما كان من الأفضل، على وجه الضبط، أن نوجد تحت أبصار غرباء.

كان يبدو لي أن لوسيان كان يسترخي ببطء تجاهي. انتهت يده إلى البحث عن غليونه في جيبه وأخذ يحشوه.

عندما ما رفعت عينيّ نحوه، كان وجهه يبدو كما لو كان مشوهاً. انتقل من شحوبه، قبل قليل، ليصبح شديد الاحمرار. كانت قسمات وجهه أكثر ابهاماً، أشد اختلاطاً، وكانت عيناه ناتئتين. تمتم أخيراً:

- سأذهب لأراها.

لم أكن احتاج إلى أن أسأله عما إذا كان سيرى ادوار أيضاً. فمنذ قبوله الذهاب إلى زقاق فيرجيه، فهذا يعني أنه سيمضى حتى النهاية.

كنت أشعر بتبكيت ضمير. لقد أتيت على إنزال العذاب برجل كان أخي دون أن أعلم، فقط، باسم أي شيء تصرفت. اكتشفتُ للتو أنه، هو الذي كنت أظنه دون مشاكل، ودون اغراءات، كان قابلاً للعطب وقادراً، للحظة على الأقل، على كل الاندفاعات.

سيلومني إلى الأبد على مضض، بسبب هذه الدقائق التي أمضيناها قرب البليار. عبثاً أقول إنني لم أكن سوى وسيط، فأنا، وليست ماري، مَن سيفكر فيه، في كل مرة يتذكر، فيها، مأساة الضمير هذه.

وكما لو كان من الممكن جعله يفكر في شيء آخر، قلت:

- بالمناسبة، رأيت هذا الصباح، وأنا مار بنوتردام، إنهم يقيمون حجرة ميت.

أبدى، بوجهه، علامة موافقة.

- هل أعيد الجثمان إلى البيت؟

- نعم.

- من يحرسه؟

- هناك راهبتان موجودتان بصورة دائمة. سوف تتناوبان حتى يوم الجنازة.

- أين وضعوه؟

- في صالة الطابق الأرضي الصغير، الصالة التي ليس، عليها أختام.

- هل ذهبت إلى هناك؟

- ظهراً.

- هل هناك من يأتي؟

- بعض المحامين والجيران والقضاة.....

- ألم تجد مشقة في الحصول على جنازة دينية؟

- لماذا تستدرجني للكلام؟

- لأنك أنت المكلف بك هذا! بل إني لا أدري ماذا حل بكوليت؟

- إنها في بيتها مع ممرضة، نهاراً، وأخرى ليلاً.

- راقدة؟

- كلا. إنها تروح وتجيء في الطابق الثاني. استدعت الخياطة لتوصيها على ملابس حداد.

- وفلوريو؟

- أمضى أمسية أمس وقسماً من صباح اليوم معها. أهذا كل ماتريد معرفته؟ يجب أن أعود إلى الجريدة.

كان سينهض عندما استوقفته دون تفكير لأن كلمات كانت ترد، بصورة طبيعية، على شفتّي:

- لوسيان!

- نعم؟

- أحبك ويسرني كونك أخي.

نظر إليّ مدهوشاً، تائهاً، لأنه لم يكن يتوقع هذه العبارة.

- لماذا تقول هذا؟

- لأني أتيت على التفكير فيه. للمرة الأولى، أحسست، حقاً، بأن لي أخاً.

ابتسم ابتسامة خرقاء. غمغم منفعلاً، وهو يمد لي يده:

- غبي!

وأضاف، وقد دار نحو الباب:

- يجب علي أن أنهي إخراج جريدتي...

حيى مفوض الشرطة، رفع ياقة معطفه الأسود الردئ التفصيل ومضى نحو الرصيف المقابل ودخل إلى ردهة الجريدة.

لم يكن لديّ ما أفعله. لن تستأنف الحياة اليومية إلا غداً. بدأت الدكاكين تشعل مصابيحها، وكان المارة على الأرصفة يشكلون موكباً غير منظم تغطيه أمواج مظلات.

لو كنت أعرف السينما التي ذهبت إليها إيرين لوافيتها إليها. كدت أهتف إلى البيت لأسأل عما إذا كانت قد ذهبت من قبل ولضرب موعد معها في المدينة إذا لم تكن قد ذهبت.

لقد حصلتُ للتو، بسحر لا أعرف كنهه، خلال بضع لحظات، على اتصال إنساني، مهما كان عابراً، وكنت أود أن أحافظ على هذه الحرارة التي أحسست بها في نفسي.

كنت لا أزال على طاولة، وحدي، في مقهى هادئ، أمام لاعبي بليار كانا يلاحظانني خلسة، وانتهيت بأن أشرت إلى النادل بأن يقدم لي كأساً أخرى.

وضعت مشاريع مضحكة لبعد الظهر، كأن أذهب لقضاء برهة في مطبخ أمي لأرى أحدهم، لأسمع صوتاً يتجه إليّ. لكن أمي سوف تنتهي باستجوابي، ولا يعلم إلا الله العاصفة التي كانت ستطلقها.

من أزور؟ لا أحد! لا أحد ينتظرني. كان من شأن من أذهب إليهم أن يستقبلونني متسائلين عما أتيت أفعل. كان المطر أقوى من أن أتجول في الطرقات متفرجاً على الواجهات.

كانت هذه، حقاً، مدينة طفولتي، مراهقتي، التي كانت الحياة فيها مسدودة من كل الجوانب ولم يبق، فيها، سوى إمكانية أن يهدهد المرء ملله.

انتهيت بالذهاب إلى رصيف نوتردام كي «أرى» عمي أنطوان الذي أحيط وجهه اللغزي، الآن، بإطار رسمي. بللت عود البقس بالماء المقدس، رسمت علامة الصليب فوق الجسد المتخشب، ووجهت تحية صامتة للراهبتين الجاثيتين.

لم ألمح فرانسوا. لم أسمح لنفسي بأن أصعد إلى الطابق الأول، ولا بأن أطلب رؤية عمتي.

عندما ألفيت نفسي خارجاً، كان الليل قد حل، وسرت ممسكاً بمظلتي كدرع، محاذياً البيوت.

وبدلاً من أن أعود إلى بيتي، فضلت أن أجلس في ظلمة سينما، في أول سينما مررت بها، ربما كانت تلك التي توجد، فيها، زوجتي. كان حذائي مبللاً، وكذلك أسفل بنطالي. كانت جارتي تمص سكاكر بالبنفسج، وكان عاشقان يجلسان أمامي متلاصقي الخدين.

فاجأت نفسي أضحك، آلياً، مع باقي الصالة، لأن المعروض كان فيلماً هزلياً، ومع ذلك، كنت أفكر في أنه يجب أن يكون أخي، في هذه الساعة، قد وصل إلى زقاق فيرجيه مبلل القدمين بدوره، وقرع باب بيت ماري.

(٧)

اليوم نفسه

يوم الأموات كان يوم خميس. جنازة العم أنطوان المتوفى في مساء الثلاثاء، عشية عيد جميع القديسين، ستكون يوم السبت. لم يبق سوى الجمعة، وكان، أخيراً، يوماً كالأيام الأخرى للمدينة في حياتها المعتادة، بالمخازن المفتوحة والموظفين في مكاتبهم والتراموايات المزدحمة وميدان السوق المبرقش، كل صباح، بالخضار والفواكه.

كانت الريح قد خفت، وغدا المطر أنعم وأبطأ. وجدت في بريدي، غير المهم دائماً، استدعاء من مسجل العقود غوترا للحضور في الساعة الثالثة من بعد ظهر الغد، ولم أستطع الامتناع عن التساؤل عما إذا كان ذلك يعني أني بين الورثة.

لم أرث، قط، في حياتي. أجهل كيف يكون ذلك. هل يتم استدعاء كل أسرة هويه آلياً، مهما كانت ترتيبات عمي الأخيرة، أم أنه لا يجتمع إلا الذين سيتلقون شيئاً؟ كنت أود أن أعلم هذا، إلا أنه لم يكن هناك أحد أطرح عليه هذا السؤال. هل ستكون هناك أمي أيضاً؟ وماذا عن العمة صوفي، أم ادوار ومونيك، والتي كانت، في عمر التاسعة والسبعين، عمياء تقريباً؟ كانت تعيش في طرف المدينة، في حي غران فير الأبعد من آخر موقف للترام، ولم أكن قد رأيتها منذ خمس سنوات على الأقل. كانت تقبض معاش زوجها المعاق في الحرب الذي، كما سبق أن قلت، تسمم بالغاز عام ١٩١٧، بالإضافة إلى معاشه كرئيس مكتب، وكانت مونيك تحمل إليها، بين حين وآخر، حلويات.

لست مغرضاً، أقسم على ذلك، ولم تكن الوصية هي السبب الذي كنت أصبح محموماً لأجله كلما اقترب يوم السبت. كنت أحس بالحالة الذهنية نفسها التي كانت تنتابني، طفلاً، عشية احتفال، أو توزيع جوائز، أو عطلة، أو عيد الميلاد.

كانت جنازة عمي أنطوان تتخذ، في نظري، أهمية عظيمة، وأنا مقتنع بأني لست فريداً في حالتي، وبأنه ثمة روحات وجيئات ومشاورات تجري، بأن بعضهن يوصين على فساتين، وأوصى بعضهم على بزات، بأن الأكثر تقدماً في العمر أخرجن من حقائب أو صناديق نقابات حداد قديمة.

لم نر الفيلم نفسه، مساء أمس، إيرين وأنا، ونظرت إلي زوجتي نظرة غريبة عندما قلت لها إنني ذهبت إلى السينما لأنها تعلم أن تلك ليست عادتي.

أتساءل عما إذا لم تكن قلقة بصدد ما سيجري إذا ورثت قسماً من الثروة. هل تتصور أني سأفكر بخلق حياة شخصية لنفسي، وربما بتركها، بتطليقها، بالتخلي عنها لنيكولا الذي سيضايقه ذلك جداً؟

يحتمل أني أتوهم. فهذه الأحداث غير المخيفة، بعد كل شيء، التي يحدث منها كل يوم، التي تعرفها معظم الأسر، في برهة أو في أخرى، جعلتني مفرط الحساسية، فأنساق متأثراً بوقائع صغيرة لا أكترث بها في أوقات أخرى.

ذهبت إلى مدرسة الفنون الجميلة في الترام، كالعادة لأني لن أجرؤ على الذهاب إليها في سيارة، وخاصة في سيارة زرقاء سماوية. أعطيت درس الصباح الذي يقوم على الانتقال من حامل لوحات إلى آخر، على أخذ قلم الفحم من يدي تلميذ إلى تلميذة، على التشديد على خط، أو على تصحيح ظل.

يجري ذلك في صمت. هناك نوعان من الأساتذة: الذين يتكلمون ويمزحون، طواعية، ليحصلوا على ابتسامات وضحكات، والذين لا ينطقون إلا بكلمة واحدة بين حين وآخر.

عن خفر، عن خشية من جلبة قد لا أستطيع السيطرة عليها، كنت من الأخيرين وأعد شخصاً رسمياً، ولا أجهل أن تلاميذي كانوا يدعونني، فيما بينهم، الغبي الرسمي.

للمرة الأولى، في هذا الصباح، تصورت، وأنا أنظر إلى الصف الأبيض الذي لم يكن يسمع، فيه، سوى صرير القلم على الورق المبرغل، إمكانية حياة لا تعود محكومة بالروتين المهني. رأيت الصف كما لو أني لن أعود إليه، وعلى عكس توقعي، شعرت بالهلع يتملكني بدلاً من الإحساس بشعور خلاص.

قبل بضعة أيام، كنت لا أزال أعد عملي إلزاماً، مهمة كئيبة ومذلة تقريباً. لم تكن أبنية الفنون الجميلة، المكان المخصص لي فيها، وجوه تلاميذي هي، وحدها، التي كانت توحي لي بالنفور، بل كان هناك، أيضاً، الترام الذي كنت أستقله أربع مرات في اليوم، الشوارع التي كنت أمر فيها، المارة، كانت هناك المدينة التي كنت أحس بنفسي، منذ طفولتي، سجيناً فيها.

وربما كانت هناك فرصة للرحيل تظهر فجأة، ولم أكن أفكر فيها بوصفها احتمالاً، بل كما يخطط المرء، على سبيل اللعب، وهو يشتري ورقة يانصيب، لِما سيفعله لو ربح الجائزة الكبرى.

بدلاً من أن أسر، أخافني هذا، وشعرت، فجأة، في يوم الجمعة هذا، بأني كنت أنتمي إلى صف الفنون الجميلة وإلى مدينتي.

عند الظهر، وجدت إيرين في كامل لباسها وهو شيء نادر، وكان معطفها لا يزال معلقاً في الردهة، مما كان يدل على أنها عادت منذ قليل. قالت:

- ذهبت لرؤية عمك. كنت أرغب في ذلك منذ الأمس. لم أحدثك عن ذلك خوفاً من أن تقول لي أن هذا شيء لا يجوز.

- لماذا لا يجوز؟

- لا أدري. لم أر ميتاً أبداً. أجهل كيف تجري هذه الأمور.

إذا لم أكن مخطئاً، فإن إيرين لم تصحبني إلى رصيف نوتردام سوى مرتين، لم يكن ذلك لأن عمي لم يكن يحبها، على العكس، من ذلك، إنها كانت تسليه. المناسبات هي التي لم تتوفر. فلا نذهب إلى هناك كأسرة، بل كانت تجري زيارات فردية، في المكتب.

- أتساءل كيف كانا يستطيعان العيش كزوجين بمفردهما في هذا البيت الكبير الكئيب. أفهم، الآن، أن تصبح كوليت نصف مجنونة. أنا كنت سأجن تماماً.

- ماذا رأيت؟

- رأيت، أولاً، راهبتين جاثيتين على مركع إلى جانبي الجثمان، وكانتا تتلوان صلواتهما، مستغرقتين إلى حد لم تنظرا، معه، إليَّ . وصلت امرأة في حوالي الأربعين من عمرها مع ثلاثة أطفال، صبيين وبنت، وألقى الأربعة ماءً مقدساً. نسيت أن أفعل ذلك. فعلته وأنا خارجة من أجل أن لا تظن الأختان الطيبتان أني لا أعرف كيف أعيش.

- أهو في النعش؟

- كلا. عندما رحلت، أتوا بنعش ثقيل جداً مغطى بزخرفات معدنية يمكن أن يقال أنها مفضضة. هل تظن أنها كذلك؟

- لا أظن.

- ماذا أفعل غداً؟

- تذهبين مباشرة إلى الكاتدرائية وتأخذين مكانك مع عماتي وبنات عمي في الصف الأول.

- من هي تلك المرأة التي كانت مع أطفالها؟

- أهي طويلة، متينة البنيان إلى حد كافٍ؟

- نعم.

- إذن، فهي، بالتأكيد تقريباً، أحدى بنات عمتي جولييت. أجهل اسم زوجها. رأيتها مرة واحدة منذ سنوات.

- أ أنت واثق من أنه لا ينبغي أن أضع النقاب؟

- ربما وضعته أمي وعماتي، أما الصبايا فلا.

أمضيت بعد الظهر، أيضاً، في مدرسة الفنون الجميلة. بعد الدرس الأخير، ذهبت لأخطر المدير بأنه يجب أن أتغيب غداً. سارع إلى القول:

- أعلم! أعلم! سأكون، أنا نفسي، في الجنازة. ستكون الكنيسة ممتلئة.

للمرة الأولى، نظر إلى بشيء من الاحترام، وعلى كل حال باعتبار لم يكن يظهره تجاهي عادة.

أجهل ماذا جرى في زقاق فيرجيه. لم يهتف لي لوسيان، لا مساء أمس ولا اليوم، ولم أجرؤ على أن أهتف إليه. لم تصدر إشارة عن ماري بدورها.

الوسيلة الوحيدة للحصول على أخبار هي أن أمر بأمي المطلعة، دون شك، على ما يجري، لكنني أفضل أن أتجنب هذه الخطوة التي لا يعلم إلا الله كيف ستفسرها.

ليست لدي أخبار عن مونيك، ولا عن زوجها، ولا، من باب أولى، عن العمة كوليت.

كان ذلك، على وجه الإجمال، إلى حد ما، كما لو كان كل واحد يتهيأ في ركنه. في الأحوال الطبيعية، كان نيكولا، ككل يوم جمعة، سيتعشى في البيت. أعلمتني زوجتي بأنه ألغى الموعد بذريعة موعد أعمال، وهو شيء لطيف من جانبه ولا يمضي دون أن يدهشني قليلاً.

أمضت إيرين السهرة في توسيع فستان الجوخ الأسود الذي كان أكثر التصاقاً بصدرها من أن تستطيع الظهور به في الكاتدرائية، خاصة، بمناسبة جنازة

- أفترض أنه يجب، مع ذلك، أن أتجمل قليلاً.

- بتحفظ.

قرأت، استمعت إلى الراديو، ثم شاهدت التلفزيون، عصبياً، مستعجلاً على النوم لأنتهي وأصل، بمزيد من السرعة، إلى الغد. أمضيت وقتاً طويلاً

قبل أن أنام، وكذلك كان الأمر مع إيرين التي نقلت إليها، دون أن أريد، فراغ صبري.

في الصباح، جرحت نفسي وأنا أحلق. كان أول هم لي هو أن أنظر إلى السماء التي ما زالت رمادية، لكنها رمادية مائلة إلى البياض تقريباً، مع شيء من الإشراق. لم تعد السماء تمطر. كانت الخطوات ترن بجلاء على أرضية الشارع.

قد يخيل للمرء أني المشرف على الطقوس وأني قلق على نجاحها. لم يكن الأمر كذلك بالتأكيد. ومع ذلك، كنت، على الرغم مني، حساساً لأكداس من التفاصيل كما لو كانت تتصل بي شخصياً.

- هل تذهب أولاً؟

- نعم يجب على الرجال أن يوجدوا في غرفة الميت من أجل العرض ونقل الجثمان.

- وكوليت؟

- لا أدري ماذا ستفعل.

- أ أنت متأكد من كون النساء لا يذهبن إلى المقبرة؟

- نساء الأسرة لا يذهبن.

- والأخريات؟

- ربما سيكون هناك بعضهن. يبدو أنه أوصي على حوالي عشرين سيارة.

ذهبت على قدمي، عبرت حديقة النباتات حيث زرعت، لتبرير تسميتها، رقاع معدنية في أسفل الأشجار كتب عليها الاسم المتداول والاسم اللاتيني لكل نبتة. كانت هناك بعض المجموعات في رصيف نوتردام. كان بعضهم واقفاً دون حراك، وكان آخرون يروحون ويجيئون وهم ينظرون، أحياناً، إلى نوافذ البيت.

لم أعرف أي وجه، كانوا، خاصة، أشخاصاً متواضعين يعرفون عمي وفضوليين أيضاً.

دخلت تحت القبة، صعدت على درجات الرخام، وفي الردهة، وجدت نفسي تجاه أخي لوسيان الذي كان يتحدث، بصوت منخفض، إلى فلوريو. كان الاثنان بلباس أسود من القدمين إلى الرأس مثلي، وأتساءل لماذا كنا نبدو أفضل حلاقة من الأيام الأخرى.

ألقيت نظرة على حجرة الميت. ثمة رجلان، فضلاً عن الراهبتين، يقفان عند طرف النعش متساويين في الطول والقوة، وكان لأحدهما شاربان كثيفان. نظرا، وقبعة كل منهما في يده، إلى مجموعتنا بعينين خاليتين من التعبير.

كانا صهري العمة جولييت. لم يصل ابنها إلا بعد ذلك بقليل، ووافاهما بعد أن صافحنا دون أن يقول كلمة.

سوف يشكلون على هذا النحو، طيلة اليوم، عشيرة على حدة، ثلاثة رجال أصلب وأكثر عامية منا، ثلاثة وجوه عنيدة كانت تواجهنا بنفور صامت.

لم يظهر عالم العمة جولييت، عالم أسرة لوموان، أبداً، في هذا الاختلاف عن عالمنا، ولم أكف عن الإحساس بالعداء الكامن بين فرعي الأسرة. آلُ لوموان، على الرغم من أمهم، لم يكونوا من أسرة هويه. كانوا يشعرون بذلك ويتجمعون كما لو كان ذلك لتشكيل جبهة متينة.

تمتم فلوريو وهو ينظر إلى ساعته:

- حان الوقت.

اقترب المشرف على الجنازة منا في اللحظة نفسها ليرجونا أن نأخذ مكاننا في الغرفة. كنا مشغولين بالاصطفاف، بقدر الإمكان في موازاة السجف، على مسافة ما من النعش عندما أحسست بصدمة....دخل ادوار مبهور الأنفاس قليلاً، يرتدي السواد، هو الآخر، ودون كلمة، دون إشارة للآخرين، احتل أقرب مكان إلى الباب.

كانت بزته ومعطفه حسني التفصيل، وعلى الرغم من هزاله، من انتفاخ عينيه، كان هو أحسننا، جميعاً، لباساً.

عندما كنا صغاراً، كان يتفق لنا أن نسميه الفارس. إلا أنه نما له شاربان رفيعان جعلاه أقرب شبهاً إلى دارتانيان مهجناً مع أراميس.

بدأ أناس في المرور محيين إيانا برصانة لدى مرورهم، ملتفين حول النعش ليذهبوا، بعد ذلك للانتظار على الرصيف. بدا فلوريو فارغ الصبر، وفهمت السبب عندما رأيته يخرج بخطوات سريعة ليعود، حالاً تقريباً، بصحبة كوليت في لباس حداد كامل.

لم تكن هناك إضاءة سوى لهب الشموع المتراقص. وكانت الزهور المكدسة حتى أسفل الدرج الرخامي تنشر رائحة مسكرة.

كان فلوريو قد قاد عمتي حتى طرف النعش وبقي قريباً جداً منها كفارس في خدمة سيدة. لم أميز قسمات وجه كوليت بسبب النقاب، لكن ضوء الشموع كان يضع، أحياناً، بريقاً في عينيها القانيتين.

يجب أن تكون إشارة قد أعطيت في الخارج لأن موكباً بطيئاً كان يمر أمامنا تعرفنا، فيه، على شخصيات هامة، المحافظ، العمدة، رئيس المحكمة، محامين ورجال سياسيين.

هل لاحظوا جميعاً، وجود ادوار؟ من المحتمل أنهم لم يفعلوا. بدا لي، مع ذلك، أن بعضهم مدوا له أيديهم دون أن ينظروا إليه وتصلبوا عندما اكتشفوا وجهه.

دام ذلك نصف ساعة، ولم يلتفت أخي، مرة واحدة، إلى ركن ادوار.

في اللحظة التي كان المشرف يتقدم، فيها، يتبعه الحملة، سمع فواق. كانت تلك كوليت. خيل إلي، للحظة، أنها ستخبئ وجهها في صدر فلوريو، لكن هذا الأخير أمسك بكتفيها بلباقة وسحبها إلى خارج الغرفة.

جرى الباقي في ما بدا لي شيئاً من الفوضى. كانوا يحركوننا كأننا كومبارس. فاجأني ضوء النهار، برودة الخارج. كان هناك، على الأرصفة أناس بمقدار من يتجمعون من أجل تظاهرة وطنية. سعيت، آلياً، إلى أن لا أنفصل عن أخي.

حمل النعش في عربة الموتى التي غطيت بالزهور والأكاليل، ودفع بي إلى الصف الأول، بين لوسيان وابن عمي ادوار الذي لم يوجه، بعد، إليّ الكلام والذي كان ينظر في اتجاه مستقيم أمامه.

أنا واثق من أني لمحت ماري، بين الفضوليين. ولن يدهشني أن تكون قد جاءت، قبل أن تسرع إلى الكنيسة، لتتأكد من أن كل شيء قد تم على مايرام بالنسبة لزوجها.

بحثت عن فيليب بعيني. لم أكن قد رأيته في البيت. وسواء أكان ذلك مصادفة أم عن خطأ من جماعة دفن الموتى، فقد اختلط مع مجموعة لوموان التي بدا ضائعاً فيها.

هل وضع هؤلاء، عمداً، في الصف الثاني من الموكب؟ هل وقفوا، فيه، من تلقاء ذواتهم، كي لا يكونوا إلى جانبنا؟

بدأت سيارة الموتى، تسير ببطء. تبعها طفل من الجوقة يحمل صليباً فضياً، ثم الكاهن المنحني على كتاب صلواته. جئنا بعده مباشرة، ادوار، أنا، أخي وفلوريو.

لم يكن علينا أن نجتاز سوى مائتين وخمسين متراً في شارع الأسقفية الهادئ، لنصل إلى الكاتدرائية، وعندما التفت، وعلى الرغم من أن أناساً قد أسرعوا، من قبل، نحو الكنيسة ليجدوا مكاناً، تبين لي أن الموكب كان يملأ الشارع من طرف إلى آخر، وهو أكثر تناثراً حول نهايته، مع مزيد من النساء والأطفال.

حدثت برهة اختلاط أخرى في باحة الكنيسة. أشاروا إلي لأقترب من النعش الذي كانوا ينزلونه من السيارة، ووجدت نفسي وراء ادوار وأمام أحد صهري العمة جوليت، أمسك بأحد حبال بساط الرحمة. من الجهة الأخرى، لم أكن أرى سوى أخي الذي كان في المقدمة. كان النعش يخفي عني الاثنين الآخرين.

مشى حملة النعش، وفي اللحظة التي كنا نجتاز فيها البوابة ونسمع أزيز الشموع، انطلقت آلات الأورغ الكبيرة.

إذا كان علي أن أعطي انطباعي عن كل هذا الصباح فسوف أتحدث عن ذهول وتبلّد وفقدان الشخصية. فمنذ أن دخلت إلى رصيف نوتردام وجدت نفسي تحت أبصار عشرات ثم مئات من المتفرجين، وكان ذلك كما لو أن عليّ أن ألعب دوراً مرتجلاً في مسرحية أجهل نصها.

حضرت جنازة أبي، ثم عمي فابيان، وجنازات جيران ومعارف. كانت دائماً طقوساً بسيطة ودون أبهة، يعرف فيها، كل واحد كيف يتصرف.

ذكرياتي عن هذا الصباح جزئية كما لو لم أكن واعياً إلا بصورة متناوبة. كنا، نحن الرجال، نحتل الصف الأول من المقاعد، وكان ادوار الأقرب إلى منصة النعش، ثم، أنا، ثم أخي، ثم فلوريو، وأخيراً، أفراد أسرة لوموان، في حين جاء وراءنا أعلى ممثلي السلطات، المحافظ، السيناتور، العمدة، المحكمة، نقيب المحامين وآخرين، أيضاً، يحملون وسام الوردة على الأقل وكان معظمهم من عمر عمي أنطوان.

كانت النساء في الجهة اليسرى من جناح الكنيسة، وكان يجب أن أنحني كي أراهنّ. لم تأت كوليت، لكن العمة جولييت وأمي والعمة العجوز المسكينة، صوفي، كن مختفيات تحت النقاب.

مرة واحدة خلال الطقوس، التقت نظراتي بنظرات زوجتي التي جاءت في الموقع الخامس أو السادس والتي أشارت إلى ملابس الحداد على عمتي وبنات لوموان لتلومني على كوني لم أدعها ترتديها.

على عكس ما توقعت، لم تقم الصلاة وأنشدت جوقات الكونسرفاتوار، على الفور، قداساً غالباً ما سمعته من الراديو والذي كان، إذا لم أكن مخطئاً، قداس فوريه.

لم أجرؤ على الالتفات. بدا لي أن الكنيسة كانت ممتلئة امتلاءها في قداس الأحد الكبير، وكان يسمع كثير من الناس يسعلون ومقاعد تصر على البلاط. بل إن طفلاً أخذ يبكي في لحظة كان ينشد فيها لحن «من الأعماق»، وسمعت خطوات أمه التي أسرعت إلى إخراجه.

لم يكن هناك، بسبب الجمهور دون شك، من سر تقريباً. الانفعال، انفعالي على كل حال، كان انفعالاً مبهماً، لا شخصياً. كان يشبه، بالأحرى، ارهاقاً. كنت أتساءل عما كنا نفعله هناك، جميعاً، ونحن نتبع طقوساً كنا نفهمها بدرجات متفاوتة، وبدا لي طبيعياً أن يكون عمي قد قرر الرحيل.

لم أعد أبحث عن أسباب لفعلته، لم أكن أفكر في كوليت ولا في فلوريو الذي كانت شفتاه تتمتمان، آلياً، بالترديدات.

فوجئت عندما همس ادوار الذي مال نحوي:

- رجتني ماري أن أشكرك.

كنا من الصغر، جميعاً في جناح الكاتدرائية العالي الذي يجثو، فيه، رجال منذ خمسمائة سنة، وكان هناك من الناس ما راح يخنق مجموعتنا الصغيرة إلى حد بدا لي، معه، أن الأسرة قد ذابت.

كان عميد الكهنة، ينشد «حررني» بصوت مرتعش....أضاف ادوار قائلاً:

- وأنا أشكرك أيضاً.

مر شماس من أجل الذبيحة، في حين كانت الجوقات تنشد من جديد ورائحة البخور تنتشر في الجناح.

ثم جاء الازدحام الطويل نحو المخرج. السيارات التي كانت تتقدم، الأصوات التي كانت تسمع عن قرب، في ضوء النهار وتتلفظ بأقوال عادية.

وجدت نفسي في السيارة الأولى مع ادوار وأخي وفلوريو وتبعتنا عشيرة لوموان في الثانية مع فيليب الذي لم يتخلص منها. لم يجر حديث حقيقي. كان ادوار هو الذي سأل محاولاً أن يرى كم سيارة كانت تتبعنا، في طلعة كوربسيير:

- من سيأتي إلى المقبرة؟

وأجابه لوسيان، وهو ما كان يشكل، على حال، اتصالاً، قائلاً:

- الأسرة، أصدقاء حميمون، بعض أعضاء المحكمة ونقابة المحامين فقط.

رأيت، من جديد، ونحن مارون، المقهى الذي كان لي فيه، أول أمس، حديث مؤثر مع ماري، ونظرت إلى ابن عمي ادوار بدهشة وأنا أفكر في الدرب الذي تم اجتيازه في يومين.

لم يكن هناك من أثر للإنسان المحطم، للمتشرد، للكلب الذي كان يبحث عن مأوى وطعام. كان يقف مستقيماً في مكانه وخداه الأجوفان وعيناه البراقتان تعطيه المزيد من المكانة أيضاً.

كانت الأسرة هي التي بدت، في المقبرة، زائدة عن اللزوم والتي أحست بعدم الارتياح. الآخرون كانوا أصحاب المتوفى، أقرانه، كانوا يعرفون بعضهم بعضاً ويتبادلون الحديث بصوت منخفض تاركين لنا، كما لو كان ذلك عن لباقة، الأماكن الأولى.

وجدنا الكاهن وطفل الجوقة واقفين، من قبل، قرب القبر. بدا لي أن الأمر جرى بسرعة كبيرة وسرعان ما كنا نسير في الطرقات بمجموعات صغيرة في اتجاه المخرج. كان ادوار لا يزال يقف بيننا. وافاه ابنه. سأل:

- هل سنلتقي في الساعة الثالثة لدى مسجل العقود؟

- السيارة تنتظر لإعادتنا.

- أنا وفيليب سنأخذ الترام. فنحن غير ذاهبين في اتجاهكم.

قفزت إلى ترام آخر تاركاً السيارة للوسيان وفلوريو، في حين ذهب رجال العمة جولييت، قبل أن يدخلوا إلى سيارتهم، ليشربوا كأساً في المقهى.

كل شيء جرى على ما يرام في نهاية المطاف. لم يقع حادث.

- جرى كل شيء جيداً، أليس كذلك؟

بهذه الكلمات، بالضبط، استقبلتني زوجتي. وأضافت قائلة:

- كنت الوحيدة في الصف الأول التي لا تضع نقاباً.

أجبت قائلاً:

- ماري لم تكن تضع نقاباً كذلك.

- لكن مونيك كانت تضع واحداً.

- كيف انتهى الأمر بالنسبة للنساء؟

- انفصلنا لدى الخروج واختلطنا بأناس لا نعرفهم. لم تتبعني سوى ماري. قالت لي أنها ستبقى ممتنة لك طيلة حياتها، ثم ذهبت لإعداد طعام الغداء. وماذا عنكم؟

لم أكن أعلم بماذا أجيب. لم يكن هناك ما يقال. لم يحدث شيء. ألم يكن هذا، بالضبط، ما عملت من أجله؟ ومع ذلك، كنت احتفظ بإحساس بالفراغ، كنت محبطاً، لم يتيسر الوقت للتفكير في العم أنطوان.

لم يتكلم عنه سوى غرباء، خاصة في المقبرة.

كان ذلك يشبه تصفية بمشهد كبير. انتهوا من الأمر بأناشيد وسجف وكهنة، بإخراج غني لا يتناسب مع الأشخاص الذين كناهم.

تغدينا أنا وزوجتي منفردين وخدمتنا أديل. في الأمس، اقترحت إيرين أن نلتقي في مطعم في المدينة، واعترضت بأننا قد نلتقي أشخاصاً آخرين قد حضروا الجنازة.

سألتني عندما غادرنا المائدة:

- أ أنت عصبي؟

- لماذا؟

- بقيت ساعة وستعلم بعدها.........

كانت تتظاهر بأنها تمزح، لكنني كنت أشعر بأن فكرة الوراثة كانت تشغلها، بأنها أخذت تنظر جدياً إلى المسألة، مثلما رحتُ، دون علمي، أنظر إليها أنا نفسي.

- تستطيع أن تأخذ السيارة. لن أخرج.

كنت، خلال ما يقرب من ساعة، عصبياً، غير مرتاح، ثم، في الساعة الثالثة إلا عشر دقائق، قبلت زوجتي ونزلت لأخرج السيارة. وعندما وصلت إلى رصيف باستور، تعرفت على سيارة فلوريو أمام بيت مسجل العقود. أدخلني موظف إلى مكتب أول وأخذ عني معطفي الذي انضم إلى معاطف أخرى على المشجب.

- من هنا.

كانت الغرفة واسعة وثمة زجاج ملون يصل إلى ارتفاع النوافذ ينشر ضوءاً خاصاً. كانت نساء بملابس الحداد ردت كل منهن نقابها إلى الوراء، جالسات صامتات كما لو كنّ في غرفة انتظار، ووجهت أمي لي تحية متحفظة برأسها.

كانت العمة صوفي هناك، جالسة إلى جانب ابنها ادوار، وكانت هناك أيضاً العمة جولييت مع ابنها وصهريها. لم يكن ينقص سوى لوسيان، وكان مسجل العقود ينظر إلى ساعته بضيق عندما دخل وهو يتمتم باعتذارات.

هل استدعي كل الذين كانوا موجودين؟ هل أتى بعضهم من تلقاء ذواتهم؟ لم أستطع أن أعلم.

جَلَبَ أحد الموظفين مقاعد. ألقى الأستاذ غوترا علينا نظرة دائرية، كما لو كان ذلك ليحصينا. جلس، بدل نظارتيه وتنحنح.

- سيداتي وسادتي، سوف نعمد إلى قراءة وصية المرحوم أنطوان - جورج - سباستيان هويه المتوفى في مدينتنا في ٣١ تشرين الأول والذي دفن هذا الصباح.

مرر له الموظف الأول الواقف على جانبه مغلفاً مختوماً نزع عنه الشمع بواسطة قطاعة ورق. سحب منه ورقتين من الحجم الكبير مطبوعتين على الآلة الكاتبة وبدأ في القراءة دون أن يبدو مهتماً بنا.

كان الجو حاراً جداً في المكتب وصعد الدم إلى رؤوس الجميع بسبب العصبية. كانت مصنفات خضراء تغطي الجدران حتى السقف. وكان الزجاج يلقي عليها انعكاسات غريبة صفراء، زرقاء وحمراء.

- ...... وبموجب الوعد المقطوع لأمي.........

طفت بضع كلمات فوق التمتمة

- ..... أترك لأبناء شقيقيّ، فابيان وكليمان، الذكور.

لم نكن متأكدين من أننا فهمنا، ولم نكن نجرؤ على التحرك أو على تبادل النظر. كان كل واحد منا، كما أظن، قد اختار نقطة في الفراغ كان يحدق، فيها، باجتهاد محاولاً أن لا يكشف عن انفعالاته.

- .... أملاكي المنقولة وغير المنقولة التي تتألف من.......

حركت أمي قدميها. مالت العمة صوفي نحوها، وحزرت أنها كانت تسألها: «ماذا يقول؟»

وكان هناك، بعد ذلك، حديث عن ريع مدى الحياة لفرانسوا وتركة للآنسة جان شامبوفيه، العانس، التي تسكن......

عقبت الصيغ صيغ والمصطلحات الحقوقية مصطلحات حقوقية، وفي نهاية المطاف، لم يكن أحد منا يعرف، بالضبط، أحكام وصية عمي.

نظر إلينا مسجل العقود، بعد أن أنهى القراءة، من فوق نظارتيه.

- هل ينوي أحد الاعتراض على الوصية؟

تكلمت العمة جولييت

- إذا فهمت جيداً، فإن أبناء الشقيقين هويه هم الذين يرثون.

- أبناء فابيان وكليمان، وهم (انحنى على أوراقه) ادوار، بليز ولوسيان هويه.

- وأنا؟

- ترك لك حلي أمه، وكذلك عدداً من الأشياء التي ذكرتها.

- وابني وابنتاي؟

- غير مذكورين في الوصية؟

- هل تجد ذلك عادلاً؟

- يستطيع الموصي، عندما لا يكون هناك ورثة من الدرجة الأولى، أن يتصرف بأمواله على هواه. يبقى أمامك إذا شئت، أن تقيمي الدعوى.....

نهضت دون أن تدعه يتم كلامه. نهض ابنها وصهراها في الوقت نفسه وتبعوها نحو الباب. هناك توقفت لحظة، والتفتت كأنها كانت تريد أن تطلق سباباً، لكنها فضلت، لأنها كانت أكثر غيظاً من أن تتكلم، أن تخرج.

سألت أمي بصوت خجول:

- والمسكينة كوليت، ألا ترث شيئاً؟

- استطيع أن أؤكد لك، فيما يتعلق بها، أن المرحوم اتخذ، منذ زمن طويل، ترتيباته، وسوف تتلقى من شركة تأمين ريعاً كبيراً.

علقت أمي قائلة:

- كان من شأن ذلك أن لا يكون عدلاً.

وقالت عمتي صوفي وهي تميل نحوها:

- هل ورث ادوار؟ أهذا مؤكد؟

- نعم يا صوفي.

استعادت العجوز، مطمئنة ومسرورة. جمودها الصامت.

كرر الأستاذ غونترا قائلاً:

- أليس لأحد سؤال يطرحه؟

كان يمكن أن يخيل للمرء لشدة ما كان جافاً ومزدرياً، أنه سيضرب على الطاولة بقطاعة الورق ليعلن:

«تم البيع!»

كنا لا نزال لا نجرؤ على تبادل النظر مرتبكين لكوننا أفدنا من موت عمنا.

- يبقى علي أن أخطركم بأن اجراءات التركة ستكون طويلة إلى حد كاف، وأن بيع بناية رصيف نوتردام يبدو، منذ الآن، صعباً. بقدر ما أستطيع أن أقدر، يرتفع مجموع التركة، إذا حسبنا سعراً متوسطاً لهذه البناية، إلى حوالي مائة وخمسين مليون فرنك قديم. الضرائب والأتعاب ستأخذ أكثر من ثلثيها، وأقدر، بشكل اجمالي، المبلغ الذي سيقسم بين الورثة الثلاثة بحوالي أربعين مليوناً.

قال ذلك بتعالٍ، إن لم يكن بسخرية. كان يبدو أنه يريد، في الوقت نفسه، أن يطمأننا ويحذرنا من الآمال المبالغ فيها.

لم تستطع أمي الامتناع عن أن تزفر متنهدةً بارتياح ونظرت حالاً إلى لوسيان بطريقة من يقول: «أخيراً، أنا مسرورة من أجلك!»

لم تتحرك نأمة في فلوريو. اعتقد أنه قد صدمه أن يرى زوجته مستبعدة من الوراثة. لم يرد عمي أنطوان أن يترك شيئاً لغير أبناء هويه الحقيقيين.

- أيها السيد ادوار هويه، هل تقبل أن ترث بموجب الوصية التي أتيت على قراءتها؟

وتماماً، كما يقال في المحكمة: «أقسم»

قال ابن عمي:

- أقبل.

- تفضل بالتوقيع هنا.... السيد بليز هويه؟

تمتمت، وأنا آخذ الريشة بدوري:

- أقبل.

- السيد لوسيان هويه؟

كانت أذنا أخي ارجوانيتين. كان من الانفعال، عندما وقع، بحيث ظننت أنه سيجهش بالبكاء.

- أيها السادة، سأجعلكم على إطلاع، وسوف أستدعيكم فردياً عندما يحين الوقت.

قادونا إلى الخارج كما قادونا، صباحاً، إلى خارج الكنيسة. استعدنا معاطفنا وقبعاتنا. التقينا، مرتبكين، على الرصيف.

قال فلوريو، وهو يأخذ بيد العمة صوفي.

- اصعدي إلى سيارتي يا ماما. مونيك تنتظرك في البيت.

- أ أنت متأكد من أن ليس لديك عمل ما؟ ألا ترى أنك يجب أن تذهب لترى المسكينة كوليت؟

تفرقت الأسرة من جديد، وذهب كل واحد ليستأنف حياته وهو أشد انفصالاً عن الآخرين من أي وقت مضى.

أنا، أيضاً، معي سيارة واقترحت على أمي أن أوصلها.

- لا يا بني. أنت لطيف جداً... أفضل أن أمشي قليلاً مع لوسيان.

بقيت وحدي مع ادوار الذي مد لي يده في الليل الذي يحل وقال:

- إلى اللقاء... وشكراً أيضاً!

شعرتُ بأنني أكثر تعباً مني بعد ليلة دون نوم، فارغاً، بمقدار ما أكون كذلك بعد سفرة طويلة في القطار.

شغلت المحرك، مررت برصيف نوتردام ورأيت نوافذ الطابق الثاني المضاءة، خيالاً يتحرك وراء الستارة، خيال كوليت أو ممرضتها.

عدت إلى إيرين التي كانت تستمع إلى اسطوانات بصوت مرتفع جداً. اكتفت بأن تنظر إلي دون أن توقف الموسيقى:

قلت ببساطة:

- نعم

- كثيراً؟

- حوالي خمسة عشر مليون فرنك قديم لكل واحد. سيأخذ هذا شهوراً.

- من يرث؟

- ادوار، أخي وأنا.

- وليس الآخرون؟

- كلا.

كنا نكاد أن لا يسمع أحدنا الآخر، وبعد انتهاء الاسطوانة، فقط، تمتمت قائلاً:

- بالنسبة إلينا، هذا لن يغير الكثير.

كنت حزيناً، فجأة، لولا قليل لكنت أخذت أبكي. لم أفهم، قط، مثلي الآن، بادرة عمي.

(٨)

٢١ آذار

أعدت مساء أمس، الأوراق التي كتبتها في الخريف الماضي، وفوجئت بالأهمية التي كنت أعلقها على بعض الأشياء. كنت أظن أني أعيش ساعات تاريخية. كنت أتوقع ما لايعلم به إلا الله من تغييرات في حياتي وحياة الآخرين. بماذا كنت آمل بالضبط؟

تعشى نيكولا، أمس، في المنزل. كان ذلك يومه. أشكُّ في أنه لن يعود كذلك لزمن طويل لأن إيرين أخذت تتزايد ضيقاً بكل ما يفعله، بكل ما يقوله. إنها، منذ ثلاثة أسابيع، تخرج في أوقات أخرى، مبكرة في الصباح ،مثلاً، وأوصت لنفسها وهي التي لم تكن رياضية، على ملابس غولف. لا أطرح عليها أسئلة. سأعرف، دائماً، في وقت قريب.

الفرق الوحيد عما مضى كان، بالنسبة لي، هو أني كنت أجرؤ، عندما لا تستعمل زوجتي السيارة، على أن آخذها لأذهب إلى دروسي في الفنون الجميلة. ربما كنتُ، عندما يباع البيت - البيع العلني سيجري في الأسابيع القادمة - سأشتري سيارة شخصية، سيارة صغيرة عادية لا تلفت الانتباه.

وقع اختيار لوسيان على أرض في كوربيسيير، خارج المدينة ينوي أن يبني عليها منزلاً ويستطيع أولاده، فيها، كما يقول، تنشق الهواء النظيف.

كثيراً ما ألتقي ادوار في المدينة، وأراه في المقاهي. لم يعد يبدو أن أحداً يعجب لعودته.

لم أر أمي من جديد، إلا في رأس السنة عندما ذهبت لأقدم تمنياتي. عن لباقة لم أصطحب معي إيرين.

تظاهرت أمي بالدهشة:

- أليست معك زوجتك؟

وعندما أجبت متهرباً، تمتمتْ دون أن تمضي إلى نهاية فكرتها:

- كنت أظن الآن....

كانت تنقم علي لأني أنا ورثت وهي لم ترث. بالنسبة للوسيان، كانت الآن مسرورة لأنه، أخيراً، حصل على «حياة أسهل قليلاً»

- هل تعلم ما أصبحت عليه كوليت؟

- كلا

- أقامت في شقة حديثة جداً، غير بعيدة عن بيتك. تستطيع أن تستقبل، فيها، من تريد من الرجال. يبدو أن فلوريو يذهب ليراها عدة مرات في الأسبوع، وأن مونيك مغتاظة.

إذا كان ذلك صحيحاً سابقاً، فإنه لم يعد كذلك، لأن كوليت رحلت في شباط إلى نيس حيث تنوي أن تعيش من الآن وصاعداً.

رأيت لوسيان، آخر مرة، منذ أسبوع. دخلت بمفردي إلى المقهى الحديث. رأيته في آخر القاعة مع ادوار. كانا متحمسين جداً. أشار إلي ادوار كي أجلس معهما، وبدا أخي مرتبكاً.

- ماذا تأخذ؟

قلت:

- قهوة.

- هل تتذكر مشروعي حول إنشاء الجريدة؟ حسناً! سيتحقق قريباً. نحن نناقش ذلك، الآن، مع أخيك. هناك، منذ الآن، مطبعة أتطلع إليها، منشأة حديثة يكفي أن يضاف إليها جهاز روتاتيف.....

نظرت إلى لوسيان متوقعاً تكذيباً لم يأت.

الحياة تستمر.

لم أبق، معهما، سوى دقائق، إذ أحسست جيداً بأني زائد عن اللزوم، وتركتهما، بعد أن شربت قهوتي، لمشروعهما.

كانت المصابيح قد أضيئت منذ قليل. سرت على طول شارع الكاتدرائية، ثم شارع الشارترو وأنا أنظر إلى الواجهات نفسها التي كنت أنظر إليها وأنا في السادسة عشرة من عمري.

n

الصفحة

القطار ٥

الباب ١٤١

الآخرون ٢٧٥

الهيئة العامة السورية للكتاب

الطبعة الأولى / ٢٠١١م

عدد الطبع ١٠٠٠ نسخة

الهيئة العامة السورية للكتاب

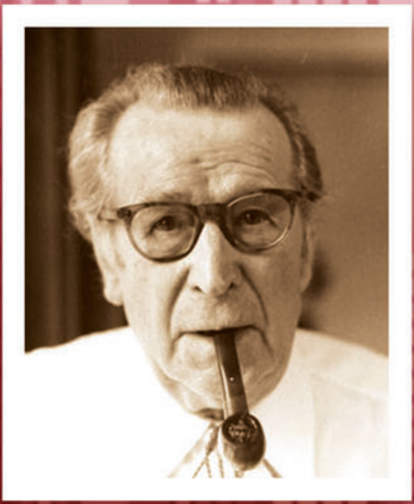

www.syrbook.gov.sy

مطابع وزارة الثقافة - الهيئة العامة السورية للكتاب - ٢٠١١م

سعر النسخة ٢٨٠ ل.س أو ما يعادلها